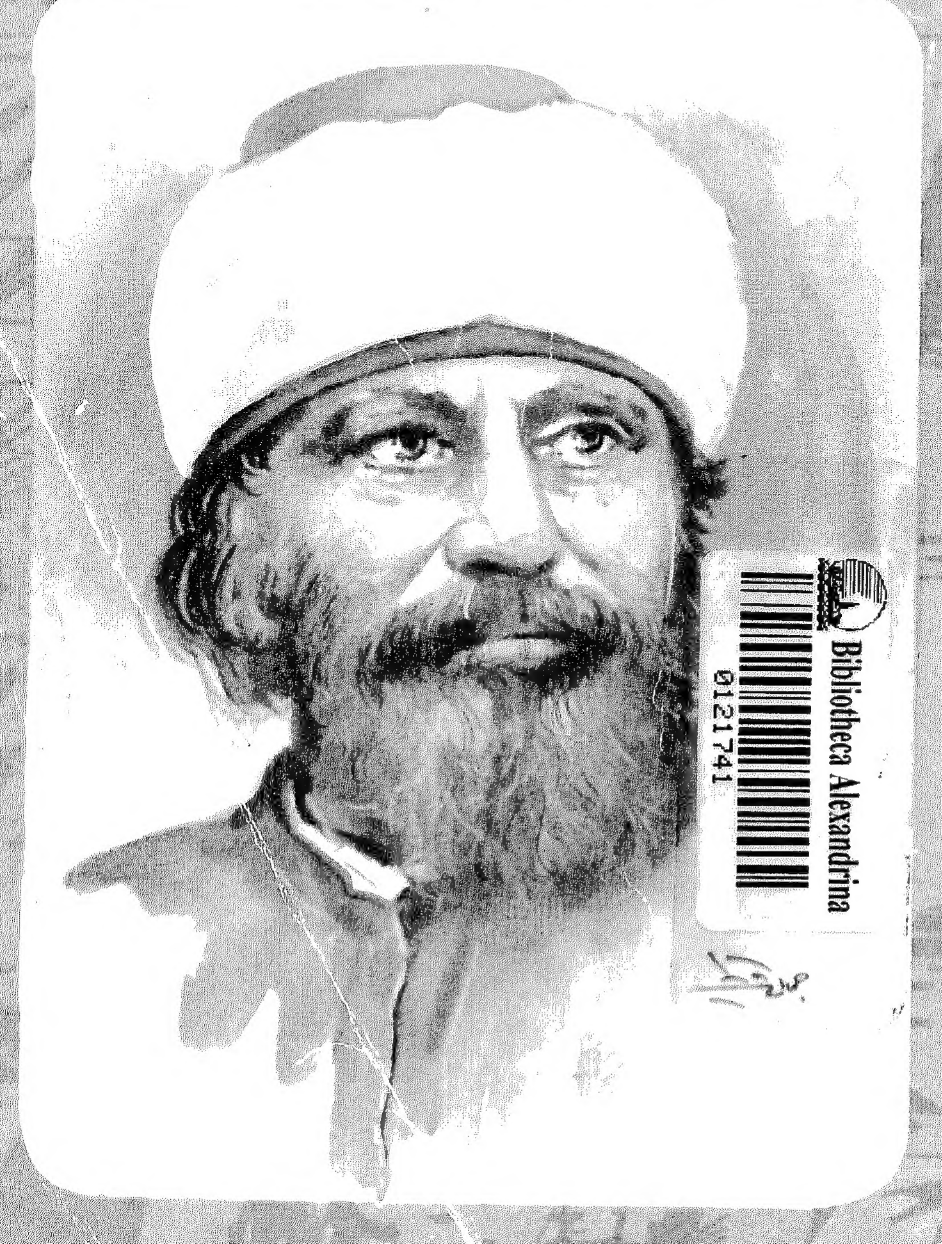
العروة الوثقى
والثورة التحريرية الكبرى

جمال الدين الأفغاني
محمد عبده



العروة الوثقى
والثورة التحريرية الكبرى

للسيد جمال الدين الأفغاني
والشيخ محمد عبده

تحقيق

صلاح الدين البستاني

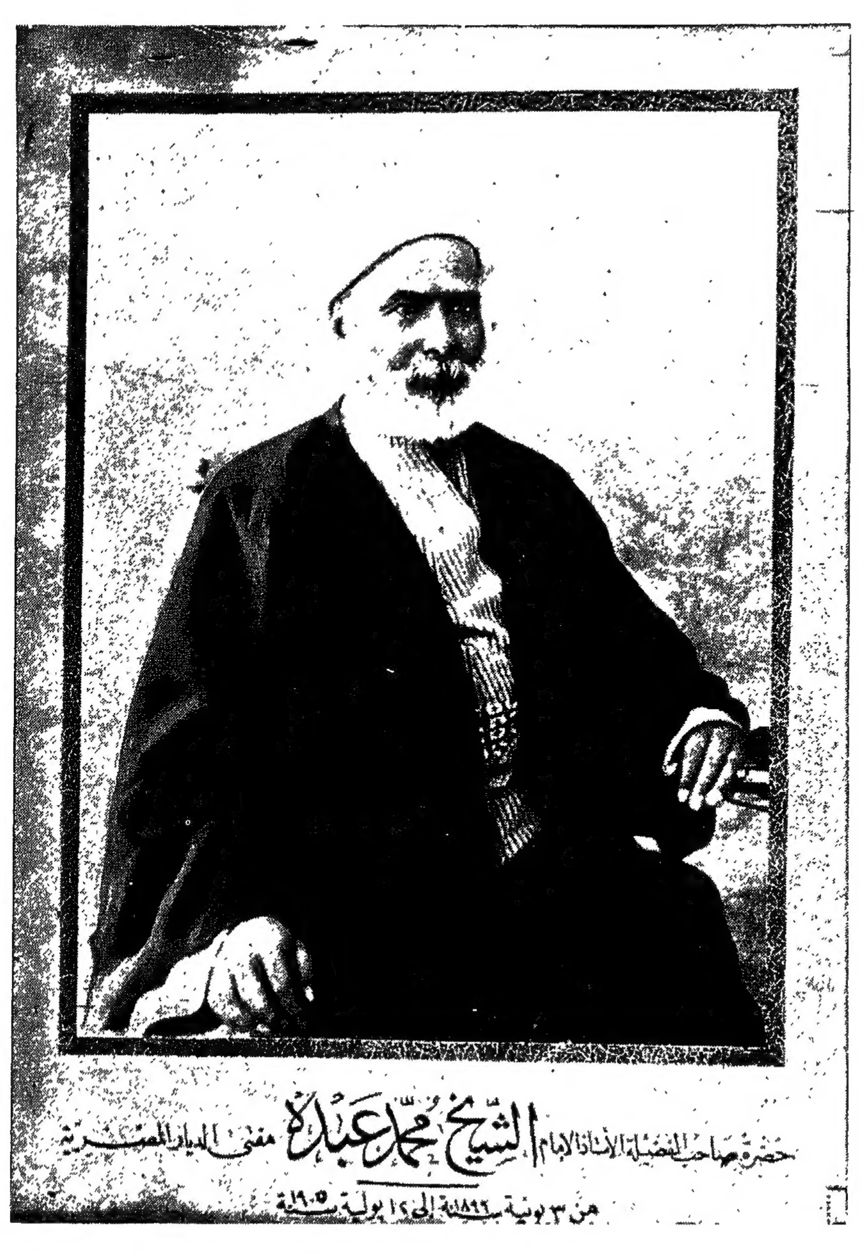
الناشر:
دار العرب
تأسست ١٩٠٠
للبستاني
٢٨ شارع الفجالة - القاهرة
ت ٩٠٨٠٢٥

إهـــداء

الى القومية العربية فى أسمى معـانيها

الطبعة الثالثة ١٩٩٣

صدرت الطبعة الأولى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٧



الشيخ محمد عبده



السيّد جمال الدّين الأفغاني

تمهيد

أكتب هذا التمهيد بعد ستة وثلاثين عاماً على صدور طبعة العروة الوثقى عام ١٩٥٧ حيث كانت مكتبة العرب فى مكانها فى العقار ٢٨ بشارع الفجالة الذى حولوه رغم أنفه إلى شارع كامل صدقى باشا !!

وقد كنت فى الساعة الثالثة والربع يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٩٢ أقف على الرصيف المواجه لمكتبة العرب اشترى لحماً للكلاب الضالة التى أرعاها ..... وفجأة اهتزت الأرض وتساقطت أحجار صغيرة بيضاء فى عرض الشارع ، كأنها قنابل يدوية، وبدأ صراخ الناس وعويل الأطفال وشاهدت بنفسى آثار هذا الزلزال على غرفة قبلية بأعلى العقار ٢٨ وقد بدأ يتصدع .... وبقيت مع رجالى حتى التاسعة من مساء ذلك اليوم الحزين ...

وفى صباح ١٣ أكتوبر سنة ١٩٩٢ أبلغنى « آدم » كبير العاملين معى انهيار جدار بئر السلم للعقار داخل المكتبة ... فوجدت كتب التراث قد غرقت وسط الأحجار وتصدعت الأخشاب ـ بل تكسرت ـ تحت وطأة الفئوس والآلات الحادة!!

وخرجت مذعوراً والتقيت وسط الشارع بصاحب العقار وأبلغته بأن ثمة عمل تخريبى فى المكتبة ... فصرخ ... تخريبى ... كنا سنموت بالأمس من الزلزال وتقول تخريبى ... تخريبى، ولم أستطع أن أجاريه فى أسلوب حديثه ووجدت نفسى أسير إلى قسم الأزبكية للإبلاغ عن جريمة التخريب .....

وخلال البلاغ وجدت أمين شرطة يكتب عبارة « انهيار فى مكتبة العرب بسبب الهزة الأرضية » بدلاً من انهيار جدار المكتبة بسبب عمل تخريبى، فمزقت ما كتبه هذا اللاأمين وأجبرته أن يعيد الكتابة حسب إملائى!!

ولم تمض أيام ثلاثة حتى حصل المالك على قرار بإزالة العقار .... وبدأ يهدمنى ولا معين ... إلا الله ..... ولجأت إلى صديقى نقيب المحامين الأستاذ أحمد حسن شنن ليوقف ردمى .... نجح الرجل فى إيقاف الهدم .... بدأت المياه تتسرب إلى كتبى عمداً .... حتى جاء يوم ١٩ ديسمبر ١٩٩٢ وانهار، إثر انفجار، نصف العقار من الخلف .... ولم يتقدم أحد بإبلاغ الشرطة بهذا الإنهيار غيرى من أهل الحى.... وعاد الهدم ثم توقف حتى ٣١ يناير سنة ١٩٩٣ . وفى صباح أول فبراير ١٩٩٣ جاءت سيارات وأدوات الهدم وجعلت العقار وكتبى فى مستوى الأرض....

هذا مـا رآه سكان حى الفـجـالة وتألموا لأجله .... وهم يرون المعـاول تنهـال وتغتصب العلم وما يجمعه من كتب التراث والكتب الإسلامية والمسيحية على حد سواء.

هذا ما صورته صحافة مصر .... وما سوف تصوره عند الإنتهاء من نظر الدعاوى المرفوعة أمام القضاء العادل.

قصة هدم مكتبة العرب تستحق التسجيل للقارئ فى أى مكان من العالم .... وسوف تظهر بإسم : من نعم الزلزال ...

على « دكة » قسم الأزبكية .. !!

لقد ظهرت فى مصر عقب الزلزال نوعيات مختلفة من أخلاق البشر فيها الإيجابى الإنسانى قبل السلبى الشرير !

* * * * *

ومن بين الأشرار فى هذا العـالم فئة أخرى أرادت أن تبنى ثروات على ظهر الغير.... وهذا الكتاب اعتدى عليه ناشر يحمل إسماً ايرانياً وجواز سفر لبنانى وطبع الآلاف وباعها للجزائر فى الستينيات .... ولا حق لى فى مهاجمته بعد موته.

وهناك جـمعية تتمسح بالدين فى روما اعتدت على كتابى هذا وحذفت مقدمتى ووضعت مقدمة باللغة الفارسية وسرقت صورة الغلاف وسهى على السارق أن يحذف إسم الفنان الكبير جمال قطب مصمم الغلاف ....

هذه صور بعض الذين أرادوا الإبداع فى اغتصاب أفكار غيرهم .... !

لقد كتب الراحل الأستاذ طه عبد الباقى سرور مقدمة للكتاب وأختلف معه فى الهجوم على محمد على باشا منشئ مصر الحديثة ....

وأضفت على صفحات العروة الوثقى ثبتاً تحليلياً بالآيات القرآنية الكريمة والأماكن والرجال عملاً بالأبحاث الأكاديمية الأصيلة.

وأختم تمهيدى بعبارة الفيلسوف جمال الدين الأفغانى وهو يقول :

« ما اختلف رأيان إلا وكان أحدهما حقاً والآخر باطلا ».

صلاح الدين البستانى

ربيع عام ١٩٩٣

جمال عبد الناصر يقول ....

« ... ويؤدى إلى تطور الوعى ، ظهور رجال أقوياء ، ذوى زعامة بادية تفعل فعلها فى النفوس بما تنطوى عليه جوانحها من إيمان وإخلاص ، وما يحمل قلبها الكبير من حنو على البشرية ، والتخفيف من ويلاتها ، ويتمثل هؤلاء الرجال فى كبار المصلحين الذين حملوا راية الدفاع عن حقوق الإنسان المهدرة ، وكثيراً ما يؤذون من السفهاء ، ولكن إشعاع إيمانهم أنار لهم الطريق ، وخطف أبصار المرجفين ، فإذا دعوتهم تنتشر ، وإذا الوعى يتقدم ، بفضل إيمانهم ، وشدة إخلاصهم ، ومضاء عزيمتهم ... »

جمال عبد الناصر

وجمال الدّين الأفغاني يُحذّر ....

« ... لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفغان ، وهي أول أرض مس جسمي ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلي ، فإيران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من حجاز هي مهبط الوحي ، ومن يمن وتبابعتها ، ونجد ، والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها ، وما آل إليه أمرهم . فالشرق الشرق ، فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم » .

جمال الدين الأفغاني

الناشر يتحدث

اهتمت دارنا « مكتبة العرب » منذ أن أسسها المرحوم والدى الشيخ يوسف البستانى عام ١٩٠٠ ، وكان وقتئذ يحمل الكتب القيمة تحت إبطه ويقابل العظيم والحقير ليعرض عليه كنوز الأدب والتاريخ وغير ذلك من الفنون . . . وليس فى هذا ما يخدش كرامة أبى ، بل هذا ما يرفعه إلى مصاف العصاميين الذين بدأوا من لا شىء .

اهتمت دارنا بإحياء كل ما هو نادر قيم مهما كلفنا الثمن . فقد كنا نستطيع أن ننزلق فى تيار إخراج القصص الجنسية والأوراق الصفراء التى يتهافت عليها المراهقون والمراهقات بشغف ونهم لا فى مصر فحسب بل فى جميع أنحاء العالم أيضاً . وكنا نستطيع أن نجمع بهذه الوسيلة مالا كثيراً ! !

ولكننا أصحاب مبدأ ورسالة . . . .

ورسالتى ، وقد آثرت التفرغ للطبع والنشر ، بعد كفاح عشر سنوات فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة ، أن أؤمن أولا بما أكتب أو الرأى الذى أنشره وألا أتخذ من النشر وسيلة للربح فحسب ! ! بل أتخذ منه وسيلة أصل بها إلى غايتى من إحقاق للحق وإنصاف للتاريخ الذى شهدته مصر والدول العربية والإسلامية من مستهل القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا .

ولا شك أن عملى فى الصحف المصرية عدة سنوات أتاح لى فرصة طيبة

للوقوف على حقيقة بارزة وهى أن فى يد القراء وحدهم رفع مستوى ما يكتب إليهم ، فإما تقديره والإقبال عليه ، أو رفضه وبالتالى الإعراض عنه .

وهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم ما هو إلا تجاوب مشترك بين رغبة جامحة نحو الحرية والاستقلال وبين الثبات والصمود ضد كل ما يعوق هذه الحرية فى البلاد الشرقية عربية كانت أو إسلامية .

إننى على يقين من أن بعض الحكومات — وأرجو أن يخيب ظنى — ستصادر هذا الكتاب وسأتحمل وحدى هذه التبعة — ورغم ذلك — فإننى أقبل هذا التحدى عن طيب خاطر .. فخير لى أن أقدم سفراً مفيداً لعالمين جليلين وأستاذين فاضلين .. وأن تكافئنى بعض الحكومات بمصادرة ما أنشره . . . . من أن يمتنع القراء من تلقاء أنفسهم عن الإقبال على هذا الكتاب بدافع الإهمال .. لا قدر الله ..

والمسألة أولا وآخرا متروكة كما ذكرت للقراء فهم وحدهم مقياس النجاح والفشل ..

* * *

ووسط أمواج من الكتب والمخطوطات العربية النادرة فى مكتبتى الخاصة وجدت نفسى منهمكاً فى التهام كل ما يقع تحت نظرى من كتب وتعليقات عن السيد الأستاذ جمال الدين الأفغانى ذلك البطل ونعم الأبطال . ذلك الشريد ونعم التشريد ذلكم هو المصلح الكبير جمال الدين الأفغانى .

وكل ما كتب عن الأفغانى هو نصف الحقيقة ..

وكل ما كتبه الأفغانى بروحه عن نفسه هو كل الحقيقة ..

وإنصافاً للتاريخ — والحقيقة كلها — فقد وجدت وأنا أقلب صفحات (العروة الوثقى) وهى الصحيفة الأسبوعية التى أصدرها الأفغانى فى باريس سنة ١٨٨٤ ليزلزل بها عرش الاستعمار ويستنهض الشرق .. أن خير ما يمكن أن يعود بالفائدة على المكتبة العربية فى هذه الآونة الحاسمة من تاريخنا .. لنعرف ونستلهم من صراع ماضينا مستقبل حاضرنا .. فى هذا الوقت العصيب الذى يسطر فيه التاريخ مصير القومية العربية .

أخى القارىء الكريم ،

لنعش فترة عابرة مع الأفغانى . الذى ضاقت به سجون أفغانستان فترك بلاده وسطوة الاستعمار البريطانى على أشدها هناك سنة ١٢٨٥ هـ — ١٨٦٩ م وحط الرجل رحاله فى الهند .. وهناك ترصد له نفس المستعمر ليسأله عن المدة التى سيقضيها فى البلاد .

فقال الأفغانى : لا أكثر من شهرين فبثت الحكومة البريطانية عيونها حول زوار ضيفها الجديد ..

فجاءه فى اليوم الأول عشرات .. وزاره فى اليوم الثانى مئات وفى اليوم الثالث والرابع تقاطرت الجماهير عليه .. وهرع العلماء والأعيان لملاقاة بطل جرىء .. وغصت الساحات بالوفود .. كلها تريد أن تسمع الأفغانى وهو يحادثها ويناقشها فى شئون بلادهم ..

وحدث ما كان فى الحسبان .. وتقدم مندوب الحكومة أمام الحشود يستعجله فى مغادرة الهند ، فقد أوقد القلوب وطنية لتطالب بحقها فى الاستقلال ما فيه الكفاية ويزيد ! !

وكادت الجماهير تفتك بمندوب الحكومة لولا تدخل الأفغانى ليهدىء من روعها .. ولنستمع إلى الأفغانى وهو يقول لمندوب الاستعمار :

إننى ما أتيت دياركم لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ولا أنا على استعداد للشغب .. ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلى وتفريقها التظاهرين من زوارى وهم أضعف منى .. إنما يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها وضعف شوكتها ، وضيق صدرها ، وعدم أمنها من حكمها وأنها ـ بريطانيا ـ فى حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة أضعف بكثير من شعوبها !

وفى صباح اليوم التالى كان بطلنا يشق طريقه إلى مصر . وفى مصر أقام نحو أربعين يوما . تردد خلالها على الأزهر الشريف وخالط فيها العلماء والطلبة . وسافر إلى الأستانة وهناك عرفوا قدره وعينه الصدر الأعظم عالى باشا عضواً فى مجلس المعارف .

واشتد الخلاف بينه وبين المتزمتين والرجعيين الذين رموه بالزندقة وهو منها براء ، فعاد إلى مصر مرة ثانية وعينت له حكومة رياض باشا راتباً شهرياً قدره عشرة جنيهات تكريماً لعلمه وفضله فى زرع الفضيلة والوطنية فى نفوس المصريين .

ووصل نشاط الأفغانى سمع الخديوى توفيق باشا فطلبه ليلقى عليه درساً فى آداب الوطنية ! ! ويستدل من معنى الحديث الذي دار بين الخديوى والأفغانى(١) ما معناه :

قال الخديوى : إننى أحب كل خير للمصريين ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن أكثر الشعب خامل جاهل .. واستطرد الخديوى فى إفكه يقول : إن دروسكم وأقوالكم المهيجة ستؤدى بالشعب والبلاد فى تهلكة ..

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ـ محمد باشا المخزومى ص ٤٦ .

فرد الأفغانى على الخديوي بكل أدب : (ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص أن الشعب المصرى كسائر شعوب العالم لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده . ولكن هذا لا يمنع من وجود العالم والعاقل أيضاً فبالمنظار الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى .. ينظر به لسموكم !

واستطرد يقول : وإذا قبلتم نصحى وأسرعتم لإشراك الأمة فى حكم البلاد فتأمرون بإجراء إنتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين .. فإن ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .

وخرج الأفغانى من حضرة الخديوى وقد قصد العزم على تنفيذ خطته التى لم تلق تأييداً لدى الخديوي .. وأخذت خطبه الثورية تستفز الخامل وتوقظ الغافل حتى أضحى الجبان شجاعا !

وإن هي إلا فترة قصيرة حتى بدأت بذور الحركة الفكرية فى الظهور .. وأخذت الحكومة تماطل وتتقرب من الشعب وتمنيه بالمجلس النيابى .

وطلب الأحرار من الأفغانى أن يضع الأساس للمجلس النيابى المصري فخطب فيهم (إن القوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت منبثقة من نفس الشعب وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية فإن حياة تلك القوة النيابية الموهومة ـ التى لا تستند إلى الشعب ـ موقوفة على إرادة من أحدثها)

ويقول الأفغانى : ولسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم وهيئوا ما يلزم من العزم وما يتطلبه الحكم الذاتى من القوى .

ويؤكد الأفغانى لمصر والدول الشرقية أنها لن تحيا إلا إذا أتاح الله لكل منها رجلا قويا عادلا يحكم بإرادة شعبه حكما لا فردية فيه ولا بطش ولا جبروت . لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة .

ويتحدث الأفغانى عن أقوياء الرجال الذين اختارهم ليحكموا بلادهم فيقول :

ذلك الرجل إما أن يكون موجوداً أو تأتى به الأمة فتملكه ، على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى .. وتؤكد للحاكم أن التاج سيبقى فوق رأسه ما دام محافظاً أمينا على صون الدستور . أما إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة ، فإما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس !

ولنستمع إلى المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق ليحدثنا عن الأفغانى الإنسان :

(ولم تكن هذه الشواغل (١) لتعوق جمال الدين عن متابعة الدراسة العلمية العالية التى كان له إليها نزوع شديد . ولقد كان ينتقل فى البلاد مصحوبا بكتبه وكان قارئا نهماً لا يشبع ..) .

وفى سنة ١٨٩٦ — وكان الأفغانى وقتئذ فى الأستانة ـ كتب سائح ألمانى زاره يقول : يعيش الأفغانى بين مظاهر خداعه من عطف السلطان ـ عبدالحميد ـ ودسائس لا تحصى يبيتها له رجال القصر . وكم تضرع إليهم أن يأذنوا له بالسفر ولكنهم أمسكوه بقية عمره فى إسار مموه بالذهب !

ويتهم المؤرخون الإيرانيون السلطان عبدالحميد بأن موت الأفغانى لم يكن طبيعياً وأنه لقح فى شفته بمصل سام سبب له سرطانا .

(١) يقصد بها الرحلات الكثيرة التى قام بها الأفغانى حول العالم .

وخاف السلطان السفاح عبدالحميد على نفسه فاستعجل دفن جثمانه الطاهر بعد ساعتين من إسلامه الروح لبارئها وسير جنازته رسمياً يحوطها البوليس والجواسيس خشية وقوع فتنة من أنصاره الذين كانوا فى ريبة من أسباب موته .

ويختتم طيب الذكر الأستاذ عبدالرازق حديثه فيقول : (إذا كان قبر السيد جمال الدين الأفغانى ظل مهدما مهجوراً ، فقد جاء عام ١٩٢٦ إلى الاستانة المستشرق الأمريكي المستر كرين وشيده لحسابه تحية لبطل قلما يجود الزمان بمثله .

فحسب الأفغانى شرفا أن الطغيان قضى عليه وحسبه عظمة ومجداً أنه أول رسول أوذى وشرد ونفى واستشهد فى سبيل أعز ما يمكن للجنس البشرى أن يفخر به من حرية وعدالة وسلام .

محمد عبد الغنى

وقد تفضل الأستاذ طه عبدالباقى سرور المؤلف المعروف فكتب يحدثنا عن قصة الأحداث التى عاصرتها مصر منذ عهد محمد على باشا حتى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وهى الثورة التى أطلقنا عليها اسم (الثورة التحريرية الكبرى) .

بسم الله الرحمن الرحيم

العروة الوثقى

والثورة التحريرية الكبرى

عقد المستشرق العلامة ليوبولد فايس[1] فصلا فى كتابه العظيم « الإسلام على مفترق الطرق » بعنوان — شبح الحروب الصليبية — قال فيه :

« إن اليونانيين والرومانيين نظروا إلى أنفسهم على أنهم وحدهم المتمدينون ، أما كل من كان أجنبياً عنهم ، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان اليونانيون والرومانيون يطلقون عليهم لفظ « البرابرة » ومنذ ذلك الحين ، والأوروبيون يعتقدون أن تفوقهم العنصرى على سائر البشر أمر واقع ، ثم أن احتقارهم إلى حد بعيد أو قريب لكل ما ليس أوروبيا من أجناس وشعوب قد أصبح إحدى الميزات البارزة فى المدنية الغربية »[2] .

هذا هو التصوير النفسى ، للانفعالات الغائرة فى أعماق الروح الأوربى ، الانفعالات التى انبثقت منها تلك النظرة المتعالية المتكبرة التى ترمى بها أوروبا الأجناس الملونة فى أى بقعة من بقاع الكوكب الأرضى ، خارج المحيط الأوروبى[3].

---

(١) أسلم بعد سياحة دراسية عميقة فى الشرق الإسلامى ، وتسمى باسم « محمد أسد » وأصبح من أكبر دعاة الفكرة الإسلامية العالمية .

(٢) ومن هنا نشأت فلسفة الإمبريالزم الأوروبية التى لخصتها الكلمة الغربية المشهورة ـ البقاء للأصلح ـ أى للأوروبى ، لأنه الأقوى .

(٣) يقول الفيلسوف الفرنسى جوستاف جرو نيباوم فى كتابه « حضارة الإسلام » عن الإمبراطورية الرومانية ـ فمن عاش داخل الإمبراطورية ينتسب إلى شعب الله ، وأما من كان يعيش خارجها فلم يصل بعد إلى الإنسانية الكاملة » !!

ولـكن أوروبا فوق هذه النظرة المتعالية المتـكبرة ، المعتزة بنفسها ، المحتقرة لـكل شيء سواها ، تختص العالم الإسلامى بشيء يتجاوز الـكبرياء والازدراء إلى البغض العميق ، والغـل القاتم المسموم الذى يأكل روحها عداوة وموجـدة للاسلام وأبناء الإسلام .

يقول العلامة ليوبولد :

«إن الاصطدام العنيف الأول بين اوروبا المتحدة من جانب ، وبين الإسلام من الجانب الآخر ، أى الحروب الصليبية ، يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوروبية ، ومن هنا تـكونت العقدة الـكبرى فى روح تلك المدنية .

لقد كانت ثمة حروب بين المسلمين والأوروبيين قبل عصر الحروب الصليبية ، كانت فتوح العرب فى صقلية والأندلس ، وكان هجومهم على جنوب فرنسا ، ولـكن هذه المعارك كانت قبل أن تستيقظ أوروبا إلى وعيها الثقافى الجديد فاتسمت من أجل ذلك ، ومن وجهة النظر الأوروبية على الأقل ، بطابع ذى نتائج محلية .

إن الحروب الصليبية هى التى عينت فى المقام الأول ، والمقام الأهم ، موقف أوروبا من الإسلام لبضعة قرون تتلو ، لقد كانت الحروب الصليبية حاسمة لأنها حدثت فى أثناء طفولة أوروبا ، فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها ، وكانت لا تزال فى طور تشكلها ، والشعوب كالأفراد .

وإن الحمية الجاهلية العامة التى أثارتها تلك الحروب فى زمنها لا يمكن أن تقـارن بشيء خبرته أوروبا من قبل ؟ ولا أتفق لها من قبل ؟ لقد اجتاحت القارة الأوروبية كلها موجة من النشـوة كانت عنفواناً تخطى الحدود التى بين البلدان وبين الشعوب ، ولقد أتفق ذلك الحين ، وللمرة الأولى فى التـــاريخ أن أوروبا أدركت فى نفسها وحدة ، ولـكنها وحدة فى وجه العالم الإسلامى ، ويمكننا

أن نقول من غير أن نوغل فى المبالغة ، إن أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية ! ؟.

وقد ولدت أثناء الحروب الصليبية فكرة المدنية الغربية ، وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوروبية على السواء ، وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للاسلام .

ولقد كان فى الجانب الإسلامى دائما رغبة مخلصة للتسامح التكافىء وللاحترام ، ولكنه أبداً لم يلق معاملة المثل .

إن خير وسيلة يجب أن يلجأ إليها المسلمون حتى يحملوا العالم الغربى على احترامهم ، هى أن يكونوا أقوياء .

ويقول الكاتب الفرنسى ، « مالك بن بنى » الذى عاش فى الشمال الإفريقى وامتزج به وأحبه واعتنق الإسلام ولاقى الأهوال فى سبيل الدفاع عنه(١) .

« ... لا يجب أن ننسى أن أوروبا التى جعلت نفسها المشرف الوحيد على مصير النوع البشرى لم تعترف منذ عصر بوكاشيو — حين كانت مدنيتها لا تزال فى المهد ترضع اللبن العربى — بأية مدنية إسلامية . ولنستمع إلى جوستاف لوبون ينهى كتابه عن المدنية العربية بقوله :

لربما يتساءل القارىء إذاً عن السبب الذى ينكر من أجله العلماء — الذين يجب عليهم أن يتجردوا عن كل تعصب دينى — اليوم تأثير العرب ... والواقع أن استقلال الرأى ظاهرى أكثر منه حقيقى ، وذلك لأننا لسنا أحراراً قط فى تفكيرنا حول بعض الموضوعات . فقد استمر التعصب الذى ورثناه ضد الإسلام

(١) مستقبل الإسلام . ترجمة شعبان بركات . طبع بيروت ص ٢٩

وزعمائه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءاً من تركيبنا العضوى » .

ويقول الكاتب العالمى « حيدر بامات » فى كتابه (١) .

« لا تزال النصرانية تواجه الإسلام بحقد وازدراء يمليهما التعصب عليها ، ويتجلى هذا على وجوه كثيرة ، ومنها ما نرى فى الفقه الدولى الذى لا يعامل الأمم الإسلامية معاملة تكون بها مساوية للأمم النصرانية .

وتعتذر الحكومات النصرانية عما تسوم به الدول الإسلامية من حملات وإهانات باستشهادها بما هي عليه هذه الدول الإسلامية من تأخر وتوحش ، ومع ذلك فإن تلك الحكومات النصرانية نفسها هى التى تقيم العقبات من كل وجه ، حيال كل سعى إلى الإصلاح والنهضة فى بلاد الإسلام . .

(١) مجالى الإسلام ، صفحة ٤٠٠ ترجمة عادل زعيتر ، طبع عيسى البابى الحلبي .

المنهج الاستعماري الأوربي

ولقد رسم الغرب مناهجه الاستعمارية على أسس علمية دقيقة ، أسس تجردت من الأخلاق تجردها من الشرف ، وبعدت عن الإنسانية بعدها عن كل نبيل رفيع فى الحياة .

أسس استهدفت غايتين :

الأولى : تحطيم قوى الشرق المعنوية والمادية والروحية ، تحطيا يحيل هذه الأمم إلى قطيع بدائى ، مسلوب الرأى ، مزلزل العقيدة ، مهدر الحقوق .

فالقومية ، تعصب أحمق ؟ والوطنية ، تطرف ضار ؟ والكرامة ، زهو وحشى ؟ والشعور الفطرى ، كراهية للأجانب ؟

وقامت أجهزة الدعاية الغربية الماهرة المدربة بهذه الغاية فى دقة كاملة ، وعلى نطاق الحرب النفسية الشاملة .

والثانية : أن تتحول بلاد الشرق إلى اقطاعيات زراعية ، ومناجم للمواد الأولية ، لتمد الغرب بحاجياته ، ليقوى ويعتز ، وتزداد قبضته تحكماً وقسوة .

ورسمت برامج التعليم ، ووضعت مناهج الاقتصاد ، ودارت عجلة الحياة بكامل ألوانها لتؤدى إلى الهدف المنشود .

يقول مالك بني[1] متحدثاً عن الأجهزة الاستعمارية الخفية « . . ولهذا

....

(١) مستقبل الإسلام ص ٧٨

الاستعمار مجامعه ، كمدارس العلوم الاستعمارية ، كما أن له برنامجه العام وهو عبارة الميثاق الاستعمارى الذى يتغير حسب تغير الحاجات ، وتطور الحوادث ، ليتلاءم دائماً والأوضاع الجديدة ، كما تعقد المؤتمرات بانتظام تحت أسمـــاء مستعارة تخفى أهدافها الحقيقية .

وهكذا يجد الشعب المستعمر نفسه ضمن إطار مصطنع ، يعمل كل جزء فيه على إفساد الفرد. ! ؟

هذا التوجيه الخاطىء هو فى الحقيقة تدمير يتغير حسب تغير الأوضاع الجديدة ويقف فى وجه كل مبادرة جديدة ، فيعمد إلى القضاء عليها .

ولهذا كان لابد أن يهتم المستعمر بتزييف النهضات اهتماماً كبيراً . ونرى ذلك فيما أدخله المستعمر فى المجتمع الإسلامى الحديث من عناصر التخريب ، وعوامل الفوضى ، ولقد أوحت إليه السلطة التى يتمتع بها كما أوحى إليه طموحه الذى لا يحد ، فـكرة مجنونة محزنة لإيقاف سير المدنية فى البلاد المستعمرة .

فألب على حركة التجديد جماعة المرابطين والباشوات والمتزمتين وشـبه الجامعيين الذين قاموا بتمثيل دور الدفاع عن التقاليد الإسلامية — الزائفة — وإذا بكلمة « التقاليد » هذه تصبح شعار السياسة الاستعمارية إجمالا .

ثم يقول :

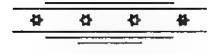
ولهذا لا يكف الاستعمار عن ترديد قولته المشهورة فى تاريخ الشـعوب المستعمرة « قفى أيتها الشمس عن الدوران » !!

فكان هذا القول الذى لم يخطر ببال جنكيزخان أو أتيلا ، الصفة السياسية فى الوقت الحاضر لأحط صور الاستعباد الإنسانى فى القرن العشرين ، عنصر المدنية الأوروبية .

ويكتب رينان فيلسوف أوروبا الحبيب إلى قلبهـــا فيقول محدداً وظائف الأوروبيين ، ووظائف الشرقيين فى المستعمرات :

« إن العنصر الأوروبى ، هو عنصر الأسياد والجنود ، ولهذا فإن حمـل هذا العنصر النبيل على العمل كما يعمل العبيد والشرقيون يدفعه إلى الثورة ، وذلك لأن كل ثائر عندنا ، إنما هو جندى لم يؤد رسالته لأنه مخلوق وجد ليحيا حيـاة البطولة ، فإذا به يجبر على القيام بمهمة لا تتفق وعنصره ، فهو عامل فاشل ، وإن كان جندياً باسلا ، غير أن الحياة التى يثور عليها عمالنا ، تجعل الشرقى والفلاح سعيدان ، وهما كائنان لم يخلقا للحرب ، فليقم كل منا بما خلق له ، فتسير الأمور عندئذ على أتم وجه » .

ليقم كل منا بمـا خلق له ؟ ليقم الأوربى النبيل الشـجاع الأبى ، بدور السيد البطل المتعالى ، ولنقم نحن أبناء الشرق بدور العبيد الأذلاء ويومئذ ، ويومئذ فقط ، تسير الأمور على أتم وجه وأكمله !؟



كفاح الأحرار

ولقد تعمدنا أن نطيل الحديث عن الروح الإستعمارى الأوروبى ، ومناهجه وأهدافه ، ونظرته المتعالية المتكبرة إلى الشعوب الملونة ، ونظرته المسمومة الحقود إلى العرب والإسلام ، لأن محور هذا الكتاب « العروة الوثقى » إنما يدور حول نضال العرب والإسلام التاريخى لهذه الروح الإستعمارية الباغية المتسيطرة .

ولقد ابتلى العرب ، وابتلى المسلمون بهذه الروح بلاء تاريخياً ، فبلادهم هى مفاتيح الشرق بأسره ، هى البرزخ الذى تعبر منه أوروبا ، إلى أعماق القارتين الملونتين ، القارتان اللتان يسيل لعاب الاستعمار حول كنوزهما وموادهما .

وأرضهم هى قلب الدنيا ، وأغناها بالموارد التى تبعث الحياة فى الحضارة القائمة ، وتدير عجلاتها ، وتكون طاقاتها .

وكما يقول صاحب « مجالى الإسلام » : إن جميع الطرق البحرية والجوية الكبرى التى تتجـــه من الغرب إلى الشرق ، وجميع الطرق البرية التى تقود من الشمال إلى الجنوب ، تمر من بلاد الإسلام » .

ولهذا كان الثقل الأوروبى الاستعمارى على تلك المنطقة أعظم ثقل استعمارى فى التاريخ ، ومن ثم شهدت تلك المنطقة أروع ضروب النضال والجهاد فى سبيل الحرية والحياة .

وأصبح مستقبل الإنسانية بأسره ، وقفاً على نتيجة الصراع الداخلى

والخارجى الذى تدور رحاه فى أرض العروبة والإسلام من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى .

وبهذا النضال المشبوب منذ أكثر من قرن حملنا أمانة عالية يتوقف عليها غد الإنسانية ، بل يتوقف عليها رسالة النوع البشرى كافة .

فصراعنا الملتهب مع الاستعمار ، هو صراع فى سبيل المثل الإنسانية الرفيعة كافة ، فى سبيل الفضائل والأخلاق التى بعث بها الأنبياء ، ودعا إليها الأحرار ، وقامت عظمة بنى الإنسان على إحساسه بها ، وتناديه إليها ، وجهاده فى سبيلها .

إننا بهذا الصراع إنما نقاوم البربرية والوحشية فى أبشع صورها ، نقاوم الإلحاد والمروق فى أحط ألوانهما ، نحارب روح الشيطان الذى تنفث فى كيان الاستعمار الأوروبى ، ليملأ الدنيا دماء وشقاقاً ، وتعاسة وبغضاً .

ومن واجبنا اليوم ، والصراع لا يزال دائر الرحى بيننا وبينه أن نعرف تاريخنا معه ، وأن نحصى معاركنا ونتدبرها ، لنتفهم وسائل خصمنا وأساليبه ، ومراوغاته ودعاياته .

لقد خدعنا الإستعمار عن أنفسنا ، فسمى قوميتنا تعصباً ، وحقنا عدواناً ، وتحررنا بغضاً للأجنبى ، وتفضـــل فوسم ديننا بالجمود والتأخر والبدائية المنبثقة من الصحراء ؟ !

ولكننا اليوم لن نخدع ، فقد طال بنا وبه التاريخ ، حتى لم يعد ثمة من جديد فى تفكيره ووسائله ، إنه يخوض معنا معاركه الأخيرة وقد تكون معركته الفاصلة ، أشد بأساً وتنكيلا ، ولكنها تسير إلى نهايتها المحتومة .

إننا الآن كما يقول الرئيس جمال عبدالناصر : (١)

« بيننا وبين الاستعمار معركة قد بدأت فى بعض الميادين ، ولكن معارك فى ميادين أخرى لم تبدأ بعد بيننا وبينه ، وإن لنا وله كذلك غداً قريباً أو بعيداً ، نغسل فيه عاراً ، ونحقق أمانى ، ونسترد حقوقاً » .

ومن واجبنا ونحن فى هذا الصراع المتعدد الميادين والساحات ، أن نتفهم تاريخنا معه ، وأن نذكر مناضلينا الكبار الأحرار ، الذين ناهضوه فى عزة ، وقاوموه فى بأس .

وأن من أخلد صفحات هذا النضال ، لصفحة « العروة الوثقى » صحيفة الثوار الأوائل الذين صاحوا فى سماء الشرق فكانت صيحتهم هى البعث والأمل .

وإن كنا اليوم نعيش فى دائرة من النور والأمل ، والتطلع إلى النصر الذى تلوح بوادره فى الآفاق ، نعيش فى ظل نهضة وثورة مؤمنة منتصرة ، فإن جذور تلك الثورة ، وعروق تلك النهضة إنما زكت أصولها ، ونمت جذورها على يد العبقرى الأبى المناضل الثائر جمال الدين الأفغانى وزميله وتلميذه الإمام محمد عبده .

ولقد حفظت لنا مقالات « العروة الوثقى » التى نقدمها اليوم إلى القراء جهاد هذين الأمامين الثائرين .

جهادهما مع الإنجليز ، ومع الخديوى ، بل جهادهما مع الاستعمار قاطبة ، الذين ابتلى بهم الشرق ، فكانوا أنكى ، وأشد قسوة بشعوبهم من الاستعمار نفسه .

---

(١) من كلمة للرئيس قدم بها كتاب « هذه هى الصهيونية » من سلسلة اخترنا لك .

لقد كانوا أدوات الاستعمار وسوطه ولسانه ، بل مطيته التى امتطاها لإذلال الشعوب ، واستعباد الجماهير ، والفتك بالأحرار ، وإخفات أصوات المناضلين الثوار .

ولئن كنا نحن الذين عشنا فى عهدى فؤاد وفاروق ، قد رأينا الأقلام وكيف تزلفت إليها ، وكيف لانت وهانت وتبذلت ، ورأينا الرؤوس وكيف انحنت وتطامنت حتى رؤوس الزعماء الكبار وأشباه الكبار ! ؟ حتى كدنا أن نؤمن ونحن داخل الأسوار ، يصب فى مسمعنا بالليل والنهار ، والحمد والإكبار لأصحاب التاج وحاشية التاج ، كدنا أن نؤمن بأن الزلفى والخضوع لأولياء النعم ، فطرة فطر الله الناس عليها ؟ وأنه ليس فى طاقة مناضل ، أو كاتب ، أو زعيم ، أن ينال من العروش وأصحاب العروش ! ؟ ، فإن جمال الدين الأفغانى ، الذى طوف بالشرق والغرب قد تحدى ملوك الشرق كافة ، تحداهم فى مصر ، وإيران ، وأفغانستان ، والهند ، حتى خليفة تركيا المهول بقداسته المخيف بقسوته .

تحداهم بقلمه ولسانه . تحداهم حتى الموت ، وعندما أغتال الثائر ، محمد رضا ، شاه إيران المستبد المتغطرس صاح وهو يطعنه ، : خذها من يد جمال الدين . وكان الخليفة عبدالحميد فى استامبول يقول : لا آمن على نفسى ، وهذا المخلوق الخطر يجاورنى ! ؟

وكذلك كان محمد عبده عنيفاً مع طغاة الشرق عنفه مع مستعمرى الشرق وما أحسب أن كاتباً استطاع أن يهاجم محمد على . وأسرة محمد على ، تحت ظل الجبروت الخديوى ، كما تحدى محمد عبده وكتب .

ولقد كتب مقاله هذا فى سنة ١٩٠٢ م لمناسبة الإحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد على للدولة المصرية ليهدم الأسطورة الزائفة .

١

ماذا صنع محمّد على ؟

. . . . لم يستطع أن يحيى ، ولكن استطاع أن يميت ، كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ، وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأساً فيه ضمير « أنا » وأتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهالى ، وتكرر ذلك منه مراراً ، حتى فسد بأس الأهالى ، وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق فى البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه .

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ؟ ! حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية فى الأموال ، وجمع العساكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه : فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفس ، ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده ، على إثر إقطاعات كثيرة لغيره .

أهداف محمد على الشخصية؟

إشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثمانى ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوروبيين : فأوسع لهم فى المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك فى بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل ، وصغرت نفوس الأهالى بين أيدى الأجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الأجنبى بحقوق الوطنى التى حرم منها ، وانقلب الوطنى غريباً فى داره ، غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سكان البلاد الرسمية ذلان . ذل ضربته الحكومة الاستبدادية ، وذل سامهم الأجنبى إياه ، ليصل إلى ما يريده منهم ، غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة ، قالوا أنه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد . نعم عنى بالطب ، لأجل الجيش والكشف على المجنى عليهم فى بعض الأحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم ، وبالهندسة لأجل الرى ، حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل إقطاعه الكبير .

هل تفكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رأيا فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل .

لم يكن شىء من ذلك ؛ بل كان رجال الحكومة إما من الأرناؤوط ، أو الجراكسة ، أو الأرمن الحورانية ، أوما أشبه هذه الأوشاب وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم « دخلاء » وكانوا يحكمون بمايهوون ، لايرجعون إلى شريعة ولاقانون ، وإنما يبتغون مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير .

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوروبا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوا ؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد ، وليس لها إرادة فيما تصنع ! !

وجد كثير من الكتب المترجمة فى فنون شتّى ، من التاريخ والفلسفة والأدب . ولكن هذه الكتب أودعت فى المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا ! ! فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها . فنثرتها بين الناس ، فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة الرؤساء من الأوروبيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد ، لكنهم لم ينجحوا ، لأن حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ولامنتفعين بتلك الكتب والفنون .

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى ، كما يتخطفون عساكر الجيش ، فهل هذا مما يحبب القوم فى معلم ، ويرغبهم فى إرسال أولادهم إلى المدارس ! لا بل كان يخوفهم من المدرسة ، كما كان يخيفهم من الجيش ! !

حمل الأهالى على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات ، ولذلك كانوا يهربون من تلك الأطيان ، كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد ، تشهد بذلك .

يقولون أنه أنشأ المعامل والمصانع . ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ! وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد ! أين هم ! ومن كانوا ! وأين آثارهم ! لا بل بغض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته : فكانوا

يتربصون يوماً يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع ، لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التى جاءت بهم إليه !

يقولون أنه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ أسطولا ضخماً تثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار ، فهل علم المصريين حب التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلب ، وحبب إليهم الخدمة فى الجندية ، وعلمهم الافتخار بها ! لا بل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت .

وكان من ينتظم فى الجندية على عهد محرر مصر ! لا يخرج منها إلا بالموت ! هل شعر مصرى بعظمة أسطوله ، أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه بأن يقول : هذا جيشى وأسطولى ، أوجيش بلدى أوأسطوله ، كلا لم يكن شىء من ذلك . فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظالمه ، فهى قوة خصمه . فما أثر ذلك فى حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر : أثر كله شر فى شر ، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت .

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابى . دخل الإنجليز مصر بأسهل مما يدخل به ذامر على قوم ، ثم استقروا ، ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها ، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين مصر : وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى ، والموت الأخير .

لا يستحى بعض الأحداث من أن يقول إن محمد على جعل جدران سلطانه بنية من الدين ، أى دين كان دعامة للسلطان محمد على ! دين التحصيل ، دين الكرباج ! دين من لادين له إلا ما يهواه ويريده ! وإلا فليقل لنا أحد من الناس ،

أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإســـلامى الجليل ، لا يذكرون إلا مسألة الوهابية ، وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين للدين .

ولا أظن أن أحــداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على ـ على بصيرته ـ أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً باسلا ، ومستبداً ماهراً ، لـكنه لمصر قاهراً ، ولحياتها الحقيقية معدماً ، وكل ما نراه الآن فيها ممــا يسمى حياة فهو من أثر غيره » .

الشيخ محمد عبده

بقلم تلميذه

المرحوم مصطفى عبد الرازق

ولد الشيخ محمد عبده فى محلة نصر — إحدى قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة . كان أبوه عبده خير الدين(١) ممن رزقوا بسطة فى جسومهم وقوة ومرنوا على الرماية والفروسية . . . فكسبوا من الهيبة بقوتهم وبطشهم فوق ما كان لهم من عز ومال .

حفظ الشيخ محمد عبده القرآن فى بلده ثم ذهب إلى طنطا فجوده فى الجامع الأحمدى ، وصد عن طلب العلم فعاد إلى بلده ليشتغل بالزراعة (٢) ، وتزوج يومئذ على حداثة سنه .

ورحل الشيخ بعد ذلك إلى الأزهر الشريف واجتمع بالعلماء ورجال الدين ، ومن بينهم الأستاذ جمال الدين الأفغانى .

ألف فى التصوف « رسالة الواردات » . . .

---

(١) أما أم الشيخ محمد عبده فهى السيدة جنينة أيم ذات ولد من حصة شبشير مركز السنطة بمديرية الغربية تزوجها أبوه مطارداً من بعض الحكام .

(٢) وسرعان ما عاد إلى العلم مرة ثانية بايعاز من شيخ يدعى درويش خضر .

ألف حاشية على شرح التصوواق على العقائد العضدية في التوحيد • وأخذ يكتب فصولا ممتعة في الصحف استرعت إليه الأنظار .

ثم نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان ظهر فيه أن الشيوخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب أستاذه (١) .

وعين على أثر ذلك مدرساً في مدرسة دار العلوم وفي مدرسة الألسن الخديوية . ولما نفي الأفغاني من مصر عزل تلميذه وحددت إقامته • وعفي عنه بعد تعيينه محرراً في جريدة (الوقائع الرسمية) إلى أن عين رئيساً للتحرير .

واندلعت نيران الثورة العرابية فحوكم مع زعمائها ونفي ثلاث سنين وثلاثة أشهر . فتوجه إلى سوريا وهناك تلقى دعوة من أستاذه الأفغاني للحضور إلى باريس ، حيث أصدرا (العروة الوثقى) ·

وبعد ثمانية أشهر رجع الشيخ إلى بيروت وعمل أستاذاً في المدرسة السلطانية ·

وألف في ذلك الوقت (رسالة التوحيد) .

ونقل إلى اللغة العربية (رسالة الرد على الدهريين) (٢) .

وشرح (نهج البلاغة) ·

وشرح (مقامات بديع الزمان الهمذاني) .

وفي بيروت تزوج زوجته الثانية بعد وفاة زوجه الأولى .

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، طبعاً ! !

(٢) وكان السيد الأفغاني قد كتبها بالفارسية .

وعاد من منفاه فعين قاضياً أهلياً فستشاراً فى محكمة الاستئناف الأهلية ثم عضواً فى مجلس إدارة الأزهر ، وهو أول مجلس أسس ليكون رسول الإصلاح . ثم عين مفتياً للديار المصرية حتى أدركه الأجل !

وفى عهد توليه الإفتاء كتب فى إصلاح المحاكم الشرعية تقريراً جليلا . وأصدر فتاوى ذات شأن .

ووضع تفسير (جزء عم) .

وألف كتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) .

هذه الصورة المجملة من تاريخ الشيخ محمد عبده تبين مناصبه وتعدد مؤلفاته ، ولكنها لا ترسم جوانب عظمته ، فإن المناصب والكتب ليست مجلى عظمة الشيخ محمد عبده ، وإن كان ترك نفحة من النبل والعظمة فى كل ما اتصل به .

إن الشيخ محمد عبده مصلح جرىء ، حاول الهدم والبناء فى أقدس هيكل عند البشر ، فيما يعتبره الناس ديناً .

أرسل صيحته فى الأزهر تدوى بين شيوخ ، إن لم يكونوا يومئذ هيئة كبار علماء ، فلعلهم لم يكونوا دون هؤلاء جوداً .

ولم يبال الأستاذ بما لقى من الأذى ، وقد لقى من الأذى كثيراً .

* * *

وأشهد لقد كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التى سخرها الله لعبقريته ، وكان صوته العذب المؤثر من جنود عبقريته أيضاً .

كنت طالباً من صغار الطلاب أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا عفى الله عنهم ، لا يفتأون يذمون لنا الشيخ ويمثلونه خطراً على الدين وأهله داهما ، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة ، وكنت أفر بديني من أن ألقى الأستاذ أو أستمع لدروسه مع أنه صديق لوالدي .

* * *

وحضرت درسه مرة لأشهد كيف تشـــبه وجوه الملحدين وتشبه معها عقولهم وقلوبهم ! !

فلما رأيت الرجل بالرواق العباسى وسمعته يفسر كتاب الله قلت من ذلك اليوم :

اللهم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين ! !

وقال المرحوم قاسم أمين ، محرر المرأة المصرية ، فى وصف الشيخ محمد عبده : بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محـــدودة : كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه ويسعى إلى كل نفع للغير ، عام أو خاص .

كما يلجأ للفقراء واليتامى والمظلومين ... والمصابين بأى مصيبة . وأهل الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجا إلى المساعدة لأنهم فى وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فى ميدان حياتنا الجديدة . يبذل إليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الأمور بهمة لا تعرف الملل ، كأنما كان يسعى لأعز إنسان لديه . بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج مبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوما مدى حياته .

كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقاً ، وأن التسامح والعفو عن كل شيء ومن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ، ويفيد فى إصلاح فاعله .

* * *

وتتلخص دعوة الشيخ إلى الإصلاح الدينى فى أمور ثلاثة : —

أولا : تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان ، ولا يتحكم فيه زعماء الدين والدنيا على حد سواء .

ثانياً : إعتبار الدين صديقاً للعلم ولا موضع لتصادمهما ، إذ لكل منهما وظيفة يؤديها ، وهما حاجتان من مستلزمات البشر ، لا تغنى إحداهما عن الأخرى .

ثالثاً : فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب عارفه إلى ينابيعها الأولي .

ومنابع الإسلام فى سذاجته وبراءته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه هى :

﴿ الكتاب وقليل من السنة فى العمل . ﴾

هذا هو الأصل الذى ينبغى أن يرد إليه الدين الإسلامى فى مذهب أستاذنا .

* * *

ولا شك أن الشيخ قد تأثر بالحياة الغربية على وجه ما فى حياته العقلية ومعيشته الخاصة ، ذلك بأنه تعلم اللغة الفرنسية وسافر إلى أوروبا عدة مرات وعاشر الأوروبيين فى مصر وفى غير مصر ، فاستفاد من مخالطته وسياحاته ومن مطالعاته

الكتب الغربيين فى الفنون المختلفة ، وظهر أثر ذلك فى أفكاره وكتاباته ودعواته الإصلاحية .

* * *

ولا يسع المؤرخ حين يترجم للشيخ أن يغفل الإشارة إلى ما بلغه الرجل فى حياته من عز وجاه وحرمة موفورة ، كان للشيخ خصوم يكرهونه ويكيدون له ويضعون له العقبات فى سبيل إصلاحه ، ولكن أحداً لم يكن يستطيع أن يغض من جلال الشيخ أو ينكر عليه منزلته الرفيعة فى النفوس . اهـ .

* * *

ومحمد عبده إذ يرسل قلمه النارى ليدفع رأس الأسرة الدخيلة ، متحديا جبروتها وبأسها ، كان يعرض كل ما فى حياته للخطر والتدمير

كان طليعة للأحرار ، وكان الأحرار يجدون أنفسهم فى عزلة وغربة ، بعيدين كل البعد عن المؤازرة الشعبية التى يستند عليها الأحرار فى كفاحهم ونضالهم ، فقد ران على مصر فى عهد الأفغانى ومحمد عبده ظلاما قاتلا خانقاً .

كانت مصر فى عهدهما تعانى فقراً وجهلا وانهياراً كاملا وكان ذلك ثمرة طبيعية للحكم الاستبدادى الجاهل الذى ران عليها قرابة نصف قرن تحت ظل الغطرسة التركية الملكية .

ولقد ترك لنا محمد عبده فى مذكراته التى لم تنشر عن أسباب الثورة العرابية وثيقة هامة عن حالة مصر فى ذلك العهد جاء فيها :

« ... أن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٧ م كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير

أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته . . ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده . . أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم ، وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء أ كانت إسلامية أو أوروبية ، ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد على إلى ذلك التاريخ الذى ذكرناه (١٨٧٧) . . . لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ولا فوائد تلك المعارك التى اكتسبها ، ومع أن اسماعيل باشا أبدع « مجلس الشورى » فى مصر سنة ١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم وأن لهم رأيا يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام والعمل ، أما فى النظام فلأنه قد نص فيه على أن نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه ، وما يعن لها أن ترسله إليه للمداولة فيه . وأما فى العمل فلأنه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الأعضاء بإرادة أفندينا ! ! ، فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، فكانوا يشعرون بأن الإرادة المطلقة هى التى كانت ولا تزال تصرفهم فى آرائهم .

هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف ما يأمر به ! هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التى رسمت له ، أو الوجهة التى يتوجه إليها الحاكم ! لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خيراً من تلك . هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره ! كلا فإنه كان ، بجانب كل لفظ نفى عن الوطن ، أو إزهاق للروح ، أو تجريد من المال .

ظهور الأفغانى

ثم يواصل محمد عبده كلامه فيقول :

. . . وبينما الناس على هذا ، لا كاتب ينبههم ، ولا خطيب يعظهم ، إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه ، وإن كان مما جرت به السنة الإلهية فى كل زمان .

جاء إلى هذه الديار فى سنة ١٢٨٦ هـ . رجل غريب بصير فى الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الإطلاع ، جم المعارف ، جرىء القلب ، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى .

اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية . . وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة » .

ويقول العلامة حيدر بامات(١) واصفاً قدوم جمال الدين الأفغانى إلى مصر وأثره فيها .

« . . . ويمر من الهند ومصر والاستانة ويستقر بالقاهرة سنة ١٨٧١ م ويقيم بها ثمانى سنين ، ويكون هذا الدور من أكثر الأدوار خصباً فى حياة جمال

(١) مجالى الإسلام ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦ .

الدين الكثيرة الحركة ، ويجعل من منزله الخاص جامعة حرة يلقى فيها دروساً عن مذاهب الإسلام الكلامية والفلسفية ، ويمزج بين أفكاره السياسية وتعليم العلوم الإسلامية الخالصة من كل روتين رسمى ، والمستقصاه بروح عصرى ، ويبذل طاقته لدى المستمعين فى إيقاظ الميل إلى النظم الحرة والعزم على إنقاذ بلدهم من سلطان القوى الأجنبية ، وما اتفق له من نفوذ فى طبقات مصر المثقفة كان له بالغ الأثر فى اشتعال الحركة الوطنية بمصر سنة ١٨٨٢ م ونشوب ثورة عرابى باشا وضرب الإسكندرية بالقنابل » .

ثم يقول (١) ـ وكان جمال الدين عالماً فيلسوفاً كاتباً ذا اتصال ثقافى بالتيارات الفكرية العالمية ، فكان يبدو دائماً صاحبا لعقلية عصرية متقبلا لجميع مناحى الفكر فى زمنه إلى أوسع ما يكون .

وهو لم يأل جهداً فى إثباته ، بلسانه وقلمه ، أن الإسلام لم يكن قط جسما بلا روح ، وإنما يرى الإسلام ، إذا ما أزيل منه ما هو غريب عن مذهبه الحقيقى من الأوراق الخرافية بقى دائماً قوة حية فعالة ملائمة لمقتضيات العصر ، ولجميع ما تنطوى عليه الحضارة الغربية من اختراعات فنية .

كان الأفغانى يثبت فى الحقل الإجتماعى والسياسى ، أن مذهب الإسلام حر جوهراً ، ديمقراطى عنصراً ، فيمنح الأمة حق الاشتراك فى إدارة الدولة ، ورقابة حكومتها .

وكان أول من أدرك ما تنطوى عليه سياسة التوسع الغربى من تهديد لاستقلال دول الإسلام ، فحاول تعبئة الجماهير روحياً ، وأكثر من مراجعة

(١) مجالى الإسلام ص ٥٠٠

ملوك الإسلام وأمرائهم ، منذراً إياهم بما يهددهم ، ناصحاً باتخاذ ما يلزم من وسائل الدفاع ، وكان يشعر بالخطر شعوراً حاداً . . ويقدر للوصول إلى أهدافه أن تقوم قبل كل شيء ، حكومات دستورية ، وأن تحقق إصلاحات اجتماعية تؤدى إلى جعل الأمم الإسلامية فى مصاف الأمم الغربية » .

* * *

ولقد كان للأفغانى قبل قدومه إلى مصر أثراً ضخماً فى الشرق الإسلامى ، فقد جاءه على موعد وقدر ، جاءه مجدداً لرسالات الشرق الكبرى ، وأمجاده العريقة ، ومدنيته التالدة .

جاء ليحيي أرضاً مواتاً ، ويبعث نفوساً راكدة هامدة ، ويهز عروشاً مستبدة متعالية ، ويحارب استعمارا موطد الدعائم عزيز الأركان ، فواراً بالقوة والبأس والسلطان .

نشأ فى الأفغان ، ثم سافر إلى الهند فأحدث دوياً وألهب ثورة ثم طوفه بإيران فبعث فيها الحياة والحركة ، وانتقل إلى العراق والحجاز فترك آثاره وتلاميذه وأفكاره تغلى وتفور .

وكانت كراهيته للانجليز سمة من السمات الجوهرية فى شخصيته ، ذلك أنه أيقن منذ عهد مبكر وعن تجربة أن هؤلاء القوم يكنون للمسلمين عداء شديداً (١) فهم حريصون كل الحرص على التنكيل بالممالك الإسلامية وعلى التهامها واحدة بعد أخرى ، وهم لا يترددون أمام أية وسيلة من الوسائل ،

(١) جمال الدين الأفغانى للدكتور محمود قاسم .

ولا يحترمون أى مبدأ من المبادىء إذا أرادوا تحقيق مآربهم ، وأكثر مايعتمدون في ذلك على اصطناع اللين والخداع والمخاتلة حتى يظفرون لأنفسهم أو لقوم سواهم بجزء من أراضى المسلمين ، كأن لهذه الدولة الماكرة ، لذة فى النكاية بأهل الدين وكأنها تبتغى للسعادة فى تذليلهم ومحو ما يكون من ملكهم ، وكمال بهجتها أن تراهم أذلاء لا يملكون من أمرهم شيئاً .

النزوع إلى الحرية ... والرغبة فى العدالة ...

ولكن كما يقول الدكتور عثمان أمين[1] ، « ما من قطر من أقطار الشرق أثر فيه جمال الدين مثل تأثيره فى مصر : فهو من أوائل العاملين على تطور الروح الوطنى فى هذه البلاد . وقد نسب إليه بحق الدور التاريخى لأبى القومية . إستطاع الرجل بخطبه الملتهبة أن ينفث فى النفوس نزوعا إلى الحرية ، ورغبة فى العدالة، خطب مرة فى الأسكندرية قبل خلع الخديوى اسماعيل ، فقال :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟

بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم ، وكان لكلامه أثر عميق فى إيقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين إلى حقوقهم قبل الحاكمين ، فاتجه الناس إلى نقد أصحاب السلطان ، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق فى التصرف فى شئون الرعية ، وليس هناك شك فى أن للأفغانى يداً فى الحركة العرابية . ومن المحقق أن المبدأ الوطنى الذى سيطر على تلك الحركة من غرسه ، كما قال شكيب أرسلان ، وإن كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ، ونقصان التربية السياسية، ولفحة الدسائس الأجنبية ما صوح نضرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث

(١) رائد الفكر الحديث ص ٢٢ .

فى الشرق ، أو حركة إصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التى هي أصدق عوامل الاستعمار .

على أن جمال الدين قد عرف بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية التى ترمى إلى إتحاد جميع الشعوب التى تعيش فى كنف الإسلام ، لكى يتيسر لها التخلص من سيطرة الأجنبى ، وقد كان يقول بهذا الصدد : إن الدول الغربية تنتحل الأعذار فى هجومها وعدوانها على البلاد الإسلامية وإذلالها وإكراهها ، بقولها : « إن الممالك الإسلامية هذه إنما هى من الإنحطاط والهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها ، فى حين أن تلك الدول عينها لا تكف عن التذرع بألوف الذرائع ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة من حركات النهضة والإصلاح فى البلاد الإسلامية ، ومن ثم يجب على العالم الإسلامى أن يتحد فى حلف دفاعى كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء ، وللوصول إلى هذه الغاية ، إنما يجب عليه أن يأخذ بأسباب التقدم فى الغرب وأن يكتنه أسرار تفوقه وقدرته .

بيد أن جمال الدين لم يكن يعنى بذلك إحلال قومية الدين محل قومية القطر ، وإنما كان يرغب فى أن تتحد جميع الأقطار الإسلامية ، مع استقلال كل منها عن الآخر ، إلى هدف واحد ، هو التحرر السياسى . ومن أجل النهوض بالوطن المصرى أو التركى أو الفارسى كان يعمل على نهضة الإسلام الذى يتغلغل فى الحياة السياسية والاجتماعية للأقطار الإسلامية المختلفة .

وكان الأفغانى حرباً مشتعلة لا تهدأ على الاستعمار الأوروبى بشتيت صوره وألوانه ، وكان يعتبر الاستعمار البريطانى رأس الأفعى ، وخصم الإسلام الأكبر .

ويقول الدكتور قاسم (١) « . . . ولقد أثارت كتاباته السياسية ضجة كبرى وكان لها دوى شديد فى مصر ورجع صدى فى إنجلترا ، إذ بين أساليب الإنجليز وحيلهم فى استعمار الشرق ، وبه كيف يزعمون أنهم يتدخلون لحماية العروش الهاوية ، مع أنهم يضمرون الفتك بالشعوب التى يتظاهرون فى الوقت نفسه بالعطف عليها ، ومحاولة إصلاح أمرها ، ودفع الظلم عنها ، ورفع مستوى الحياة بين أفرادها » .

وكان جمال الدين سابقاً لعصره ، بتفكيره الشعبى ، وعقيدته الدستورية ، ومن هنا كان إيمانه بالشعوب ، وجهاده فى سبيل الحريات الشعبية .

فقد نادى بقلمه ولسانه بأن كل إصلاح إلى زوال ما لم ينبعث من أعماق الجماهير ، وكان يقول :

ولن تنبعث شرارة الإصلاح فى وسط هذا الظلام الحالك إلا إذا تعلم الشعب وعرف حقوقه ، ودافع عنها ، ومتى عرف الشعب هذه الحقوق وجد نفسه مضطراً إلى المطالبة بها ، والمحافظة عليها إذا نالها .

ومن هنا كانت حروبه الطويلة المستمرة مع الخديوى وبطانته ووزرائه ، وكانت كراهية الملوك والأمراء والوزراء له .

(١) جمال الدين الأفغانى ــ للدكتور محمود قاسم ص ٦ .

الأفغانى يحرض محمد عبده على قتل الخديو اسماعيل !!

وكان جمال بطبيعته الثائرة ، عنيفاً مندفعاً مغامراً ، لا يثنيه شيء عن هدفه ولا يتراجع أمام عقبة تعترض سبيله .

ولهذا عندما شاهد الخطر الذى يهدد مصر من حكم اسماعيل ، وعلم أنه لن يتراجع ولن ينثنى عن تحالفه مع الاستعمار ، إقترح على تلميذه محمد عبده أن يقتل الخديوى اسماعيل !! (١)

ويستطرد الإمام فيقول :

« وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ، لو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت فربما كان فى إمكاننا أن ننظم الحركة معه ، لأن قتل اسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله » .

وأنقذ اسماعيل من الاغتيال نبأ عزله الذى جاء من الأستانة فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ .

وكان أول عمل عمله توفيق الذى تولى ملك مصر بعد اسماعيل أن أمر بطرد جمال الدين من مصر ، تعصباً لوالده من ناحية وإرضاء للانجليز من ناحية أخرى !

(١) من حديث لمحمد عبده فى منزله فى ١٨ مارس سنة ١٩٠٣ ـ التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر ص ٣٥٤

طرد الأفغانى من مصر !

ويحدثنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن طرد الأفغانى فيقول :

وألقى القبض على الثائر العظيم ، وأقتيد بالقوة إلى محطة السكة الحديد وأركب بالعنف فى القطار الذاهب إلي السويس ، ولقيه فى طريقه قنصل إيران وبعض المصريين الأحرار فعرضوا عليه مائة دينار ، فأبى جمال الدين أن يأخذها مع أنه كان لا يملك شيئاً وقال كلمته المأثورة : إحتفظوا بالمال فأنتم أحوج إليه ، إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب .

ووصف لنا محمد عبده خروج الأفغانى من مصر فقال :

« ... لا ريب فى أن الإزعاج بنفى جمال الدين كان عاماً ، والكدر كان تاماً ، ولكن الخديوى أظهر سروره بما فعل ، وتحدث به فى محضر جماعة من المشايخ علي مائدة الإفطار فى رمضان ، فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة فى العلم والفضل فى محضر الشيخ جمال الدين ، وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بالنفى والتقريع الشديد بما لم يكن يستحقه الرجل . كما أنه كان فيه تشنيع جارح على من كانوا يجتمعون عليه ، فنشره البعض ، وأبت أحدى الجرائد نشره . فعطلت ، على أن هذه الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة ، ولا الألسن إلا جرأة ، ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نمواً وظهوراً ، ولم تكن حكومة مصر كريمة فى معاملته ،فوصفته بالزندقة وسمته (ضلال الدين) أو الأفغانى الأفاق ؟ وقالت فى المنشور الذى أصدرته لهذه المناسبة إنها : أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد ، عبرة للمعتبرين ، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين ، البادى من أفعالهم الظاهرة ، أنهم لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة » ! !

أهداف العروة الوثقي

وسافر الأفغانى إلى باريس ومن هناك كتب إلى الإمام محمد عبده يأمره بالحضور والإقامة معه . فسافر إليه صفيه وهناك أسسا معاً « جمعية العروة الوثق » وهى جمعية إسلامية عالية هدفها إعادة عزة الإسلام ومجده ، والعمل على تطهير عقائده مما شابها وتحرير العالم الإسلامى من ذل الاستعمار وعبوديته .

وكانت جميع الأفكار فى الجريدة التى صدرت باسم (العروة الوثقى) لجمال الدين أما الأسلوب والعبارة فكانا للامام محمد عبده .

وكان يعاونهما فى جهادها . ميرزا محمد باقر ، وكان عمله معهما هو الإطلاع على ما يكتب فى الصحف الأوروبية مما له صلة بالعالم الإسلامى فيترجمه ليكون مادة للجريدة فى أخبار السياسة الدولية .

ولقد لخصت هذه الجمعية أهدافها فى العدد الأول منها وحصرتها فى هذه المبادىء (١) .

١ — تضع الجمعية نفسها فى خدمة الشرقيين عامة فتبين لهم الواجبات التى يجب عليهم القيام بها ، والتى كان التفريط فيها سبباً فى تدهورهم وتوضح الطرق التى يجب إتباعها لتدارك الأخطاء الماضية ، وتجنب الصعاب والأخطار فى المستقبل .

٢ — كما ستبحث معهم الأسباب والعلل التى أدت إلي ضعفهم وفى طليعتها تفريطهم فى تعاليم دينهم .

٣ — وستكشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، وتزيح

(١) جمال الدين الأفغانى — للدكتور محمود قاسم .

الوساوس التى سيطرت على عقول المنعمين ، مما أدى إلى اليأس من الإصلاح ، والقنوط من تلافى الأخطار الماضية .

٤ — وستحاول أن تحى الأمل فى النفوس وتبين أن طريق النهوض ليست بالصعوبة المتوهمة التى توجب فتور الهمة أو خور العزيمة .

٥ — كما ستبدى اهتماماً خاصاً بالرد على التهم التى توجه إلى الشرقيين عامة والمسلمين بصفة خاصة ، وستعنى بتفنيد مفتريات الغرب التى يزعم قائلوها بأن المسلمين لن ينهضوا أبداً ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

٦ — وستوالى الجريدة إطلاع الشرقيين على الأحداث العالمية وأسرارها ليحيطوا علماً بما يدبره السياسيون الأوروبيون ، وما يبيتونه لهم ، ولكى يعلموا فى أى عالم يعيشون حتى لا يقعوا فى شراك الدعايات المغرضة .

٧ — وأخيراً ستعمل الجريدة على تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وبيان المنافع المشتركة بينها وعلى مناصرة كل سياسة خارجية من شأنها ألا توقع حيفاً بالشرقيين .

وقامت العروة الوثقى برسالتها ، فكانت منارة للشرقيين عامة ، ونبراساً لكل مجاهد حر . يناضل فى سبيل الحرية والحياة .

وكانت شواظا من نار على الاستعمار والبغاة ، وكانت تلقى النور المبين ، على جوانب الإسلام لتظهره للعالمين مطهراً مما ألحق به ، ودس عليه ، ونسب إليه ، ديناً ارتضاه الله لعباده رحمة وخيراً ، وأهلا لخير حضارة أخرجت للناس .

وأدركت بريطانيا الخطر الكامن وراء سطور تلك الجريدة ، الخطر المدمر لسياستها ، الفاضح لفظائعها وأهدافها فأعلنت الحرب الشاملة عليها .

وكان من نذر هذه الحرب أن منعت دخول أعدادها فى البلاد الإسلامية ، وأخذت تتعقب الأحرار الذين ترسل إليهم ، وقامت الحكومة المصرية من جانبها بمؤازرة حليفها الاستعمارى فحددت عقوبات لمن يضبط متلبساً بجريمة قراءتها .

بريطانيا تعرض عرش السودان على الأفغانى !

وعجزت بريطانيا بنفوذها ودهائها واتباعها الذين يدورون فى فلكها فى البلاد الأوروبية والإسلامية ، عجزت كل هذه القوى عن أن تنال من ثورة جمال الدين وهجومه الرهيب علي الاستعمار والمستعمرين .

فلجأت العجوز الداهية إلي سلاحها الخالد ، المال والملك ، وخيل إليها أنها تضرب أكثر من عصفور بحجر واحد .

فأرسلت إلي الأفغانى تدعوه باسم حكومتها لزيارة لندن لتسأله رأيه فى حركة المهدى ، ولتحصل منه علي فتوى شرعية تناهضه بها ثم عرضت عليه عرش السودان قائلة :

﴿ إنها تعلم مقدرته ، وتقدر رأيه حق قدره ، ولأنها تريد أن تسلك مع الحكومات الإسلامية مسلك المودة والولاء ! ؟ ﴾ .

وكان مما قاله له اللورد سالسبوري حسب الوقائع الرسمية :

﴿ لذلك تصورنا أن نرسلك إلي السودان بصفة سلطان عليه فتستأصل جذور فتنة المهدي ، وتمهد لإصلاحات بريطانيا فيه ﴾ .

ورفض الأبى الثائر أن يقع فى الفخ البريطانى ، وسخر من العقلية الإنجليزية التى لا تؤمن بأن فى الدنيا رجال أحرار شرفاء إلا فى جزيرتها ! ؟ قائلا : (إن السودان ليس ملكا لبريطانيا حتى تتصرف فى عرشه) .

وتغضب بريطانيا فتلقي بكل مافى صدرها من حقد وغضب على جمال الدين وصاحبه وتتعقبهما ، وتتعقب صحيفتهما حتى تتمكن أخيراً من القضاء عليها قبل أن تتم عاماً من حياتها .

ولـكن العروة الوثقى اسـتطاعت خلال الثمانية أشهر التى صدرت فيهـا أن تغير نظرة الحياة فى الشعوب الشرقية كافة ، وأن تطلق شعاعا من أشعة الحرية ظل يتقد ويتعاظم حتى جنينا ثمراته حرية واسـتقلالا فى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ التى أطاحت بالرجعية والاستعمار فى مصر والشرق العربى بأسره .

ويقول العلامة حيدر بامات فى حديثه عن جهاد الأفغانى العالمي (.. بيد أن أهم أثر قام به جمال الدين هو ولا ريب إصدار مجلة العروة الوثقى العربية فى باريس التى كان مع الشيخ محمد عبده مؤسساً باعثاً أصلياً لها ، وكان لهذه المجلة أثر كبير فى نشوء المشاعر الوطنية الحرة فى الأوساط الإسـلامية ، فتعد مبشرة أدبية فى الحركات الوطنية التى ما انفـكت تنمو بعد ذلك) .

ويقول الفيلسوف الإجتماعي رينان : (... كنت أتحدث إليه فكان يخيل إلى من حرية فـكره ، ونبالة طبعه ، وإخلاص قلبه ، أننى أرى وجهـاً لوجه أحد معارفى القدماء ، وأنى أشهد إبن سينا أو إبن رشد أو واحداً من أولئك الأحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفـكر الإنسانى .

ويقول عنه المفـكر الجزائرى ، علي إلهامى : (سوف يخلد اسمه فى جميع البلاد الإسلامية كما خلد إسم « هوميروس » فى مدن اليونان القديمة) .

وأخيراً . . .

يقول جمال الدين : (ما مات أحـــد فى حب أمته إلا وأحيته) وحسب الأفغانى حياة وخلوداً ، تغدو كلماته حيـة خالدة ، وآية ذلك كل حرف من حروف هذا الـكتاب الذى احتوى كل سطر خطه الثائران العظيمان فى صحيفة الحرية الـكبرى . . . العروة الوثقى . . .

طه عبد الباقى سرور

بسم الله الرحمن الرحيم

صحيفة الحرية الكبرى :

العـــروة الوثقى "

لماذا صدرت الجريدة

ربنـا عليك توكلنـا وإليك أنبنـا وإليك المصـــير

هذا ما تمده العناية الألهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل فى نجاح العمل .

خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لاتنكرها الأنفس ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفـاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا لبابهم حتى أذهلوهم على أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظـام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لاتحمله النفوس البشرية .

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال . فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها يدوم لهـا السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها بل

---

(١) صدر العدد الأول منها فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م وبلغ مانشر منها ثمانية عشر عدداً وصدر العدد الأخـير منها فى ذى الحجة سنـة ١٣٠١ هـ وانتهت بسبب محاربة الانجليز لها .

زعمـوا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، فى النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فان تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز فى زمن من الأزمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيـال .

والذى يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانسانى من يوم علم تاريخه الى اليوم أن الأمم الـكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق فى الـكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لاتحمد ، أو ركون إلى راحة لاتدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليهـا قوة أجنبية ، أزعجتهـا ونبهتها بعض التنبيـه فاذا توالت عليهـا وخزات الحـوادث ، وأقلقتها آلامها فزعت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أى سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهى ماتكون بالتئام أفرادها ؛ والتحام آحادها ، وأن الالهـام الألهى والاحسـاس الفطرى والتعليم الشرعى ترشدها الى أن لاحاجة لها إلى ماوراء هذا الاتحاد وهو أيسر شىء عليها .

إن االنفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة مابلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لاتحتمل الضيم إلا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتنمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشاداً .

ربما تخطىء مرة فتكون عليها الدائرة ، لـكن مايصيبها من زلة الخطأ يلهمهـا تدارك مافرط والاحـتراس من الوقوع فى مثله فتصيب أخرى فيكـون لهـا الظفـر والغلبة ، وان الحركة التى تنبعث لدفع مالا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليهـا ، ومدبر لسيرها ، لايكفى فى توقيف سريانها ، أو محو آثارها ، قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر ، فان العلة مادامت موجودة لاتزال آثارها تصدر عنها ، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ؛ نعم ممكن تخفيف الأثر أو إزالته بازالة علته ورفع أسبا به.

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها فى الاخـــلاق والعادات والمشارب ، وان لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها اذا حملها مالا طاقة لها به . لاريب انها تستنكره ، وان كانت تستكبره ، وكلما انكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب .

ان مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الامم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب ، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك فى طلب المنفعة .

أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب انحاء الشرق فى هذه الايام . كل يطلب خلاصاً ويبتغى نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن وان العقلاء فى كثير من اصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل .

بلى ، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمى عنه الطامع وليس فى الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتى به الزمان من عاداته فى أبنائه بل مايجرى به القضاء الالهى من سنة الله فى خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون .

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك التغلب منهم نكايته ، خصوصا فى المسلمين منهم ؛ فمنهم ملوك انزلوا عن عروشهم جوراً وذووا حقوق فى الامرة حرموا حقوقهم ظلماً ، وأعزاء باتوا اذلاء وأجلاء أصبحوا حقراء وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء اضحوا سقاماً وأسود تحولت انعاماً ، ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضرر من افراط الطامعين فى أطماعهم خصوصاً من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الاراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى

المطامع فيها . حملوا الى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها وألزموها ماليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سيل المصاعب « بل طوفان المصائب ، على تلك البلاد وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا .

لم تكد تخمد تلك الحركة فى بادىء النظر حتى خلفتها حركة أخرى وفتح باب كان مسدوداً وقام قائم بدعوة لها المكانة الاولى فى نفوس المسلمين بل هى بقية آمالهم ولاندرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة وربما يوجد من يدرى أن مسببيها فى حيرة من تلافيها ، نعم أنهم غرسوا غرسا إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلا ويطعمون منه زقوما . لاجرم هذه هى العواقب التى لامحيص عنها لمن يغالى فى طمعه ويغلغل فى حرصه ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته أو اقتناء فائدته لحفظوا بذلك مصالحهم ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم .

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء وهو انفذ عواملهم واقتلها وما علموا أنه وإن كان زريع الفتك إلا أنه سريع العطب وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين فان بلاء الجور إذا حل بشطر من الامة وعوفى منه باقيها كانت سلامة البعض تعزية للمصابين وحجاب غفلة للسالمين يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم أما إذا عم الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعز عليهم الصبر فيندفعون إلى مافيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم .

إن الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما . إن مصر تعتبر عندهم من الاراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لايحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين فان كان هذا

الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع والا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من اركان الديانة الاسلامية ، ان الخطر الذى ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكامت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نغاراً . وما هذا بغريب على المسلمين فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة مادام القرآن يتلى بينهم وفى آياته مالا يذهب على افهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم أن الفجيعة بمصر حركت أشجاناً كانت كامنة وجددت أحزانا لم تكن فى الحسبان وسرى الألم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا نأمل أن يصير التلفس زفيراً بل نفيراً عاماً بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع .

ان أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له فى فتوحاته الا المداهاة ولافيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد اليه يده إلا المراضاة يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الاشكال كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن ومخلص الحكومات من غوائل العصيان وواقى مصالح المغلوبين فكان أول ما يجب عليه ملاحظته فى سيره هذا أن لايأتى من أعماله بما لايهتك هذا السّتر الرقيق الذى يكفى لتمزيقه رجع البصر وكر النظر وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهدتاريخها بأنها إذا حنقت خنقت وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لاتعوزها الوسائط ولا يعدم المتحدون قوياً شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته وأن المغيظ لايبالى فى الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب فهو يضر ليضر ، إن مسه الضر .

الا ان غشيــة التهم ذهبت بعقول المهومين ووقرت اسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ومن مكة الى مصر والكرير (١) الممتد من مصر الى مكة ومن مكة الي الهند وكلهاتتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم المسترسلون فى جفوتهم

أن الرزايا الاخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الاقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظ أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم

(١) الكرير : صوت فى الصدر كصوت المختنق

فيه فتقاربوا فى النظر وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف راجين ان يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف وان فى الحاضر منها لنهزة تغتنم واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الامور .

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع لاينون فى السعي ولا يقصرون فى الجهد ولو أفضى بهم ذلك الى اقصى ما يشفق منه حى علي حياته .

ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الاكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوروبا وكتبوا علي أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج العام فى كل عام يجتمع اليه الشرقى والغربى ويتآخى فى مواقفها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل .

ولما كان نيل الغاية علي وجه أبعد من الخطر وأقرب الى الظفر يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفى عنه شأنهم من أخوانهم واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربى وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس (١) ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم الى الأقطار القاصية تنبيهاً للغافل وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسينى الافغانى أن ينشىء تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبى رغبتهم بل نادى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الاول على الإجابة ، حمل الثانى على الامتثال ، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال .

(١) يقصد باريس عام ١٨٨٤ !!

الجريدة ومنهجها

سيأتى فى خدمة الشرقيين على مافى الامكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك مافات والاحتراس من غوائل ما هو آت .

ويستتبع ذلك البحث فى أصول الاسباب ومناشىء العلل التى قصرت بهم إلي جانب التفريط والبواعث التى دفعت بهم إلي مهامه حيرة عميت فيها السبل واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت (١) وضل المرشد حتى لايدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة .

وتكشف الغطاء مااستطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العناية بالمغت حدها .

وتحاول اشراب الأفهام أن لاحاجة فى الوصول الي نقطة الخلاص المرغوبة إلي قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم وأن تخيل تلك لدائرة الواسعة انما عرض من الادبار على المطلوب وهو تحت الجنح ويكفى فى الوصول اليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة .

وأن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم وهى ماتمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها ولاضرورة فى إيجاد المنعة الي اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ولا ملجىء للشرق فى بدايته أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقراً أعجزها وأعوزها .

(١) الخريت : الدليل الحاذق بطرق الارض

وتنبه بأن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف ، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة شفافاً ينم عما وراءه وتنقب عن المسالك الدقيقة التى يسرى بها الطامعون فى دياجر الغفلات .

ويهتم بدفع مايرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لايتقدمون إلي المدنية ماداموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت .

وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التى لا تميل إلي الحيف والأجحاف بحقوق الشرقيين .

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحاملين عليها لا تظهر اذا أدلجوا ولا تنجد إذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أذلى علم الله هدايته والله يهدى من يشاء إلي صراط مستقيم .

وترسل إلي الذين نعرف أسماؤهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقير ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلي ادارة الجريدة بالأسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده والله الموفق .

الجنسية والديانة الإسلامية

ان استقــراء حال الافراد من كل أمة واستطلاع اهوائهـا يثبت لجلى النظر ودقيقه وجوب تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم وان المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبــه منه لطلب السبب ولا بحث فى علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية الا أنه يبعد ظنهم مانراه فى حال طفل ولد فى أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز إلي أرض أمة أخرى وربى فيها الي ان عقــل ولم يذكر له مولده فانا لانرى فى طبعه ميلا اليه بل يكون خالى الذهن من قبله ويكون مع سائر الأقطار سواء بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه والطبيعى لايتغير .

ولهذا لانذهب إلى أنه طبيعى ولــكن قد يكون من الملــكات العــارضة على الأنفس ترسمها على الواحها الضرورات فان الانسان فى أى أرض له حاجات جمــة وفى أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغــوا بتربيــة زكية ، وسعة المطمــع اذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها الى العدوان فلهذا صار بعــض الناس عرضــة لاعتداء بعض آخر فاضطروا بعد منازلة الشرور احقاباً طوالا الي الاعتصــاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الاجناس فتوزعوا أمماً كالهندى والانجليزى والروسى والتركمانى ونحو ذلك ليــكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدى القبيل الآخر ثم يجاوزوا فى ذلك حد الضرورة كما هى عادة الانسان فى اطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطــة الآخر عليه علماً بأنه لابد أن يكون جائراً اذا حكم ولئن عدل فان قبــول حكمه ذلا تحــس به النفس وينفعل له القلب .

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبــع هو الضرورة فى الزوال كما تبعها فى الحدوث بلا ريب وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصــــاغر لديه القوى وتتضائل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع وتكون بالنسبة اليه متساوية

الأقدام وهو مبدأ الكل وقهار السموات والارض ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساها للكافة فى الإستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين . فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم فى التطامن لما أمر به . اطمأنت فى حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها فمحى أثرها من النفوس والحكم لله العلى الكبير .

هذا هو السر فى أعراض المسلمين على اختلاف اقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أى نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبتهم الاسلامية فان المتدين بالدين الاسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الروابط الخاصة الى العلاقة العامة وهى علاقة المعتقد .

لان الدين الاسلامى لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الادنى الى عالم أعلى بل هى كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التى تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها لامن أشد الناس خضوعا لها ولن ينالها بوراثه ولا امتياز فى جنس أو قبيلة أو قوة بدنية وثروة مالية وإنما تنالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة . فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية التى لاتميز بين جنس وجنس واجماع آراء لأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم الا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها .

وكل فخار تكسبه الانساب وكل امتياز تفيده الاحساب لم يجعل له الشارع أثراً فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهى ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم (ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية) والاحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة فى التقوى — اتباع الشريعة

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الاجيال من لاشرف له فى جنسه ولا امتياز له فى قبيله ولا ورث الملك عن آبائه ولاطلبه بشىء من حسبه ونسبه وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه .

وان بسطة ملك الوازعين فى المسلمين كان يسديها إليهم على حسب امتثالهم للاحكام الالهية واهتدائهم بهديها وتجردهم عن الاعتلاء الشخصى وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره فى أبهته ورفاهة معيشته.وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس الى تعصبها ووقع الإختلاف وانقبضت سلطة ذاك الوازع .

هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن لايعتدون برابطة الشعوب وعصبات الاجناس وانما ينظرون الي جامعة الدين لهذا ترى العربى لاينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وأن المسلم فى تبدل حكوماته لايأنف ولا يستنكر مايعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها ، نعم اذا نبأ فى سيره عنها وجار فى حكمه عما نصت عليه وطلب الأثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب ، وانحرفت عن محبته الانفس وأصبح وان كان وطنياً فيهم أشنع حالا من الأجنبي عنهم .

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والاسف عندما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامى بدون التفات إلى جنسها وقبيلها .

ولو أن حاكما صغيراً بين قوم مسلمين من أى جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يحوز بسطة فى الملك وعظمة فى السلطان وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الاقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ولا يتجشم فى ذلك أتعاباً ولا يحتاج إلى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية . . . ويستغني عن كل هذا

بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الاصول الأولى فى الديانة الاسلامية القويمة ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة ؛ أكرر عليك القول بأن السبب هو الدين الاسلامى لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان الى الآخرة فقط ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد فى دنياهم ومايكسبهم السعادة فى الدنيا ، والنعيم فى الآخرة وهو المعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى بسعادة الدارين وجاء بالمساواة فى أحكامه بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة .

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم فى معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها فى هذا الطريق فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع : وان بعض مايطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشأوه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا فاذا رجع الوازعون فى الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الا وقد آتاهم الله بسطة فى الملك وألحقهم فى العزة بالراشدين أئمة الدين وفقنا الله للسداد ، وهدانا طريق الرشاد .

ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها

﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾

أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوى الاركان شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد فى ساحتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل نمت فيهـــا أفنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى اليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لاسعادة الا فى انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل .

وبعد هذا كله وهى بناؤها وانتثر منظومها وتفرقت فيها الأهواء وانشقت العصى وتبدد ما كان مجتمعا وانحل ما كان منعقداً وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لايلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لاتنال الا على أيدى الملتحمين معه بلحمة الأمة وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيله الناظر اليه صحوا ، وذبول يظنه المغرور زهوا وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعة النهم والرضا بكل حال ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم أو استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفا أو يعيد اليها مجداً عده هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف فى المزاج أو خلل فى البنية أو حسب أنه

(١) أكثر عناوين المقالات مأخوذ عن تاريخ الامام (رحمه الله) ــ طبعة مجلة (المنار) الاسلامية.

لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال وأورده موارد الهلكة أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلال من اليأس فتغل يداه عن العمـــل وتقف قدماه عن السعى ويحس بعد ذلك بغـاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبل وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقيما على ما أورثوه لاعقابهم ويبلغ هذا المرض من الأمة حداً يشرف بها على الهلاك ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذلت وصحت ثم مرضت ولكن أليس لكل علة دواء . بلى.

وآأسفاً ما أصعب الداء وما أعز الدواء وما أقل العارفين بطرق العلاج كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهى لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه ... استغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه . نعم ربما التفت كل الى ماهو فى فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لايدرى من أى وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها ؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت إلا بعد ماسكنت زمنا غير قصير إلى معاليها هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه خصوصاً بعد ما استدبر المقصد وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من الخطوة . كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه المبتهج بأحلامه وفى أذنه وقر وفى ملامسه خدر ، هل من صيحة تقرع قلوب الاحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتنائى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها هل من نبأة تجمع أهوائها المتفرقة وتوحد آرائها المتخالفة بعد ماترا كم جهـل ودان غين وخيل للعقـول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر أيم الله أنه لشىء عسير يعيى فى عـلاجه النطاسى ويحـار فيه الحـكيم البصير :

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصـل الداء وأسبـابه الأولى

والعوارض التى طرأت عليه . إن كان المرض فى أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار ، أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ماعرض له من قبل فى حياته ليكون علي بينة من حقيقة المرض وإلا فان كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ثم لاتظهر إلا فى طور آخر لتغلب قوة الطبيعة علي مادة المرض فلا يبدو أثرها ، كلا أنه ليصعب علي الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد ، لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون بأحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها وإن كان المتشبهون بهم كثيرين وكما أن المتطبب القاصر فى الأمراض البدنية لايزيد علاجه المرض الاشدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة بل ربما يفضى بالمريض إلى الموت . كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم علي غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة علي اختلاف مواقعها من الارض ومكانتها الأولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين فان اخطاء طالب اصلاحها فى اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء .

فمن له حظ فى الكمال الانسانى ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهى لايجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الامم واصلاح مافسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور فى أداء هذا الأمر العظيم علما أو عملا . نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة وطلاب العيش فى ظل وظائف ليسوا من حقوقها فى شيء .

ظن قوم فى هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد وانها تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق كيف يصدق هذا الظن . وانا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لايصدقون بما يكتبون إلا نجاح الامم مع التنزه عن الأغراض فبعد ماعم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكاتبون لاتجد لها

قارئاً ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل مايجده على غير مايراد منه لضيق فى التصور أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبه غذاء لايلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافا . على أن الهمة اذا كانت فى درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع مافيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ان هذا وحقك لعزيز .

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبثة فى أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وأخلادها إلى مادون رتبتها بدرجات لاتحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها بل لمن كان خاضعاً لسيادتها راضخاً لاحكامها مع هذ كله يتم شفاؤها من هذه الامراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف باوروبا حتى تعم المعارف جميع الافراد فى زمن قريب ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة . وما أبعد مايظنون فان هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ماتكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغنى ولو كان للامة هذان لماعدت من الساقطين .

فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الامكان لولا مايكون من طمع الاقوياء حتى لايدعون لهم سبيلا لأن يستنشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر .

على انا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الافراد والاستزادة منها شيئاً فشيئا فهل يصح الحكم بان هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية وأن مايصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقى من أبناء أمته . واعجبا كيف يكون هذا وان الامة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت

على سوقها وأينعت وأثمرت وبأى ماء سقيت وبأى تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منها فى مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل اليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهراً من القول لأنباء عن الحقيقة فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجاة بعض الأفراد بها وسوقها الى أذهانهم المشحونة بغيرها يقوم من أفكارهم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد فى إفادة إخوانهم .

لعل الأقرب ان ناقلى تلك العلوم وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الأمة التى تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها الافساداً .

ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم . يكون منهم ما تعطيه حالهم يؤدون ماتعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحيوة لكل روح فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير وبالعكس غير ناظرين إلا الى صور ماتعلموه ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها على ما بها اضعافاً وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نقلة وحملة .

فهؤلاء الصادقون الا من وفقه الله منهم بعنايته الآلهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه فيسرع اليه المرض وينتهى به الى التلف فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط ، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا الا خيراً إن كانوا مخلصين ويوسعون بذلك الخصاص حتى تعود أبواباً ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير .

شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم مايحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل مايسمونه تمدنا وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات مايلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة مايدفع عنهم غارة الاعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الافكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وان بادت فى سبيلها ، خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم .

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشاكلها ويصونها فى عبارات متقطعة بتراء لاتعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب مايختارون ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا فى تطبيقها على أجود مايكون منها فى الممالك الاجنبية وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهات فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولايحمد أثره فاماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ماتستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد وثروتهم لاتسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها .

علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤما على أبنـاء أمتهم يذلونهم ويحتقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت وإن بقى فى بعض رجال الامة بقيـة من الشمم أو نزوع الى معالى الهمم انصبوا عليه وارغموا من أنفه حتى يمحى أثر الشهامة وتخمـد حرارة الغيرة ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين ، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم . أقول ولا أخشى لوماً لو كان فى البـلاد الافغـانية عدد قليل مـن تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الانجليز لما بارحوها أبد الآبدين . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيبـالغون فى تطمـين النفوس وتسكـين القلوب حتى يزيلون الوحشة التى قد يصون بهـا الناس حقوقهم ويحفظون بهـا سقلالهم ولهذا لو طرق الاجانب أرضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيهـا يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم ويكونون بطانة لهم ومواضع الثقتهم ، كانمـا هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم

۞۞۞

فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد .. أى جهوى من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفـلات . أى قاصفـة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الأفكار الخامدة أى نفخة تبعث هـذه الارواح فى أجسـادها وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها . الاقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب . المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى . الرؤوس مطرقة الى ماتحت

القــدم أو منغضــة إلى مافوق السماء ليس للابصار جولان الى الامام والخلف واليمين والشمال ولا للاسماع اصغاء ولاللنفوس رغبات وللاهواء تحكم وللوساوس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الامة والزمن قصير ماذا يحــاولون والأخطـار محدقة بهم بأى سبب يتمسكنون ورسل المنايا على أبوابهم لاأطيل عليك بحثـا ولا أذهب بك فى مجـالات بعيدة من البيان ولكنى استلفت نظرك الى سبب يجمـع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسـائل . ارسل فكرك الى نشأة الامة التى خملت بعـــد النباهة وضعفت بعد القوة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة وتبين أسبـاب نهوضهـا الاول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ماجمع كلمتهـا وانهض همم آحادها ولحم مابين أفرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منهـا على رؤوس الامم وتسوسهم وهى فى مقــامها بدقيق حكمتها انمـا هو دين قويم الاصول محكم القواعد شامل لأنواع الحكم باعث على الالفة داع الى المحبة مزك للنفـــوس، مطهر للقلوب من ادران الخسائس، منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافــل لـكل مايحتاج اليه الانسان من مبـانى الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها وينادى بمعتقديه الى جميع فروع المدنية .

فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت فماتراه من عارض خللهـا وهبوطهـــا عن مكانتها انما يكون مـن طرح تلك الاصول ونبذها ظهريا وحدوث بدع ليست منها فى شيء ،اقامها المتقدون مقام الاصول الثــابتة ، وأعرضـوا عمـا يرشد اليه الدين وعمـا أتى لأجله وما أعدته الحكمة الالهية له حتى لم يبق منــه إلا اسماء تذكر وعبـــارات تقرأ فتكون هذه المحدثات حجابا بين الامة وبين الحق الذى تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها .

فعلاجها الناجع انمايكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ باحكامه على ماكان فى بدايته وارشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران

الغيرة وجمع الكلمة وبيع الارواح لشرف الامة ولان جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من احقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفى زواياها نور خفى من محبته فلا يحتاج القائم باحياء الامة إلا الى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الارواح لاقرب وقت فاذا قاموا لشؤونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانسانى .

ومن طلب اصلاح امة شأنها ماذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططا وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحسا ولايكسبها إلا تعسا .

هل تعجب أيها القارىء من قولى ان الاصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشىء للامم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهى بها الى أقصى غاية فى المدنية . ان عجبت فان عجبى من عجبك أشد . هل نسيت تاريخ الأمةالعربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتاتِ واتيان الدنايا والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم اخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وبعد ان كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدينة ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الى ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وهيئة بطليموس وحكمة افلاطون وارسطو وما كانوا قبل الدين فى شىء من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنيتها فى التمسك بأصول دينها .

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الاقطار وطلب السيادة على الامصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنايا

وبعد الغايات وعلو المقاصد ، هى التى هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفتهم عن معاطاة الرذائل ، وخسائس الأمور وسوافلها ، ثم بعد مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها ، فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا مستقلا فى آخر عدد ان شاء الله ، وهو الموفق للصواب .

النصرانية والإسلام وأهلها

﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾

خلق الله الإنسان عالماً صناعيا ويسر له سبيل العمل لنفسه وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ، ودعامة بقائه ، فهو على جميع أحواله مـن ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وتبد وحضارة ، صنيعـة أعماله ، أقواته من معالجة الارض بالزراعة أو قيامه على الماشية وسرابيله وما يقيه الحر أو البرد والوجى من عمل يديه نسجاً أو خصفاً وأكنانه ومساكنه ليس إلا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع مايفتتن فيه من دواعى ترفه ونعيمه إنما هى صور أعماله ومجالى أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفه للطبيعة ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه ، بل دفعته إلى هاوية العدم ، وهو في صنعه وإبداعه محتاج الى استاذ يثقفه وهاد يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل ، وليقتدر على أن يعمل ، فصنعته أيضا من صنعه فهو فى جميع شؤونه الحيوية عالم صناعى كانه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها ، حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هوا الانسان فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دعه فى هذه الحالة وخذ طريقا من النظر الى أحواله النفسية من الادراك والتعقل والاخلاق والملكات والانفعلات الروحية تجده فيها أيضا عالما صناعيا : شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه فى تربيته الاولى ، وما يودع فى نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم ، مرامى أفكاره ، ومناهج

تعقله ، ومذاهب ميله ، ومطامح رغبـاته ونزوعه الى الاسرار الالهية أو ركونه الى البحث فى الخواص الطبيعية ، وعنايته باكتشاف الحقيقة فى كل شئ ، أو وقوفه عند بادئ الرأى فيه وكل مايرتبط بالحركات الفكرية انما هى ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات ، والاقوام والعشائر والمخالطون .

وأما هـــواء المولد والمربى ونوع المزاج ، وشـــكل الدماغ وتركيب البدن ، وسائر الغواشى الطبيعية فلا أثر له فى الاعراض النفسية والصفات الروحانية إلا ما يكون فى الاستعداد والقابلية ، على ضعف فى ذلك الأثر ، فان التربية وما ينطبع فى النفس من أحوال المعاشرين وأفـكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع فى الطبع نعم ان أفـكاراً تتجدد ، ومعقولات عن أخرى تتولد وصفـات تسمو ، وهما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكـتساب ، ولـكن الحق فيه أن ثمرة ماغرس ونتيجة ما كسب فهو مصنـوع يتبع مصنوعا ، فالانسان فى عقله وصفات روحه عالم صناعى .

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج ، ولـكن هل تذكرت مع هذا أن الاعمال البدنية ، انما تصدر عن الملـكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هى السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لاتحتاج فيه الى تذكير لأنه مما لا يغرب عن الاذهان إنما قبل الدخول فى موضوعنا أقول كلمة حق فى الدين ، ولا أظن منـكرا يجحدها :

إن الدين وضـع الهى ، ومعـلمـه والداعى اليه البشر ، تتلقاه العقول عـن المبشرين المنذرين ، فهو مسكوب لمن لم يختصهم الله بالوحى ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الامم أول مايمتزج بالقلوب ، ويرسخ فى الافئدة ، وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهوسلطان الروح ومرشدها الى ماتدبر به بدنها ،

وكأنما الانسان فى نشأته لوح صقيل ، وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث الى سائر الأعمال بدعوته وارشاده . وما يطرأ على النفوس من غيره ، فانما هو نادر شاذ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح فى البشرة بعد الاندمال .

وبعد هذا فموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية وهو بحث طويل الذيل وانما نأتى فيه على اجمال ينبئك عن تفصيل ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة فى كل شىء وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ، ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية ، بل والدينية ، ومن وصايا الانجيل : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الايسر . ومن اخباره ان الملوك انما ولايتهم على الأجساد وهى فانية والولاية الحقيقية الباقية على الارواح وهى لله وحده فمن يقف على مبانى هذه الديانة ويلاحظ ماقلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار ، مع ملاحظة أن لكل خيال أثراً فى الارادة يتبعه حركة فى البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من اطوار الآخذين بهذا الدين السلمى ، المنتسبين فى عقائدهم اليه ، فانهم يتسابقون فى المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد فى استيفاء لذاتها ، ويسارعون الى افتتاح الممالك ، والتغلب على الاقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فناً جديداً من فنون الحرب ، ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم فى بعض ، ويصولون بها على غيرهم ؛ ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال ؛ ويصرفون عقولهم فى إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من أوسع الفنون وأصعبها ؛ وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم ؛ فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها .

الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لايكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها ، فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لاريب فيه بأن المعتقدين بها لابد ان يكونوا أول ملة حربية فى العالم ، وان يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة ، واتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجرالأثقال والهندسة وغيرها ، ومن تأمل فى آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها ، والسعى اليها بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ ان الشرع الإسلامى حرم المراهنة الا فى السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات ، إذ يراهم يتهاونون بالقوة ، ويتساهلون فى طلب لوازمها ، وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ولا فى اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الامم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ، ورضخوا لاحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتر اليوز وغيرها بأيدى أبناء الديانة الاولى قبل الثانية . وكيف وجدت بندقية مارتين فى ديار الأولين ، قبل وجودها عند الآخرين ! وكيف أحكمت الحصون ، ودرعت البواخر ، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم ، دون أهل الغلبة والحرب !

لم لايحار الحكيم وان كان نطاسياً ! لم لايقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ! هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين فى نفوس المتمسكين بعراها ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهرياً من اجيال بعيدة ؟

هل اقتصر النصارى فى دينهم على الأخذ بشريعة موسى ، واقتفاء سيرة يوشع بن نون ، هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين ، أوالتى شىء منها فى أمانى معلميهم وناشرى شريعتهم عند مايتربعون فى محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله فى الملتين هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح ؟ أو وجد للارواح دبير سوى الفكر والخيال ؟ أو انفلتت الافكار من سلطة الدين ؟ أو ، تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته ، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها . هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول إلى كشف المساتير وحل المعميات ؟

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس ، وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة ويتقاربون فى الانساب الدانية . أينسب هذا إلى اختلاف الاقطار وكثير من القبيلين يتشابهون فى طبائع البلدان ، ويتجاورون فى مواقع الامكنة . ألم يصدر من المسلمين وهم فى شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار ، وادهشت الألباب . ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسى السيادة فيها ، كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية اشباه المدافع ، فزع لها المسيحيون ، وغابوا عن معرفة أسبابها ذكر ملكام سرجم « انجليزى » فى تاريخ فارس أن محموداً القزنونى كان يحارب وثني الهند بالمدافع وكانت هى الأسباب فى انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها .

فأى عون من الدهر أخذ بأيدى الملة المسيحية فقدمها إلى مالم يكن فى قواعد دينها . وأى صدمة من صدماته دفعت فى صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطى الوسائل لما هو أول مفروض فى دينهم ؟ مقام للحيرة وموضع للعجب ! ويظن أن لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ، ولكن نجمل على ما شرطنا

أن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمت دعوته في الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة ، وعلومهم وشرائعهم الأولى ، وجاء الدين المسيحي إليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فإن صحف الإنجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم إن الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا محاربة الصليب ، ودعوا إليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية ، وجرت منها مجرى الأصول ، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوروبا، وافترقوا شيعات وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعادو ميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراماً ، وتوسعوا في فنون كثيرة ، وانفسح لهم مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم في الفن العسكري ، واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون .

أما المسلمون فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حربي حظا ، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم ، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة ، وعلوم النزال والمكافحة ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ماليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت في الاذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الاعمال ، هذا إلى ماأدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ، ولاتثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الاحاديث ينسبونها إلى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة وأن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصاً

بعد حصول النقص فى التعليم والقصير فى إرشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التى دعا إليها النبى وأصحابه فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة فى دوائر مخصوصة وبين فئه ضعيفة لعل هذا هو العلة فى وقوفهم . بل الموجب لتقهقرهم . وهو الذى نعانى من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه .

إلا أن هذه العوارض التى غشيت الدين . وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفاً . لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التى لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لاينقطع . والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج . وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم . ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلا بد يوما أن يسطع ضياؤة ويقشع سحاب الاغيان . وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق . وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم . ومغالبة المعتدين . وطلب المنعة من كل سبيل . لايعين لها وجها . ولا يخصص لها طريقا .

فاننا لا نرتاب فى عودتهم إلى مثل نشأتهم . ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ماسلب منهم . فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم . وضنا بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع وإلى الله تصير الأمور .

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»

إن للمسلمين شدة فى دينهم وقوة فى إيمانهم وثباتا على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل . وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض . ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء . وهذه الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم . حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الارض عالما كان أو جاهلا أن واحداً ممن وسم بسمة الاسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبا عن دينه رأيت من يصل إليه هذا الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع . ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به. بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه . ولو ذكرت مثل هذه الحادثه فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لايتمالك قلبه من الاضطراب ودمعه من الغليان . ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان . وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ، ومن فروضهم فى سبيل

الحماية وحفظ الولاية ، بذل الأموال والارواح وارتكاب كل صعب ، واقتحام كل خطب . ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خاصة لهم من دون غيرهم ، وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره ، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه . وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق ، ولايغير منها تأويـلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان .

المسلمون يحث كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطـالبه به الشريعة ، وما يفـرض عليه الايمان ، وهو هـاتف الحق الذى بقى له من إلهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولايألمون لما يألم له بعضهم فأهل (بلوجستان) كانوا يرون حركات الانجليز فى (أفغانستان) على مواقع أنظـارهم ، ولايجيش لهم جـأش ولم تـكن لهم نعرة على إخوانهم ، والافغـانيون كانوا يشهدون تداخل الانجليز فى بلاد فارس ولا يضجرون ولايتململـون ، وإن جنود الانجليز تضرب فى الأراضى المصرية ذهابـاً وايابـاً وتقتـــل وتفتك ، ولاترى نجدة فى نفوس اخوانهم المشرفين على مجـارى دمائهم ، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدهـا بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن شمائلهم .

تمسك المسلمين بتلك العقـائد وإحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة التى هم عليهـا ممايقضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة ، ويسبق إلى بيـان السبب فخذ مجملا منه : ان الافـكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعـلومات والمـدركات والوجدانيـات النفسية وإن كانت هى البـاعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم ، لكن الأعمال تثبتهـا وتقويها وتطبعها فى الانفس عليها حتى يصـير مايعبر عنه بالملـكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها .

نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ماينعكس الى مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ، فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له اثر فى داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل الى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار ، مادامت الارواح فى الاجساد ، وكل قبيل هو للآخر عماد .

إن للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا اثر لها فى الاعتصاب والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات ، وتلجىء اليه الحاجات ، عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار ، وبعد كرور الايام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه فى آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية كالإحساس بالجوع والعطش والرى والشبع ، بل اشتبه امره على بعض الناظرين فعده طبيعاً . فلو اهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات الحياة فى وقت من الاوقات إلى مايمكن تلك الصلة ويؤكدها ، أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبة أو الجأته ضرورة الى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ، ولم يبق منها إلا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى اقوى رابطة بين البشر يكون الامر فى سائر الاعتقادات التى لها اثر فى الاجتماع الانسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض . إذا لم يصحب العقد الفكرى ملجىء الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من اشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وإنما يعد فى الصور العلمية له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الأصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب فى سكون المسلمين إلى ماهم فيه مع شدتهم فى دينهم ، والعلة فى تباطؤهم عن نصرة إخوانهم ، وهم أثبت الناس فى عقائدهم ، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لاتواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلا عمن يبعد عنهم ، والعالم الهندى فى غفلة عن شؤون العالم الافغانى وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ، ولا صلة تجمعهم إلا مايكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر ، أما فى هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب بينهم ، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء ، كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى المشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام ، وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته .

كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه ، فتداعت للتناثر والانحلال ، وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدأ هذا الإنحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضى الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان ، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام : خلافة عباسية في بغداد ، وفاطمية في مصر والمغرب ، وأموية في أطراف الأندلس ، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلاف إلى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا ، وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى ما يليه ، فتبدد الجمع إلى آحاد ، وافترق الناس فرقاً كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة ، وتبعث على اشتباك الوشيجة ، وصار مافي العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عند ما تنزل المصائب ببعض المسلمين ، بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول من الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الأموات من الأقارب لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم

ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع ، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة ، وليس يخاف على المستبصرين مايتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل .

إلا إنا نأسف غاية الأسف إذا لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل وإن التفتت اليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة ، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم ، فقد دارستهم التجارب ببيان لامزيد عليه ، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الى من يبعد عنهم ، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة ، أو ما يخشى أن يمسها بضرر ، ويكونون بهذ العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة ، والرمق باق والآمال مقبلة ، والى الله المصير .

سبات من له حق
وحراك من لا حق له.

هذه دول أوروبا جميعاً ودولة فرنسا خصوصاً شاخصة الابصار الى ما أصاب مصالحها وأضاع حقوقها فى القطر المصرى وأضر بتجارتها فيه ، ولا تبدى حركة ولا يسمع لها صوت ، إلا همس خفى فى الجرائد ، والدولة العثمانية وهى شديدة الازر قوية العضد بما لها من المكانة فى قلوب الهنديين ، وكل انجليزى قلبه بين أصابع الدولة العثمانية ، وأحشاه مستقرة على أناملها ، وفى نظرها أن سلطتها أشرفت على الزوال فى الاقطار المصرية ، وسيادتها عليها كادت تكون اسماً ، ومع ذلك لا تأتى عملا ولا تخطو خطوة ، سوى انها اكتفت باقامة الحجج ورفع الصوت بالاستغاثة لدى الدول ، حتى ابحها الصياح وليس من يسمع ولا من يجيب . وذوو الحقوق فى الولاية على مصر والأخذ بزمام الحكم فيها على اختلاف مشاربهم ، قد شدت أياديهم بحبال من الآمال ، وسلاسل من المخاوف ، لايجدون لهم قراراً على فكر ، ولا ثباتاً على رأى ، وإنما هم بين أعصار من الأوهام ، وتيارات من هواجس الخيال ، يحملقون إلى مواقع الحوادث ، حائرين لايطرف لهم طرف ، ولا يغمض لهم جفن ، وعامة الأهالى فى الديار المصرية بين فقر كاد يفضى الى قحط ، واختلاف فى النظام ، وضعف فى السلطة ، وخبط فى الأحكام، كادت تؤدى الى يأس من الاصلاح ، وقد أخذهم الدوار من التلف الى جوانبهم طوراً ينظرون الى حكامهم نظر الآمل فى هممهم ، وحسن تدبيرهم ، وآخر الى ما وعدتهم به الحكومة الانجليزية من الجلاء عن أوطانهم ، وتركهم وما يدبرون لانفسهم ، والقرعة تضرب عند الأمة البريطانية على ديارهم ، بدون أن يجعل لهم فيها سهم ، كانما هم عنها أغراب لايؤبه بهم ، ولايبالى بشأنهم .

نزاع بين رجال السياسة الانجليزية ، بعضهم يدفع الحكومة للاستيلاء على مصر واعلان السيادة عليها ، واستلام أزمة أحكامها وآخرون يقولون هذا

مما يخالف أحكام الزمم ، و لاتسوغه شريعة الوفاء ، وإنما علينا أن نحل بها عساكرنا زمنا يكفى لقضاء ما نريده فيهـا ، ثم نخليها إذا لم يوجد موجب يحتم البقاء . عبارات مختلفة ، ومعان متشابهة ، يتنازعون وهم متوافقون ، ويتخالفون وهم متحدون ، يذهبون فى انتحال الأسباب لما يبتغون ، مذاهب مختلفة فبعض الجرائد كجريدة « التايمز » وما على مشربها تعتل بالجنرال جوردون وتهون ما حل به من الفشل وتتقدم إلى الحكومة الانجليزية بطلب انقاذه من الخطر . ولا وسيلة لخلاصه إلا إعلان الحكومة بالسيادة على البلاد المصرية ، فلهذا الاعلان من القوة المعنوية التى تدافع عن الجنرال ما ليس لجيش عرمرم ، أما ارسال الجيوش فهو محال لوعرة السبل وكثرة النفقات وشدة الحرارة ، ولئن همت به الحكومة فانما يكون من أعمال اليأس والقنوط ، فهذه الجرائد جعلت هذه المصالح الدولية وحقوق الدولة العثمانية وحقوق ستة ملايين من سكان القطر المصرى ، فداء لرأس الجنرال جوردون وفى زعمها أن ماتراه ليس رأياً يبديه أرباب الجرائد بل هو ما تراه الأمة البريطانية بأسرها ، وربما لايكون بعيداً ، وبعض الجرائد وتشاركهم جريدة «التايمز» تتذرع فيما تطلب بما حصل لأرباب الديون المصرية من القلق على ديونهم ، وليس لهم ضمانة ترفع قلقهم ، ويسكن اضطرابهم ، إلا اعلان السيادة على القطر المصرى وقوم آخرون منهم يجعلون حجتهم مصائب الأهالى المصريين ورزاياهم وما حل ببلادهم من احتلال ، ولاينقذهم من هذا الشقاء إلا السيادة الانجليزية ، جميعهم على وفاق على أن هذه السيادة هى الجوهر الثمين والسر المكنون ، والاكسير المضنون به على غير أهله ، متى أبرزوه لم يبق مريض إلا عوفى ، ولا ضعيف إلا قوى ، ولا فاسد إلا صلح ، كأن فى هذا الاسم ما فى الرقى والطلاسم ، يغنى عن الجيوش والأموال والعدة والرجال .

ولا نظن أن يكون فى هذا الاسم ما يدعيه الانجليز من القوة ولا أن تكون فى طيه هذه الاسرار العجيبة ، ولو أننا فرضنا تنازل أرباب الحقوق عن

حقوقهم من الدول الاوروبية والدولة العثمانية وأرباب الشأن الولاية ، وسوعوا لحكومة انجلترا أن تنقش أحرف السيادة فى أوراقها الرسمية أو فى هوآء الديار فليس من السهل عليها أن تزيد الحامية الى حد يحفظ ملكا عظيما يتاخم بلاد أوروبا وقد ظهرت آثار قوتها مدة الحلول وماعاد منها على البلاد ، على أن الأهالى كانوا فى سكون تام لركونهم إلى ماتعدهم به حكومة انجلترا من الجلاء عن أوطانهم فاذا أعلنت السيادة انفصمت علائق الآمال ، وانحرفت القلوب ومالت إلى الدعوة القائمة على القرب منها ، وانقلب الكافة الى الذود عن حقوقهم الوطنية أو الملية ، ولا يرهبون القوة الانجليزية فى داخل البلاد بعد ماعلموا شأنها ويكون هذا حجة جديدة لمحمد أحمد فى تأييد دعواه لدى المصريين ولا يرعبه اسم السيادة بعد ما لم ترهبه جيوش الجنرال هكس وجراهام ، وفتكه بالأولى وإلجائه الثانية ، إلى إخلاء سواحل البحر الأحمر ، فأى شأن يكون لهذا الاسم الشريف ،نعم يكون بداية مشكل جديد فى مصر والله أعلم بعاقبته .

التعصب

" اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء "

لفظ شغل مناطق الناس خصوصا فى البلاد الشرقية تلوكه الألسن وترمى به الأفواه فى المحافل والمجامع حتى صار تكأة (١) للمتكلمين ، يلجأ اليه العيى (٢) فى تهتهته ، (٣) والذملقانى (٤) فى تفيهقه (٥) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها ، يعدون مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعاً لكل عناء ، ويزعمونه حجابا كثيفا وسداً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانا على النقص وعلماً للرذائل ، والمتسربلون بسرابيل الافرنج الذاهبون فى تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لايميزون بين حق وباطل ، هم أحرص الناس علي التشدق بهذا البدع الجديد ، فتراهم فى بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال ، وإذا رموا به شخصا للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ أفرنجى (فناتيك) (٦) فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا ،وهمزوا به وغمزوا ولمزوا ، وإذا رأوه عبسوا وبسروا ، وشمخوا بأنوفهم كبراً وولوه دبراً ، ونادوا عليه بالويل والثبور ، ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة ، ومصدراً لكل نقيصة ، وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته ؟

---

(١) التكأة : مايتوكأ عليه (٢) العيى : من العى وهو العجز عن الكلام (٣) التهتهة : ضرب من اللكنة (٤) الذملقاني : السريع الكلام (٥) التفيهق : التوسع والتنطع (٦) معناها : متعصب

التعصب قيام بالعصبية ، والعصبية من المصادر النسبية ، نسبة الى العصبة ، وهى قوم الرجل الذين يعززون قوته ، ويدفعون عنه الضيم والعداء ، فالتعصب صف للنفس الانسانية ، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس فى معلوماتها ومعارفها .

هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الأمم وهو عقد الربط فى كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، اوينشئها بتقدير الله خلقا واحداً ، كبدن تألف من أجزاء وعناصر ، تدبره روح واحدة ، فتكون كشخص يمتاز فى أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الاشخاص .

وهذه الوحدة هى مبعث المباراة بين أمة وأمة ، وقبيل وقبيل ، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش ، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة ، وسمو المقام ونفاذ الكلمة ، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة .

التعصب روح كلى مهبطه هيئة الأمة وصورتها ، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره فاذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبى عنه انفعل الروح الكلى ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسعر النعرة الجنسية. هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، أويؤول بها الى سوء عاقبة ، وأن استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة فى أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حى ، لا يجد الرأس بارتفاعه غني عن القدم ، ولايرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبة الوجود وانما كل يؤدى وظائفه لحفظ البدن وبقائه .

وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمه بضعف التعصب فيهم استرخت الاعصاب ، ورثت الأطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الامة إلى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء ، بعد هذا يموت الروح الكلى ، وتبطل هيئة الامة وإن بقيت آحادها ، فماهى إلا كالأجزاء المتناثرة ، إما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، وإما أن تبقى فى قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الاخرى . (سنة الله فى خلقه) إذا ضعفت العصبية فى قوم رماهم الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع فى الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر فيتسع للاجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب فى نشأة ثانية .

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذى بينا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذى أشرنا لرزاياه ، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء فالمفرط فى تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر إلى الاجنبى عنه كما ينظر إلى الهمل ، لايعترف به بحق ، ولا يرعى له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة ويذهب بهاء الامة ، بل يتقوض مجدها ، فان العدل قوام الاجتماع الانسانى ، وبه حياة الامم ، وكل قوة لاتخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال ، وهذا الحد من الافراط فى التعصب هو المقوت على لسان الشارع ﷺ فى قوله « ليس منا من دعا إلى عصبية » .

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فاطلقوا على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً ، والمتنطعون من مقلدة الافرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالتعس . ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل . فان لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب

الـكمالات ، لايختلـف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفــة من البشر ، وعن كل منهما صــدرت فى العالم آثار جليلة يفتخربها الـكون الانسانى ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات معيشته ، وبين مايصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب .

فتعصب المشتركـين فى الدين المتوافقين فى أصول العقائد بعضهم لبعض إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور فى المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، وأوفرها نفعاً وأجزلها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، إذا استحكمت صعدت بذوى المـكنة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصا إن كانوا من قبيل قوى فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما فى أهل الديانة الاسلامية ، على ما أشرنا اليه فى العدد الثانى من جريدتنا .

ولا يؤخذ علينا فى القول بأنه مــن أقدس الروابط ، فانه كما يطمس رســوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل ما بينهم فى المقاصد والعزائم والأعمال ، وكـذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتخالفة فى المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة فى الصور والاشكال ، ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم هذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الدينى ، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد اليه العقل الصحيح ، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شىء منــه .

ثغثع جماعة من متزندقة هذه الأوقات فى بيان مفاسد التعصب الدينى وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من

غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير الى كمال الدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم ، ومن رأى أولئك الثفثفين أن لاسبيل لدرء المفاسـد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الاسلامى ، ويخوضون فى نسبة مذام التعصب اليهم .

كذب الخراصون ، ان الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف ، وأرحم مؤدب وأبصر مروض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة ، والخلائق الكريمة ، ويقيمها على جادة العدل ، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ، خصوصاً دين الاسلام فهو الذى رفع أمة كانت من اعرق الأمم فى التوحش والقسوة والخشونة ، وسما بها الى أرقى مراقى الحكمة والمدنيـة فى أقرب مدة ، وهى الأمة العربية .

قد يطرأ على التعصب الدينى من التغالى والإفراط مثل مايعرض على التعصب الجنسى فيقضى الى ظلم وجور ، ربما يؤدى إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ومحق وجودهم ، وكما قامت الامم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين فى الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمى الاندلس ، وكما وقع قبل هذا وذاك فى بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحى ، إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فى القدس وأحرقهم إلا ان هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة ، ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل .

أما أهل الدين الاسلامى فنهم طوائف شطت فى تعصبها فى الاجيال الماضية الا انه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفيهم

فى دينهم ، وما عهد ذلك فى تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ماتقول ، وهو وجود الملل المختلفةفى ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم فى عنفوان القوة وهى فى وهن الضعف، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم فى سلطانهم ، إلا انهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم :
(أن من رضى بذمتنا فله ما لنا وعليه ماعلينا) ولم يعدلوا فى معاملتهم لغيرهم عن امر الله فى قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية .

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ، ولقد سما فى دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من ارباب الاديان المختلفة ، وكان ذلك فى شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الامر على ما كان ، وفى الظن ان الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم).

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم فى بدايات دولهم ، وتغلغلهم فى افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة فى الملك والسلطة ، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها ، فإن قبلت والا استبدلوا بها رسماً مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلا مى، هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فإنهم ما كانوا يطأون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم ، والتطوق بدين اولئك المسلطين وهو الدين المسيحى كما فعلوا فى مصر وسورية ، بل فى البلاد الافرنجـــية نفسها .

هذا فصل من الـكلام ساق إليه البيـان وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده : هل لعاقل لم يصب برزيئة فى عقله أن الاعتدال من التعصب الدينى نقيصة ، وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسى الا بمايكون به التعصب الدينى اقدس وأطهر وأعم فائدة . لانخال عاقلا يرتاب فى صحة ما قررناه فما لاولئك القوم يهذرون بما لايدرون ؟ أى أصل من أصول العقل يستندون اليه فى المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسى فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضـائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن ، وأى قاعـدة من قواعـد العمران البشرى فى التهـاون بالتعصب الدينى المعتدل وحسبـانه نقيصة يجب الترفع عنهـا .

نعم ان الافرنج تأكد لديهم ان أقوى رابطة بين المسلمين انما هى الرابطة الدينية ، وادركوا أن قوتهم لاتـكون الابالعصبية الاعتقـادية ، ولأولئك الافرنج مطـامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفـكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبـالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ، فانهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون ان المسلمين لايعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم ، وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليداً فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما فقدوهـا ولم يستبدلوا بها رابطـة الجنس التى يبالغون فى تعظيمها واحترامها حمقا منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيىء لنفسه مسكنا سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضا لفواعل الجو وماتصول به على حياته .

من هذا ما سلك الانجليز فى الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطنة يطوف على أفـكار المسلمين منهم لقرب عهدها بهم وفى دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى استرداد ماسلب منهم ، وأرشدهم البحث فى طبـائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية وما دام الاعتقاد المحمدى والعصبة الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثهم إلى طلب حقوقهم فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ، ويلبسون لبـاس المسلمين ، وفى صدورهم غل ونفاق وفى قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون فى البلاد الهندية

بالنيجرية أى الدهريين فاتخذهم الانجليز أعوانا لهم على فساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الدينى ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة فى (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف فى العقائد وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الانجليز فى التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم ، وغر أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة (تعس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذال العيش) .

هذا أسلوب من السياسة الأوربية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل فى البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ، ولم تعدم صيداً من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة ، واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم، وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ، ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى إيمانهم يسفكون الكلام فى ذم التعصب الدينى ، ويهجرون فى رمى المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين ، يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفى محوه محو الملة ودفعها إلى أيدى الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرض والسماء سماء .

والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الامم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيع التعصب الدينى ورمى المتعصبين بالخشونة . الافرنج أشد الناس فى هذا النوع

من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه ، ومن القواعد الاساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، وإذا عدت عادية مما لايخلو عنه الاجتماع البشرى على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم فى ناحية من نواحى الشرق سمعت صياحاً وعويلا وهيعات ونبآءات تتلاقى أمواجها فى جو بلاد المدنية الغربيه وينادى جميعهم : ألاقد ألمت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة ، فاجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لاتنخدش الجامعة الدينية ، وتراهم على اختلافهم ، فى الاجناس وتباغضهم ، وتحاقدهم وتنابذهم فى السياسات ، وترقب كل دولة منهم ، لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء يتقاربون ويتآلفون ويتحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم ، فى الدين وإن كان فى أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم ، الأنساب الجنسية .

أما لوفاض طوفان الفتن وطم وجه الأرض وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ولا يتنبه لهم إحساس بل ، يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع فى الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم ، من الحيوانات السائمة والهمل الراعية ، وليس من نوع الانسان الذى يزعم الاوروبيون انهم حماته وأنصاره ، وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهداً فى تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه . أما ان شأن الافرنج فى تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة فى الحرية كجلادستون ، ثم لاتجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب [1] بل لاترى روحه إلا نسخة من روحه ، (أنظر إلى كتب جلادستون وخطبه السابقة) .

---

(١) هو داعية الحرب الصليبية .

فيا أيتها الأمـة المرحومة هذه حياتـكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتـكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت . هذه هى روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى ، والفارسى بالهنـدى ، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تنأت دياره ، وتقاصت أقطاره.

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها ، ولـكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل، فالعدل أساس الـكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم ، ومعرفة الحقوق لأربابها ، وحسن المعاملة وإحكام الألفة فى المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطـانكم وجيرانـكم من أرباب الأديان المختلفة ، فإن مصالحـكم لاتقوم إلا بمصالحهم ، كما لاتقوم مصالحهم إلا بمصالحـكم ، وعليكم أن لا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب . هذا ولا تجعلوا عصبيتـكم قاصره على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الأمم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة والفضائل والـكمالات الانسانية .

اجعلوا عصبيتكـم سبيلا لتوحيد كلمتـكم ، واجتماع شملـكـم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الـكمال وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .

القضاء والقدر

مضت سنة الله فى خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية ، فما يكون فى الأعمال من صلاح أو فساد ، فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على مابينا فى بعض الأعداد الماضية ، ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها فى النفس ، ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس فى تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بهاعند الاعتقاد شىء مما تصادفه، وفى كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها ، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ فى الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة ، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ، ولا كيف يصرفه اعتقاده ، والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة ، ومن مثل هذا الانحراف فى الفهم وقع التحريف والتبديل فى بعض أصول الأديان غالباً ، بل هو علة البدع فى كل دين على الأغلب ، وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال ، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير ، وهذا مايحمل بعض من لاخبرة لهم على الطعن فى دين من الأديان ، أو عقيدة من العقائد الحقة استناداً الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة .

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الاسلامية الحقة . كثر فيها لغط المنغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ،

ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطواراً ، ثم خصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر فقالوا : ان المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر فى القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم ، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لاينافسون غيرهم فى فضيلة ، ولكن متى أمكن لأحدهم ان يضر أخاه لايقصر فى إلحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى ، رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون فى كسور بيوتهم ، يسرحون فى مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم ، الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم فى اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق فى أدائها أعمارهم ولايؤدون منها شيئا. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافا وتبذيراً نفقاتهم واسعة ، ولكن لايدخل فى حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون ، .وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة ، كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدى عليه جاره ، فيجد الأجنبى فيهما قوة فانية وضعفا قاتلا فينال من بلادهما مالا يكلفه عددا ولا عدة . شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور يفزعون من الهمس ، ويألمون من اللمس . قعدوا عن الحركة الى مايلحقون به الأمم فى العزة والشوكة ، وخالفوا فى ذلك أوامر دينهم ، مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم ، يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون ، وإذا أصاب قوما من اخوانهم مصيبة أوعدت عليهم عادية لايسعون فى تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم ، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لاجهرية ولاسرية ، يكون من مقاصدها احياء الغيرة ، وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بغى الأقوياء وتسلط الغرباء .

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار ، وزعموا ان لا منشأ لها إلا اعتقادهم بالقضاء والقدرو تحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية ، وحكموا بأن

المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن ينالوا عـزاً ولن يعيـدوا مجداً ، ولا يأخذون بحق ، ولا يدفعون تعديا ، ولا ينهضون بتقوية سلطان ، أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يفعل فى نفوسهم ، ويركس من طباعهم ، حتى يؤدى بهم إلى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفنى بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدى بعضهم يحصده الأجانب .

واعتقد أولئك الافرنج انه لافرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القـائلين : بأن الانسـان مجبور محض فى جميـع أفعاله ؛ وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ، ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لاخيار لهم فى قول ولا عمل ، ولا حركة ولاسكون ، وانما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقـدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطـل قواهم ، ويفقدون ثمرة ماوهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى الشرق ولست أخشى أن أقول : كذب الظان . وأخطأه الوهم وبطل الزاعم . وافتروا على الله والمسلمين كذبا ـ لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى واسماعيلى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيـار عن نفسـه بالمرة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختيـارياً فى أعمـــالهم ، ويسمى بالـكسب ، وهومناط الثواب والعقـاب عند جميعهم ، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية ، والنواهى الربانية ، الداعية إلى كل خير ، الهادية إلى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التـكليف الشرعى ، وبه تتم الحـكمة والعدل.

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى أن الإنسان مضطر فى جميع أفعـاله اضطراراً لايشـوبه اختيار وزعمت أن لافرق بين أن يحرك الشخص

فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد إليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقاربه فى الزمان ، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب الا ما هو ، حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادة الانسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة . وليست الإرادة إلا أثراً من آثار الادراك . والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس . وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات . فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله . فضلا عن عاقل ، وأن مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته . وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزاء له . خصوصا فى العالم الإنسانى .

ولو فرضنا أن جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس فى إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الإرادات البشرية . فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنها الله فى خاتمه ؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين — وإن بعضا من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا إلى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان فى اثباتها ، ولسنا فى حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم .

إن للتاريخ علما فوق الرواية عنى بالبحث فيه العلماء من كل أمة وهو العلم الباحث عن سير الأمم فى صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها ، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والأخلاق والأفكار ،

بل فى خصائص الإحساس الباطن والوجدان ، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم ، وتكون الدول ، أو فناء بعضها واندراس أثره .

هذا الفن الذى عدوه من أجل الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والادعان بأن قوى البشر فى قبضة مدبر الكائنات ، ومصرف الحادثات ، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والأقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الأسود ، وتنشق منها مرائر النمور . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلى عن نضرة الحياة ، كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته ، أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الالهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) اندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم إلى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى الفاصلة

بين اسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين ، مع قلة عدتهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الأقطار المتنوعة ، أرغموا الملوك ، وأذلوا القياصرة والأكاسرة ، فى مدة لاتتجاوز ثمانين سنة . ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمروا بلاداً ، ودكدكوا أطواداً ، ورفعوا فوق الأرض أرضا ثانية من القسطل ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم ، وأقاموا بدلها جبالاً وتلالاً من رؤوس النابذين لسلطانهم ، وأرجفوا كل قلب ، وأوعدوا كل فريصة وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الإعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم ، وردوهم على أعقابهم .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم ، لايخشون فقراً ولايخافون فاقة . هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم إلى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم ، كانما يسيرون الى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة ، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم ، وخدمتها فيما تحتاج إليه ، لايفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الابحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولاتغشى الأولاد مهابة ، هذا الإعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد افلاذ الاكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب ، يقذف به فى قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم .

بكائى على السالفين ونحيبى على السابقين ، أين أنتم ياعصبة الرحمة وأولياء الشفقة أين انتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ، أين أنتم يا آل النجدة ، وغوث المضيم يوم الشدة أين أنتم ياخير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ، ألاتنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ، انحرفوا عن سنتكم ، وجاروا عن طريقكم فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقاً وأشياعاً ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً . اضحوا فريسة للامم الأجنبية لايستطيعون ذوداً عن حوضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم ، ألايصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال ، إلى سواء السبيل ؟ (انا لله وانا اليه راجعون) .

أقول وربما لا أخشى واهماً ينازعنى فيما أقول انه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم ، ولامحارب شهير ، نبت فى أوسط الطبقات ، ثم رقى بهمته الى أعلى الدرجات فذللت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك مايدعو الى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب ، إلا كان معتقدا بالقضاء والقدر . سبحان الله ، الإنسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة ، فما الذى يهون عليه اقتحام المخاطر ، وخوض المهالك ، ومصارعة المنايا ، إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وركون قلبه الى أن القدر كائن ولا أثر لهول المظاهر .

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسى (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف فى تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر فى فتوحاته الواسعة ، الا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر ، فكان لهذا الاعتقاد لايهو له هول ، ولا توهن عزيمته شدة ، وان اسكندر الاكبر اليونانى كان ممن رسخ فى نفوسهم هذه العقيدة الجليلة وجنكيز خان التترى

صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد ، بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنسلوى من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء ، وهى التى كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة ، فيتهيأ له الظفر ، وينال بغيته من النصر .

فنعم الاعتقاد الذى يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله فى طبقته أيا كانت ، نعم إننا لاننكر ان هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر ، وربما كان هذا سببا فى رزيئتهم ببعض المصائب التى أخذتهم بها الحوادث فى الأعصر الأخيرة ، ورجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم فى تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ماطرأ عليها من لواحق البدع ، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وماكانوا يعملون ، وينشروا بينهم ما أثبتته ائمتنا رضى الله عنهم كالشيخ الغزالى وأمثاله من أن التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا فى العمل ، لا فى البطالة والكسل ، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا ، وننبذ ما أوجب علينا ، بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين ، الحائدين عن الصراط المستقيم ولايرتاب أحد من أهل الدين الاسلامى فى أن الدفاع عن الملة فى هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقة التى تجمع كلمتهم ، وترد اليهم عزيمتهم ، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول ، الا دعوة خير من علمائهم ، وان جميع ذلك موكول إلى ذمتهم .

أما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشأوه هذه العقيدة « ولا غيرها من العقائد الاسلامية » ونسبته اليها كنسبة النقيض إلى نقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار . نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر ، وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان ، صدمة من طرف الشرق وهى غارة التتر من جنكيزخان وأحفاده ،

وصدمة من جهة الغرب وهى زحف الأمم الأوروبية بأسرها على ديارهم ، وان الصدمة فى حال النشوة تذهب بالرأى ، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ، ووسد الامر فيهم الى غير أهله ، وولى على أمورهم من لا يحسن سياستها ، فكان حكامهم وأمراؤهم من جرائيم الفساد فى أخلاقهم وطباعهم ، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم ، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التى لا تتجاوز لذته الآنية ، وأخذ كل منهم بناصية الآخر ، يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب ، لا لعلة صحيحة ولا داع قوى ، وجعلوا هذا ثمرة الحياة ، فآل الامر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى ما صاروا اليه .

ولكنى أقول — وحق ما أقول — ان هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ، ورسومها تلوح فى أذهانهم ، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم ، وكل ماعرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلى ، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة ، ويعود الامر كما بدا وينشطوا من عقالهم ، ويذهبون مذاهب الحكمة والتبصر فى انقاذ بلادهم ، وارهاب الأمم الطامعة فيهم ، وإيقافها عند حدها ، وما ذلك ببعيد ، والحوادث التاريخية تؤيده . فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية)وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم ، واتسعت لهم ميادين الفتوحات ، ودوخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك ، ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية ، حتى كان السلطان العثمانى يلقب بين الدول بالسلطان الأكبر .

ثم أرجع البصر تجد هزة فى نفوسهم وحركة فى طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب : حركة سرت فى أفكار ذوى البصيرة منهم فى أغلب الانحاء شرقا وغربا وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع ، والسعى بغاية الجهد لبث أفكارها ،

وجمع الكلمة المفترقة ، وضم الأشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية ، لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل إليهم بعض ما يضمره الأجانب لهم ، وإنا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم ، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها ، وتأييد مقصدها الحق ، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموماً وللمسلمين خصوصاً .

الفضائل والرذائل وأثرهما

" وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين "

قالوا : للانسان كمال مفروض عليه أن يسعى إليه ، وقالوا إنه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا كماله فى استيفاء مايمكن من الفضائل ، ونقصه فى التلوث برذيلة من الرذائل ، فما هى الفضائل وما هى الرذائل ، الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ، فالسخيان لايتشاحان ولايتنازعان فى التعامل ، فإن من سجية كل منهما البذل فى الحق ، والمنع إذا اقتضاه الحق ، فكل يعرف حده فيقف عنده ، فلايوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الأعمال المالية ، والأعفاء لايتزاحمون على مشتهى من الشهيات ، فان من خلق كل منهم التجافى عن الشهوة ، وفى طبيعته الايثار بالرغائب ، وهكذا إذا استقريت جميع ما عده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها فى متعلق الأثر الناشىء عن تلك الفضيلة فإذا اجتمعت الفضائل أو غلبت فى شخصين مالت نفوسهما إلى الاتحاد والالتئام فى جميع الأعمال والمقاصد أو جلها ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة وعلى هذا النحو يكون الأمر فى الأشخاص الكثيرة ، فالفضائل هى مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد ، تميل بكل منهما الى الآخر الى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم ، يتحرك بإرادة واحدة ، ويطلب فى حركته غاية واحدة ، مجموع الفضائل هو العدل فى جميع الأعمال فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده فى عمله لايتجاوزه بما يمس حقاً للآخر فيه يكون التكافؤ والتوازر ، لكل شخص من أفراد الإنسان وجود خاص به وأودعت فيه العناية الألهية من القوى مابه يحفظ وجوده ، وما به التناسل لبقاء النوع ، وهو

فى هذا يساوى سائر أفراد الحيوان ، لكن قضت حكمة الله أن يكون الإنسان ممتازاً عن بقيـة الأنواع الحيوانيـة بكون آخر ، ووجود أرقى وأعلى ، وهو كون الاجتماع ، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد ، والأفراد فيها كأعضاء تختلف فى الوظـائف والأشكال ، وإنما كل يؤدى عمله لبقـاء البنية الجامعة وتقويتهـا وتوفير حظها من الوجود ليعود إليه نصيب من عملها الكلى كما أودع الله فى أعضـاء أبداننا وبنيتنا الشخصية ، والفضائل فى المجتمع الإنسانى كقوة الحياة المستكملة فى كل عضو مايقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليـد بها البطش والتنـاول وليس من خصائصها الابصار ، والعين بها الابصـار وتميز الألوان والاشكال ، وليس مـن وظـائفها البطش والـكل حى بحيـاة واحدة ، وان شئت قلت الفضائل فى عالم الإنسان كالجذبة العامة فى العالم الكبير ، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب فى مركزه ، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره فى مداره الخاص بتقـدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله فى وجود الأكوان وبقائها : كذلك شأن الفضائل فى الاجتماع الإنسانى ، بها يحفظ الله الوجود الشخصى إلى الأجل المحدود ويثبت البقـاء النوعى إلى أن يأتى أمر الله .

أى أمة يكون الواضع فيها والرافع ، والحارس والوازع ، والجالب والدافع ، وجميع من يدير أمورها ، ويسوسها فى شؤونها انما هم أفراد منها من هاماتها أو من لهازمها « من الأعلياء والأوساط بل سائر الاطراف » ويكون كل واحد منهـا قائما بحق الكل ولايختار مقصداً يعكس مقصد الكل ،ولا يسعى إلى غاية تميل به من غاية الكل ،ولايهمل عملا يتعلق بالأمة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا تزعزعه العواصف ولاتدكه الزلازل ، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة ، تحفظ بها موقعها ، وتدفع ، بها عن شرفها ومجدها ، وترد غارة الأغيـــار عليها ؛ فهى الأمة التى سادت فيها الفضائل ، واستعلت فيها مكارم الأخلاق .

أن أمة هذا شأنها لايتخالف أفرادها إلا للتآلف ، ولا يتغايرون إلا للاتحاد ، فمثلهم فى اختلاف أعمالهم كمثل المتدايرين على محيط دائرة يتفارقان فى مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ومثالهم فى تغاير مأخذهم لجلب منافعهم كجاذبى طرفى خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ، ففى جذب أحدهما لصاحبه إبعاد لنفسه عنه من وجه ، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر ، فلا يفترقان ولا يتباينان ، ولا تفنى منفعة أحدهما فى منفعة الآخر ، أما أن مسالك الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كأنصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية ، وإنهم فى جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه.

يرى كل واحد منهم ان ما تبتهج به النفوس البشرية وتمتاز بالميل إليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة . انما يمكن إذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا فيسعى جهده لابلاغ كل واحد من الأمة أقصى مايؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله . فلايهمل ولايخون فى الدفاع عن فرد من أفرادها . فضلا عن هيئتها العامة . وإلا فقد خان نفسه . لأنه أبطل آلة من آلات عمله . وقطع سببا من أسباب غايته . ولا يحتقر واحداً من الآحاد . ولا يزدرى بعمله ، ويحسب الشخص من الأمة وإن كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير فى آلة كبيرة لوسقط منها تعطلت الآلة بسقوطه .

عليك أن تنظر فى حقائق الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذى بيناه : التعقل والتروى وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة « لين الجانب » والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار « تقديم الغير بالمنفعة على النفس » والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة .

ألا ترى لو عمت هذه الصفات الجليلة أمة من الأمم أو غلبت فى أفرادها يكون بينها سوى الاتحاد والالتئـــــام التام ؟ هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين حرين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صـــــابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين . أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا لأحيتها ، أو قفر لأنبتتها أو جدباً لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ، ولأقامت لهامن الوحدة سياجاً لايخرق ، وحرزاً منيعـــــاً لايهتك ، وإن أولى الأمم بأن تبلـــــغ الكمـــال فى هـــذه السجـــايا الشريفة أمة قال نبيهم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامهـــا عن تداخل العناصر الغريبة ، وتحفظها من الانحلال المؤدى إلى الزوال (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

وأما الرذائل فهى كيفيات خبيثة تعرض للأنفس ، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة «قلة الحياء» والبذاء «التطاول على الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والأدب من الكلام » والسفه والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق ، فأى صفة من هذه الصفـــــات تلوث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء ، وذهبت بهما مذاهب الخلاف إلى حيث لا يبقى أمل فى الوفاق ، فإن طبيعة كل واحدة منها اما مجاوزة الحدود فى التعدى على الحقوق واما السقوط إلى مالا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لمن يشاركه فى الجنسية أو الملة أو القبيلة أو العشيرة أو بأى نوع من أنواع التعامل ، والإنسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقـــــاً منها ، وإن شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبـــانين بخيلين « كل يمنع الآخر حقه » شرهين حاقدين حاسدين متكبرين « كل لا يستحسن إلا فعل نفسه » لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين ، هل يمكن أن يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غاية ؟ أليس كل وصف على حدته قاضيا بانتباذ كل من صاحبه وإن لم تكن داعية ، وكفى بخلقه وصفته باعثا قويا للتنابذ .

هذه الرذائل إذا فشت فى أمة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها بددتها شذر مذر ، واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعى أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها فى أعمال الحياة بالقسر ، فإن حاجاتهم فى المعيشة طالبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ، فلابد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع إلى حد الضرورة .

هذه صفات إذا رسخت فى نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض ، أذلة للأجنبى عنهم ، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء إليهم ، يمهدون السبل للغالبين إلى النكاية بهم ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، وكل جليل منهم حقيرا ، إذا نطق أجنبى بمايدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم ، وإذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الأسرار عدوه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم ليس فى الامكان أن يكون منا عارف ومن المحال أن يوجد بيننا خبير . ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب ، ويتنافسون فى سفاسف الأمور ودنياتها ، يرتابون فى نصح الناصحين ، وإن قامت على صدقهم أقطع البراهين ، يسخرون بالواعظين ، وان كانوا فى طلب خيرهم من أخلص المخلصين ، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لإعلاء شأنهم ، وجمع كلمتهم ، ويقعدون له بكل سبيل ، يقيمون فى طريقه العقبات ، ويهيئون له أسباب العثار ، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ولا تنتظم لاعضائه حركة ، ولايمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم ، فتنفلت أعمالهم عن حد الضبط ، وتخرج عن قواعد الربط . فساد طباعهم بهذه الاخلاق يجعلهم منبعاً ومبعثاً للضر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب ، أول مايبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبى ، بل كالمبتلى بجنون مطبق ، أول ما يفتك بمربيه ومهذبه ثم يثنى بطبيبه ومن يعالج دائه ، تكون الآحاد منهم كالأمراض الأكالة من نحو الجذام والآكلة ، يمزقون الأمة قطعاً وجذاذات بعد مايشوهون

وجهها ويوشوشون هيئتها، أولئك قوم يسامون فى مراعى الدنايا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم ، فينتفخون على أبنـاء جلدتهم ، ويذلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم ، وبهذا يمكنون الذلة فى نفوسهم ، من دونهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الأعداء الالداء من طبقة الى طبقة حتى تضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتفنى فى أمة أو ملة أخرى ، سنة الله فى تبدل الدول وفناء الأمم ، (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) اعاذنا الله من هذه العـاقبة ، وحرس أمتنـا وملتنـا من المصير إلى هذه النهاية.

بقيت لنا لمحة نظر إلى مابه تقتنى الفضائل . وتمحص النفوس من الرذائل ، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد ، وتصون به أكوانها من الفسـاد « كل مولود يولد على الفطرة » مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأى لون ، فهل ينـال كال الفضيلة مـن آبائه وأسلافه ، انى يكون لهم حظ منهـا ، وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ وليدهم يرشدنا رائد الحق إلى أن الاعتدال فى أصول الأخلاق والتحلى بحلية الفضـائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنمـا يكون بالدين ولن يتم أثر الدين فى نفوس الآخذين به فيصيبوا حظا وافراً مما يرشد إليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا إذا قام رؤسـاء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتهـا فى العقول ودعوة النـاس إلى العمل بها ، وتنبيه الغافلين عن رعايتها وتذكير السـاهين عن هديها ، أما إذا أهمل خدمة الدين وظـائفهم أو تهاونوا فى تأدية أعمـالها ضعف اليقين فى النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصـائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلطت الحـاجات المعاشية ، ومال ميزان الاختيـار مع الهوى ، فحشدت إلى الأنفس أوفاد الرذائل ، فيحق على الناس كلمة العذاب ، ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا إليه سابقاً .

هذه علل الخراب فى كل أمة لقد ظهر أثرها فى أمم لاتحصى عدداً مـن بداية كون الإنسان إلى الآن ، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الرذائل

فيهم ، بعد مابدلوا وغيروا كما فى طائفة الدهيرو (منك) من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوروبيين بطائفة « باريا » (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم). فالدين وهو السائق إلى السعادة فى الدنيا كما يسوق إليها فى الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين فى أقطار مختلفة من الأرض وسلبهم تيجان عزهم وألقاها على هامات قوم آخرين ، واليوم ينازع طوائف أخرى ولا نخاله يتغلب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف ، ولا يكون ناشئا إلا عن شىء من الاهمال فى اتباع أوامر الشرع الإسلامى ونواهيه بحكم قول الله فى كتابه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد يكون ذلك ، وربما لا ينكر الآن أن كثيراً من عامة المسلمين وإن صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد إلا إنهم لا ينهجون فى بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء ، وهذا مما يحدث ضعفا فى قوة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال فى الفضائل والأعمال (وما أصابتكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) .

إلا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ولهم حسن الاذعان بما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية ، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم ، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف فى القوة إلا عرضا لايبقى وحالا لايدوم .

انظر نظرة انصاف إلى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم ، وإلى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله ، تجد من نفسك حكماً باتا بأن علماء الديانة الإسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع ، والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه إلى الذين يعقلونه وهم هم فى

قوله الحق (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالحض الإلهى المفهوم من قوله (فلولا نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الأخلاق المحمودة والأعمال المبرورة ، لرأيت أن الأمة الإسلامية ناشطة من عقالها ، متضافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها السامة من الضعف ، وبيضة دينها من الصدع ، كل ذلك فى أقرب وقت ، ولن تكون إلا صيحة واحدة فإذا هم قيام ينظرون .

ولا ريب أن الراسخين فى العلم من أهل الدين الإسلامى يعلمون أن ما أصيب به المسلمون فى هذه الأزمان الأخيرة ، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض مافرطوا ، وليس للناس على الله حجة فالرجاء فى هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه ، ومداواة العلة قبل استحكامها ، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ، ويحكموا بينهم روابط الأخوة والألفة كما أمر الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذى ملك أفئدة البعض منهم ، ويقنعوهم أنه لا ييأس من لطف الله إلا الذين فى قلوبهم مرض وفى عقائدهم زيغ ، ويسيروا بهم فى سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ، ويقوى فيهم إباءة الضيم ، والنفرة من الذل ، ويحرك فيهم روح الأنفة ، حتى لاتسمح نفس أحدهم أن يأتى الدنية فى دينه ، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق فى قوله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) .

الوحـــدة الإسلاميـــة

« وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلو او تذهب ريحكم »

أظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكانى على حدود الصين فى عرض ما بين فازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء . أقطار متصلة ، وديار متجاورة ، يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب . أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام ، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلا . ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم علم ، ولا يرد قول على قائلهم . قلاعهم وصيـــاصيهم متلاقية ، ومنابتهم ومغارسهم فى سهوبهم « أراضيهم السهلة الواسعة » وأخيافهم « الأراضى المنحدرة عن الجبل » رابية مزدهية بأنواع النبات ، حالية بأصنـــاف الأشجار ، صنع أيدى المسلمين ، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم ، وتفاخرها بشموس الفضل ، وبدور العلم ، ونجوم الهداية ، من رجال لهم المكان الأعلى فى العلوم والآداب .

كان فى نقطة الشرق من حكمـــائهم ابن سينا والفـــارابى والرازى ومن يشا كلهم ، وفى الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم ، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية ، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى جميع طبقات الملة . كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين (١) وترتعد منها فرائص أعظم الملوك فى أوربا . ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوى وملكشاه السلجوقى ، وصلاح الدين الأيوبى ، وكان منهم فى المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفى الغرب السلطان محمد الفاتح . والسلطان سليم والسلطان سليمان العثمانى ، أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم .

(١) فنفور : لقب ملوك الصين

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لاتبارى فى البحر الأبيضُ والأحمر والمحيط الهندى ولها الكلمة العليا فى تلك البحار إلى زمان غير بعيد ، كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم ، والمسلمون اليوم هم هم يملأون تلك الأقطار التى ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن أربعمائة مليون ، وأفرادهم فى كل قطر بما اشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل ، جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات ، فأودع فى أفكارهم جراثيم الحق وبذر فى نفوسهم بذور الفضل ، فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهنا وأشد استعداداً لنيل الكمالات الإنسانية ، وأقرب إلى الاستقامة فى الأخلاق ، وربما يرون لأنفسهم من الإختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون ، لايرغبون بسلطة لغيرهم عليهم ، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم ، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت . لما بينهم من الإخاء المؤزر بمناطق العقائد ، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه . ذلك إحساس يشعر به وجدانه ولايجد عنه مسليا ، وبما ساخ (غاص ورسب) فى نفوسهم من جذور المعارف التى أرشدهم إليها دينهم ، ونالوا منها النصيب الأعلى فى عنفوان دولتهم ، يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل .

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم ، وأخذت ممالكهم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لايدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبى عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته . هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون . هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار

شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لا . لا . إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة فى إرادتهم وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم .

نعم يوجد للتقصير فى انماء العلوم ، وللضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم ، لأنا بينا أن لاجنسية للمسلمين إلا فى دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة ، والسلاطين فى جنس واحد ، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات ، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهى أشبه شىء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير فى طلب مالم ينالوا منها ، والانحسار دون الترقى فى عواليها ، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف فى القوة والخلل فى النظام ، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم .

هذا كان من أمراء المسلمين مع مافيه من الضرر الفادح عند ما كانوا منفردين فى ميادين الوغى ، لايجاريهم فيها سواهم من الملل ، ولكن ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل ، وقنعوا بألقاب الأمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا موالاة الأجنبى عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل .

هذا الذى أباد مسلمى الأندلس ، وهدم أركان السلطنة التيمورية فى الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الانجليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء

السفهاء بالممالك الإسلامية ودهورتها أمانيهم الكاذبة فى مهاوى الضعف والوهن ، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون ، أولئك اللاهون بلذاتهم ، العاكفون على شهواتهم ، هم الذين بددوا شمل الملة ، وأضاعوا شأنها ، وأوقفوا سير العلوم فيها ، وأوجبوا الفترة فى الأعمال النافعة ، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدى بنيها .

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس ، ما أشد ضررهما وما أسوأ أثرهما ، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه ، فاختلفوا والعدو على أبوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا فى الكلمة الجامعة ، حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم ، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم ، ماذا أفادتهم المغالاة فى الطمع والمنافسة فى السفاسف ؟ أفادتهم حسرة دائمة فى الحياة ، وشقاء أبدياً بعد الممات ، وسوء ذكر لاتمحوه الأيام .

أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم ، لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم ، ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولانهى . هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب .

الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية ، من أشد أركان الديانة المحمدية ، والإعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين ، لايحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم ، ولا كتاب يثبت ، ولا رسائل تنشر . إن رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم ، وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء ، ولولا وجود الغواة من الأمراء ، ذوى المطامع فى السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، وشماليهم بجنوبيهم ، ولبى جميعهم نداء واحداً إن المسلمين لايحتاجون فى صيانة حقوقهم ، إلا إلى تنبه أفكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشىء عن

إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار .

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الأصول الثلاثة ، هى أمة متأخرة فى الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا وليس فى ممالكها ينابيع للثروة ، ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية ، فهى مصابة بالحاجة والاعواز غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم فى النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسى أوربا . لم يكن للروسية مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن أقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكرى إلى حد ما عليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تخيف ، وحملة تخشاها دول أوروبا .

فما الذى أقعدنا عن مشاكلة غيرنا ، فيما هو أيسر الأشياء علينا ، ونحن أشد الناس ميلا إليه : من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها. مارد الأفكار عن الحركة ، وما أقعد الهمم عن النهوض ، إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب فى المطعم ، ولين فى المضجع ، وتطاول فى البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ولا يراعون فى حرصهم مابعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال لهم فى المواسم والأعياد وهز الرؤوس وثنى الأعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لهامسميات. هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل من الرسوم ماذهب أثره) بكل دنيئة ، هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم فى بيوتهم مالايقبله واحد من آحاد الناس دون مونه ، أولئك صاروا فى أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب ، لاحول ولاقوة إلا بالله .

أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويانسل الأقيال ، هل ولى بكم الزمان ، هل مضى وقت التدارك ، هل آن أوان اليأس ، لا ، لا ، معاذ الله أن ينقطع أمل

الزمان منكم ، إن من أدرنه إلى بيشـــاور دولا إسلامية متصلة الأراضى ، متحدة العقيدة يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا ، وهم ممتازون بين أجيال النـاس بالشجـاعة والبسالة ، أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سـائر الأمم ، ولو اتفقوا فليس ذلك يبدع منهم ، فالاتفـاق من أصول دينهم ، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلايحسون بحاجات بعضهم البعض ، أليس لـكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله فى قوله (إنمـا المؤمنون أخوة) فيقيمون بالوحـدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفعة عليهم من جميع الجوانب .

لا ألتمس بقولى هذا أن مالك الأمر فى الجميع شخصـــاً واحدا ، فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولـكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حيـــاته بحياته وبقائه ببقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات ، هذا آن الاتفاق ، هذا آن الاتفاق ، ألا إن الزمان يواسيكم بالفرص وهى لـكم غنائم فلا تفرطوا ، إن البكاء لايحيى الميت ، أن الأسف لايرد الفائت ، أن الحزن لايدفع المصيبة ، أن العمل مفتاح النجاح ، إن الصدق والاخلاص سلم الفلاح ، إن الوجل يقرب الأجل ، إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف (وقل اعملوا فسيرى الله عملـكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئـكم بما كنتم تعملون) ألا لا تـكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، أحذروا أن تقعوا تحت قول الله : (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) أن القرآن حى لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه ، وحكموه فى أحوالـكم وطباعكم (وما الله بغافل عما تعملون) .

ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بتلافاة أمرهم ، قبل أن يقضى عليهم ، بما رزىء به المفرطون من قبلهم ، ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن أعلاهم مرتبة ، وأقواهم شوكة ، ولا نرتاب فى أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى فى هذا العمل الشريف ، والله يهدى من يشاء ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الوحــدة والسـيادة

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدى إليهما الدين تارة أخرى ، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب ، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه ، وبهما نمو الأمم وعظمها ورفعتها واعتلاؤها ، وهما الميل إلى وحدة تجتمع ، والكلف بسيادة لا توضع . وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع فى ضئاضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأه خلقا سويا ، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله .

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها ، فلا بد يوماً أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض . إن التغلب فى الأمم كالتغذى فى الحياة الشخصية ، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول ، ثم أفضت إلى الموت والهلاك ، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها ؛ وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها ، إلا أن تكون متفقة فى تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها . إذا أحسست من أمة ميلا إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم ، إذا تصفحنا . تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفناها ، وجدنا سنة الله فى الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب ، وما انحرف شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم ، إلا عند لهوهم بما فى أيديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ، ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلا إلا بعد ما رزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا .

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته ، فيجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد ، وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة ثم لا يكون نظراً عقيما حائراً بين جدران المخيلة ، دائراً على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصارا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار ، والشؤون الخاصة فى المنزلة الثانية منهما . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ، ويخترطون سيوفا من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونواد من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها إلى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لابنائه من بعده وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الأدوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية ، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع همم العقلاء فى الأمم المتبصرة .

إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذى بيناه ، رأيت فى الدهماء منهم والخاصة هما تعلو ، وشيما تسمو ، وإقداما يقود ، وعزما يسوق ، كل يطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم ، فى سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه ، ويكون نزوعهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقاً من الطبع لا يحتاج إلى فكر وروية إلا فى إعداد وسائل الفوز والظفر .

هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ومن خالف أمر الله فيما فرض منهما عواقب من مقته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، جاء فى قول صاحب الشرع « إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مس أحدهما ألم تأثر له الآخر ، وجاء فى نهيه « لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا » وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن ، وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد أن كانوا أعداء ونطق الكتاب الألهى (إنما المؤمنون إخوة) وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف ، ثم شدد على وجوب الاصلاح وإن أدى إلا مقاتلة الباغى ، فقال : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » وإنما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » وتوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولى ، ويصله جهنم وساءت مصيراً ، وفى أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى ، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة وأخبر الصادق ﷺ (أن يد الله مع الجماعة) وكفى بالقدرة الالهية عونا إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة ، وقد بلغت مكانة الاتفاق فى الشريعة الاسلامية أسمى درجة فى الرعاية الدينية ، حتى جعل إجماع الامة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفا عن حكم الله وما فى علمه وأوجب الشرع الأخذ به على عموم االمسلمين ، وعد جحوده مروقا من الدين ، وانسلاخا عن الايمان ، ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله ﷺ «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت » (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم

ويأخذوا الحق من الظـالم ، وسمى حلف الفضول لأنهم تحـالفوا على أن لايدعوا عند أحد فضلا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجـاهلية ، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى إليه ، هذا اجمـال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين ، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم فإن سبيل المؤمنين يسـعه ولا يضيق عنه .

وأما السعى لإعلاء كلمـة الحق وبسطة الملك وعموم السيـــادة فلا تجـد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه ، جاهـرة بمطـالبـة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء المفروض منه ، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية ، ممـا يضافر آيات القرآن ماجمعه العلماء فى مجلدات يطول عدهـا ، هذا حكم ديننا لايرتاب فيـه أحد من المؤمنـين به والمستمسكين بعروته .

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الإختلاف والركون إلى الضـيم أن ندعى القيام بفروض ديننا . كيف ومعظم الأحـكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية ، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلب فرضين لذاتهما أفـلا يكونان مما لايتم الواجب إلا به ، فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعـة كما قدمنا ، هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لاينفع خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ، وأيسر شفاعة الينا اقامتها وعديدنا ربمائة مليـون أوزيد ، هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

كل هذه الرزايا التى حطت بأقطـارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ماكان قاذفنا ببلائها ، وورامينا بسهامها ، إلا افتراقنـا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه ، لوادينا حقوقا تطالبنا بها تلك الـكلمة التى تهل بها ألسنتنا ، وتطمئن

قلوبنا بذكرها ، وهى كلمة الله العليا هل كان يمكن للاغراب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا فى صياصيهم ، وأيدينا على نواصيهم . إن لأبناء الملة الإسلامية يقينا بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين ؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ولا ريبة فى أن المؤمن يسرُّه أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا ، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتازبه الصادق من الكاذب إلا الصدق فى العمل ، هل يود المسلم لويعمر الف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الإزدراء بالحياة هو دليل الإيمان ، أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، بل أكبر همة أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته .

لا . لا . إن المخلصين فى إيمانهم الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر الله الثابت فى قوله : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فأين المفر . المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأملاكنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى فى أيدينا ثم لا نبدى حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد . واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام .

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه

فى أعداد ماضية فألهاهم عما يوحى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم ، فسهوا وما غووا ، وزلوا وماضلوا ، ولكنهم دهشوا وتاهوا ، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض فى الليالى المظلمة ، كل يطلب عونا وهو معه ولكن لا يهتدى إليه ، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض ، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع ، وفى تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هى إلا كلمة تقال بينهم من ذى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض ، وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب عليهم ، وما ضاقت به صدورهم من غارات الأغراب على بلادهم ، حتى بلغت أرواحهم التراق ، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حداً يوشك أن يكون فعلا ، وهو مما يؤيد الساعين فى هذا المقصد ، ويهيىء لهم فوزاً ونجاحاً بعون الله الذى ما خاب قاصده ، وهو ربى إليه أدعو وإليه أنيب .

الأمل وطلب المجد

« إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »
(ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تنبىء عن سر عظيم ، اختص الله به الإنسان ، ورفعه به على سائر الأكوان ، ليبلغ به المقام المحمود ، ويحوز ما أعدته له العناية الإلهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك ، واصغ لمناجاة سرك ، تجد فى وجدانك ميلا قوياً ، وحرصاً شديداً ، يدفعك إلى طلب المجد ، وعلو المنزلة ، فى قلوب أبناء جنسك ثم ارفع بصرك إلى سواد أمة بتمامها » تجد مثل ذلك فى كليتها كما هو فى آحادها تبتغى رفعة المكانة فى نفوس الأمم سواها ، ذلك أمر فطرى جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعاً ، ليس من السهل على طالب المجد وعلو المكانة أن يصل إلى ما يطلب ولكنه يلاقى فى الوصول إليه وعراً فى السبل ، وعقبات تصد عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله ، يقطع شعاباً ، ويعانى صعاباً ، حتى يرقى ذروة المجد ، ويتنسم شاهق العزة ، ولو قام فى وجهه مانع عن الاسترسال فى مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء ، ولو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر ، ونسب كل عمل إلى غاية العامل منه ، رأى أن معظمها فى طلب الكرامة وعلو المقام ، كل على حسبه ومايتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف ، هذه خلة ثابتة فى الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن إلى أصحاب الأمر والنهى ، كل ينافس أهل طبقته فى أسباب الكرامة بينهم ، ويأنف من ضعته فيهم ويحرص على ما يحله من قلوبهم محل الاعتبار ، حتى إذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل فى طبقة أخرى ، ونافس أهلها فى الجاه ، ولا يزال يتبع سيره ما دام حياً يخطر فى بسيط الأرض ، ذلك لأن الكمال الإنسانى ليس له حد ، ولا تحده نهاية ، وليس

فى استطاعة أحد من النـاس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية .

سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الإنسان وماذا ملكت من أهوائه ؟ يعده ثمرة حياته وغاية وجوده ، حتى أنه يحتقر الحيـاة عند فقده والعجز عن دركه ، أو عند مسه والخوف من سـلبه ، أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لا يؤبه له إذا اعتدى عليه من تطول يده إليه بفعلة تهينه ، أو قذفة تشينه ، يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التى هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضى به إلى الموت وأن القـذف أو الإهانة ما نقصت شيئاً من طعامه ولا شرابه ، ولا خشنت مضجعه فى مبيته ، آلاف مؤلفة من الناس فى الأجيال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم إلى المهـالك ، وماتوا دفاعاً عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد ، جل شأن الله لا يهنأ للانسان طعام ولا شراب ، ولا يلين له مضجع إلا أن يلحظ فيه أن ما نال منه أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد إنما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة ، فما ظنك بسائر اللذائذ . كم يعانى الإنسان من التعب البدنى ، وكم يقاسى من مشاق الأسفار ، وكم يخاطر بروحه فى اقتحام الحروب والمكافحات ، وكم يتحمل فى الانقطاع عن اللذات مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً أو ليحفظ ما أتاه الله منه ، ما أجل عنـاية الله بالإنسان لا يعيش إلا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل لذة دون الشرف فهى وسيلة إليه ، بل الحيـاة الدنيا هى السبيل الوعر يسلكها الحى إلى ما يستطيع من المجد ، وفى نهاية الأجل يفارقها قرير العين بما قارب منه آسف الفؤاد على ما قصر عنه .

ما هو المجد الذى يسعى إليه الإنسان بالإلهام الإلهى ، ويخوض الأخطار فى طلبه ويقارع الخطوب فى تحصيله ، هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد ، وتذعن له بالاعتلاء ، وتلقى إليه قياد الطاعة ، يكون هذا له ولكل من يدخل فى

نسبته إليه من ذوى قرابته وعشيرته وسائر أمتــه فتنفذ كلمته إليه وكلمة المتصلين به ، والملتحمين معه فى شؤون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معانات الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن فى هذه الحياة الأولى ، فما كان يحسبه طالب المجـد عائداً إلى نفسه بالمنفعة . يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بنى جلدته أجمعين . واها ! تلك حكمة بالغة : إذا نال الواحدمن الأمة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السؤدد . نعم وهل نال ما نال إلا بمعونة سائر الآحاد منها (ذلك تقـدير العزيز العليم) . ماذا يستطيع المجاهد وحده . وماذا يكسبه من سعيه . إن لم يكن له أعضاد من بنى قبيله . فمن كان همه أن يصعد إلى عرش العــزة . ويرقى إلى ذروة السيادة فعليه أن يهيىء نفسه والمنتمين إليه لتحصيل كل ما يعد فى العـالم الإنسانى فضيـلة وكمالاً . ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطرى والإلهام الإلهى . وما أشد ماتحمل النفوس فى قضاء بعض الوطر مما يتصل به . وما أعظم الحـامل للأنفس على تجشم المصاعب لنيل ما تميل إليه من هذا الأمر الرفيع . ما هــذا الباعث الشريف الذى يسهل على الأرواح كل صعب ويقـرب كل بعيد ، ويصغر كل عظيم ، ويلين كل خشن ، ويسليها عن جميع الآلام ، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحيـاة ، فضلا عن بذل كل نفيس ، والسماح بكل عزيز ، هذا الباعث الجليل ، وهذا الموجب الفعال هو الأمل .

الأمل ضياء ساطع فى ظلام الخطوب ، ومرشد حاذق فى يهماء الكروب ، وعلم هاد فى مجاهيل المشكلات ، وحاكم قاهر للعزائم إذا عرتها فترة ، ومستفز للهمم ان عرض لها سكون ، ليس الأمل هو الأمنية والتشهى اللذين يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى ، ويعبر عنهما بليت لى كذا من المـال وكذا من الفضل مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو بما يبعد عن المرغوب كأن صاحبهما يروم أن يبدل الله سنته فى سير الإنسان عناية بنفسه الشريفه أو الخسيسة ، فيسوق إليه ما يهجس بخاطره دون أن يصيب تعباً أو يتلاقى مشقة ، إنما الأمل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمل النفس على المكاره ، وعرك لها فى المشاق والمتاعب ، وتوطينها لملاقاة

البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد وتهوين كل ملم يعرض لها فى سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ فى مداركها أن الحياة لغو إذا لم تغذ بنيل الأرب ، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلا عن المال الذى لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون .

وكما كان الميل للرفعة أمراً فطرياً ، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول إلى غاية سعيها من ودائع الفطرة ، غير أن ثبوتهما فى فطرة عموم البشر كان داعياً للمزاحمات والممانعات ، فإن كل واحد بما أودع فى جبلته يطلب الكرامة والتمكن فى قلب الآخر فكل طالب ومطلوب ، ولم تبلغ سعة العقل الإنسانى إلى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملاً تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس ، غير ما يكون به للاخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم أمجاداً شرفاء بما يأتون من أعمالهم ، ولكنهم تزاحموا فى الآمال والأهواء ، ومسالكهم ضيقة ، ومشارعهم ضنكة ، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشرى حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . فإذا توالى الصدام علي شخص أو قوم حدث فى الهمم ضعف وأصابها انحطاط وحصل الفساد فى هاتين الخلتين الشريفتين « الرجاء وطلب المجد» كما يحصل الفساد فى سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التربية وربما يؤول الضعف إلى اليأس والقنوط « نعوذ بالله منهما » .

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ، يحكمون على أنفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل ، ولا ينفرون من الأهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من ذلك أياً كان ، فتسلب منهم جميع الأحساسات والوجدانات الإنسانية التى يمتاز بها الإنسان عن الأنعام فيرضون بما ترضى به البهائم ، فلا يهتمون إلا بحاجات قبقبهم وذبذبهم ، ثم يا ليتهم يكونون هملا وسوائب يرعون النبات ، ويتبعون مواقع الغيث ، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم ، فيكونون

كالنمال الحمالة لا تستفيد مما تحمل شيئاً ، وظيفتهـــا أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح ، فيعالجون العمل فى الفلاحة والصناعة وغيرها من الأعمال الشاقة ، ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسه ، ثم لا ينالون مما يعملون شيئاً ، ثمرات كسبهم بأسرها محولة إلى الذين سادوا عليهم بهممهم « هـذا الذى يتجشمه الذليل فى ذلة من مشاق الأعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه فى طلب العزة لأصاب حظه منها » بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة ، فإن السائدين يشعرون بحكم البداهة ، إن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الإنسانية ورضوا لها بما دون حقها ، بل عما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله فى تكوينهم على الشكل الانسانى وإيداعهم ما أودع فى أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات ، ولنا على ذلك شاهد العيان فى الامم التى أدركها اليأس وسقطت فى أيدى الأجانب .

ونظن أنه يوجد أقـــوام آخرون سامهم ساداتهم فى الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لا تسام به السوائم الراعيـة وهم على القرب منـا وليسوا ببعيد عنا .

عجباً كيف تتبدل أحكام الجبـلة وكيف يمحى أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لهـا أمل ؟ والأمل وحب الـكرامة طبيعيان فى الانسان ، بعد إمعان النظر نجد السبب فى ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هى سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع إلى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنـة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن إلى عجزه ، فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل اعتقاداً منـه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته ومتى كانت قوة المـانع أعظم من

قوته فلا سبيل إلى العمل لاستحالة قهر المانع فيقطع الأمل فيقع فى الشقاء الأبدى ، أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط ، فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته لا يفوته النظر إلى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة ، فيركن إليها فى أعماله ، ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقاً ، فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً فى مدافعتها معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها ، وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب ، فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة ، لاعتقاده أن فى قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ، ويلقى قيادهم إلى الأذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء من نواصى الأقوياء وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار ، فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعى لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة فى الأولى والآخرة ، وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس ، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التى لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين (أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وبما حكي من قول نبيه إبراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر ومن أين يطرق اليأس قلباً عقد على الايمان بالله وقدرته الكاملة .

لهذا نقول أن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم فى إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم أيمانهم أن يرضخوا للذل ، ويرضوا للضيم ، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم إلى الآن محفوظون مما ابتلى به كثير من الأمم ، فإن لهم ملوكا عظاماً ، ولا يزال فى أيديهم ملك عظيم على بسيط الأرض ، وأن من الحق أن نقول : أن أبواب رحمة

الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وأن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها والفرص دائماً تمد أيديها إليهم تطلب إنهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم ، وذلك أيسر ما يكون عليهم ، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم ، فأى موجب لليأس وأى داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ، وهل توجد واسطة بين الرشد والغى (فماذا بعد الحق إلا الضلال) هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا ، ماذا يبتغون من الحياة إن كانت فى ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ أيطمئنون وهم بين أجنبى حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبى ، ومشنع دنى ، ومعير خسيس ، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمة فى عداد الأمم ، ألم ينسلخ الإنسان عن كل خاصة إنسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات . أينسون أنهم كانوا فى الأرض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الأرض .

إن كان للعامة عذر فى الغفلة عما أوجب الله عليهم فأى عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون فى علومه ، لم لا يسعون فى توحيد متفرق المسلمين ، لم لا يبذلون الجهد فى جمع شملهم ، لم لا يفرغون الوسع لاصلاح ما فسد من ذات بينهم ، لم لا يأتون على ما فى الطاقة لتقوية آمال المسلمين ، وتذكيرهم بوعود الله التى لا تخلف لمن صدق فى طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم .

بلي أن قوماً شرح الله صدورهم للإيمان قاموا بهذا الأمر فى مواقع مختلفة من الأرض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة إلا أن أملنا فى بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيدهم ، ليتمكن الجميع من نصر الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

رجال الدولة وبطانة الملك

كيف يجب أن يكونوا

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ﴾
﴿ ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى ﴾
﴿ صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾

قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة ، والقلاع المنيعة ، والجيوش العاملة ، والأهب الوافرة ، والأسلحة الجيدة . قلنا نعم هى إحراز وآلات لابد منها للعمل فيما يقى البلاد ، ولكنها لا تعمل بنفسها ، ولا تحرس بذاتها ، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة ، وأولوا رأى وحكمة ، يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم ، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب ، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوى التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة ، يوطئون طريق الأمن ، ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ، ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ، ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التى تليق بها بينها ، بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لها ولن يكونوا أهلا للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالرحمة والشفقة على سكانها ، وحتى تكون الحمية ضاربة فى نفوسهم آخذة بطباعهم ، يجدون فى أنفسهم منبهاً على ما يجب عليهم ، وزاجراً عما لايليق بهم ، وغضاضة وألماً موجعاً عندما يمس مصلحة الدولة ضرر ، ويوجس عليها من خطر ، ليتيسر لهم بهذا الإحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغى ، ويصونوها من الخلل الذى ربما يفضى قليله إلى فساد كبير فى الملك ، فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة .

يسهل على حاكم فى أى قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ، ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا إليهم . عقلاء رحماء ، وأباة أصفياء ، تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم لابد أن يتبع فى هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ، ويراعى ناموس الطبيعة ، فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق ، وقلما يخطىء فى رأيه أو يتأود فى عمله من أخذ به دليلا ، وجعل له من هديه مرشداً . وإذا نظر العاقل فى أنواع الخطأ التى وقعت فى العالم الإنسانى من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والإنحراف عن سنة الله فى خلقه .

من أحكام هذا الناموس الثابت أن الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية ، إنما تكون لمن له فى الأمة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها ، هذه فطرة فطر الله الناس عليها أن الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس أو المشرب يراعى نسبته إليها ونسبتها إليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه فى تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه « راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عندما يرمى أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام كسورى ينتقد المصريين أو مصرى ينتقد السوريين » هذا إلى مايعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما تصيبها من الأرزاء يصيبه سهم منه . خصوصاً إن كان بيده هامات أمورها وفى قبضته زمام التصرف فيها فان حظه من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم ، وسهمه من العار الذى يلحق الأمة أكبر ، فيكون اهتمامه بشؤون الأمة التى هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة .

فعلى ولى الأمر فى الدولة أن لايكل شيئاً من عمله إلا إلى أحد رجلين : إما رجل يتصل به فى جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة فى نفوس المنتظمين فيها محترمة فى قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التفانى فى وقايتها من كل شين يدنو منها

ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والأديان ، وإما رجل يجتمع معه فى دين قامت جامعته مقام الجنسية ، بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها ، كالدين الإسلامى الذى حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعتين « الجنسية على النحو السابق والدينية » مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك فى جنس ولا فى دين تقوم رابطته مقام الجنس ، فمثلهم فى الدولة كمثل الأجير فى بناء بيت لا يهمه إلا استيفاء أجرته ثم لا يبالى أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل ، هذا إذا صدقوا فى أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر ، واقفين فيها عند الرسم الظاهر ، فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذى هو خادم فيها ولا يمسه شىء مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها إذا فقد العيش فيها فارقها وارتد إلى منبته الذى ينتسب إليه ، بل هو فى حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته فى جميع شؤونه ماعدا الأجر الذى يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد فى طبيعته ولا فى خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلى شأنه ، بل لا يجد باعثاً يبعثه على الفكر فيما يقوم مصلحته من أى وجه ، هذه حالهم هى لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخر ، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا فى أرض غيرهم طلباً للعيش من أى طريق وسواء عليهم فى تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا ، وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التى يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب فى الممالك الإسلامية لايجدون فى أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) (١) ومن تتبع التواريخ التى تمثل أحوال الأمم الماضية وتحكى لنا عن سنة الله فى خليقته وتصريفه بشؤون عباده ، رأى أن الدول فى نموها وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شىء من أعمالها

(١) يقصد الأفغانى فى مهاجمته العنيفة هنا ، بعض الأجانب الذين يعيثون إلى البلاد التى آوتهم . وبدهى أن هجومه لا ينطبق اليوم على الأجانب الذين يحترمون تقاليد البلاد فى ظل القومية العربية .

بيد أجنبى عنها وأن تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت فى هوة الإنحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبى فيها ، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية فى أعمالها فان ذلك كان فى كل دولة آية الخراب والدمار خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التى يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم ، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة .

نعم كما يحصل الفساد فى بعض الأخلاق والسجايا الطبيعية لسبب العوارض الخارجية ، كذلك يحصل الضعف والفتور فى حمية أبناء الدين أو الأمة ، ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك إذا كان ولى الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفى هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل فى نظام الأمة ويضرب الفساد ، ولكن ما يكون من ضره أخف وأقرب إلى التلافى من الضرر الذى يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور فى البلاد لأن صاحب اللحمة فى الأمة وإن مرضت أخلاقه واعتلت صفاته ، إلا أن ما أودعته الفطرة وثبت فى الجبلة ، لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء فى عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية ، فيرجع إلى الإحسان مرة أخرى ، وأن ماشد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والإلتفات إليها ، ويميله إلي المتصلين معه بتلك العلائق وأن بعدوا .

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين ، حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم ، بل زادوا فى موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم فى بطون بيوتهم ، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم فى ممالكهم ، بعد مارأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان ، وأحسوا بالضغائن والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة ، وبعد ما علمتهم التجارة أنهم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذا عززوا أهانوا ، يقابلون الإحسان بالإساءة والتوقير بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون على اللقمة باللطمة ، والركون إليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخدعة ، أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التى لاتنقض ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى حسهم ووجدانهم

ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ألم يكن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم .

ألا أيها الأمراء العظام ما لكم وللأجانب عنكم (هاأنتم تحبونهم ولا يحبونكم) قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة فى أمرهم (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) سارعوا إلى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم ، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير ، إتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوى بكم الخطل إلى أسفل سـافلين ، ألم تروا ، ألم تعلموا ، ألم تحسوا ، ألم تجربوا ، إلى متى ؟ إلى متى ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون .

كم حكمة الله فى حب المحمدة الحقة

العالم الإنسانى كتاب المعتبر ، وسفر المستبصر ، وكل قرن من قرونه صفحة، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ولنا فى كل ما خطه القلم الالهى عبرة .

أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب فى أطوارها المختلفة ، وأدوارها المتبدلة فترى أمماً علت وسمت وحلقت فى جو المعالى وجازت فى الرفعة مسارح النظر ، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها ، ولم يبق لها أثر إلا فى الروايات والأحاديث ، ومنها أجيال كانت فى ثنى العدم ثم اكتست حلية الوجود ، واتخذت من الاجتماع الانسانى مكان الهامة من الجسد ، ثم انطوت وأخنت عليها أمهات قشعم ومنها ما نراه إلى اليوم يسحب مطارف العزة ، ويشرف على العالم بالأمر والنهى من شواهق القوة .

فمن الناس من تتجلى له هذه الشئون وتلك الأطوار كما تعرض عليه التماثيل ينبسط لبعضها إذا أعجبه ، وينقبض لآخر إذا أنكره ، وهو فى غفلة عن منشأ ظهورها وعلل انقلابها ، فإن سئل عن السبب قال : سبحان الله هكذا كان وهكذا يكون ، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء ، وينحس فيتعس به الأشقياء .

ومنهم من تنفذ بصيرته إلى الحقيقة فيقف على ما هيأه الله من الأسباب التى تتبعها أحوال الأمم فى صعودها وهبوطها ، ويعلم أن ما سيق من الخير لأمة إنما كان بأيدى آحاد من أماثلها جدوا وجاهدوا ، وربما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبنى جنسهم ، ويرى لأولئك الأعلام ذكراً يرفع ومكانة من القلوب تحمد ، وتميزاً عند الخلف بالكرامة وهم لا يخالفوا الناس فى جسومهم ودمائهم ، وإنما تقدموهم بهممهم وقد يسوقه الاعتبار إلى الاقتداء بهم رغبة فى اقتطاف

ثمار الثناء وتخليد الذكر ، فاذا أخذ مأخذهم ، واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره ، حتى تتعثر أقدامه فى أياد مقطعة ، ورءوس مجذوذة ، وأشلاء مبددة وشعور منثورة ، وصدور مدقوقة ، ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء ، من طلاب الحق والناهجين فى مناهجه ، ولا محيص عن سلوكها ، وتبدو له غابات وأدغال يرجع إليه منها صـــدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم ، ولابد له من اختراقها .

هكذا تنكشف لطالب المعالى موحشات مدهشـات مصاولة لمخاطر أدناها ، والموت الشريف أقصاها وأعلاها ، فتارة يخور عزمه ويضعف همه فينكص علي عقبيه، ويرتد إلى أسوإ حاليه ويرتع فى مراتع أمثاله ، حتى يروح إلى عطنه الأولى به وهو العدم ، وتارة يوحى إليه الإلهام الإلهي أن الشخص فى خاصته والأمم فى هيئاتهـا ونوع الإنسان فى مجموعه ، تطالبها صورة الإبداع بأعمال شريفة دونها إجهاد الأنفس فى السعى ، وحملها على مالا تهوى ، ومغـالبة الأهوال والغوائل ، وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية ، والخواص السامية ، أكبر مساعد على ما تندفع اليه الهمة ، وتنبعث له العزيمة .

إن من أحياه الله بالحياة الانسانية كلما هاجمته المصاعب لا يزداد إلا حرصاً علي قهرها كما أن صاحب الشمم لا يزيده الخصام إلا حدة فى الجدال ، وإصراراً على إقناع المخاصم ، وكثير ممن على شـكل الانسان يحيا حياته هذه بروح حيوان آخر وهو يعانى فيها من الشقاء أشد مما يعانيه الانسان فى إبراز مزايا الانسان .

إن صاعد الجبل ربمـا يجد شيئاً من التعب ويخشى مفترسه الـكواسر ، ولـكن قد ينجو منها ويستريح على القنة ، ويعتصم بمكانه من الرفعة ، وتقصر عنه يد المتناول ، أما من أخلد إلى السفل فحظه من الحيـاة خوف لا ينقطع ، وإشفاق لا يزول ، كل لحظة توعده بالسقوط فى صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل ، مات من الناس كثير فى طلب العلاء ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما أملوا ،

ولـكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رئموا الخمول ، ورضـوا بالحياة الحيوانية — هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل إلى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف المقاصد ، فإما وصل وإما مات كما يموت الـكرام .

لم تنل أمة من الأمم مزية من المزايا المحمودة عند بنى البشر سواء فى العلوم والمعارف ، والآداب والفضائل ، أو القوانين والنواميس العادلة ، أو العسكرية وقوة الحماية ، حتى خرج آحاد منها إلى ما تخشاه النفوس وتهابه القلوب ، وسلـكوا تلك المسالك الوعرة ، فبلغوا بأممهم ، أقصى ما بلغت بهم هممهم ، مع الاعتماد على العناية الأزلية فى جميع سيرهم .

ماذا يريد القانون فى خدمة الأمم أو النوع الانســانى ، والمنفقون لحياتهم فى أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعــة الأمة أو الملة أو يشاركهم فى النوع ، أليس قد جعل الله لـكل شىء سبباً ، أليس من سنة الله فى عبـــاده أن لاتتجه الإرادة البشرية إلى حركة تصدر عن المدبد إلا بعد تصور غاية تعود إلى ذاته وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ، فإن كان الأجل يذهب فى مساورة الآلام الروحية ، والعمر ينفد فى مناهدة الأوصاب البدنية ، فماذا يقصدون من أعمالهم ، إن كان يوجد فى أبناء جلدتهم ، وذوى ملتهم ، من يسـاعد حوادث الـكون على إيلامهم ، وممانعتهم فى مقاصدهم ، وصـدهم عن السعى فيما يرجع خيره إلى أنفس المعارضين ، ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشماتة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمـكافحة والمنازلة فما الذى يبتغون من جـدهم وكدهم ، لا لذة تجتنى ، ولا ألم يتقى ، فما هذا الباعث القوى الذى غلب الأهواء ، ولم يضعفه جهد البلاء .

نعم أودع الله فى الانسان ميلا أقوى من كل ميل ، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع ، وهو (حب المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق) أقول هذا تفـادياً من حب المحمدة من أى وجه حقاً كان أو باطلا ، وطلب الثناء بالزوز والغش والرياء ، والظهور بمظاهر الأخيار ، مع تبطن سرائر الأسرار ،

فإن هذا من أسوأ الخلال ، وإنما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة . المحمدة هى الغذاء الروحانى ، والمقوم النفسانى ، وكلما قرب الشخص من الكمال الانسانى تهاون بالشهوات أو ازدرى باللذائذ الحسية ، وقوى فيه الميل إلى المحمدة الباقية ، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال ، تأمّل ، إن الفاضل يرى له فى هذا العالم أجلين أقصرهما الأجل المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر ، والآخر أبعد من هذا نهاية ، وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانسانى ، وغاية هذا الأجل عندما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ ، فللروح الفاضلة وجودان : وجود فى بدنها الخاص ، ووجود فى جميع الأبدان ، وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل ، ولاريب أن هذا الأجل الطويل ، وهذا الوجود العريض ، خير من ذاك الأجل القصير ، وذاك الوجود الكز(1) وحقيق بالانسان أن يبيع ما هو أدنى بالذى هو خير .

يطول بى الكلام فاقصر ، إن الله الذى وهب كل نوع ما به كماله وضع فى جبلة البشر ميلا إلى الحمد ، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه ، ألم تر انطلاق الألسن فى كل أمة بالثناء على كل من كان سبباً لها فى مجد ورفعة ، أو نهوض من سقطة ، أو توحيد كلمة ، أو تجديد قوة ، أو كمال فى فضيلة ، أو تقدم فى علم أو صنعة ، ويرسمونه فى الألواح ، ويسجلون مدحته فى بطون التواريخ ، ويرفعون له الهياكل والتماثيل ، ويحفظون له ذكراً حميداً يتناقله الأبناء عن الآباء ، حتى ينقرضوا وينقرض العالم .

إذا جحدت الأمة حق العامل لها ، أو قصرت فى استحسان عمله ، ضعفت الهمم ، وقل السعى فى المصالح العامة ، وانقبضت الأيدى عن تعاطيها ، فهبطت شؤون الأمة ، فافترقت وماتت .

. . . .

(1) الكز : اليابس والمنقبض ، والمراد هنا مالا خير فيه .

إن الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب ، فإذا استوى لدى الأمة الحسن والقبيح ، والطيب والخبيث ، والفضيلة والرذيلة ، والمصلحة والمفسدة ، وفقد منها التمييز ، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ، ولم تعرف معروفاً ، ولم تنكر منكراً ، سلبت آحادها الميل إلى المعالي والكمالات ، وكان هذا أشد نكاية بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالم لا يدوم ، وسطوة الغالب لا تثبت ، إذا كان جمهور الأمة يقابل الإحسان بالاعتراف ، والفضل بالحمد ، فإنه يوجد منها من يشترى هذه المكافأة بتخليصها وإنقاذها ، وأما فقد هذا الاحساس الشريف ، فهو أشبه علة بالهرم ، لا عقبى له إلا الموت والهلاك .

كيف لا تكون المدحة الحقة نعمة على النفوس الإنسانية ، يسعى إليها الأعاون من بنى الإنسان ، وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك) ، وكيف لا تكون حقاً تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات ، كما سوغ لنبيه ذلك فى قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) .

قلب طرفك فى تواريخ الأمم أقصاها وأدناها ، تجد برهاناً قاطعاً على أن الأمة متى بخست قيم الأعمال العالية ، وازدرى فيها بشأن الفضيلة ، فقدت مابه قوامها ، وانهدم بناؤها ، وذهبت كما ذهب أمس ، ولا جرم أن الكفران مقرون بزوال النعم .

يمكننى أن أختم كلامى هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة ، التى أقدمت فى هذه الأوقات النحسة ، ووقفت على شفير الخطر ، وكتبت على نفسها السعى فى توحيد المسلمين ، ويسرنا أنا نرى عددها كل يوم فى ازدياد ، نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها إنه نعم المولى ونعم النصير .

الشرف

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون ، فئة ترى الشرف فى تشييد القصور ، والتعالى فى البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات ، وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الألبسة وأنواعها ، والتحلي بحلى الجواهر الثمينة ، مرصعة بالأحجار الكريمة ، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف فى الألقاب والرتب كالبيك والباشا ، أو فى الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالأول من الصنف الفلانى ، والثانى من الدرجة الفلانية ، حتى أنك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بنى ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصراً ، ويرفع بناء ويزخرف بيتاً ، ويقيم له حراساً من المماليك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك أنه نال مجداً أبدياً وفخاراً سرمدياً ، وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف ، وتجد الآخر يذهب فى الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسى برفيع الثياب ، ويتزين بأجمل الحلى ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يدانى فيها ، ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره ، بالفكر في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب ، أو يحصل بها وساماً أو يستفيد وشاحاً ، وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها ، وإن أفضت إلى خراب بلاده ، أو تذليل أمته ، أو تمزيق ملته ، وعنده أنه رقى الذروة من معنى الشرف .

نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق فى أذهان كثير من الناس ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن إدراك أخطائهم وانحرافهم عن الصواب فى وهمهم ، ماذا يجد من نفسه الباهى بقصوره ، وولدانه وحوره ،

لا يحس من أنه وإن حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته التى هى أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال ، وأن جميع ما حصله فهو أجنبى عنه ، وليس له نسبة إليه إلا نسبة العناء فى تحصيله ، ألا يرى أن كثيراً ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم ، فإن لم تكن على جانب من الكمال الإنسانى انخرطت فى سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم فى القلوب منزلة ولا فى النفوس مكانة .

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه إذا تجرد منه وخلى بنفسه إن لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ، ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء وألا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور ، فى ميدان واحد ، ماذا يتصور الزاهى برتبته ، المعجب بوسامه ، إن لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته ، على حال تجل ، أو كمال يبجل ، أليس يشعر أنه لو سلب الوسام ، أو نزع عنه الوشاح ، يعود إلى منزلته من الاحتقار فإن نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيما للقب لا للملقب به ، ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريع الزوال ، بل رسما ظاهراً لا يمس بواطن القلوب .

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر إذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلا عليه أو مشيراً إليه ، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار إذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاء من النوع البشرى ، وكان الوسام أو اللقب عنواناً على ما اقترف كاسبه ، وعلامة على ما احترم .

انظر وتدبر ولا تخطىء فما أنت من الصواب ببعيد ، إن عثمان الغازى الذى لقبه أعداؤه بأسد (بلاونه) نال رتبة ومنح لقباً ، وحظى بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء فى دولته بعد ما دفع بروحه للموت فى المدافعة عن ملته ، وجاهد فى إعلاء كلمة دينه ، بما شهد له الأعداء والأصدقاء ، وأن بعض الأمراء فى ديار إسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الإنجليز جزاء لهم على ما تقدموا أمام

جيوش أعدائهم ، لافتتاح بلادهم ، حتى مكنوا الإنجليز من ديارهم ، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد فى إيجاد الوسائل لخروجهم منها ، أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازى من موقعه على صدور أولئك المخدوعين ، أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذى جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه .

ماذا غر أولئك الواهمين على اختلافهم ، ألا يعلمون أن الثياب الملمة بالدم ، الموشاة بالتجبيع ، الملونة بالمهج ، هى التى حفظت للابسيها ذكراً حسناً لا ينقطع ، وأثراً مجيداً لا يمحى . إن الذين ضرجوا بدمائهم فى طلب المجد لمللهم ، هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات ، وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب ، ألم يصل إليهم أن الذين قضوا نحبهم فى غيابات الجب ، وانتهت حياتهم فى ظلمات السجن ، لطلب حق مسلوب أو حفظ مجد موجود هم الذين سما ذكرهم إلى شرف الشمس الأعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء ، أظن أن الذين كانوا فى الغرفات العالية ينظرون إلى جناتهم وحدائقهم ، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم ، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا ، لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم فى حياتهم شأن ، إلا ما هو محصور فى دوائر بيوتهم ، ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج ، ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم ، فارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاءوا إلى الدنيا ، ومتى انكشفوا عنها .

هل سمعنا أن أحداً يذكر بين بنى البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا ، نعم يقولون علم وعمل ، وأعطى وبذل ورفع ووضع ، وجاهد وكافح ، وأباد وأبقى ، وما يشا كل ذلك من الأعمال التى لها أثر ثابت ، إذا ذكر اسكندر الأكبر هل يخطر بالبال إن كان له قصر أولا . أى أبله يطلب سيرة نابليون الأول فى آثار قصر كان يسكنه ، أو فى خرق ثياب كان يلبسها وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ما شيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا أكان جميع ما ينالون من ذلك

بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصي . خدع قوم بالأحلام وغرتهم الأوهام ، ففرطوا فى شئون بلادهم وباعوا مجدها الشامخ بتلك الأسماء التى لا مسمى لها ، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا من مكانة الشرف وإن كان خاصاً بهم بعد ما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدها ، ونالها غير أهلها ، فلو أنهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم ، وتمنفهم به خواطر أفئدتهم ، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم ، لعلموا أنهم فى أخس المنازل وأبعد المزاجر ، وأدركوا خطأهم فى معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب فى طلبه ، لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم ، وما لصق من الذل والعار بذراريهم ، لطرحوا الوشاحات ، ونبذوا الوسامات ، ولبسوا أثواب الحداد ، ونفروا خفافاً وثقالا لطلب الشرف الحقيقي .

الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر ، وليس لذى شاكلة إنسانية أن يرتاب فى فهمها ، إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

الشرف بهاء للشخص ، يحوم عليه بالأنظار ، ويوجه إليه الخواطر والأفكار وجمال يروق حسنه فى البصائر والأبصار ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن فى أمته أو بنى ملته ، أو فى النوع الإنسانى عامة ، كإنقاذ من تهلكة ، أو كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب . أو تذكير بمجد سبق . وسؤدد سلق . أو إنهاض من عثرة أو إيقاظ من غفلة أو إرشاد لخير يعم . أو تحذير من شر يغم . أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول . أو جمع كلمة وتجديد رابطة أو إعادة قوة . وانتشال من ضعف . أو إيقاد حمية أو حضومة لغيرة .

من أتى عملا من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وإن كان يسكن

الخصاص والأكواخ . ويلبس الدلوق والأسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب الفقر ، ويتوسد نشز الأرض ، ويضرب فى كل واد ، ويتردد بين الربى والوهاد ، هذا له حلية من عمله ، وزينة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدى إليه ضالة الألباب ، وتائهة الأفئدة ، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره ، وتكتنفه دارات القلوب المتطايرة إليه ولا تنفصل عنه ، له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لا يكاد يخفى حتى يظهر ، ولا يكاد يستر حتى يبصر ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، يرفعه إلى أعلى عليين ، حياة طيبة فى القلوب وعزة مشرقة فى جبهة الزمان (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) .

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالألسنة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق فى أنظارهم أزهار أعماله ، ولا أنوار مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم ، لما ألفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التى عدوها شرفاً ، وحسبوها مجداً ، وقد بيناها كما كشفتها الشرائع وآراءها العقلاء ، وإنما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد ، ويألف روائح القذر ، لا يبعد أن يستخز بالعامل الفاضل أناس لاخلاق لهم ، أو يقصده بالأضرار من لا ذمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزأون ، وبمصالحهم يضرون ، ولا يطول عليهم الزمان فى هذا العمى ، بل لايلبثون إذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها ، ولا يسعهم بعد ذلك إلا الحمد لغارس الشجرة ، وحافظ الثمره ، وإن كان دونهم فى تلك الزخارف التى لا قيمة لها فى نظر العاقل ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندماً على الخطيئة ، وأسفاً على السيئة وألماً فى قلوبهم تهيجه ذكرى ما قاموا من سوء عملهم ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم ، هكذا تمنح العناية الألهية

هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف ما دام حياً ، فإذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التى فاضت منه على نجوم هاديات ، وبدور منيرات ، نعم أنه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم فى الأفئدة ، شاهد على الألسنة ، حى يرزق عند ربه ، ونعمة الحياة حياته ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

الأمة وسلطة الحاكم المستبد

« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

إن الأمة التي ليس لها فى شؤونها حل ولا عقد ، ولا تستشار فى مصالحها ، ولا أثر لإرادتها ، فى منافعها العمومية ، وإنما هى خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ، ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فتلك أمة لاتثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير . فتعتورها السعادة والشقاء . ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر . ويتناوبها العز والذل . وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها . فهو تابع لحال الحاكم فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل الرأى . على الهمة . رفيع القصد قويم الطبع . ساس الأمة بسياسة العدل . ورفع فيها منار العلم ومهد لها طرق اليسار والثروة . وفتح لها أبواباً للتفنن فى الصنائع . والحذق فى جميع لوازم الحياة ، وبعث فى أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلى بالمزايا الشريفة من الشجاعة والشهامة وأباء الضيم . والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .

وإن كان حاكمها جاهلا سيىء الطبع . سافل الهمة . شرها مغتلماً جباناً . ضعيف الرأى . أحمق الجنان . خسيس النفس . معوج الطبيعة . أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل . وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار فى سلطته عن جادة العدل . وفتح أبواباً للعدوان . فيتغلب القوى على حقوق الضعيف . ويختل النظام . وتفسد الأخلاق وتخفض الكلمة . ويغلب اليأس نتمتد إليها أنظار الطامعين . وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها فى أحشاء الأمة .

عند ذلك إن كان فى الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله

بها خيراً اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة . واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة ، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسرى فساده إلى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وإن انحطت الأمة عن هذه الدرجة وتركت شؤونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يشاء . فانذرها بمضض العبودية . وعناء الذلة ووصمة العار بين الأمم . جزاء على ما فرطوا فى أمورهم . وما ربك بظلام للعبيد .

دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان

«(إذا أراد الله بقوم خيراً جمع كلمتهم)»

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها فى خدمة أوطانها واعتدالها فى مشاربها وزادنا مسرة إهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها إلى اللسان المذب الفارسى مما تظن فيه تنبيهاً لأفكار المسلمين ، واستلفاتاً لعقولهم إلى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص فى محبة ملته أوفر الشكر ، خصوصاً جريدة (اطلاع) التى تطبع فى مدينة (طهران) وهذا النهج القويم مما تعم به الفائدة فى جميع الأقطار الإسلامية ، فإن جميعها بعد بلاد العرب ، وإن اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهى فى الشرق كاللسان الفرنساوى فى الغرب ، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة ، وأذهانهم الصافية ، وترشدهم إليه عقولهم العالية ، خصوصاً فيما يتعلق بالنداء للوحدة الإسلامية ، وإحياء الرابطة الملية بين المسلمين ، لاسيما فى الإتفاق بين الإيرانيين والأفغانيين .

هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة ، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسى القديم ، وقد زادهما إرتباطاً إجتماعهما فى الديانة الحقة الإسلامية ، ولا يوجد بينهما إلا نوع من الإختلاف الجزئى لايدعو إلى شق العصا ، وتمزيق نسيج الاتحاد ، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سبب فى تخالف عنيف .

ليس يبعيد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية ، وتقوية الصلات الدينية ، كما قاموا فى بداية الإسلام بنشر علومه ، وحفظ أحكامه وكشف أسراره ، وما قصروا فى خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة .

نعم البخارى ومسلم والنيسابورى والنسائى والترمذى وابن ماجه وأبو داود والبغوى وأبوجعفر البلخى والكلينى وغيرهم ممن أنبتتهم أراضى إيران ، أبو بكر الرازى الطبيب الشهير والإمام فخر الدين الرازى ممن نشأوا فى طهران ، أبوحامد الغزالى حجة الإسلام ، وأبو اسحق الاسفراينى ، والبيضاوى ، وخواجة نصير الدين الطوسى ، والأبهرى وعضد الملة والدين ، وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخار للمسلمين ، الفيلسوف الشهير أبوعلى بن سينا ، وشهاب الدين المقتول ، ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربى وضبط أصوله ، وتأسيس فنونه ، منهم سيبويه ، وأبو على الفارسى ، والرضى ، ومنهم عبدالقاهر الجرجانى ، مؤسس علوم البلاغة لبيان أعجاز القرآن ، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية ، وصاحب صحاح الجوهرى من إحدى قراهم ، ومجد الدين الفيروزابادى ، من إحدى بلدانهم ، الزمخشرى ، والسكاكى ، وأبو الفرج الأصفهانى ، وبديع الزمان الهمذانى وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن ، وشيدوا معالم الدين ، كلهم من أرض فارس .

الطبرى أول المؤرخين ، والأصطخرى ، والقزوينى ، أول الجغرافيين ، كانوا من بلاد فارس ، الشبلى كان من نهاوند ، وأبو يزيد البسطامى كان من بسطام ، والأستاذ الهروى وهو الأستاذ الحقيقى للشيخ محيى الدين بن العربى ، كان من هراة وكلها بلاد إيران .

هل ينسى صدر الشريعة وفخر الإسلام البزدوى والآمدى ، والمرغينانى ، والسرخسى ، والسعد التفتازانى ، والسيد الشريف والأبيوردى ، وكلهم من أبناء فارس ، من أين كان القطب الشيرازى ، والصدر الشيرازى ، ورأس الحكمة فى المتأخرين ميرباقر الداماد ، وميرفندركسى وغيرهم كانوا من بلاد فارس ؟ أى فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى ، أى مزية من الله بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها ، نعم وفيهم جاء من قول النبى ﷺ (لوكان العلم فى الثريا لناله رجال من فارس) .

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم فى العلم ، وانظروا إلى آثاركم فى الاسلام ، وكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كنتم للنشأة الإسلامية وقاية ، أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعى فى استرجاع ما كان لكم فى فتوة الإسلام ، أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الإسلامية ، وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم ، أظن لا يخفى عليكم إن هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين ، لتكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً ، وحرزاً منيعاً ، تقف دونه أقدام الطامعين ، أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الانجليز على الممالك الهندية ، إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين .

هل يخفى عليكم أن كل مسلم فى الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومكم إذا اتحدتم مع إخوانكم الأفغانيين . حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة ، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافى والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة .

هذا آن التآخى والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتواثق ، أحاط الأعداء ببلادكم ، شرقاً وغرباً وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ، حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم ، فلو ضاعت الفرصة فى هذا الوقت فربما لا تصادفونها فى غيره ، الإنجليز فى ارتباك شديد فى المسألة المصرية مع ضعفهم فى القوة العسكرية ، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتها لمقاصدهم .

الأمير عبدالرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شيبوبته أشد الناس عداوة للانجليز ، وبينه وبينهم حزازات لا تزول ، بل نقول إن عداوة الإنجليز سارية فى عروق الأفغانيين عموماً ممتزجة بدمائهم ، فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الأفغان ، لوجدت قوة إسلامية جديدة فى الشرق بين سائر الطوائف الاسلامية ، وينبعث فيهم وفى سائر المسلمين حياة جديدة ، وتتجدد لهم آمال جليلة ، وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين ، هذا وقت تنبهت فيه أفكار الأفغانيين إلى أعمال

جيرانهم فى المسألة المصرية ، وتحركت فيهم السواكن ، وهى أعظم فرصة لأهل فارس فى دعوتهم للاتحاد معهم .

هذا عمل من أجل الأعمال وأجزلها فائدة ، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالى إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل فى بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين ، وإن لذلك لأثراً عظيما فى النفوس خصوصاً إن كانت من أقلام العلماء الأعلام ، والمجتهدين الكرام .

العالم الإنسانى عالم الفكر والكلام فأحكام الفكر الصالح ونشره فى الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجل الأثر فى تهذيب الناس وتثقيف عقولهم ، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم ، فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعدوا ، وكتبوا ونشروا ، مع الوقوف عند الحدود الدينية ، والأصول الشرعية ، كان فضل الله كافلا لهم النجاح .

أى فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين ، كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، عبدالرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ، ولا نشك أن شاه إيران لما اطلع عليه فى سياحاته وشاهده فى أسفاره لا يأبى المبادرة إليه والسعى فيه ، إن البادىء بالعمل فى هذا المقصد الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً ويجنى ثمرته فى وقت قريب .

كان الألمانيون يختلفون فى الدين المسيحى على نحو ما يختلف الإيرانيون مع الأفغانيين فى مذاهب الديانة الإسلامية ، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعى أثر فى الوحدة السياسية ، ظهر الضعف فى الأمة الألمانية ، وكثرت عليها عاديات جيرانها ، ولم يكن لها كلمة فى سياسة أوروبا ، وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية ، وراعوا الوحدة الوطنية فى المصالح العامة ، أرجع الله إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوربا وبيدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا فى الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الأصفهانية ، وصاحب جريدة « أطلاع » الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الإيرانية أن يوجهوا أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع ، ويجعلوا له محلا فسيحاً فى جرائدهم ، وينشروها فى بلادهم ، وبلاد الأفغان ، باللسان الفارسى ، وهو لسان الطائفتين ، وما هى إلا أيام ثم نرى علائم النجاح إن شاء الله رب العالمين .

امتحان الله للمؤمنين

« آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون .
ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . »

من الناس بل أغلب الناس من يقول آمنا . وللإيمان آثار ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون ، ويدعهم وما يتوهمون ، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون فى أنفسهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملا ، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس ، وغرت بها الأمانى ، وأنهم تائهون فى أوهامهم يحسبون أنهم على شىء ، وهم خلو من كل شىء ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم . إلا فى غيه حتى يبتليه فى دعوى الإيمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولئلا تكون للناس على الله حجة ، حاشا حكيماً أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعد، وبشر وأنذر ، وقوله الصدق ، ووعده الحق ، أن يجازى من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر ، وظن ليس له أساس ، بالسعادة السرمدية ، والنعيم الأبدى ، إن المغتر بزعمه ، الحائر فى ظلمات أوهامه الذى لا يسنهل عليه الإيمان إحتمال المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله ، ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدى والعذاب المخلد الإيمان يغلب كل هوى ، ويقهر كل أمنية ، ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه . يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون فى بذل أرواحهم وأموالهم فى أداء فريضة الإيمان ، حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون .

صدق الله وصدقت كتبه ورسله إن للعقائد الراسخة آثاراً تظهر فى العزائم والأعمال وتأثيراً فى الأفكار والإرادات لا يمكن للمعتقدين أن يمحوها عن أنفسهم ما داموا معتقدين ، هكذا الإيمان فى جميع شؤونه وأطواره ، له خواص لا تفارقه ، ونزعات لا تزايله ، وصفات جليلة لا تنفك عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون فى الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانوا يجحدون عقيدتهم ، نعم هم الذين صبروا فى نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً أبريزاً صافياً من كل غش ، وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقيماً . ما أصعب إبتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته فى ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب .

نعم إن دون ابتلاء الله خلع العادات ، وتحمل الصعوبات ، وبذل الأموال وبيع الأرواح ، كل خطر فهو تهلكة ينبغى البعد عنها إلا فى الإيمان ، فكل تهلكة فيه فهى نجاة ، وكل موت فى المحاماة عن الإيمان فهو بقاء أبدى وكل شقاء فى أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية ، المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه إيمانه ولا يخشى الفقر ، وإن كان الشيطان يعده الفقر ، ليس فى النفقة لأداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل ما فى أيدى المؤمنين ، إن للمؤمنين حياة وراء هذه الحياة ، وأن له لذة وراء لذاتها ، وأن له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعادتها . هكذا يرى المؤمن إن كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ العناية من كماله .

إن الفرار من محنة الله فى الايمان مجلبة للخزى الأبدى . إن الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدى . لا سعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تتطاير الأعناق ، إن للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء إلا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، إن القيام بفرائض الإيمان محفوف بالمخاطر ، مكتنف بالمكاره . كيف لا وأول ما يوجبه الإيمان خروج الإنسان عن نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه ، لن يكون المؤمن

مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه . أول إحساس يلم بنفس المؤمن أنه فى هذه الدنيا عابر سبيل إلى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى . وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه إذا دعاه داعى الايمان ، ولا داعى أرفع صوتاً وأبين حجة من ندا الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله فى صيانة الايمان عذراً ولا تعلة ما دامت الرجل تمشى والعين تنظر واليد تعمل . إن امتحان الله للمؤمنين سنة من سننه .

ومن يضلل الله فما له من هاد

يوجد بين بنى البشر نفوس لم يرضها الاسلام ، ولم تقنع بالكفر ، تتلون تلون الحرباء ، وتتشكل تشكل الأغوال ، وتتقلب تقلب الدهر الخؤون ، لا ترضى بحال ، ولا تنسج على منوال ، يضحكون وقت البكاء ، ويمرحون عند اشتداد اللأواء ، ويبكون لأوقات المسرة ، ويضجرون لسعة الرحمة ، مثلهم كمثل الحسك الثلث الأضلاع ، كله شوك حيثما قلبته ، تراهم فى النهار مسلمين منقلبين بين مذاهب الإسلام يصبحون سنيين ويقيلون شيعيين ويقضون طرف اليوم وهابيين ، فاذا جن الليل رأيتهم دهريين أباحيين ، أولئك الذين غضب الله عليهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، منهم أناس من أرباب الجرائد الساقطة فى الهند يريدون أن يتزلفوا للحكومة الهندية الانجليزية بما فيه مضرة أوطانهم وأبناء الملة التى ولدوا فيها لينالوا من ظالميهم جائزة ما ، أو ليكون لهم فى دوائرهم اسم ما ، فأخذوا يؤولون بعض فصول العروة الوثقى ويحولونها عن وجهتها جهلا ، أو عناداً ولوماً ، ويحرفون الكلم عن مواضعه على حسب أهوائهم الخسيسة ، وطباعهم الخبيثة ؛ قاتلهم الله أنى يؤفكون ، أولئك قوم عرفناهم وليس لهم بين قومهم شأن يعرفون به فليس يهمنا أمرهم . وإنا نقدم الشكر للجرائد المهمة الهندية الناهجة فى خدمة أوطانهم منهج الحق ، السالكة جادة الاعتدال على ما تعنى به من ترجمة فصول العروة الوثقى إلى اللسان الهندى تعميماً للفائدة فى أبناء أوطانها ، جزاها الله عن المسلمين خيراً .

أسباب حفظ الملك

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

أهلك الله شعوباً ، وأباد قبائل ، ودمر بلاداً ، ولا يزال عدل الله يبدل قوما بقوم ويأتى لكل حين بأناس آخرين ، حكيم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سبباً (ولا يظلم ربك أحداً) وليست أفعاله جزافاً ، ولا يصدر عنه شىء عبثاً ، أمر الله عباده بالسير فى الأرض (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل ، فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة ، من كان له قلب يعقل وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية إنقلاب الأمم ، وخاض فى تواريخ الأجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله علينا فى كتابه المنزل ، يحكم حكما لا يخالطه ريب ، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء ، وما مسها الضر فى شىء إلا وكانت هى الظالمة لنفسها ، بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرماته ، ونبذت أوامره العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حب الأهواء والشهوات .

كما أن للأغذية والأدوية ، واختلاف الفصول والأهوية ، أثراً ظاهراً فى الأمزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ، ولكل طور من أطوار البشر ، أثر فى الهيئة الاجتماعية ، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود ، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز

النفع من الضر ، فأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزى الدنيا وعذاب الآخرة .

إن تأثير الفواعل الكونية فى أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر ، أما تأثير أحوال بنى الانسان فى هيئة اجماعهم ، فيسهل على سره لكل ذى إدراك ، إن لم تكن عين بصيرته عمياء .

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة ، وجعل التنازع والتغابن علة للضعف ، وداعياً للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهيأ لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم ، فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولم يكن مصاباً بمرض القلب ، وعمى البصيرة ، أدرك سر أمر الله فى قوله (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وسر نهيه فى قوله (ولا تفرقوا ، ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أى جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم .

إن الله تعالى يجعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه ، والثقة بمن لاتنبغى الثقة به ، سبباً فى اختلال الأمر وفساد الحال ، فمن وثق فى عمله بمن ليس منه فى شىء، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصله به رابطة صحيحة ، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته ، ودفع المدار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وإن كان ملكا ضاع ملكه أو أميراً بطل أمره والحوادث عاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة ، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقوله (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين .

لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا ، ويعد لها مآلا صالحاً فى الآخرة . وهو إنسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه فى شىء فاته سائر الأشياء ، فلو توغل فى الشهوات ، وبالغ فى الترف ، وبطر فيما أنعم الله عليه ، فقد أغفل فرائضه ، وأضر بنفسه ، وحرم من منافعه ، وحل به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معاً ، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه، وإنحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته ، أو يواطنه فى مدينته ، وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بما لا يعجم إلا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهاء ، وإن فيما قص الله علينا من أحوال المترفين ، لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ، حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

ما أوتى الانسان من العلم إلا قليلا ، لا يمكن لانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها ، خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للصبر وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمة ، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه التامة تحت إرادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع ، لا ريب إن مثل هذا الشخص أحوج إلى الشورة والاستفادة من آراء العقلاء وهو أشد افتقاراً إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم

من الخطأ تعليما وإرشاداً فقال (وشـاورهم فى الأمر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شـورى بينهم) أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ، أى بصـيرة لا تهتدى إلى هذا المنهج القويم (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) .

إن وازع البلاد والقائم على الملك لو المج لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده فى كل وقت معرضه لأطماع الطامعين ، وأن الحرص المودع فى طباع البشر ، يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالـكه ليذلوا قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمـار كدهم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم ، فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله ، والحـكام النائبين عنه فى إيالاته ، وقواد جيشـه ، وعلى كل أرباب الرأى ، ومن بهم قوام الملك ، أن يسـتعدوا لدفع طوارىء العدوان ، ورفع نوازل الغارات الأجنبية ، فلو فرطوا فى إعداد لوازم الدفاع ، أوتساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع ، أوتهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوى شوكتهم ، بأى وجه كان ، ومن أى نوع كان ، فقد عرضوا ملـكهم للهلاك ، وألقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار .

هذا مما يفهمه الأبله والحـكيم ، ويصل إليه إدراك الجاهل والعليم ، وهو سر الافصاح والابهام فى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر بإعداد القوة ووكلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة . على حسب ما يقتضيه الزمان ، وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) .

إعطاء كل ذى حق حقه ، ووضـع الأشياء فى مواضعها ، وتفويض أعمال الملك للقـادرين على أدائها ، مما يوجب صيانة الملك ، وقوة السلطان ، ويشـيد بناء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفى نفوس الأمة من العلل ، هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحـكمة التى قامت بها السموات والأرض ، وثبت بها نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع فى قوله تعالى (إن الله يأمركم بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل

الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فنائه واضمحلاله ، كذلك الجور فى الجمعيات البشرية يسبب دمارها ، لهذا حثت الأوامر الالهيه على العدل ، وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور ، والحكام أولى من توجه إليه الأوامر والنواهى فى هذا الباب ، العدل هو الحكمة التى امتن الله بها على عباده ، وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) هى مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير .

من سار فى الأرض ، وتتبع تواريخ الأمم ، وكان بصير القلب ، علم أنه ما ينهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجد ، إلا لشقاق واختلاف ، أو ثقة بمن لايوثق به ، وتخلل العنصر الأجنبى ، أواستبداد فى الرأى ، واستنكاف عن المشورة ، وإهمال فى إعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الأعمال لمن لايحسن أداءها ، ووضع الأشياء فى غير مواضعها ، فيكون جور فى الحكم ، واختلال فى النظم ، وفى كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحصل غضبه بالخاطئين ، وهو أحكم الحاكمين .

لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التى ألمت بالممالك الإسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذى ضربه الله لنا وأرشدنا إليه ، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملة المحمدية ، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله ، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، ويستلفتوهم ألى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه ورفض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره (فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)

على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعده الحق فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين ، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله إليهم ، ووكل إلى ذمتهم ، وهم أمناء الدين وحملة الشرع ، ورافعوا لواء الاسلام ، وأوصياء الله على المؤمنين ، أعانهم الله على خير أعمالهم ، ونفع بهم المؤمنين بإرشادهم .

ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض

﴿ ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾

للانسان عقل سمى ، وفكر على ، وحدث قوى ، وبراعة فى الاستدلال ، ومهارة فى الاستنباط ، ومع هذا كله تراه فى رأيه عليلا ، ولا يصيب فى مقاصده إلا قليلا ، تشابه علل الحوادث فى تنوعها يحول بين المرء وعلم الحوادث الآتية ، ويحجب عن نظره جادة الصواب ، فيخبط فى خطاء ويخوض فى عمه ، وتلتبس عليه المقدمات ، فتشبه النتائج ، فيختل قياس الاستنباط ، هذا ما يحمل كثيراً من الناس على الحكم باستحالة ممكن ، أو إمكان مستحيل . لو أن حاذقا بصيراً بفنون السياسة ، وخبيراً بأحوال الأمم ، ذهب إلى البلاد الهندية قبل اليوم بأربعين سنة ، وساح فى أرجائها ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغوليين ، وما هم فيه من الذلة وأحفاد (تيبوسلدان) وما أصابهم من الفقر والمسكنة . وسلالة سلاطين (أوده) وما نزل بهم من الهوان ، ونوابى (كارناتك) وأمراء السند وما حل بهم من الصغار ، وتدبر شئون (مرتة) تلك القبيلة العظيمة القاطنة فى (فونا) و (ستارة) وما حولها ، وأحاط بالبلاء المنصب على غيرهم من سائر الأمراء والرجوات العظام ، ثم لاحظ سلطة الإنجليز وتغلبهم على تلك البلاد وما أعدوه لقهرها من الآلات الحربية ، والحصون القوية ، وما هم عليه من الحذق فى الحيل والخدع السياسية . وما عليه رعاياهم من الضعف والعجز وسلامة القلب وغرة الجنان ولو أتى من الفكر فى لواحق هذه الأحوال على غاية جهده لحكم بناء على ما لديه من المقدمات ، وما يحضره من الأقيسة ، بأن أولئك الأقوام وسلائل الأمراء وأحفاد السلاطين ، قد ضرب عليهم الذل الأبدى ، وسجلت عليهم العبودية السرمدية ، بل ربما ذهب به الوهم إلى الحكم عليهم بتحتم الفناء ولزوم الاضمحلال ، فإن الناظر فى شئونهم ما كان يحضره إلا صولة

الإنجليز وسعة اقتدارهم ، وخضوع الهنديين وشدة عجزهم ، ما كان يخطر فى ذلك الوقت بخاطر أحد أن الأيام تأتى بهذا الحادث الجديد .

إن الروسية تقطع الفيافى من وراء بحر الخزر حاملة عواملها رافعة أعلامها ضاربة فى تلك البوادى ، زاحفة إلى حدود الهند ما كان يختلج فى صدر أحد فى تلك الأوقات أن حرص الإنجليز وطمعهم فى الاستيلاء على مصر يوجب انحراف الدول عنهم ويقتضى قيام رجل السياسة (البرنس بسمارك) لجمع كلمة الدول على مصادمتهم . ما كان يحوم فى خيال أن قائماً يسمى محمد أحمد يقوم بدعوة دينية فى أعالى السودان وبعد ارغامه للانجليز مرات يحرك قلوب الهنديين ويوقظ نائميهم ، ويثير السا كن من خواطرهم وينهض الهمم ، ويحيى الآمال فيهم بعد القنوط وتنتشر دعوته فى أرجاء الهند ، نعم ومن أين يكون للانسان علم هذه الحوادث وهى محجوبة بستار الغيب ، فهو معذور فى أحكامه مقسور على أوهامه .

نرى دوائر السوء تدور بالحكومة الإنجليزية ، وقد تهيأت ضاريات الشر للوثبة عليها ، وليس لها حليف فى أوروبا ، وأن استئثارها بمنافع الأمم ، وطمعها فى الاختصاص بمصالح العالم ، أبعد عنها الأصدقاء . ونفر منها الأولياء ، فكانت هذه السقطة بهزة لنهوض الروسية وتقدمها إلى الحدود الهندية ، ومن مصلحة الدول فى أوربا خصوصاً دولة الألمان على ما يظهر من جرائدها الرسمية أن تؤيد الروسية فيما تقصد من فتح الهند ، فإن اندفاع السيل الروسى على تخوم الهند خير لأوربا عموماً وألمانيا خصوصاً من انحداره إلى بعض المواقع الأوربية وأنجع فى صيانة السلم الأوربى إذا جاء يوم التصادم بين الروسيا والأنجليز على حدود الهند وما هو ببعيد كان قضاء السوء على الجيش الإنجليزى فى الصدمة الأولى فيما نظن لقلة عدده ، ولأن العدد الغالب فيه من الهنديين الحرجة صدورهم المجروحة قلوبهم المترقبين لفرصة تمكنهم من الخروج على حكامهم الظالمين . فإذا وقعت الهزيمة اشتعلت نار الثورة فى عموم

الهند ، ومحيت سلطنة الإنجليز بأيدى الهنديين .

ليس من الممكن للروسية أن تستولى على الأقطار الهندية استيلاء مطلقاً لأول وهلة فإن البلاد واسعة أطرافها شاسعة تحتاج فى إدارتها والمحافظة عليها إلى ملايين من الناس يعسر عليها جلبهم من بلادها البعيدة ، نعم أن الإنجليز تسلطوا على الهند ولكن فى أحقاب . فدولة الروسية ملجأة بحكم الضرورة إلى تشكيل ممالك فى الهند يديرها رجال من العائلات الملكية القديمة من أولاد سلاطين المغول وذرية سيبو سلطان وأمراء السند و (أوده) و (كارناتك) والمرتبين وغيرهم وتكتفى دولة الروس بعقد محالفات تجارية بينها وبين تلك الممالك . وربما كانت هذه السيرة توافق بعض الإمارات الإسلامية المستقلة وبعض ممالك المسلمين وقد يكون من مصلحة دولة إيران وأمارة أفغانستان أن تتفقا مع الروسية اتفاقاً يفيد كلا من المتحالفين .

إن الروسية ما جاءت إلى (مرو) لتهلك عساكرها فى قفارها ولا يصدها عن سيرها إخلاصها فى محبة الإنجليز ولا ارتباطها معهم بعهد مع علمها أن لا عهد لهم . إنما جاءت لتفتح باب التجارة مع أثرى قطر فى الشرق وتهدم سلطان الإنجليز فيه فإن الأثرة الإنجليزية ما تركت مصلحة تجارية تتمتع بها أمة من الأمم . هذا عارض سوء على حكومة بريطانيا ولكنه سحاب رحمة على الهنديين بما انتقم الله لهم من عدوهم فبذلك فليفرحوا وليعد الأمراء أنفسهم لما أعد الله لهم من العزة بعد الذلة والحرية بعد العبودية والخلاص من قهر حكومة لا ترحم صغيراً ولا توقر كبيراً .

لا نظن ولن نظن أن يجد الإنجليز لهم يوم التصادم نصيراً من دول أوربا ولا من دول المشرق ولا من الهنديين ولا من صنف البشر لأنه لا توجد نفس تشعر بوجود حكومة الإنجليز على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شىء من الضر .

إن حكومة الإنجليز تشعر بقربها من هذا الخطر العظيم وتعلم أن ما ينزل بها من المصاب فى الهند لايقتصر ضرره على حالها فيه ولـكنه يزلزل جزائر بريطانيا فإن حياتها ومجدها ليس إلا بالهند ، كيف لا يشعر الإنجليز بسوء عاقبتهم وهم يحسون بضعفهم فى القوى العسكرية وانحراف قلوب رعاياهم الهنديين عنهم واحتدامها غيظاً عليهم عجل الله لهم ما فيه خير الضعفاء .

ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات

﴿ وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾

أزفت هجمة الروسية على الهند وسير الدول فى سياستها وحرصها على تقرير السلم فى أوربا يمد الروس فى مقاصدهم ويهيىء لهم الأسباب ويقرب مدة الوصول . هذا طور من السياسة جديد لو اتفقت فيه دولة إيران مع إمارة أفغانستان لكان لكل منهما حظ وافر ونفع جزيل ، أن الروسية وإن كانت تنصرها نفرة القلوب الهنديين من الإنجليز إلا أن فى طريقها عقبات لا يذللها إلا موالاة الفرس والأفغان . إن الهند بعيد من معسكرات الروس ودونه مسالك مجهولة وطرق ملتوية وليس الروس من الخبرة بها فى شىء ، الروس فى حاجة للمواصلة مع أمراء الهند وفى ضرورة للوقوف على أخلاقهم ومجارى ميلهم ومواقع أهوائهم ولا سبيل يوصلهم إلى ذلك إلا إشراك الفارسيين والأفغانيين فى أعمالهم الحربية والسلمية . ليس من السهل على الروسية أن تستعين بدولة فارس وإمارة الأفغان على فتح أبواب الهند إلا أن تساهمهما فى الغنيمة وتشركهما فى المنفعة وإلا كانا سداً محكما دون أهم غاياتها .

كيف يمكن للروسية أن تخرق تلك الأجسام الآخذة بطريق الهند وهى مرابض الأسود . كيف تتوهم السلامة فى معابرها الضيقة إذا قصدت الاختصاص بالفريسة . إن الروسية لا تخفى عليها صعوبة الأمر ولا يغيب عنها إن كشف أمة عظيمة عن بلاد سكنتها أحقاباً ونالت فيها أعلى مجد وأعظم فخار يعد من أعظم الأعمال ويحتاج لكثرة الأعوان والأنصار وليس بين يديها من يصح به الاستنصار

إلا دولة الفرس وحكومة الأفغان فليس من الحكمة فى العمل أن تختص دونها بثمراته خصوصاً وأنها لا تبتغى سوى فتح أبواب الهند للتجارة فعلى الأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد ، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين ، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف فى المصالح العمومية فالجميع من أصل واحد ، وتجمعهم رابطة واحدة . وهى أشرف الروابط « رابطة الدين الإسلامى » وليعلموا أن استمرارهم على التخالف فى مثل هذا الوقت ربما يجلب الضرر عليهم وعلى إخوانه المسلمين من الهنديين . وعلى الفارسيين والأفغانيين أن يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ولا يجعلوا الاختلاف الفرعى فى المذهب سبباً فى خفض الكلمة الإسلامية ، وقطع الصلة الحقيقية ، فليس من العقل أن يقام من خلاف جزئى ، علة لاضمحلال الكل .

أظن أن قد علم كل من القبيلين أن الاختلاف بينهما هو الذى جلب على كل منهما ما جلب . هذا الخلاف الفرعى بينهم استعمله بعض السياسيين فى الأزمان السابقة آلة للشقاق والمناوءات ، وربما جنوا من غرسهم ثماراً آتية ، ولكنه الآن لا يثمر إلا الدمار والبوار ، وهذا مما لا أخاله يخفى على عاقل . لا يجوز للأفغانيين فى هذا الوقت أن يقفوا عند هذا الخلاف الفرعى فليجوزوه إلى الوحدة الأصلية فإن الأخطار حاطتهم من كل جانب ، ولا منجاة لهم إلا بالاتفاق مع إخوانهم الفارسيين ، هذا وقت التآخى ، وهذه فرصة الالتئام ، ليس للأفغانيين عذر ، ولا للتعله عندهم محل ، لا سيما وقد تولى الصدارة فى الدولة الفارسية رجل عظيم القدر رفيع الشأن ، واسع العرفان ، لا تحجبه شؤون الكثرة ، عن ذات الوحدة ، ولا تقف به أطوار التلوين ، دون منازل التمكين ، ولا تشغله مظاهر الفرق عن مقامات الجمع ، يتجلى له الواحد فى مراتب الكثير ، وتتجلى له حقيقة الأحدية فى المنازل العددية ، فالاتحاد مشربه ، والائتلاف مذهبه ، وعندى أنه الأب الرحيم لكل إيرانى بدون استثناء ، يسعى

لجمع كلمتهم بلا ملاحظة اختلاف فى المذهب ، ولا تفارق فى الفروع ، وإنما يراعى الجامعة الحقـــة ، فعلى الأفغانيين أن يمدوا سواعدهم فى هذه الأوقات لمحالفة إخوانهم ولا يضيعوا هذه الفرصة ، وعلى القبيليين أن يجعلوا وفاقهم سياجاً لأوطانهم ، وعدة لمـكافحة أعدائهم ، ومنبعاً فياضاً لخير بلادهم ، فينالوا شرفاً رفيعاً ، ويورثوا أعقـابهم مجداً مخلداً .

سنن الله في الأمم
وتطبيقها على المسلمين

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون ، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد ، هل كذب الله رسله ، هل ودع أنبياءه وقلاهم ، هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ، نعوذ بالله ! ! هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثا ، هل افترت عليه رسله كذباً ، هل اختلقوا عليه إفكا ، هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها ، وأشارات لا يدركونها ، هل دعاهم إليه بما لا يعقلون ، نستغفر الله ! أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذى عوج ، وفصل فيه كل أمر وأودعه تبيانا لكل شىء ، تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، هو الصادق فى وعده ووعيده ، ما اتخذ رسولا كذاباً ، ولا أتى شيئاً عبثاً ، وما هدانا إلا سبيل الرشاد ، ولا تبديل لآياته ، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ، ويقول (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، وقال وكان حقا علينا نصر المؤمنين)، وقال (ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا ، ولاينال هذه الآيات بالتأويل ، إلامن ضل عن السبيل ، ورام تحريف الكلم عن مواضعه ، هذا عهده إلى تلك الأمة المرحومة ، ولن يخلف الله عهده ، وعدها

بالنصر والعزة وعلو الكلمة ، ومهد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيامة ، وما جعل لمجدها أمدا ، ولا لعزتها حداً .

هذه أمة أنشأها الله عن قلة ، ورفع شأنها إلى ذروة العلى ، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات ، ودكت لعظمتها عوالى الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ، وذابت للرعب منها أعشار القلوب ، هال ظهورها الهائل كل نفس وتحير فى سببه كل عقل ، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر ، معوزة من عنده ، هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر ، معوزة من الأسلحة وعدد القتال ، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها ، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم ، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم ، ولا عاقها صعوبة المسالك ، ولا أثر فى همتها اختلاف الأهوية ، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعها جلالة ملوكهم ، وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم ، ولا سعة دائرة فنونهم ، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ، ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلب غيرها من الأمم فى فنون السياسة ، كانت تطرق ديار القوم فيحقرون أمرها ، ويستهينون بها ، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة ، وتمحو أسماءها من لوح المجد ، وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة ، تقهر تلك الأمم الكبيرة ، وتمكن فى نفوسها عقائد دينها ، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها ، لكن كان كل ذلك ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعفها ، ما لم تنله أمة سواها ، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً فى الدنيا ، وسعادة فى الآخرة .

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء أربعمائة مليون من النفوس ، وأراضيها آخذة من المحيط الأطلسى إلى أحشاء بلاد الصين ، تربة طيبة ، ومنابت خصبة ، وديار رحبة ، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، وأموالها مسلوبة ، تتغلب الأجانب على

شعوب هذه الأمة شعباً شعباً ، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة ، ولم يبق لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى أن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم فى ملمة ، ويمسون فى كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التى تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم .

هذه هى الأمة التى كانت الدول العظام يؤدين لهـا الجزية عن يد ، وهن صاغرات ، استبقاء لحياتهن ، وملوكها فى هذه الأيام يرون بقاءهم فى التزلف إلى تلك الدول الأجنبية ويا للمصيبة ويا للرزية .

أليس هذا بخطب جلل ، أليس هذا ببلاء نزل ، ما سبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسىء الظن بالوعود الإلهية ، معاذ الله هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ،ونعوذ بالله ! هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعد أن أكده لنا ، حاشاه سبحانه ، لا كان شىء من ذلك ولن يكون فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها ، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سنناً متبعة ، ثم قال : (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

أرشدنا سبحانه فى محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة ، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ، ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة ، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة ، والتدبر فى أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ، ثم لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامه فى الرأى ، والصدق فى القول ، والسلامة فى الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته ، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية ، وأتوا عظائم المنكرات ، خارت

عزائمهم ، فشحوا ببذل مهجهم فى حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين .

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل التى أشرنا إليها ، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها ، سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدل بتبدل الأجيال ، كسنته تعالى فى الخلق والإيجاد ، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال ، علينا أن نرجع إلى قلوبنا ، ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا ، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان ، هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح ، هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا ، وخالف فينا حكمه وبدل فى أمرنا سنته ، حاشاه وتعالى عما يصفون ، بل صدقنا الله وعده ، حتى إذا فشلنا وتنازعنا فى الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون ، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً ، فبدل عزنا بالذل ، وسمونا بالانحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية ، نبذنا أوامر الله ظهرياً ، وتخاذلنا عن نصره ، فجازانا بسوء أعمالنا ، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإنابة إليه ، كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ، ويستذلون أهلها ، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا ، ولا نرى فى أحد منا حراكا .

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم ، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة ، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ، ومسكنه الهوان ، تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً ، وكاد يتقطع ما بيننا ، لا يحن أخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا فى الآخر إلا ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعـــزه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا .

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة

ولا يمس سواد القلوب ، هل يرضى الله عنهم بأن يعبدوه على حرف ، فإن أصابهم خير إطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ، هل ظنوا أن لا يبتلي الله ما فى صدورهم ، ولا يمحص ما فى قلوبهم ، ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته ، لا يبخلون فى سبيله بمال ، ولا يشحون بنفس ، فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنا وهو لم يخط خطوة فى سبيل الإيمان ، لا بماله ولا بروحه .

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً ، ويقولون فى أقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل ، كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول فى سبيل الله حى يرزق عند ربه ، متمتع بالسعادة الأبدية ، فى نعمة من الله ورضوان ، كيف يخاف مؤمن من غير الله ، والله يقول (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان ، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتى يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة ، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين ، وما جعله الله من خصائص الإيمان ، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا ، يا سبحان الله ، أن هذه أمتنا أمة واحدة ، والعمل فى صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء ، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز ، واجماع الأمة سلفاً وخلفاً ، فما لنا نرى الأجانب يصلون على البلاد الإسلامية ، صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ، والمتسمون بسمة الإيمان آهلون لكل أرض ، متمسكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نعرة ، ولاتستفزهم للدفاع عنه حمية ، ألا يا أهل القرآن

لستم على شيء حتى تقيموا القرآن ، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى ، وتتخذوه إماماً لكم فى جميع أعمالكم ، مع مراعاة الحكمة فى العمل ، كما كان سلفكم الصالح ، ألا يأهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ، نزلت فى وصف من لا إيمان لهم ، هل يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة . أو غر كثيرين من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم ، وما حسنته لديهم أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

أقول ولا أخشى نكيراً ، لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان ، لا يراعى فى ذلك عذراً ولا تعلة ، وكل اعتذار فى القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله .

مع هذا كله نقول أن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة ، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول . ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأحيوا روح القرآن ، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة ، واستلفتوهم إلى عهد الله الذى لا يخلف ، لرأيت الحق يسمو ، والباطل يسفل ، ولرأيت نوراً يبهر الأبصار ، وأعمالا تحار فيها الأفكار ، وأن الحركة التى نحسها من نفوس المسلمين فى أغلب الأقطار هذه الأيام ، تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريباً ، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ،

صحت لهم الأوبة ، ولصحت منهم التوبة ، وعفا الله عنهم ، والله ذو فضل علي المؤمنين ، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هـذا الخير ، وهو الخير كله : جمع كلمـة المسلمين ، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) .

* * *

الوهم

﴿ اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتى نرى الحقائق كما هى كيلا نضل ونشقى ﴾ .

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلا للمسرات ، حاكياً للمنعشات ، وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير .

الوهم يمثل الضعيف قوياً ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكاً ، الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعدوم موجوداً ، الواهم فى كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ، لا يدرى ماذا أدركه وماذا تركه . الوهم روح خبيث يلابس الروح الإنسانية وهى فى ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام ، وتسلطت على الإرادات ، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة ، فيخبطون فى مجاهيل ، لا يهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق .

كان الإنجليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد مستعدة للفتوحات ، وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة ، واختلاف الأهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الإختراع سحراً أو كرامة ، فانتهز الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، وما دهموا سكانه

إلا ببعض غرائب الصنعة الأوربية التي أثارت فيهم خواطر الأوهام ، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الإنجليز من حبائل الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ، فسلبوا أموالهم ، وانتزعوا منهم أراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ، فاستغنت الأمة الإنجليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفهت بما ملكت ، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسـعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسـمة على تلك الأقطار ، متوزعة فيها ، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزر من العـدد والعـدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لا تستطيع ذوداً ولا دفاعاً ، وإن أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة ، وقد ظهر هـذا الأمر على الأمة الإنجليزية ، فهي دائمـاً في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياعها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لأية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الإنجليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الأرجاء .

ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفياً على الشرقيين ، محجوباً عنهم بحجاب الوهم ، يمثل الوهم لـكل شرقي أن الإنجليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم ، فمثل الشرقيين مع الإنجليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعاً ضارياً ومفترساً قوياً فينـكب عن الطريق وهماً وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتختلط عليه مسالك الوصول إلى غايته وربما صادف مهلـكة في ضـلالة ومتلفة في غيه ، بل لا نخطىء إن قلنا أن هذا الوهم كان متسلطاً على الغربيين كما هو متسـلط على الشرقيين ، فالأوربيون كانوا ينظرون إلى انجلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة إنجلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية ، متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية ، يحس الإنجليز بضعف قوتهم

فيجتهدون دائماً فى ستره ولا ستار أكثف من الوهم ، ولهذا نراهم فى كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام ، فتحول أنظار الناظرين ، وتغشى بصائر المستبصرين ، فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا فقليل من الإلتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الإنجليز .

ذهب الإنجليز إلى الهند فى قوى مجتمعة وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال فى ميدان الأراضى الهندية الواسعة فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد أو طيب قلوبهم ، فمالت النفوس إلى الإنجليز إغتراراً ، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئاً فشيئاً وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر ، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالككم ، أما نحن « الإنجليز » فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم . ثم إنا نرى للانجليز الآن فى الهند والهند الصينية ، وبورما سلطة على نحو مائتين وخمسين مليونا من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الإنجليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة فى العالم تبلغ فى ظلمها مبلغ الإنجليز ، ولا تصل إلى ما وصل إليه الانجليز فى الكبرياء والجبروت ، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة البغوضة إلا خمسون ألف جندى إنجليزى ، مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التى لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها ، ما لو جمعت قواها لبلغت أكثر من ثلاثمائة ألف جندى ، هذا فضلا عمن يمكنه حمل السلاح من أهالى البلاد التى دخلت فى الحكومة الانجليزية

وزال استقلالها بالمرة ، فلولا الوهم الذى استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها ، بل عما هو موجود فيها ، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة فى قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار ، وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف الإنجليز فى الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة تحت أرجلهم ، وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم ، لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولاسفك دماء غزيرة .

يوجد فى الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنجليز اعتباراً لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول ، ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الأطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا أو تقرب منها . ولم يلتفت إلى أن جسم الانجليز قد مد فى الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم فى بسيط الأرض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة ، ورعاياهم فى كل صقع فى ضجر لا مزيد عليه يترقبون فى كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين ، لو التفتت تلك الدولة التى تهاب انجلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لايحتاج إلى دقة الفكر لولاحجاب الوهم . قاتل الله الوهم .

إن العثمانيين ينظرون إلى دولة الانجليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة أن دولة إنجلترا تحكم على مائتين وخمسين مليونا من النفوس فيظنون لهذا النظر أن معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين

القتال ، ويتضح لهم أن هذه الملايين الكثيرة لا اعتداد بها فى قوة دولة إنجلترا ، فإنما هى فى الحقيقة قوة لأعدائها عليها ، وهى فى ارتقاب الفرص لخلع طاعتها ، فمتى ارتبكت دولة إنجلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الانجليز خصوصاً خمسين مليونا من المسلمين فى حكومة إنجلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذاً يلجأون إليه وهم أول قوم حربيين فى البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة إنجلترا إنما تستميل المسلمين فى الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها ، أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانجليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانجليز وحيفهم فى أعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان فى مثل المسألة المصرية التى هى فى الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو إسلامية .

إن سكنة مصر كانوا أيام عرابى على قسمين ، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عرابى ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثانى فى ريبة من أمره ولا عزيمة من الريب . والقسم الأول مخلد إلى الفشل ، فدخل الانجليز بلاحرب حقيقية وإنما بنوع من الترهيب وقليل من الترغيب وخفيف من الدسائس ، صادف قلوباً مستعدة فأخذ منها مقاماً ، فانحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابى بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانجليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى أنهم يؤيدن توفيق باشا وينقذونه من الثائرين عليه ، فتساهل المصريون فى الأمر بحسن ظنهم في حكومة الانجليز مع ما جاءتهم من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية فى رضاء عن تصرفها ، بهذا فاز الانجليز واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكافى لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الأهالى المصريين من يميل إليهم ، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ،

ويود لو يعمل عملا لهلاكهم ، ولـكن الوهم يجسم المخافة ويكبح العزيمة . إن أهالى مصر كأنهم ذهلوا عن الأسباب التى مكنت الإنجليز من بلادهم ، كأنهم يظنون أن المصريين كانوا على كلمة واحـدة فى مدافعة الانجليز ، ثم تغلبت عليهم القوة الانجليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم وأن الانجليز مادخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب . إن الذين كانوا من مدة سـنتين سبباً فى تغلب العساكر الانجليزية وحلولها فى وادى النيل وأنه لولاهم ما استقر لها قدم فيه ، يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالي عموماً وإخضاعهم لحـكومة بريطانيا . وبهذا الظن الباطل يستسـلمون لأعدائهم كرهاً ويجارونهم فى أهوائهم نفاقاً . هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانجليزية ليعلموا أن ليس فى طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والســودان أزيد من عشرين ألف جندى . ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الانجليز بالسودان وحصلت حركة خفيفة فى الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانجليز وخارت عزائمهم والتجأوا لترك البلاد لأهلها . ألا قاتل الله الوهم .

إن للانجليز قوة حربية بحرية لا تنـكر ، ولـكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذى ظهر أثره فى سـواكن . لا يمكن أن تعمل عملا فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين ، فلو فرضنا أن الانجليز أطلقوا قنابلهم على السـواحل فهل فى استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنـابل إلى أبد الآبدين . إذا كان الأهالى فى داخل البلاد يناوئونهم وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة . ليس فى الأمر شىء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الانجليز .. ضعيف يسـطو على حقوق الأقوياء . صوت عال وشبح بال . قامت الدول على معارضتهم لعلمها أن الانجليز صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على

ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية . لكن بق أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمورهم ولا ينتقلوا من عبودية إلى أخرى ، ولا يستبدلوا سيداً أجنبياً بسيد آخر . اللهم ارفع عنا حجب الأوهام وهيء لنا الرشد فى أمورنا ، واحفظنا من الغواية وأهدنا إلى خير نهاية .

* * *

الجُبن

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ،
قل إن الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ﴾

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الإنسان من أعمال تحير الألباب ، وتدهش الأفكار ، ينظر إليها ضعفاء العقول ، فيعدونها معجزات ، وإن لم تكن فى أزمنة النبوات ، ويحسبونها خوارق عادات ، وإن لم تكن من تحدى الرسالات ، وقد ينسبها الغفل إلى حركات الأفلاك ، وأرواح الكواكب ، وموافقة الطوالع ، ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف ، وقذفات الاتفاق ، عجزاً عن إدراك الأسباب ، وفهم الصواب ، وأما من أتاه الله الحكمة ، ومنحه الهداية ، فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه ، وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب ، وكل مكسوب بعمل ، وأنه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ، ومقدرة روحانية ، يكون بهما مظهراً لعجائب الأمور ، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية ، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب .

إذا رجع البصير إلى القياس الصحيح ، رأى فى تشابه القوى الانسانية ، وتماثل الفطرة البشرية ، ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك ، وأرشده الفكر السليم إلى أن فضل الله قد أعد كل إنسان للكمال ، ومنحه ما يكون به مصدراً لفضائل الأعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينها إلا للنظر الدقيق . هنا وقفة الحيرة .. استعداد فطرى للكمال فى خلقة الانسان ، ميل كلى فى كل فرد لأن ينفرد

بالفخار ، ويمتاز بجلائل الآثار ، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى ، لا يخيب طالباً ، ولا يرد سائلا ، إذا صدق القاصد فى قصده ، وأخلص السالك فى جده ، فما العلة فى إخلاد الجمهور الأعظم من بنى الانسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم إليه الميل الغريزى ، خصوصا إن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات ، وتعترف بيوم العرض الأكبر ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل ، ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل . إذا ردت المسببات إلى أسبابها ، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة هى أم العلل . ومنشأ يقرن به كل خلل « الجبن » .

الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها . هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها . هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم . وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم . هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين . ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين . يسهل على النفوس احتمال الذلة . ويخفف عليها مضض المسكنة . ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقى الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان . يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة علية . يرى الجبان وعر المذلات سهلا . وشظف العيش فى المسكنات رفها ونعيما .

ومن يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

لا بل يتجرع مرارات الموت فى كل لحظة ولكنه راض بكل حال وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء . ولا ترى إلا احباء . ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس

لا يلم به إلا ألم اللأواء . هذه حياته : أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء . وهو يظن أنه أدرك البغية . وحصل المنية .

ما هو الجبن ؟ إنخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها ، وهو مرض من الأمراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجـود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية ، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت ، الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح ، ليس للموت وقت يعرف ، ولا ساعة تعلم ، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة ، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم ، والذهول عما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله ، نعم نغفل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة — وهو الشجاعة والاقدام — سبباً في الفناء ، يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفاً ، ويتوهم أن في كل خطوة خطراً ، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية ، وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب في سيرهم ، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات غيلان . ووساوس شياطين . غشيته فأدهشته . وعن سبيل الله صدته . ومن كل خير حرمته .

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام ، لتغتال به نفوس الانسان، وتلتهم به الأمم والشعوب . هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة ، لا شقاء إلا وهو مبدأه ، ولافساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه . ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات ، هازم الجيوش ، ومنكس الأعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن؟

ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء ، أليس هو الجبن ؟ ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فإن الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة إلى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا فى الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة لمعيشة الإنسان ، الجبن عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤملون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

ينبغى أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لايبتغون إلا رضاه ، يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) . . . الإقدام فى سبيل الحق ، وبذل الأموال والأرواح فى إعلاء كلمته أوسمة يتسم بها المؤمنون ، لم يكتف الكتاب الإلهى بأن تقام الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتكف الأيدى ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى إعلاء كلمة الحق ، والعدل الإلهى بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده ، لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجبن فى قلب واحد ، كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام ، وإن عماده الإخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة فى الأجل ، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه ، المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلى إحدى الحسنيين ، إما أن يعيش سيداً عزيزاً ، وإما أن يموت مقرباً سعيداً ، وتصعد روحه إلى أعلى عليين ، ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين .

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد ﷺ ، فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الإيمان فى شىء . كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكسبه فى دعوى الإيمان ، لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق ، ويذكروا بآيات الله ، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته ، والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك ، وفى الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذاك المعروف والنهى عن هذا المنكر) زمناً قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف وإحيائها فى أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثراً فى هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر ، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه ، ويسير من التذكير ، فينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقوداً ويحفظوا موجوداً ، وينالوا عند الله مقاماً محموداً .

زلزال الانجليز فى السودان

نقلت الجرائد الإنجليزية برقية وردت إلى جريدة الستنداراد من دونقلا ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أياماً متواليات ومحصله : إن الألسن تلهج فى مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الإنجليزية بقدوم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض فى جميع المعسكرات بأنه زاحف إليهم بجيشين أحدهما يأتى من الصحراء والآخر على شطوط النيل وأنهم لابد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لاقبل لهم باحتمالها ، وقد استولى بذلك الإضراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصاً عساكر مدير دونقلا خوفاً وفزعاً . ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا إليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد أحمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين فى تلك الأطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الإنجليز فى منزلة العدو الألد ويقاوموهم مقاومة الآيسين اه

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعى فى معاكسة سير الانجليز وإقامة الموانع فى طريقهم بقدر الطاقة والإمكان قياماً بما يوجبه الدين والوطن ولايحتاجون فى الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطانى ، فإن الشريعة الإلهية والنواميس الطبيعية فى كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه بل توجبه فى مدافعة الباغين عليه وتدعو كل ذى عقل لأخذ الحذر من حيل المحتالين ، والتوقى من الأرواح الشريرة الخبيثة التى تتجلى فى أشكال من الصور منها مايخطف برونقه الظاهر ، لب الألباب ويذهب بهوة الصورى بنور الأبصار ، وهى منابع الشر ومصادر الفساد ومهب رياح الفتن والاختلال . تلك أرواح الأجانب ونفوس الأباعد الذين يهتكون حرم البلاد ويخفضون شئون العباد ويغمطون الحقوق ويفسدون الأخلاق ويذلون النفوس . المدافعة عن الوطن أمر طبيعى وفرض معاشى بكاتف فى دعوة الطبيعة إليه الميل إلى الطعام والشراب فليس يمدح القائمون به ولايثنى عليهم فى أدائه . نعم تتجلى

صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة فى مزايا التواريخ عند ما يمر النظر إليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة وضيغت لهم هياكل من اللعن الأبدى مسربلة بالخزى والعار السرمدى هكذا يعرف الشىء بضده .

لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سبباً فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذاك هو الخائن فى أى لباس ظهر وعلى أى وجه انقلب . القادر على فكر يبديه ، أو تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون فى النصيحة فقد خان من سوف عمل اليوم إلى الغد ، وتوانى فى تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة ، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الأنبياء والمرسلين وممقوت فى نظر العالم أجمعين . ما أعظم جريمة الخيانة « المساهلة فى شؤون الأوطان » يأتى الزمان بطوله على كل شىء فيمحو أثره ويطمس رسمه إلا وصمة الخيانة فلا تطويها الأدهار ولا يخفيها تطاول الأعصار . محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين . لوث على وجه الزمان ودرن فى صفحة الإمكان مكتنفة باللعنة محفوفة بالمقت إلى أبد الآبدين . لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهما تدانت فى الإدراك تشعر بعظم جرمه فلنرجع إلى موضوع كلامنا .

كنا على يقين ولا نزال عليه . إن الذات الشاهانية وهى الأب الأكبر لعموم المسلمين وهى الكافلة للشريعة الحافظة للدين هى أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الأعداء فى البلاد الإسلامية وهى لا تألو جهداً فى تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم ، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص الأمم فى الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الأجنبية وأنه لحرج

الصدر من أعمال الحكومة الإنجليزية وعدوانها على الحقوق العثمانية والإسلامية والمصرية بلغت غشمرة الإنجليز إلى حد لا يحتمل ، فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور وتفيض بالغيظ منها القلوب وتبلى منها دروع الصبر وتذوب سابغات الجلد .

فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً ، زحف العدو إليكم تحت راية المحبة ، ثم قلب لكم ظهر المجن ، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة ، من عسكرية ومالية وإدارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئاً إلا الحرمان من خدمة أوطانكم ، وأنتم أحق بها وطالما دافعتم عنها فى الأيام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استمالة القلوب إليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف به إذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخلا له الجو من المعارضين ، ماذا ترجون من مطاولته وماذا تؤملون فى إرخاء العنان له ، وماذا تهابون فى معارضته والأخذ على يده . أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رأيتم أنه أفسد شؤونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخدم ، وأفقر آلافا مؤلفة من العائلات ، ووهب من بلادكم لأعدائكم وأضر بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة فاغلق أبواب الكسب فى وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأمور دينكم ، (كالأوقاف) وعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها . فماذا تخشون منه ، هل تخشون أن تنقص أموالكم ، وثمرات كسبكم إذا أديتم حقوق وطنكم ، وحاربتم عدوكم ، ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر ، أنتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الأموال والثمرات ، وفاضت العبرات وزادت الحسرات ، وإن زدتم فى الخضوع زادكم عدوكم خساراً وأوسعكم خراباً ودماراً ، إن رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غنى إلا افتقر ، ولا عظيم إلا احتقر ، وإن شئتم فانظروا مستقبلكم فى مرآة حاضركم ، واقرأوا حالكم فى تواريخ من سبقكم .

هل تخشون إذا قمتم بفروضكم أن يأتى الخطر على حياتكم . يمكن أن

يعرض هـذا الوهم بخيال طائفة منكم ، ولـكن فلتعلموا أن عدوكم فى هـذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة . الدول متألبة عليه يترقب منها فى كل آن مطالبته بنتائج أعماله ومحاسبته على عواقب تصرفه ، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية . أنه مسرع فى سيره منطلق إلى مقصده بغاية ما يمـكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيناً ، ومقراً أمينا ، ولا يخفاكم أن المسرع فى جـــريه يكبه علي وجهه عثرة فى مدرة ، فلو ظهرت منكم فى هذا الوقت مقاومة خفيفة ، أو مؤاخذة طفيفة ، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم ، وجهرتم بذلك لرأيتم أن ماءه سراب ، وسحابه جهام ، وسيفه كهام ، وأوقفتم سيره واستعليتم بقوتـكم على ضعفه ، وأقمتم للدول حجة قوية فى كبحه ورد جماحه ، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة ، ونزع قوة العمل من يد استبداده ، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقـكم وحقوق أوربا كافة . أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهى لمقره ، ويقوى على أمره ، ويدوخ السودان ، ويحيط بجيوشه أعالى البلاد المصرية « لا أناله الله ذلك » صعب بعد هـــذا تعريفه بقدره ، وإيقافه عند حده ، وضعفت حجة الدول فى معارضته ، إن أقوم حجة للدول عليه هى عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة وإصلاح ما كان يظن من الخلل فى مصر فلو تمـكن عدوكم بسكونـكم من إظهار قدرته وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليـكم فقد فاز بالسيادة فيـكم وأصبحت دماءكم وأموالـكم وجميع شئون حياتـكم فى قبضة جوره .

فى إمكانـكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس فى إمكانه أن يضربكم ، فإذا مضى زمن انعكست القضية وأصبحتم فى عجز عن مقاومته وأصبح وفى يده عصى الجبروت لإذلالـكم .

إن كنتم تخافون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم ، أليس

يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة ، ويهانون ويذللون وكثير منهم يقتلون ، أن عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم فى أبدانكم ويفعل بإخوانكم فى ديار غير دياركم ، ثم لا يبقى على أحد منكم . فأنتم اليوم أصحاب أمركم وهـذا قصده إليكم وفى إمكانكم أن تستعينوا الله فى التحصن من خطر آجل ، بدون ضرر عاجل فإن شئتم فارحموا أنفسكم ، وإلا فأنتم ساقطون ، فيما منه تخافون .

يا قوم يؤثر فى كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محبب حتى لعدوه ، والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه ، تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالإباء ، لماذا تعدون أنفسكم فى الدرجة الدنيا عمن سواكم . ألستم تتشابهون فى الخلقة مع أعدائكم ، ألستم تمتازون عنهم بالإيمان الصادق ، والعقائد الصحيحة ، ألستم تنتسبون إلى أولئك الأبطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ، ألستم تدعون أنكم أشرف عنصراً وأكرم جوهراً فإن قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعدائكم ، إن كان الموت فهم يخشونه ، إن كان الخسار فهم يرهبونه إنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون .

لأى شىء يخاطـــر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ما ليس له ولأى سبب لا تقدمون بشىء من شهامتكم فى حفظ ما هو لكم إن هـذا لشىء عجاب ، هـل بذكركم بقول شاعركم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبـــه الدم

ليس هذا مقام التذكير وليس المكان مكان المباراة فى المجـد والمسابقة إلى معالى الأمور . إنما الكلام الآن فى الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة ، فإن لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر ، الذى رأيتم بوادره ونعوذ بالله أن تدرككم أواخره . استغفر الله لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة . لا يزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه .

إن صاحب الدين صلى الله عليه وسلم ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضة لإعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه وأن الله فى عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين ، يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين .

باب النتف والأخبار

سياسة انجلترا فى الشرق

هلع على ما فى البيت فهلوع لإغلاق الباب ، فانخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه .

هذا شأن دولة بريطانيا فى الهند ، وقناة السويس ، قصارى بغيتها أن تكون فى أمن على هذا الباب ، وكان سهلا عليها أن تخلص النية ، فى مسالمة أرباب الولاية عليه ، فيقونه بأرواحهم وأموالهم ، ثم هى تفوز بفوائده إلى الأبد .

إلا أن جيشان الأوهام ، وموحشات الأحلام ، دفعتها لمباشرة حمايته بنفسها ، فإذا الأمر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم .

أرادت دولة إنجلترا بعد تبوئها أرض مصر ، أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بانجليزية ، وأن تقيم فى السودان سلطنة مستقلة ، وحاولت فى ذلك إرضاء المصريين بأنه من الضروريات لتنظيم أحوالهم ، وإقرار الراحة بينهم ، وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة إن تمت ، لولا ما لدولة إنجلترا من تقسيم الممالك التيمورية فى الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أكبر الأسباب وأصغرها لاستيلائها على الأقطار الهندية ، وإنا لنأسف على التفاوت بين الزمانين ، والتباين بين المكانين ، فلا الإحسان الإنجليزى يمكن تتميمه ، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنوله ، وخطر الأمرين غير يسير .

ظهرت دعوى المهدوية فى السودان واشتد أزر القائم بها بمسارعة الإنجليز إلى التداخل فى مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعى بعد ما أراق دماء

غزيرة ، ودبت روح دعوته إلى سواحل البحر الأحمر ، وحدود مصر الطبيعية ، وأمالت القلوب إليه نفرتها من السلطة الإنجليزية .

يقرب من الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب فى فيافى طرابلس ، أو قاربت وأن هذه النيران التى يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه ، لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب ، وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء ، وعند ذلك يمسى باب الهند بين ألسنة النيران من جهتين بل من ثلاث جهات ، أيبعد عند العقل وبريطانيا لاهية بانقاذ الباب أن تتقد النيران فى البيت ، إن الخطر اليوم أشد مما اهتمت بدفعه سابقاً ، ماذا أخذت من الوسائل لدفع هذه الغائلة ؟

أرسلت جوردون باشا إلى السودان لتفريق كلمة المحاربين ورقية محمد أحمد الحمدانى . السودانيون لم تلتئم جراحهم من ظلم جوردون أيام كان حاكما مستبداً عليهم ، وفى علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية ، فقد طلب وهو فيهم قسساً من السويس لنشر المذهب البروتستنتى بين مسلميهم ، فهل تمكنه الفصاحة الإنجليزية أن يمحص صدور العرب من الضغينة الدينية والدنيوية ، بعد ما رسخت أعواماً ويمحوها فى بضعة أيام ، وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد ، بعد ما قام بدعوة عظيمة كهذه بمنحه لقب أمير كوردفان ، أو هل يقنع صاحب هذه الدعوى بمثل هذا اللقب بعد ما تسنى له من الفتوحات واستولى على تلك البلاد ، بدون إذن جوردون . قد يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهدوية وموقعها من قلوب المسلمين ، ويكفى لكشف بعض ما فى الغيب ما اتفقت عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية وأثبتته المخابرات الرسمية من إخفاق جوردون فى سعيه كما تراه فى غير هذا المقام .

ساقت خمسة آلاف وعلى بعض الرويات أربعة آلاف جندى تحت قيادة الجنرال جراهام إلى سواحل البحر الأحمر لاسترجاع شرف بيكر باشا وثار ضباطه من الإنجليز (أما هكس باشا وضباط جيشه فلبعدهم عن البحر لا شرف لهم ولا ثأر)

وغلب هذا الجيش المدرب الكامل العدة الشاكى السلاح من أجود طرز ثلاثة آلاف من عراة العرب السودانيين (بمعنى أنه قتل منهم ثمانمائة بدوى). والقبائل على عصبيتها لم تحين بعد . هل بهذا تدفع الغوائل . أيظن ذو عقل أن فاتحاً فتك بعشرة آلاف جندى مرة وألفين وخمسمائة مرة أخرى جميعها تحت أمرة مشاهير من قواد جيش انجلترا يخور عزمه لانهزام شرذمة من المنتسبين ، إليه وهل يؤثر هذا وهنا فى اعتقاد المذعنين لدعوته . سبحان الله ؟ كان لغلبة هذا الجيش رجة فى انجلترا وخيل لحكومتها أنها نجاح فى العمل وربما نشأ هذا الخيال من التهنئات التى وردت إليها من الدول وسفرائها مما لم ينله نابليون الأول وغليوم الألمانى .

أقول وحق ما أقول أن الضيرم شديد فإن ترك امتد وأخاف الدانية والقاصية وليس فى إمكان جوردون ولا أحذق سياسى فى إنجلترا أن يخمد لهبه والمناوشات البريطانية تحضره فتزيده إشتعالا وإنما يتيسر إطفاؤه لأولى العزم من العثمانيين والمصريين لكونهم على شاكلة صاحب الدعاوى وبيدهم عنانها .

كان من حذق الإنجليز لو اكتفوا فى حفظ باب الهند بعضد العثمانيين وخضوع المصريين مع القوة البريطانية وإلتفتوا إلى ترميم سياج الهند من الجهة الشمالية . ماذا يفيدهم سد الباب إذا وهى الأساس فتداعت الجدران وخر السقف ، إن قبائل التركمان فى (مرو) مع شرس طباعهم لحقوا بدولة الروس إختياراً بعد ما كانوا مستقلين فى أمورهم لا يدينون لسلطة أجنبية عنهم فأى مانع يمنع تركمان سرخس وهم سنيون من الإقتداء بهم تخلصاً من حكومة فارس المخالفة لهم فى المذهب فإن تم هذا فتح للروس طريق فراه إلى قاين إلى سجستان وأى قوة تصدها عن طمعها وإن حلت فى سجستان أو فراه فأية عقبة بينها وبين الهند .

ان قبائل أزبك من سكان (ميمنة) و (أندخو) و (شيورغان) و (سربول) وسائر بلاد بلخ إلى (وبلميان) فى ضجر من الحكومة الأفغانية أفلا يتبع هؤلاء أثر أبناء أعمامهم التركمان فإن غفلوا فتحت لهم روسيا باباً من الملاطفة

وذهبت بهم فى طرق من سياسة اللين لتشويقهم إلى الدخول فى حمايتها والتملص من نير الأفغانيين وليس فى قوة حكومة الأفغان كبحهم إن أرادوا لضعفها فيهم .

إن قبائل هزازة من الشيعة الساكنين فى الجبال الممتدة من هراة إلى كابول ينتحلون الأسباب للخروج على حكومة الأفغان نفرة من سلطة السنيين وقد كانوا فى الحرب الأخيرة بين الإنجليز والأفغان متفقين مع الإنجليز فهو لا بعد ما يرون جيرانهم إنحازوا إلى الروس أفلا ينزعون إلى مجاراتهم خصوصاً إذا لمعت لهم بوارق الوعود الروسية . هذا كله يكون فتشرف روسيا بعده على الميدان المتسع الممتد من هراة إلى قندهار إلى غزنة بل إلى كابل من جهات كثيرة . فهل بعد هذا يبقى للهند سياج وهل يمكن أن يقام فى وجه الروسيا مانع من المسير إليه وهل ينفع عند ذلك الوقوف على نافذتى (قناة السويس) .

أليس يسهل على الروس عند إشرافهم على تلك المواقع الإيقاع بين قبائل الأفغان وبين المرشحين للامارة ويتخذون منهم أحزاباً كما فعلوا بخوانين القرم .

تقربت دولة الروسيا إلى المانيا والنمسا فى هذه الأيام وانعقدت بينهم معاهدة على حفظ السلم فى أوروبا إلى زمن غير قصير ولم يكن هذا التقرب مبنياً على ما يخيله السياسيون فى كل دولة على حسب مصالحهم وإنما رأت الروسيا أن الوقت وقت العمل فى آسيا فطلبت الراحة من جهة حدودها الأوروبية لتتفرغ لإجراء مقاصدها فى أطراف الهند وأن الفزع من هذا الانتقال الفجائى قد ظهر أثره فى جميع الجرائد الإنجليزية .

ليت الإنجليز صرفوا قوتهم ووجهوا عزيمتهم لدفع ما يلم بهم من الخطر

القريب ولم يقعوا فى شرك المسألة المصرية . فإن ما كانوا يخافونه من مصر كان وهما صرفاً فلما طرقوها أوقدوا فتنة ما كانت تخطر ببال أحد ثم هم فى عجز عن علاجها وأننا نظن كما يزعم الوزراء العثمانيون أن الانجليز ليس فى إمكانهم أن يكسروا سورتها بأنفسهم ولا بد لهم من يوم يلجأون فيه إلى ذوى العزيمة من العثمانيين والمصريين وإلى الله عاقبة الأمور .



كانت حكومة هذه البلاد فى الربع الأول من القرن الماضى (الهجرى) تعد من نوع حكومة الأشراف ويحسبها المؤرخون فى تلك الأوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كان معروفاً فى أغلب أنحاء المسكونة .

ثم أعجب الدهر فيها بغرائبه بعد ما فوضت أمورها لمحمد على باشا فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت فى طور جديد من أطوار المدنية وظهر فيها شكل بسيط من الحكومة النظامية وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء وعد هذا التقدم السريع من عجائب الأمور(١) .

هل كان فى حسبان أحد أن يستلم زمام الحكومة فى مصر رجل من بعض قرى الروملى لم يتربع فى دروس العلم ولم يجبل فى مصانع السياسة إلا أن طبيعته الفطرية كانت فائضة بحب الحضارة ، وبث العلوم ، وتأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل إليه .

تقدمت بعد ذلك فيها الزراعة تقدماً غريباً ، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت مساهد العلم ، وانتشرت فى أرجائها مبادىء المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحاؤها ، واتصلت أطرافها ، بما أنشىء فيها من سكك الحديد ، وخطوط

(١) ترى ماذا كان يقول الأفغانى لو بعث من قبره ليتحدث عن المآسى التى خلفها خلفاء محمد على باشا وما كان من مهازل بلاط فاروق الأول ! !

التلغراف ، وتعارفت أهاليها ، وائتلف الجنوبى بالشمالى ، والشرقى بالغربى ، وقوى فيهم معنى الأخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعد الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا فى المعاملات ، وتشاركوا فى المنافع ، واعتدلت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعد ما جالت فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة ، وعمت بقاعها وطفحت ، ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى أراضى البلاد الغربية ، وتوارد إليها الغرباء ، وقصاد الكسب ، من كل مكان ، وما خاب لها قاصد ، ولا أخفق فيها سعى ساع ، فأثرى فى مغانيها الفقراء ، وعز بها الأذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ، ومحط رحال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد إليها يجد أهلا خيراً من أهله ، وسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة ، حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبلت الألسن .

وساد بها الأمن وعمت الراحة ، وضارعت فى كل أحوالها نوع ماعليه الممالك الأوروبية العظيمة ، وكان المتأمل فى سيرها هذا يحكم حكماً ربما لم يكن بعيداً من الواقع ، أن عاصمتها لابد أن تصير فى وقت قريب أو بعيد كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقرراً فى أنفس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها وهو أملهم الكبير ، كلما ألم خطب أو عرض خطر ، غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته فعثر العاقل ، وفرط المالك وأعثر المعجب ، وتهور الغبى ، وخار الأفين ، فتقرب البعيد ، وبعد القريب ، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا حواشى طوامير الأوهام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها ، وانتفضت منها أصول

على وجه غير مألوف ، ففتحت للدسائس أبواب وأنساب ، بين طبقات الناس ، دهاة سياسة ، وطلاب غايات ، فتفرق اتصال ، وتقطعت أوصال ، فضعفت السلطة الوازعة ، ونبذت الطاعة ، والتهبت نيران الفتن .

قضاء حل بتلك البلاد ، فاحتاجت فى إعادة شأنها الأول إلى رأى قويم ، وعزم ثابت ، ووازع قوى ، تدين لسطوته النفوس ، وإن من ذوى الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف ، وله من القلوب المكانة العليا ، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد إليه ، لكن تحكم طمع وأخطأ ظن ، فتخلفت النتيجة ، واشتدت الحاجة .

أشفقت دولة الإنجليز على طريق الهند كما يقال ، أوظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن ، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة فى مصر من فرائض ذمتها ، فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لاحاجة لبيانه ، وعم بعض أنواع الهون ، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد إلا مسه ضرمه ، ماخلا أشخاصاً قلائل وهذه المرهبات على مابها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد .

أليست المالية هى مرمى أنظار دول أوروبا ، وما وضع نظام فى البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية ، اليوم رزئت بالنقص فى الإيراد ، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات ، ورميت بنفقات جيش الحلول ، وحرب السودان ، ومصاريف اخلائه ، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل ، فاختلت الموازين ، وبطل قانون الجبايات وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة .

عقد العزم على إلغـاء الجيش الوطنى ، وهو قوة البلاد وبه فخارها ، وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم جنود مصر ، وقصر الجهد عن محاراة محمد على باشا ، وإبراهيم باشا ، اللذين دوخا كثيراً من الأقطار بجنود مصرية .

إن كان كل ما تقدم من الشـــدائد والخطوب وزيادة النفقات وإلغاء العسـاكر الوطنية إنما يتخذ سبيلا لراحة الأهالى ، وتحســين أحوالها فنعمت الوسائل إذا أدت إلى غاياتها ، لـكن أين السبيل من القصد وأين هذه المعدات من تلك الغايات .

وأسـفاً على حالة الأهالى بعد هذا ، حـكم من لا دافع لحـكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائر الحـكومة ، وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم ، وما مرن على عمل للـكسب سوى ما نشأ فيـه من خدمة الحـكومة ، ألم يمس هؤلاء ضر الفقر ، ألم يعضهم ناب الجوع ، ألم يهتك مستورهم ، ألم يضق ذرعهم . ألم يصبحوا كساة بسرابيل الـكآبة . عراة من أكسية المسرة . إن لم يكن كل هذا فقد كان جله . وإن صدى أنينهم يتلى فى صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون . حتى لا يجد وطنى فى البلاد من المهن إلا ما لا يليق بالإنجليزى تعاطيه من سـفاسف الأمور كما هو فى البلاد الهندية .

اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال . وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم . وحـكموا أهواءهم فى أداء وظـائفهم . فخبطوا وخلطوا . أفعمت الســـجون بأعيان الرعية . ورفعت أذناب الـكرابيج لتشريح أبدانهم واسـتعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقـايا أموالهم . وثمرات كسبهم . وحـدث

نوع من الحكم المطلق عزيز المثال بعث عليهم عـــذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم . ولبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغـافل عما يعمل الظالمون .

غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية فى الإدارات . وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصـار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة . فإذا الفلاح لا يبالى بعمدته والعمدة لا يبالى بمأمور مركزه والمـأمور لا يحترم مديره . وسرى التهاون إلى الدوائر العليا . وعاد الأمر لقوة الساعد . وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص . وكثر قطع الطرق . فى كل ناحية . وارتفعت الأصوات بالشـكوى منهم فى عموم الجرائد الوطنية . فوقفت حركة الأعمال العمومية وبدت للناس شـؤون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم . وامتنع المدينون من آداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين . فقبض المقرضون أيديهم واحتـكروا نقودهم لفقد ثقتهم واشفاقهم من الضياع على رؤوس أموالهم وإن أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة فى رأس المال من قبيل آخر . واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عليهم ماشية فالحراثة بعد ما اغتالها التيفوس وما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية . ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التى ألفوها . فعميت عليهم السبل . وضاقت بهم المسالك . ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلا . ففسدت الزراعة وانتقصت ثمراتها . وانحطت أسعار الحاصلات لارتباك الأحوال إلى حد ما كان يسمع إلا فى القصص وروايات القدماء قبل محمد على باشا . ومطالب الحـكومة فى ضرائبهـا ورسومها على حالها الأول مع الأغذاذ فى اقتضـائها . فعم العسر وأحاط الضنك . وتقوضت آلاف من البيوت التجارية . وأتربت أيدى ملايين من عمال الصنـاعة . وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الـكنوز أو المستأثرين بأموال الـكافة نهباً وسلباً . باع الفلاح أثاث بيته بل وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه ، بعد ما

ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ، ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات إلا قليلا منهم الله يعلمهم .

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وإن ضعفت ، واتباع بواطل التهم وإن بعدت ، أو استحالت ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه ، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يلتفت خلفه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده إلى السجن ، أو يقتضى منه فداً ، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر فى كل خطوة عثرة ، وفى كل نهضة سقطة ، وله من كل شاخص دهشة ومن كل طارق لبابه غشية ، أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا .

هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى . هذا بعض ما يضيق به الصدر ، وتنقبض له الأنفس ، مما رزئوا به بعد ما تكفل أحباؤهم الأولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة ، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله . أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم ، تائهين عن رشادهم ، لايعلمون ماذا يحل بهم ، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوربية تسميه ضيقاً وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون إليه ويودون لو رجعوا إليه ، ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها .

أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت ببلاده من نحو عشرين شهراً كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شؤونها نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتقويم طرقها ، وإقامة جسورها ، وتكثير جداولها ، وتقوية مواد الخصب فيها ، حتى تعود بعد مدة جنة من جنات

الدنيا ، أو روضة من رياض الآخرة ، أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا وورث الأرض بعدهم قوم آخرون .

فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذى لا يمثله الخاطر ، فى وقتنا الحاضر ، ولا يكفى للبداة فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر فى بلاد بنجاب (من الممالك الهندية) فإن الدولة التى تولت إصلاح الشؤون المصرية فى هذه الأيام ، دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة ، واستولت عليها من مدة أربعين سنة ، ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية ، ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى فلينتظر إخواننا المصريون فإنا معهم من المنتظرين .

اعجوبة

ظهر لمراسل التايمس بالاسكندرية فى هذه الأيام ما كان ظاهراً عند الكافة عامتهم وخاصتهم ولم يخف على غبى ولا ذكى ولا أعمى ولا بصير بل لم يحصل فيه أدنى شبهة فى زمن من الأزمان الماضية ، فأبرق إلى جريدة التايمس يثبت فيه ما يأتى : أنه يوجد بين طبقات الأهالى جمهور كثير ينفر من سلطة الإنجليز (وخجل أن يقول جميع الأهالى) كذلك وإنهم لا يسرون بإرسال العساكر إلى توكار بل بلغ الأسف منهم غايته عندما سمعوا بانتصار جراهام على العربان .

ويقرب من هذه الأعجوبة ما أجاب به غرانفيل موزورس باشا عندما بين له لزوم التداخل العثمانى فى حوادث السودان حيث قال إن العساكر التركية تلاقى من معارضة المصريين مثل ما تلاقى العساكر الإنجليزية ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

* * *

غريبة

روت جريدة التان ، عن الجرائد الانجليزية أن الخديو الحالى عقد عزمه على الاستعفاء من منصبه إلا أن حرمه (زوجته) عارضته فيما عزم عليه كل المعارضة وعند ما أشار إليها بما فى نيته تناولت مقراضاً وجزت شعرها علامة على الحداد وأقسمت أن لا تلبس الجوارب والأحذية حتى توقن بعدوله عن مقصده هذا ، وهى من ذاك الوقت تمشى حافية وتنتظر آخر عزيمة من زوجها الخديو .

ولعل هذا من مبالغات الجرائد الانجليزية أو يكون منشأوه الحاح السير بارين عليه بطلب حماية إنجلترا كما رواه كثير من الجرائد أو إجباره على التنازل كما روته جرائد أخرى .

جوردون باشا

إن جوردون باشا بعد ما نصب نفسه للمدافعة عن حرية السودانيين زماناً طويلا وكثر ما توسل بذلك لعودته حاكما للسودان نال فى هذه الحوادث بغيته ، وأرسل من قبل دولته لعمل سودانى فوصل إلى خرطوم وافتتح أعماله بمخالفة مشربه ، فأعلن إباحة بيع الرقيق وإلغاء معاهدة سنتى ١٨٧٧–١٨٧٩ ثم تعدى على حقوق السلطان بدعاوى مختلفة ، منها أنه جاء نائباً عنه ، وتضاربت أقواله فى مأموريته ، فادعى أنه حاكم عام على الأقطار السودانية بأمر دولته والحكومة المصرية ، مع تصريحه بأن الحكومة المصرية لا دخل لها من الآن فى إدارة السودان رأساً واعترافه بأمارة الشيخ محمد أحمد على كوردفان ، هذه كل وسائله لامتلاك قلوب السودانيين . ولم يلبث أن ظهر ضعف سياسته عند جميعهم لعلمهم السابق بأطواره فكان ما أجمعت عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية من عدم نجاحه فى مأموريته فإن الأخبار الخصوصية الواردة من الخرطوم متفقة فى أن ما أشيع من البهجة بقدوم جوردون محى أثره وتحول إلى اضطراب وقلق وتشويش فى الأفكار ، وأن القبائل فيما وراء خرطوم تسخر بمنشوره وتهزأ بوعده ووعيده ، وهذا الضرب من السياسة ربما يستغربه من لا يعرف حال جوردون ، أما المصريون جميعاً والسودانيون خصوصاً فلا يعجبون منه لوقوفهم على أحواله من قبل ، وإنما العجب من كون الحكومة الانجليزية ذهلت عن أن ثورة دينية لا يمكن إطفاؤها بيد من يخالف الثائرين دينا وشكلا ولغة وإن كان عاقلا سياسياً .

يثبت هذا الذى قلناه ما ورد إلى «الديلى نيوز» من أن الجنرال جوردون بعث برقية أثبت فيها أنه عاجز عن مساعدة الحامية المصرية فى السودان ما لم يكن تحت إمرته جيوش على النيل الأبيض والنيل الأزرق ، وما جاء من مكالمته لمراسل التايمس حيث صرح له أنه لم يعد فى إمكانه أن يفعل أزيد مما فعل (وما فعل شيئاً) لتقرير

الراحة بين السكان ، وأن العزم على إخلاء السودان فتح للشيخ محمد أحمد سبيلا لإثارة القبائل بين بربر وخرطوم ، وفى أثناء المحادثة أظهر احتياجه لفرقتين من العساكر ترسل إليه من جيش الجنرال جراهام . ومما قاله أنه من الضرورى تعيين زبير باشا خلفاً له فى خرطوم ويفوض إليه إعادة الراحة ومقاومة الثائرين وهذا من عجيب تدبيره فإن هذا الباشا إن لم يكن معتقداً بصاحب دعوى المهدوية ، فعنده أعظم باعث للاتفاق معه فإنه لم ينس ما حل بأولاده وأقاربه من القتل صبراً ، وما سلب من أمواله نهباً وغصباً ، فكيف يميل لمساعدة الحكومة المصرية على إخضاع الثائرين عليها .

جراهام وعثمان دجمة

بعث الجنرال جراهام قائد جيش الإنجليز فى جهة سواكن ، بمنشورات إلى رؤساء القبائل يعدهم ويمنيهم ويهددهم ويتوعدهم لينفصلوا عن عثمان دجمة ، وإلى عثمان يرعد له ويبرق ، ويرغى ويزبد ، ويطلب منه التسليم . فورد الجواب من عثمان برفض الطلب والاستعداد للحرب ، ووردت الرسائل من واحد وعشرين شيخاً من مشايخ القبائل ناطقة بأنه لا واسطة بين الإنجليز ومساعديهم ، وبين القبائل السودانية إلا السيف ، ثم قالوا أن كل من لايصدق بدعوى المهدى فإنه سيكون لا محالة فريسة للموت وطعمة للهلاك .

فاضطر الجنرال جراهام لإعادة التهديد مرة أخرى على النحو الأول ويغلب على الظن أن الجواب . يكون الجواب .

وجاء فى جرائد الإنجليز أن الشيخ المرغنى « وهو شيخ طريقة من المسلمين » بعث إلى عثمان دجمة رقيماً يستدعيه للطاعة ، ويحذره من مقاومة العساكر الإنجليزية ، فأجابه عثمان دجمة بأن فى عزمه شرب دماء الإنجليز وكل من يساعدهم فإنه يحارب بسيف الإسلام . وفى ختام جوابه نصح للمرغنى وطلب منه أن يقوم بإرشاد الإنجليز إلى ترك الحرب ووضع السلاح وهو أولى له من نصح مشائخ القبائل العربية الإسلامية .

المسألة المصرية

إن المسألة المصرية صبغت فى انجلترا عدة صبغات من يوم نشأتها ، وكلما عرضت على العقول فى لون خيل لها أنه أجود ما فى الدن ، حتى إذا مضى عليه زمان خفى وأعقبه لون جديد ، وهى فى انتقالاتها هـذه لا تزداد إلا إشكالا ، ولا تزيد انجلترا فى أنهائها إلا ارتباكا .

كان بود مستر جلادستون أن ينهج فى سياسته منهج سلفائه من الإنجليز يحبو إلى مقصده بالأناة والتؤدة ، ويلتوى فى مسيره إلى معاطف متخالفة ، ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة ، ولا يسوغه الحذق ، حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتنى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهد بيكونسفيلد من أنه لا يميل إلى الفتوحات ، وهمه البعد بانجلترا عن المداخلات فى الأمور الأجنبية ، بالقوة الحربية ، إلا أن الحوادث المصرية ألجأته إلى العدول عن مشربه ، والتطور بغير طوره ، فتضاربت آراؤه وتردد فى أعماله ، وسار سيرة المتخبط ، ونشأ من طلعه فى السياسة توعر السبل على حكومته فى بلوغ ما تريد ، وحدث عنه النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد ، وهو الآن فى حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى ، والاستقالة من المنصب ، وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته فى قلوب أحزابه ، وهـذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقاً للسعى فى إسقاطه من مكانته السياسية وإهباطه من كرسى الوزارة .

الذى أباح لمستر جلادستون أن يركب غير طريقه ، ويتداخل فى مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد إلى إقرار الراحـة . وتخليصها من خلل الفوضى ، ومن مصلحة انجلترا أن تتولى إغاثتها مما وقعت فيه ، فمد يده لوضع قواعد

العدالة ، وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمن إلى البلاد ، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابى اسكندرية ، والحلول فى ثكن القاهرة ، فيكون قد كسب أجراً أو نال ملكاً جديداً أوحفظ مصلحة مهمة ، بأعمال خفيفة ، ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة ؛ ولكن مع الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية .

تتابعت الفتن وعلا لياقها حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال ، فاضطر لسوق العساكر ، ومداومة الحروب ، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التى انتصر لها ولم يكف محمد أحمد عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دجنة بهذه الصدمات المتتالية ، وأجمعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب لنزيدها إلى قبيله ، ويهاجم الإنجليز مرة ثالثة ، وأكد رواة الأخبار أن محمد أحمد أنبأ من قبل أنه سيهزم مرتين قبل تمام ظفره بالإنجليز ، فكانت هذه الهزمات مما يقوى الاعتقاد به ويجمع الكلمة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان ، وحركت الخواطر على الوزارة الجلادستونية ، وتخوف رئيس الوزارة من عواقب المداولات فى المسائل المصرية ، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام وزير الحربية مقامه فى التعبير عن أفكار الوزارة ، وفهم من بعض خطاباته أن من نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها ، وأن تحل فى شرق السودان ، وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية كما تراه فى غير هذا المحل . فقامت الحجة بكلامه هذا فى حزب المحافظين ، ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق ، والتجائها للعدول عن سياستها فى هذه الأوقات ولم يكن من رأى جلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها ، وتظهر مشرعها بوجه جلى ، ووقع الخلاف بينه وبين وزير الحربية ، وكثير من أعضاء الوزارة ، على جملة مواضيع فى المسألة المصرية ، وزاد الخلاف شدة ميل جلادستون لمرضاة الإيرلنديين وتجافى بقية الوزراء عن رغبته وثبت الرئيس فى آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل فى شىء منها ، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل

انقلاب فى الوزارة أو فض البرلمان ، وأكدت قرب ذلك جريدة التايمس وجريدة الديلى نيوز وهى نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة جلادستون فى خطر .

فإذا انقلبت الوزارة الانجليزية ، وخلفتها أخرى من أى حزب كان ، فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة . أقبل الصيف وصعب على عساكر الانجليز أن تأتى بحركات عسكرية فى أطراف السودان الشرقية مدة أشهر ويتعذر حفظ المواصلة بين سواكن وبربر وخرطوم فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأت به البرقيــة انــكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهنـــــد ضعف القوة البريطانية ، واجترأوا على حامية الهند وهنالك الهول الأكبر . فى هذه المدة وهى غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من النعة ما يتعسر على عساكر الهند مقاواته بل هم الآن على القرب مما نقول . ففى الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الانجليزية ، والبلاد المجاورة لخرطوم فى ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة نوبيا ، ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم إثنا عشر أوربياً وستون ضابطاً مصرياً نجوا من عساكر هكس ، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلى نيوز واعترف مستشار خارجية إنجلترا أن المواصلة بين شـندى وخرطوم منقطعة ، ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الانجليزية فلا نظنه إلا يصدع جدار الهند كما بينا فى العدد الماضى ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوربية فى مصر (وليكن كذلك) .

ولا نظن أن دول أوربا تسمح بضياع مصالحها فى الأقطار المصرية خصوصاً بعض الدول التى كانت تسابق انجلترا فى وادى النيل وانحط مقامها فيه بالتداخل الانجليزى الذى ليست له حدود معروفة ، ولا غايات معلومة ، وإلى هذا تشير جريدة التان الفرنسية الوزارية حيث تقول : إن إنجلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين أيدى أوربا ، وتنوه به جريدة سان بترسبورج حيث

تقول : إن روسيا ليس فى عزمها أن تفتتح بعمل فى مصر فإن انجلترا اعترفت فى جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع فى شىء منها إلا باتفاق أوربا ، هذا إذا تمكنت انجلترا أن تأخذ على نفسها اطفاء الفتن وإجهاد الثورات ، واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها ، ففى نهايته تطلب عند أوربا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها ، فإن عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان ، وهى بين ظفر وانهزام ولا تتجاوز فى حركاتها العسكرية شواطىء البحر ، فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة إنجلترا ، وأنا نرى وسيحكم الزمان لنا إن شاء الله أن حفظ حقوق الأوربيين ، وضبط البلاد المصرية وإخماد نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدى أهلها ويفعل الله ما يشاء .

الانجليز في السودان

إن البرقيات التى وردت من سواكن جميعها متفقة على أن العساكر الإنجليزية هاجمت معسكر عثمان دجنة فى ثمانية منقسمة إلى مربعين وبعد أن فارقت زفربا غارت عليها العرب بعدد وافر مع بسالة الأيس ودخلت فى المربع الأول وهو المقدمة وكانت فيه مذبحة هائلة ، وتقهقرت العساكر الإنجليزية وتركت مدافعها بعد ماقتل منها جم غفير بأسنة العرب وحرابهم إلا أن فرقة من مشاة البحرية جاءت من القلب وسدت الخلل الذى وقع فى صفوف العساكر من هجمات العرب ودفعت قوة المهاجم ، ولم تكد المربعات الإنجليزية تلتئم وتعود إلى الانتقام حتى هاجمتها جيوش عثمان مرة أخرى ببأس شديد وانقضت عليها من الجناحين والتحمت مقتلة عنيفة وترامى العرب على الموت واستهانوا بالحياة مفضلين الشهادة على التقهقر والتسليم .

وتضافرت الأخبار على أن العرب أظهروا من البسالة والشجاعة مالا يوصف، حتى قال الرواة أن ماشاهدوه منهم يعد من غرائب الأعمال البشرية ، إلا أن الروايات اختلفت فى عدد من قتل منهم ومن عساكر الإنجليز فبعضها أوصل قتلى العرب إلى ثلاثة آلاف وبعضها إلى أقل ثم جاءت الأخبار الرسمية (وما أدراك ما الأخبار الرسمية) وما تبالغ فى قتل أعدائها مصرحة بأنها ألفان أما قتلى الانجليز فقد بالنوا فى قلتها حتى أوصلوها إلى مائتين أو ثلثمائة بعد ما اعترفوا بأن العرب فتكوا فيهم فتكاً ذريعاً .

وعلى أى حال قد انتهت الواقعة بانسحاب العرب إلى جبالهم ورجعت العساكر الانجليزية بغاية السرعة إلى سواكن وتركت المواقع التى استولت عليها وتوافد إليها العرب مع قائدهم عثمان واجتمعت له فى الموقع الذى هوجم فيه قوة حملته على الشموخ بأنفه والنداء باستعداده لمهاجمة العساكر الانجليزية وإنه لايقبل التسليم وإنا لنعجب كما يعجب سائر الجرائد الأوربية من هذه الرجعة العربية بعد الطنطنة

بالنصر والظفر والإعلان بأن العساكر الانجليزية نالت من الشرف أعلى ما يناله جيش فى قتال ، فإن سرعة الرجوع شاهد بين على أن هذا الجيش المنظم يقتدر على حفظ مركزه فى ساحة الحرب وإنه خشى التلف لو بقى فيه فعاد راجعاً إلى شواطىء البحر فكأن المقتلة لم تكن إلا كرة اعقبتها قوة حتى عدها بعض الجرائد هزيمة وحسبتها من الخطأ العظيم لأنها تجرىء العرب على البقاء فى الطريق الذى يصل سواكن ببربر وقطع الطريق على سالكيه وإنا لا نوافقهم على ذلك لكنا نعدها عجزاً ظاهراً عن مقاومة العربان فى جبالهم .

وما أشبه فعلة الانجليز هذه بفعلته من نحو عشرين سنة عندما كان يحارب فى حدود الهند سرايا الأمير عبد الله الوهابى واخوندسوات فإنه بعد ما انهزم فى جبال (سوات وبنير) شر هزيمة وترك مدافعه وذخائره رجع ثانية ودخل قرية صغيرة من قرى تلك الجبال .

وفاجأها ليلا على غفلة وأحرقها فقتل أهلها جميعاً وانقلب راجعاً إلى بلاده فى الهند من ليلته ، وأعلن بأنه قتل وسلب ونهب وظفر وانتصر فليعتبر المعتبرون .

وكان الجنرال جراهام بعمله هذا لم يرد إطفاء الفتنة فى الأراضى المصرية ، وإنما قصد رد شرف العساكر الانجليزية والأخذ بثأر بعض من قتل منها سابقاً وإقامة البرهان لأوربا على أن عساكر الانجليز يقدرون على محاربة العربان ويستطيعون الهجوم عليهم ، نعم إنه لم يغفل التدبير بالكلية فان الجرائد أخبرت أنه وضع رأس عثمان دجمة فى المساومة وجعل لمن يأتى به ألف ليراً انجليزية ونعم ما دبر ولكن نخاف أن عثمان عند مايبلغه الخبر يضع رأس الجنرال فى المزايدة ويجعل لمن يأتى به مائة قنطار من سن الفيل ويكون الخطر على الجنرال أعظم ! ! !

ثم إن الجرائد الانجليزية على عادتها من ترويج سياسة حكومتها فى الحروب

أشاعت أن الجنرال جراهام بعد رجوعه إلى سواكن دعا بعض رؤساء القبائل وذكرهم فى إقرار الراحة بين سكان البلاد السودانية ورغب إليهم أن يتعهدوا به فأجاب بأنه غير ممكن لهم إلا بمساعدة العساكر الانجليزية وأنهم استصوبوا مانشره الجنرال من تعيين الجعالة على جز رأس عثمان بمبلغ ألف ليرا انجليزية ، وهذا مما لا نظنه بالعرب لمخالفته طباعهم وبنوا أخلاقهم على الخضوع للأجنبى عنهم وما عهد ذلك فيهم من يوم نشأتهم العربية إلى اليوم . وبعد إنهاء الكلام معهم أخذ فى ذم عثمان على ما روته تلك الجرائد حيث لم يظفر به بأنه كذاب وخائن لبلاده وأبناء جلدته فإنه الذى عرضهم لسفك الدم وإتلاف الأرواح .

وقد ذكرنا هذا بقصة أحد القواد الأفغانيين حيث عرض نفسه لخدمة الإنجليز فى الحرب الأفغانية الأخيرة فأمدوه بمبالغ وافرة لإعانته على العمل فأخذ ما أخذ ونثره فى قومه وهيأهم به للكر على الإنجليز والنكاية بهم ونال منهم ما نال . وبعد ما ذاقوا منه الوبال أخذوا فى نشر المنشورات وتحرير الإعلانات بأن هذا الرجل قليل الوفاء خائن العهود لا يثبت على قوله ولا يفى بوعده مع أن الوفاء هو أداء حق الوطن والمدافعة عنه والقيام بذمامه وكل عهد يخالفه فالذمة تنكره والصدق يأباه كائناً ما كان .

هذه أسطورة أمر الجنرال جراهام ، وأما الجنرال جوردون فقد أخبرت بعض الجرائد الإنجليزية أنه فى خطر وأنه يوجد قلق عظيم فى مصر من جهته ، ويثبت هذا الخبر امتناع وزير الحربية فى إنجلترا من عرض المخابرات التى جرت بينه وبين الجنرال خوفاً من تأثيرها فى الأذهان .

وروت جريدة الديلى نيوز بناء على تلغراف ورد إليها أن زبير باشا صرح باستعداده لأن يخلف جوردون باشا فى السودان وهو يظن أنه لا يمكن إعادة الأمن إلى تلك البلاد إلا بطرق سلمية ولا يستطيع أن يبدى فكره فى شأن المهدى قبل أن يخابره وهو فى ريب من اعتقاد السودانيين بنبوته (كذا) ومما قال أن تجارة

الرقيق يمكن إلغاؤها بالتدريج عندما يشرع سكان السودان فى معرفة فوائد التمدن ومنافعه ثم كذب ما أشيع عنه من البغض للجنرال جوردون .

نعم إن زبير باشا لا يبغض الجنرال فى هذه الأوقات ما دام فى القاهرة أما إذا وصل إلى السودان فيمكن أن تعود إليه الضغينة التى مازجت قلبه سنين عديدة .

* * *

صدى دعوة السودان

وردت برقية من تاشكند إلى جريدة الساندر الإنجليزية مفادها أنه حصل اضطراب عظيم فى أفكار المسلمين سكنة بخارى عندما سمعوا بانتصار أعراب السودان وظفرهم الأول وظهر فيهم داع جديد يحث على الحرب ومقاتلة الذين ينتهبون الأراضى الإسلامية لتوسيع ممالكهم ويهدد صاحب السلطة العامة بين المسلمين بخلعه من مغرسه إذا لم ينشر اللواء الأخضر (المغالبة ومصادمة المتعدى عليهم) هذا برهان جلي على ما أنذر به سابقاً من أن دعوى المهدوية فى السودان لهذه الأوقات التى صدم المسلمين فيها أشباه الحوادث الماضية فى القرن الخامس والسادس من الهجرة ستدعو إلى حركة عامة يصيح فيها الشرق بالغربى ويصعب على الانجليز وهو فى مجراها أن يتنكب عنها دون أن تعروه هزة من مفزعاتها خصوصاً والظاهرة الدينية فى البلاد المحكومة بسلطة أقوى وأظهر .

إن بلاد بخارى بينها وبين السودان مسافات متطاولة وأبعاد متنائية ويظن الناظر فى لوح الجغرافيا أن المواصلات بينها منقطعة ومع ذلك سرى التنافس بين القطرين فى الغيرة بغاية السرعة فما ظنك ببلاد هى أقرب إلى مبعث الدعوى وأدنى منها منالا . يغلب على الظن أن الروح هبطت إليها ولكن تتحرك بحركة العقل وتنمو على القوانين الطبيعية والشرائع السياسية والاعتقادية ، فلا يشعر الأقوياء إلا وقد بات بحلا قيمهم المستضعفون والأرض أرض الله يورثها من يشاء من عباده الصالحين .

إذا سهلت الحوادث ظهور الكوامن ومهدت بروز المغيبات ماذا يمكن أن يؤخذ به من الوسائل لوقاية العدد القليل من غيلة الجمهور الأغلب الذى لا يقاوم

وما أمكنت مقاومته فى الأزمان الخالية .

نظن أن لا وسيلة لهذا إلا بتسليم الأمر لأربابه والدخول إليه من بابه ، وتركه للمسلمين يرضى بعضهم بعضاً ويدافع بأسهم بأس بعض . فإن كان هـذا هو نهاية السير ، فمن الخطأ السياسى أن لا يبدأ به قبل اشتداد الـكرب ، وعظيم الخطب ، والله الهادى إلى الطريق الرشاد .

اضطراب سياسة الانجليز فى مصر

تشاكلت أفكار السياسيين من الإنجليز فى لوم الحكومة على سياستها المصرية ، قال اللورد سالسبرى فى بعض الاجتماعات العظيمة أن الحكومة الإنجليزية بالتواء سياستها وتذبذبها وضعت من شرف إنجلترا وخفضت اسمها ، وعرضت أجل مصالح الامبراطورية (الهند) للخطر ثم تكلم فى منشور جوردون باشا المبيح لبيع الرقيق فقال ليس من الممكن لمسيو جلادستون أن يبيح تجارة الرقيق على حفافى النيل وهو يحظرها على سواحل البحر الأحمر (والأولى أن يبيحها فى جميع البقاع لاستحالة منعها مطلقاً) . وذكرت جريدة (البال مال جازيت) أن مستشار جمعية منع الرق فى لندن أرسل إلى اللورد جرانفيل خطاباً بالنيابة عن أعضاء الجمعية يلقى عليه التبعة فى تسمية زبير باشا والياً على السودان الشرقية ، وأن الجمعية اتفقت آراؤها على أن مساعدة الحكومة الإنجليزية لرجل كزبير باشا تكسبها عاراً وحطة فى نظر أوربا .

* * *

وقالت جريدة الديلى نيوز : الصحيح أن الارتباك الواقع فى مالية مصر اقلق وزارة انجلترا وبعثها على البحث فى إيجاد وسيلة لادخال النقود إلى مصر فإنها فى غاية الحاجة إليها ، ويؤكد أن الحكومة الانجليزية ستعرض أفكارها على البرلمان فى هذا الشأن وفى الظن أن ماتعرضه عليه يكون متعلقاً بضمانة القرض المصرى (دخول مصر فى حماية إنجلترا رسمياً) إلا أن عدداً عديداً من الأحرار فى البرلمان صرحوا بعدم قبولهم أى فكر يعرض عليهم فى هذه المسألة . ومع هذا فقد كذبت هذه الجريدة ما أشيع فى الدوائر المالية من أن فى عزم الحكومة الانجليزية أن تعد قرضاً للبلاد المصرية مبلغه ثمانية ملايين بفائدة ثلاثة ونصف فى المائة .

برلمان انجلترا

انعقدت له جلسة من أيام لم يحضرها المستر جلادستون لأنه كان مريضاً (أو متمارضاً لخوفه من عاقبة المداولة فيها) فناب عنه فى الكلام هرتنكتون وزير الحربية وابتدأ يطلب نقوداً لنفقات حلول الجيش الانجليزى في الأقطار المصرية وبين الدواعى إلى ماطلب فعارضه المسيو لابوشير (وهو من الحزب الحر الذى يأبى أن تدخل إنجلترا فى أى حرب كانت) وطلب تنقيص المبلغ الذى طلبه وزير الحربية ثم دارت المباحثة فى المسألة المصرية وحمى وطيس الجدال فيها وتكلم الخطباء عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها وبينوا الأغلاط التي ارتكبتها الحكومة فى سياستها وماذا يجب الآن إعداده من وسائل الخلاص وقال اللورد نورثكوت « وهو رئيس حزب المعارضين لسياسة الحكومة » إن خطاب وزير الحربية دل على تغيير عظيم فى أفكار الوزارة فقد علمنا من كلامه أنها جارت الرأى العمومى فى البلاد وأذعنت لمقتضيات الحوادث وعدلت عن السياسة المرتجة المتزعزعة واعترفت بما تعهدت به وقبلت أن تقوم بوفائه بعد أن كانت تحاول التملص منه وفهم منه أيضاً أن بلاد السودان إذا تركت لصغار السلاطين القدماء الذين يحاولون استعادة ممالكهم ليقوموا فيها إمارات صغيرة فإن خرطوم تكون مستثناة لأهميتها فى راحة البلاد المصرية وإن البحر الأحمر لما كان تابعاً لقنال السويس ومرتبطاً بطريق الهند ، فمصالح إنجلترا تقضى بأن تكون الثغور المصرية « من اسكندرية إلى ماوراء عدن فتدخل رشيد ودمياط وبور سعيد وسواكن ومصوع » بيد الانجليز مادام المصريون عاجزين عن الدفاع عنها ووضح فى خطابه (وزير الحربية) أن أفكار الوزارة فى هذه الأوقات متجهة لأن تحمل عساكرها فى مسافات طويلة من السودان الشرقى لعلمها بلزوم اتصال شواطىء البحر الأحمر بالمراكز التى تبقى فى السودان وأن توصل سواكن ببربر بخرطوم ، وهذا الرأى الذى أبداه وزير الحربية يستدعى حلول فى مصر إلى مدة

أطول من المدة التى صرح بها سابقاً .

كانوا بدأوا فى استدعاء قسم من العساكر وصمموا على استدعاء قسم آخر منها ، لكنهم الآن لايريدون إلا تقرير حكومة أهلية (كذا) قادرة أن تقوم بنفسها وتأتى أعمالا مفيدة لبلادها وبعدما كانوا يستعملون الألفاظ المبهمة فى شأنهم مع مصر ، صرحوا بالحالة التى يجب أن تكون عليها مصر حتى تتركها انجلترا وشأنها ويريد وزير الحربية بحكومة ثابتة قادرة ماتكون موضع الثقة لرعاياها والأوربيين المستوطنين فى البلاد ومحل من النقود التى تحمل اليها (ديناً وقرضاً) .

* * *

قالت جريدة التان بعد ذكرها هذه الباحثة أن الوزارة الانجليزية حادت عن منهجها الأول وصرحت بقبول التبعة فى مداخلاتها التى كانت تؤمل التخلص منها متى أرادت ، إلا أنها الآن حملت حملا ثقيلا على ماليتها وسياستها الخارجية . إنها لم تصرح بكلمة حماية حتى اليوم ولكنها ، المراد من عبارتها ، وتزعم أنها مساقة إليها قهراً لغرض أن تمنح مصر إدارة قويمة وجهادية منظمة وقضاء عادلا وهذه الحماية تمتد من شمال الدلتا إلى خرطوم ومن خرطوم إلى البحر الأحمر ولكن يصعب علي انجلترا أن تنال هذه الحماية ما لم تناقش فى الحساب بين يدى أوروبا ، وإنا لنأسف على فقد اللورد بيكونسفيلد ونتمنى لو كان حياً حتى يذكر المسيو جلادستون بخطبه المشتعلة غيظاً ، المفعمة لوماً وتقريعاً على من يميل لسياسة الحروب والفتوحات .

قالت صحيفة الديلى نيوز وهى شبه رسمية إن الوزارة الحالية (الانجليزية) فى خطر وأنه فى يوم الخميس الماضى كان الكلام دائراً فى مجلس البرلمان على تغيير وزارى وعلى حل المجلس وأنه لا يمنع من ذلك رفض اللائحة التى قدمها لابوشير فى لوم الحكومة ثم قالت إن البلاد (الانجليزية) لابد لها أن تتهيأ

لابداء أفكارها فى شأن الوزارة وتصرفها داخل البلاد وخارجها .

ويقال فى الدوائر السياسية أن تأخر مستر جلادستون عن الحضور فى جلسات المجلس يومى السبت والأحد لم يكن ناشئاً عن انحراف الصحة وإنما كان هذا تعللا ومراوغة ليس إلا . (١)

(١) ادعاء المرض أو التمارض الدبلوماسى أصبح معروفاً فى مصر . . . فلتبحث بريطانيا عن سلاح آخر ! ! !

الباب العالى

إن كان البرهان يدفع غارة أو يهزم عسكراً أو يفتح بلاداً فهذا أقوى ما يكون من البرهان على أوضح حق يوجد .

كتب مراسل التان فى الآستانة كتاباً مفصلا عن أفكار أعاظم العثمانيين فى المسألة المصرية وما للباب العالى من الحقوق . فما أثبته أن العثمانيين فى ضجر من أجحاف انجلترا وجورها عن العدل فى معاملة السلطان وعدم الاكتراث بما له من الحق الثابت وتصرفها فى مصر بدون مراعاة رضاه وأن بعض الرجال العظام بين له حيف انجلترا وتعديها على المعاهدات الدولية والفرمانات الشاهانية وأثبته بأدلة منها ما أجابت به انجلترا عن بلاغ الباب العالى إلى الدول من نحو سنتين فى بداية الارتباكات المصرية حيث قالت أنها ترغب حفظ الحالة المقـــررة فى مصر (الاستاتوكو) (١) على مقتضى الفرمانات السلطانية والعهود الدولية وأنه لا يسوغ التغيير فيها بوجه ما إلا باتفاق الدول .

ومنها نص الفرمان الصادر بتوليـــة توفيق باشا فإنه صريح فى أن مصر بحدودها الطبيعية وملحقاتها تعد من الأملاك العثمانية وأنه لا يسمح للخديو أن يتنازل عن قطعة أرض منها صغرت أو كبرت لأجنبى كائناً من كان لأى سبب ولا بأى وجه ولا يسوغ له أن يتخلي عن شيء من الامتيازات الممنوحة لمصر مهما كانت الأسباب والحوادث ولا يجوز له عقد شرط أو عهد إلا بعد عرضه على الدولة ورضاها ويحظر عليه تجديد قرض مالى إلا فيما يتعلق بتسوية المسائل الماليـــة التى كانت لذلك العهد .

ومنها أن قنال السويس لم يفتح إلا بعد استئذان الباب العالي فكيف ساغ لانجلترا الآن أن تتولى فصل السودان عن مصر وأن تتداول فى فتح قنال آخر وأن

---

(١) STATUS QUO : معناها الوضع الراهن ...

تتدبر فى قرض جديد تحمله على عواتق الحكومة المصرية وأن تتناول حماية الثغور بعساكرها بدون الاتفاق مع الباب العالى ولا مشاورة الدول العظيمة .

وأنا فى حيرة مما أراد هذا العظيم من إقامة الحجج هل أراد إظهار ما كان خافياً على دول أوربا وهم يعلمونه حق العلم أو بيان أن انجلترا أخطأت فى فهم هذه الفرسانات وتلك المعاهدات أو حاول إقناعها بالدليل والبرهان . ولكننا نعلم أن حكومة بريطانيا لا تفزع من الاحتجاج ولا ترهب الجدال فإنها تمرنت على ذلك من أزمان طويلة مع الملوك والأمراء الشرقيين وأمكنها فى أحوال كثيرة أن تجيب عما يرد عليها من الاعتراضات وإن بلغت مقدماتها من الظهور حد البداهة ولولا هذا لما احتدت جريدة التايمس عندما بلغها نبأ مؤداه أن جرانفيل طلب من السلطان أن يرسل حامية تركية إلى سواكن وبالغت فى إنكار ذلك بقولها أنه مما لا يخطر بالبال ثم تعللت بما لا يذهب على فطنة أحد حيث قالت أن إنجلترا لا تريد أن تحامى عن حقوق السلطان بعدما صارت بضعفه نسياً منسياً .

ايرلندا

فى كل يوم يقيم الإنجليزى برهاناً منطقيــاً ودليلا جدلياً على أنه ما ذهب إلى مصر إلا بقصد إقرار الراحة ووضع قواعد العدالة . ولــكنه كلما رتب مقدماته لإقناع السذج بقضاياه المشهورة عارضه الإيرلنديون ببراهين عملية تنقض ترتيبه وتبطل نتيجته فإنه لا يمضى وقت من الأوقات إلا ولهم فيه عمل لـكسر شوكة الحـكومة الإنجليزية فى إيرلندا يضعون الديناميت لتدمير الأبنية وهدم الجسور وتعطيــل السكك الحديد ويفتكون برجال الحـكومة ويتضجرون من ظلمها ويطلبون كل وسيلة للتملص من سلطتها وهم فى سيرهم لا يهنون ولا يفترون .

هيئت وليمة للمستر بارنل رئيس حزب الإيرلانديين حضرها جم غفير منهم احتفالا بعيد سان بتريس وفيهم كثير من أعضاء البرلمان فألقى عليهم خطاباً أظهر فيه مسرته من تقــدم الحركة الجنسية فى إيرلاندا وأوصى الإيرلنديين أن لا يعتمدوا على حزب من الأحزاب الإنجليزية وإنما يكون اعتمادهم على نشاطهم واجتهادهم ثم قال إن له فى المستقبل أملا حسناً وختم كلامه بقوله أن اليوم الذى يجتمع فيه الإيرلنديون على اختلاف أحزابهم فى بسيطة أرضهم هو قريب وسيكونون عما قليل تحت حــكم برلمــان إيرلندى وفى ذلك الوقت لا قبله ترسل إيرلندا إلى إنجلترا رسالة ســلمية . وعند رفع كؤوس الشراب أبى الحاضرون ذكر الملـكة وإنما رفع بارنل أول كاس ونادى باسم الأمة الإيرلندية وطلب من الحاضرين ذلك .

هكذا يطلب الانجليز ضم أراض إلى أملاكهم فتنفصل عنهم أراض أخرى وإلى الله علم العاقبة .

الفرنسيّون فى التونكين

مضت عدة أشهر والفرنسيون ينتظرون ما تؤدى إليه حركات عساكرهم فى بلاد تونكين وكادوا يرتابون من حسن العاقبة حتى وردت البرقية إلى وزير الحربية فى باريس من القائد العام بأن العساكر الفرنسية دخلت باكنين من طريق يوصل إلى لانسون وأن الصينيين انهزموا إلى نواحى نكبين حيث اشتدت عليهم الهاجمات الفرنسية من جهتى الشمال والشرق وخسروا خسائر جسيمة ولم يجرح من الفرنسيين سوى سبعين رجلا وحازت العساكر الفرنسية كميات وافرة من الذخائر وبطارية من مدافع الكروب وجدوها فى قلعة باكنين ويظن كثير من رجال السياسة الفرنسية أن فرنسا قد أتمت عملها بالاستيلاء على هذا الموقع المهم .

وأكد هذا الظن ما ورد بالبرقية من بكنين إلى جريدة الستاندرد أن ملكة الصين عند ما بلغها استيلاء الفرنسيين على باكنين عقدت مجلساً حربياً لدراسة الموقف فى الأمور الصينية الحاضرة ، فقرر الأعضاء وبينهم الأمير كونج على أنه يلزم الاتفاق مع الحكومة الفرنسية بطرق ودية .

وفى حسباننا أن مثل هذه الفتوحات لا تسلى أحزان الفرنسيين ولا تعزيهم على ما خسروه فى مصر وأن ذاك الضماد لا يقطب هذه الجراح .

منثورات

روت جريدة التان عن جريدة سان بترسبورج أن أمبراطور روسيا أظهر رغبته فى السفر إلى برلين فى الصيف القادم مع الأمبراطورة ولم يعلم تاريخ توجهه بالتحديد إلى الآن ويظن أن سفره هذا يكون قبل سفر أمبراطور المانيا إلى (أمس) حسب عادته .

وتعد هذه الزيارات من مؤكدات المواصلات بين دولتى الروس وألمانيا وهو مما يوسع للروسيا ميدان الجولان فى آسيا كما بينا سابقاً .

* * *

وردت إلى الديلى نيوز برقية من القاهرة مفادها أن قبيلة تراشى فى بربر انضمت إلى قبائل كوردفان المتقدين بمحمد أحمد . . وهذا مما يقنع الناظرين فى الحركات السودانية بأن هذه المبالغات التى يذيعها الإنجليز فى انتصارهم لم تؤثر شيئاً فى نفوس القبائل ولم توهن اعتقادهم بذلك المدعى السودانى . ويقيم دليلا على ما قلناه من أن هذه النيران الملتهبة لا يطفئها إلا رجال من عظماء المسلمين .

* * *

نشرت فى عدة مدن من إيرلندا إعلانات ثورية وجدها أعوان الشرطة ملصقة على جدران الشوارع والأماكن العمومية مكتوباً فيها هذه الكلمات : (حرب أهلية فى شهر مارس سنة ١٨٨٤) وهو الشهر الحادى فتناول الشرطيون تمزيقها بغاية

السرعة . وكان الإيرلنديون من قبل ، وضعوا الديناميت فى محطات السكك الحديدية من جملة جهات وهذا الإضطراب الداخلى الشديد ثالثة الأثافى للمسألة المصرية ودخول مرو فى حوزة الروس ، وهذه الثلاثة ، إن لم يكن لها رابع ، فهى كافيـة للمتبصر فى تقدير الإرتباك الذى ألم بالحكومة الإنجليزية فى هذه الأيام .

* * *

إنا لله وإنا إليه راجعون لا حـــول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ورد تلغراف من القاهرة أن جريدة الستاندرد يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الانجليزية) إلى اطلاق ألف ومائتى منهم من أرباب الجنايات الخفيفة وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين . لهذا تذوب المقل بكاء وتتفتت الأكباد حزناً .

* * *

ورد من سواكن إلى الستندارد :

إن المنشور الذى نشره هفت الأميرال الثـانى بتعيين جعالة لمن يأتى برأس عثمان دجمه وصل إلى مشـــايخ عرب ثمانية فأحرقوه علامة على رفضه وعدم قبوله .

* * *

برلين فى ١٨ مارس

إن جريدة البوست وهى جريدة لها علاقات مع السفارات فى برلين ، من فكرها إن استعفاء توفيق باشا وهو قريب الوقوع يفتح للدول الأوروبية باباً

لاعادة المراقبة المشتركة فى مصر لأن انجلترا لم تنجح كل النجاح فى مأموريتها لاقرار الراحة فى تلك البلاد .

باريس فى ٢٧ مارس

اشتدت خطوب المسائل المصرية واشتبهت مناهجها وعظمت أخطارها والتبست وجوهها على ذوى الشؤون وأرباب المصالح فيها حتى على السياسيين من رجال حكومة انجلترا . كل يتصور غاية ويطلب حظاً يناله منها وقد شد رحاله للوصول إليه ولكن ضل أعلام الجادة وتاه فى مجاهيل وليل المشكلات مظلم وديجورها مدلهم وتعاكست مذاهب السالكين هذا يشرق والآخر يغرب وكل فى وحشة يطلب المعين ويخاف العادى وكلما فرح لنبأ رمى بسهمه من الجزع لايدرى أصاب خصماً أو قتل منجداً .

أن دولة عظيمة كان لها من القوة ما اعترف به دول العالم أجمع ، ولها من الحقوق فى مصر مالا ينازعها فيه أحد ، ترى رجالها اليوم يهتزون لدهدمة الرعود الإنجليزية ، وإن كان سحابها جهاماً ، ويفزعون من هزيم تلك الأصوات فيحارون ماذا يفعلون ، وربما يأتون ما لايريدون .

إدعت دولة واسعة المطامع أنها نائبة عنهم فى إصلاح الأقطار المصرية وانقاذها من الاختلال ، فتبوأتها بقواها العسكرية وأخذت بزمام الأحكام فيها ، تعزل وتولى ، وتعطى وتمنع ، وتعاهد وتنقض ، وتنقص من أطرافها ما أرادت ، وتحل بمساكرها من بقاعها ما شاءت وأصحاب الملك الشرعى شاخصة أبصارهم ، مشرئبة رقابهم ، يبصرون مالا يسر لهم خاطراً ، ولا يشرح لهم صدراً ، مع خفقان فى القلب ، واضطراب فى الفؤاد ، والتهاب فى الأحشاء ، فزعاً من سوء العاقبة ، يحسون بما تقتضيه مواقع الأقطار ، والنسب بين بلد وما يجاوره من البلدان ، وما يلزم

لحمايتها من وسائل الدفاع ، فيحكمون بأنه إن دامت الحال على ما يرون ، أصبحت الأقطار السورية والحجازية واليمنية ، على خطر عظيم فى زمن قريب أو بعيد ، وأن تاريخ مصر من عهد الفراعنة إلى الآن ، ينادى عليهم نداء الناصح ، بل ينفث فيهم نفثات الحق ، بل يزعجهم إزعاج الحاكم القاهر بأن المحافظة على مصر ، من أهم واجباتهم إن لم يكن لذاتها ، فلما يتسلط عليه موقعها من الأقطار .

أما ولاة الأمر من المصريين وأولو الرأى فيهم فقد غشيهم من هذه الدهاده ما أذهلهم ، عن علم حاضرهم ، والفكر فى مستقبلهم ، طلبوا لهم عوناً قوياً ، وركنوا إليه فى دفع ما ظنوه غائلة ، وتوهموه نازلة ، فاستبد بالأمر عليهم ، وسلبهم ما طلبوا المحافظة عليه وهم بين نوم تطيب لهم أوائله ، بما يلين لجنوبهم من الوعود الإنجليزية ، وبين أحلام مدهشة وخيالات مزعجة ، تمثل لهم ما سيصب عليهم من حميم العذاب ، وما يؤخذون به من عذاب الهوان ، وأن قليلا مما يشهدونه حاضر العنوان ، على كثير مما يراه بعضهم بعيداً ونراه والعاقلون منهم قريباً .

أما الانجليز ، فليسوا فى حل مما كسبوا ولم يهنأ لهم ما طمعوا ، بل دافعتهم الحوادث وطاردتهم إلى مشاكل لم تكن فى حسبانهم ، وهم الآن بين أمور ثلاثة لا يتيسر واحدها إلا بما ينفى الآخر وهم يريدونها مجتمعة ولن يقدروا عليه إلا بقدر يأتيهم بما يخرق العادة ويفوق الإمكان ، إنهاء مسألة محمد أحمد ، والوفاء بعهودهم لأوروبا ، وما يضمرونه لأنفسهم فى مصر ، ثم هم يتشبثون لكل منها بوسيلة تضارب ما يتمسكون به فى الأخرى تارة يظهرون عزمهم على مبارحة مصر جنوحاً إلى الوفاء بالعهد ، لكن يتبعون ما يقولون فى ذلك بأن أجل الجلاء غير محدود وتارة تنادى بأن ذمة إنجلترا توجب عليها أن تدخل مصر تحت حمايتها وتتولى إدارتها بصفة سيد حاكم لا مستشار ناصح ، ويشير بل يصرح وزير حربيتهم بأن الضرورة

تلجئهم إلى مثل هذا العمل ويعبر عنه أحياناً باسم الحماية وأخرى بما لا اسم له سواها، وطوراً يلقبون محمد أحمد أمير كوردفان ويطلبون من الخديو كما روته جريدة (ميموريال ديبلوماتيك) أن يكتب لهم صكا بأنه يفوض الأمر لهم فى شأن المدعى يتفقون معه كما يريدون وأنه يسمح لهم بإحلال عساكرهم فى سواحل البحر الأحمر وأنه لا يتولى ولاية خرطوم بعد جوردون إلا شيخ يضمن لهم حسن الاتفاق مع محمد أحمد. فلا الوفاء يروق لهم لمناقضته للغرض ولا الحماية تسهل عليهم لأن دول أوروبا بالمرصاد وبين هذا يأخذ محمد أحمد ما يهيئه له الإمكان من القوة ويثبت دعوته إلى سائر الأقطار ويجيش الجيوش ويزحف إلى خرطوم وهو اليوم يحاصرها وعلى شرف افتتاحها ومع حرص الحكومة الإنجليزية على كتم الأخبار وتلطيف الإشاعات من جهة خرطوم اضطر وزير حربيتها أن يعترف فى مجلس النواب بأن المخابرات منقطعة بين خرطوم ومصر السفلى (إلى الإسكندرية) وأن الحكومة الإنجليزية فى مخابراتها مع الجنرال جوردون إنما تعتمد على الصدفة فى وجود من يقطع البرارى إلى عاصمة نوبيا وكورسكو حتى يوصل الخبر إليه وأنه لا علم للحكومة شىء من أحوال النيل إلا على من خامس عشر الشهر، ولا تدرى ماذا حل بجوردون، وأثبتت جريدة التايمس أن الجنرال فى خطر عظيم، وزاد الهول عليهم أن عثمان دجمة لم يتزعزع عزمه بما أصابه فى الهزيمتين بل لم يزل خصماً قوياً للحكومة الإنجليزية، ويدل على ذلك أن الجنرال جراهام يتأهب لمنازلته كما ذكرته جريدة التان وفى أهم الجرائد الفرنسية أن وقوع خرطوم فى قبضة محمد أحمد يكون له رجة هائلة وأثر عظيم فى تغيير الأحوال الحاضرة فى البلاد الشرقية.

نعم إذا حل محمد أحمد فى خرطوم سهل عليه جمع كلمة القبائل النازلة ما بين خرطوم وأسوان وتتصل أطراف جيشه ببلاد مصر العليا ولا يعدمون من العرب

فى جهات الصعيد بل وفى الدلتا من يلتحق بهم وتـكون الطامة الـكبرى . يغلب على ظننا أن هذه النار ليست مما يطفئه رذاذ السياسة الإنجليزية ، ولا مما تخمده حركات عساكرها البطيئة ، خصــوصاً وقد وقع الخلاف بين حـكومة بريطانيا وبين قواد جيشها فى سواحل البحر الأحمر ، فمن رأى الحـكومة أن تداوم الحرب وتسرع فى إنهائهـا ومن رأى الأميرال هفيت توقيف الحرب إلى شهر أكتوبر (بعد ستة أشهر) لئلا تهلك العساكر من الحر ، وإن فى ستة أشهر لسعة لما لا يهجس الآن فى خاطر أحد . فلو وكل الأمر فى تســكين الثورة وحسم الفتن إلى القوة الإنجليزية وبروقها الخلب لم نـكد نفـكر فيما يكون منها حتى تلتهب النيران فى أنحاء أخرى ويصعب على أرباب الشأن فيها بعد ذلك تداركها وليس لـكشف هذه الخطوب إلا عزائم المسلمين ، يلقى إليهم زمام العمل فيها خالصاً من الداخلات الأجنبية التى توغر الصدور وتثير الأحقاد .

وأحسنت الجرائد الفرنسية بمـا فى نية انجلترا أن تفعله من التصرف فى الأراضى المصرية ومنها جريدة (الريببليك فرانسيز) وجريدة (الديبا) وغيرها ، فطلبت من الحـكومة الفرنســية أن تحل بعساكرها فى جزيرة ديسى المتسلطة على سواحل البحر الأحمر مما يلى مصوع محتجة على ذلك بقولهـا إن صح ما ادعاه وزير حربية انجلترا من كون شطوط البحر الأحمر تعد من طريق الهند فلنـا أن نقول انها أيضاً طريق تونكين وكوشنشين ومدغشقر بل إن الحلول فى تلك الجزيرة من أهم الضروريات لمراقبة منع التجـارة فى العبيد كما تقضى به المعاهدة بيننا وبين انجلترا .

هذا بعض ما أنتجته سياســة جلادستون فى مصر وربما يسكن روع أمته ويخفف إزعاجها من هذه المباراة الجـديدة بينها وبين فرنسا على سواحل البحر

الأحمر بتذكار ما أعقبته المبـاراة بين الأمتين فى الهند من أزمان ماضية ولـكن شتان بين الزمانين فتلك أوقات كانت سياسة انجلترا خافية على أهالى الهند وكانوا ينخدعون لها ، أما اليوم فلم يبق فيها خفاء على أحد من سـكان الممالك الشرقية ولعل الغيب يوافينا عن قريب بمـا يكون لفرنسا مع انجلترا فى هذه المسـائل وإلى الله المصير .

الشيخ الميرغنى

وردت برقية من سـواكن فى ٢١ مارس مفادها أن الشيخ الميرغنى ومعه شيخ آخر يقال أنه من مكة المكرمة ذهبا فى ذلك اليوم إلى المعسكر الإنجليزى ليحضر خضوع كثير من مشائخ القبائل الذين جنحوا إلى السلم مع الإنجليز . وفى خبر آخر أن هذا الميرغنى صاحب فرقة إنجليزية تسير إلى بير هندوك ليكون على يديه طاعة بعض القبائل فى تلك النواحى ، ويقال أن إحـداها لم تزل مترددة فى قبول الطاعة وعدمه .

هذا مما يعجب منه أن شيخاً يظهر بين المسلمين بمظهر العلم والإرشاد ثم يقود جيشاً إنجليزياً لإذلال أبناء ملته ، وإخوان دينه وجنسه ، وهو يعلم أن شرفه شرفهم ، وسيادته بسيادتهم ، ولولاهم ما نال الإكرام والإجلال ، وما أغدقت عليه النعمة ، وتوفرت لديه دواعى الترف والنعيم ، وتمتع بكامل لذاته وشهواته ، كيف يسوغ له أن يقدم جيوش الانجليز ، قبل الوقوف على مقاصدهم ، وماذا يريدون من تذليل جيش العرب وإخضاعهم ، هل يصح له أن يأتى أمراً مثل هذا وهو يعلم ما يحذره الشرع وما يبيحه اغتراراً ببعض الأوهام التى لا أساس لها .

وكتب إلينا من مصر والحجاز أن جماعة من العلماء فى القطرين حكموا

بروقه وقالوا إن هذا من أعظم الزلات التى لم يرتكب نظيرها فى الإسلام ، على أنه ليس من العلماء ولا من العارفين بطرق الإرشاد ، وإنما نال الاعتقاد عند بعض السودانيين وراثة عن أبيه ، وإنه لم يتميز عن العامة الأميين فى شىء ، وإن كان هذا لا يدفع العجب من فعله . (١)

(١) هذا النص كما ورد فى الأصل ويبدو أن ما كتبه السيد جمال الدين الأفغانى ، وهو فى عنفه ، يمثل صورة من صور الرأى العام حينذاك . ومما لاشك فيه أنه قد بنى حكمه هذا مما تجمع لديه من معلومات ، ولا يخفى أنه كان موجوداً فى باريس عام ١٨٨٤ . فاذا قدرنا الظروف التى كانت تحيط بالموقف ، وبعد الشقة ، واستحالة الوصول إلى مصادر ثقة يعول عليها لما يجعل الأخذ بهذا الرأى فى موضع الحذر والحيطة . ولا ننسى أن الخلافات الطائفية كانت على أشدها فى شرق السودان فى ذلك الوقت . . . . .   (الناشر)

خـــرطوم

فى الجرائد الفرنسية نقلا عن الإنجليزية أن أشياع محمد أحمد كانوا فى مساء الثالث عشر من شهر مارس ثلاثة آلاف على القـــرب من خـــرطوم ، وفى صباح الرابع عشر وصلوا إلى ستة آلاف وهو يدل عن أن الجنرال جوردون عنده شىء من قوة الدفاع حيث لم تقدم تلك القوة على مهاجمة المدينة ، لـكن ماذا يجبى من طوعه أن يفعل مع هذه الآلاف المؤلفة التى تتضاعف يوماً بعد يوم وهم يحدقون بمحل إقامته من جميع الجوانب ، ومما يدل على أنه فى أصعب المضايق بل على شـفير الخطر اتفاق الجرائد الإنجليزية على دعوة حـكومتها لإنقاذه بغاية السرعة . وفى أخبار الخامس عشر من الشهر أن فرقاً من الثائرين متحصنون على شواطىء النيل بمقربة من حلفـا ، على مسافة بضعة أميال من شمال خرطوم ، وأنهم أطلقوا النيران على مركب كانت تسير فى النيل حاملة ثلاثمائة رجل اسـتقدمهم الجنرال جوردون وقتلوا منهم نحو مائة إلا أنه تيسر للجنرال استخلاص باقيهم ،واستبشرت التايمس بهذا الظفر الذى تسنى للجنرال بتخليص بقية القادمين إليه وإن أظهرت غاية الـكدر من كونه فى خطر عظيم ، وثائرة السودان تحيط بجميع أطرافه وتستحث حكومتها على إنقاذه ما استطاعت (والله يعلم كم بين ذاك الاستبشار وهذا الإنذار وهما فى فصل واحد) .

* * *

وفى برقية إلى الديلى نيوز أن طرق خرطوم منقطعة ، وأن القبائل المذعنة لمحمد أحمد محدقة بجميع جهاتها ، وأن ثلاثة من تلك القبائل وافرة العدد وعلى مقدمتها جم غفير من المشائخ والدراويش يزحفون قصد الاستيلاء عليها ، ويظن عموم الناس أن لاسبيل لمدافعتهم عنها أو تخليصها منهم إلا بإنجاد عسـاكر إنجليزية ، وقال مراسـل التايمس فى ٢١ من الشهر : أن من الواجب على الحـكومة الإنجليزية إغاثة

الجنرال جوردون فإنها قد ألقته فى فم الأسد وسيكون فريسة المنية إن لم ترسل العساكر إليه بغاية السرعة .

وجاءت الأخبار مؤكدة إن حصن كسلا تحت محاصرة الثائرين ، وأن القبائل فى جنوب بربر جميعها فى هيجان وثورة شديدة .

وهذا كله يؤيد ما قلناه مراراً من أن هذا المدعى يخشى من قوة بأسه وسريان دعوته إلى جهات بعيدة ، فإنه إذا استقر قدمه فى خرطوم لم نلبث أن نسمع بظهور دعواه فى أسوان .

تحكم اللورد دوفرين

نهجت دولة الإنجليز فى معاملتها للدولة العثمانية منهجاً جديداً بعد حرب الروس ، تأخذها بالتهديد والتهويل فى كل ما تروم قضاءه من أغراضهـا فى الممالك العثمانية ، ولا تراعى فيما تفعل قانوناً دولياً ، ولا عهداً سياسياً ، وتتحكم بجبروتها فى تحديد المواعيد وتعيين الأوقات ، وأعظم ما يكون من مرهباتها الوعيد بتغير قلبهـا عن وداد تلك الدولة أو اشمئزاز نفسها منها ولا تفرق فى نهجها هذا بين صغار المسائل وكبارها .

ومن ذلك ما رواه جميع الجرائد من اشتداد اللورد دوفرين سفير انجلترا فى الأستانة على سعيد باشا الصدر الأعظم وإغلاظه له فى القول عند التكلم فى شأن شركة عثمانية تحت رعاية دولتلو بهرام أغا ، منحها الباب العالى امتيازاً بتسيير سفن النقل على شطوط البحر الأبيض ، وكان هذا العمل فى يد شركة انجليزية (لم تأخذ به امتيازاً) فامتعض اللورد دوفرين وطلب من الباب العالى استرداد منحته فلم يجب طلبه فذهب يوم الخميس الماضى إلى الصدر الأعظم وخشن له المقال ونسب إلى الباب العالى تعمد المراوغة ، ولما تنصل له الصدر بأن هذا ليس من خصائصه بل يتعلق بوزير الخارجية ، قال إنه لا يخابر فيه وزارة الخارجية (وإن كان من خصائصها) وإنه يلقى التبعة على الصدر الأعظم إذا تأخر الجواب بقبول حجته وإن لا بد من تعويض لمن أصابته خسارة بسبب هذا الامتياز من الإنجليز ، مع تحرير اعتذار رسمى وعزل والى أزمير فإذا بلغ أمرنا إلى الخضوع بكل تهديد والانقياد بأى إرهاب ، وصارت مسائلنا الداخلية تحت اختيار من يستطيع أن يلقى التبعة ، ويبالغ فى الخشونة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

مقاصد انجليزية فى مصر

فى كل يوم تلح جريدة التايمس على حكومة انجلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية . زاعمة أنه يحل من الأهالى محل القبول ، ويسرون عنه غاية السرور ، وتشير على الحكومة أيضاً أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها فى تلك البلاد ، وأن ذلك من مقتضى الحزم فإن الإدارة المصرية وفروعها فى حاجة إلى إصلاح حقيقى ولن يقوم به إلا رجال الإنجليز .

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما أكنه من السلطة على البلاد المصرية ، وضمها إلى ممالكها الشرقية ، وما كان ذلك خافياً على أحد وإن كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم .

وما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم ، ثم هى تموه فى تحسين ذلك بدعواها أن أهالى مصر يفرحون منه مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ولسون إنما كان منشؤها العزم على تقليل عدد العساكر واقفال المدرسة العسكرية ، فالمصريون وهم المسلمون لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج .

حجة نوبار باشا

فى برقية من القاهرة بتاريخ ٢٢ مارس أن نوبار باشا أقام الحجة على المستر كليفورد لويد (وكيل الداخلية المصرية) ورفع حجته إلى الماجور بارنج .

* * *

هذا الذى بقى لأولى الأمر من الشرقيين يقيمون الحجج والبراهين ويقنعون بأن برهانهم سالم المقدمات صحيح النتيجة عند العقل إلا أن بعضهم يقيم حجته على بعض الدول عند بعض آخر منها وبعضهم يقيمها عند أوليائه من الأجانب وهو منهم وفيهم . إن هذا لشىء عجاب .

عثمان دجمة (١)

فى البرقيات الأخيرة أن فرقة انجليزية ستفارق هندوك وتتوجه إلى نواحى ثمانية (محل المعركة الماضية) لتعسكر فى تلك الجهات أيظنون أن إقامتهم بها يكفى لخضوع القبائل . غير أن عثمان وعد قومه بأنه سيأتيه أمر إلهى بعد ستة أيام ليبيد بقوته عساكر الإنجليز ، وأشيع أن محمد أحمد سيبعث إليه بمدد .

(١) وصحة هذا الاسم كما ينطق به أهله عثمان دقنه — دجنـة — . وهو من قبيلة الدجناب شرقى السودان .

معاملة محمد أحمد للرسل المسيحيين

جاء إلى خرطوم ضابط مصرى كان فى عبيد ، وأخبر أن رسل الكاثوليك فى تلك المدينة تحت كنف محمد أحمد على حرية تامة تجرى عليهم الأرزاق من طرفه للواحد منهم فى كل شهر خمس تليرات (ريالات) ونصف وأن كنيستهم مفتحة الأبواب وإن كانت المدارس معطلة للضرورة .

وهذا العمل منه يرشد إلى أن له دهاء وذكاء وخبرة بما يجب الأخذ به فى معاملة أرباب المذاهب والأديان المخالفة لدينه ومذهبه ، وهذا يزيدنا خوفاً من استفحال أمره وانتشار دعوته .

أخبار أخيرة

* كتب مراسل الديلي نيوز المرافق للجيش الإنجليزي فى سواحل البحر الأحمر أن الجيوش الإنجليزية تقاسى مصاعب ومشاق شديدة فى قطع الطريق إلى حيث تلتقى مع جيوش عثمان دجمة لتلتحم معها فى القتال مرة ثالثة ، فإن الحر شديد والمسالك وعرة والمياه مضرة بالصحة ، مع قلتها ولم يجوزوا إلى أول مرحلة إلا وقد أجهدهم التعب ، واستولى عليهم الوهن . فأعجزوا أربعمائة منهم عن السير .

* قالت جريدة التان أن هذا الهجوم لم تتبين غايته ، ولما سئل عنه مستشار خارجية انجلترا فى البرلمان لبس فى الجواب وراوغ فى بيان الحقيقة ، كأنه يريد التملص مما عساه أن يرد عليه من بعد وإخفاء القصد ، حتى إذا لم ينجحوا فيه ستروا ما يلحقهم من خجل الإخفاق فى السعى . وموهوا على ما يمسهم من الشين ، ويغلب على الظن أن القصد منه فتح الطريق بين بربر وسواكن لتتمكن حكومة الإنجليز من مخابرة الجنرال جوردون من جهة سواكن (حيث تعسرت عليها من طريق الخرطوم بعد محاصرتها بجيوش محمد أحمد من أطرافها المتصلة بالنيل) .

* ويقول مراسل الديلي نيوز أن الشدة لو دامت بالعساكر الإنجليزية على حالتها الحاضرة ، فلا بد أن تصير غنيمة باردة لعثمان دجمة وفريسة ناجزة لأشياعه .

* وفى جريدة التايمس أن القلق فى لندن شديد ، والاضطراب بالغ فيها حده ، وعموم الناس يتطلعون إلى الأخبار المصرية دقيقة بعد دقيقة ، وأتبعت ذلك تلك الجريدة بقولها إن لم يتيسر لحكومة انجلترا فتح طريق بربر بهذا الزحف الجديد ، ضعف الأمل من فتح هذا الطريق فى وقت آخر ، وعز على انجلترا إجراء فرضته على نفسها فى الأقطار المصرية ، وقل الرجاء فى تسوية المسألة السودانية بطريقة محمودة .

* عزمت حكومة الروسيا بعد حلولها فى مرو على أن تجعل وراء بحر الخزر من البلاد الداخلة تحت سلطتها حكومة خاصة بها لها مركز معين وقاعدة ترد إليها أحكام تلك النواحى ، حتى تسهل المواصلة بينها وبين مرو ، وهذه حركة جديدة لدولة روسيا فى أطراف آسيا ، وهى وإن كانت لاتسر المحبين لانجلترا ولكنها لاتحزن أعداءها .

نصيحـــــة

أشد ما كانت هيبة الإنجليز وملكتها على الشرقيين قبل تكتيب الكتائب وعقد الألوية وسوق العساكر لمقاتلة عثمان دجنة على أميال من سواحل البحر الأحمر، وكان يخيل للســـودانيين بل يلابس اعتقادهم أن القوة الإنجليزية مما فوق الطبيعة وعن مثلها تصــدر خوارق العادات، وكان من ظنون الشرقيين فى أقطار أخران غرائب القدرة البريطانية بلغت مقالع السحر، تدهش الألباب وتحير العقول، وإذا خلج فى صدور أمة من الأمم صغيرة أو كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق، أو تناوئها فى مرغوب، انشقت الأرض وانفطرت السماء، عن كماة من الإنجليز يصبون عليها أصوات العذاب، ويذيقـــونها أليم الوبال، ويخلبون الأرواح من الأجساد، فيغلبون ولا يغلبون، خصوصاً إن كان مغالبوهم لا يحملون من السلاح إلا نوعاً من الصنع القديم، مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم فى مدافعة بعض.

إلا أن هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان أن تسوق جيشاً للايقاع ببعض العرب فى نواحى سـواكن، فتحركت الجيوش المنظمة لملاقاة عثمان ورجاله وبنى القواد فى الزحف قلاعاً « مربعات » من العساكر الباسـلة . مدرعة بلوامع من حراب البنادق « السنج » مسيجة بالآلات الجديدة، من صنع (رمنتون وهنرى مارتين)، على أجود طراز يكون منه، وحصنوها بأبراج من المدافع لا تدانيها من سكان تلك القفار قوة، ولا تسمو إليها منهم قدرة، لـكن قوة اليقين أو تحكم الجهل دفع على الصفوف الإنجليزية جماعة من عراة العرب وحفاتهم، فهدموا قلاعهـا ونقضوا بنيانها، وقوضوا أبراجها، وبعد تدافع وتضام وتقدم وتأخر، فى موقعتين عظيمتين، كر الإنجليز إلى سواكن « سـاحل البحر » وأخلوا ساحات القتال، وتقهقر العرب إلى الجبال وعج الإنجليز غلبنا وانتقمنا .

ماذا أثرت هذه الغلبة العجيبة فى نفوس السودانيين ، ثبتت أقدامهم وقوت حأشهم ، وجمعت كلتهم ، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب ، فجمعوا قواهم واستعدوا للقتال مرة ثالثة ، فحرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من ملاقاة خصومهم ، لأن شدة الحر كانت من أعدائهم أو نصرائهم ، حيث ألجأت العساكر الإنجليزية للجلاء عن تلك الديار ، فأسرعت إلى البحر لا يستقر لها قدم إلا فى مصر أو انجلترا وما أثارته هذه الغلبة فى قلوب السودانيين من ثائرة التهور دعاهم لتضييق الحصر على خرطوم ، لما علموا أن ليس فى قدرتهم أن يقتفوا أثر الإنجليز فى البحر ، ولا يستطيعون الإيغال فى طلبهم وهم على غوارب الموج ، ولما اشتد الضيق بمن فى خرطوم نهض الجنرال جوردون بشجاعة الأبطال لرفع الحصار فلم تكن إلا كرة تبددت فيها جيوشه وأعقبتها فرة إلى داخل المدينة لينتظر ما يأتى به القضاء .

ولكن ليستر وجه الهزيمة رمى ضابطين عظيمين من ضباط المصريين بالخيانة ، وأمر أن يضربا بالرصاص فضربا وماتا ، وهما حسن باشا وسعيد باشا « فى أخبار البرقيات » أما هذا الغلب فى السواحل على هذه الصورة البديعة ، وما حل بجوردون فقد أسقط من شأن إنجلترا وقوتها فى أقطار السودان عموماً ، وجعل كلمتها هى السفلى وبعث السوادنيين على الإعتقاد بأنه إحدى كرامات محمد أحمد ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

خطب يعقب خطباً ، وكرب يحدث كرباً ، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب وأحدثت هزة فى قلوب الهنديين ، فكشر النوابون والرجاوات عن أنيابهم ، ومدوا سواعدهم ينظرون إلى ما تطول ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد ، ويلمح الفرص من خلال هذه الحوادث ، انتشرت أخبار المصائب التى حلت بالجيوش الإنجليزية من مصيبة هكس إلى ما بعدها فى جميع أرجاء الهند ، وترى الناس زرافات وفرادى يتناجون فى هذه المسألة ويرجعوا على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل وهم على ربوة الأمل ، يستطلعون سوانح الفرص خصوصاً المسلمين فيهم ، كما أنبأتنا به الرسائل الواردة إلينا من أقطار

مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن أن الدولة الإنجليزية وعماد قوتها الإيهام والتغرير يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الأولى فى نفوس الشرقيين ، خصوصاً إذا أقضت حوادث خرطوم إلى قتل جوردون أو أسره وافتتاح تلك المدينة وهى عاصمة السودان .

يزيد الطين بلة أن يشتد العثمانيون ويأخذوا بالحزم وقوة العزم فى صيانة حقوقهم بأى وسيلة كانت ، وربما نراه واقعاً فإن العقلاء منهم لا يغفلون عن حاجة الإنجليز لمسالمتهم لأن الإنجليز يحكمون على خمسين مليونا من المسلمين جميعهم يعترفون بحقوق السلطان ويجيبون داعيه إذا دعا ، وهم له أطوع من الترك أنفسهم ، والحذاق من العثمانيين وإن كانوا يرون أن انجلترا لا تعامل الدولة إلا بالتهديد والإرهاب ، وجعلت هذا طريقاً لنيل أغراضها منها ، إلا أنهم يعلمون أن من المحال على انجلترا أن تشهر على الدولة حرباً ، فإن سياسيي بريطانيا ، وهم أشد الناس خبرة بدقائق الأمور ، فضلا عن جلائلها ، لا يخفى عليهم ما تكنه قلوب الهنديين من محبة صاحب السلطة الإسلامية ، بل هم على يقين بأنهم لو جهروا بالحرب للعثمانيين لتقوضت سلطتهم فى الهند لأول وهلة ، لا على المسلمين خاصة ولكن يتبعهم الوثنيين وهذا ظاهر عند كل انجليزى وإن خفى على بعض العثمانيين ورام ستره عن باقيهم .

الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبيلا فى قلوب الهنديين حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا فى لاهور أن محمد أحمد لو كان دجالا لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقده مهدياً وأن لا نفرط فى شىء مما يؤيده .

بعد هذا كيف يمكن للانجليز دفع غائلة محمد أحمد ، حر السودان منع وسيمنع من جولان العساكر فيه ، وطلب العساكر من كوركوسيك بعد شيوع هذه الدعوة فى الهند مما لا تجوزه الحكمة ، ولا تظن أن انجلترا تثير حرباً صليبية بحكومة الحبش على مسلمى السودان ، لأنه يفسد عليها أمر الهند ويخالف أحكام المدنية الحاضرة .

فما هى آخر الحيل ؟ أيكتفى بحفظ القنال مع ترك الفتنة يسرى لهيبها إلى مصر العليا بل إلى السفلى ، إنى أخشى كما يخشى العقلاء من شيوع هذه الدعوى ، وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة انجلترا وبكل من له حق فى مصر ، فعلى الإنجليز كما نصحنا مراراً أن يصونوا بلادهم ، ويحفظوا طريق الهند بتفويض الأمر للعثمانيين ، وأولى العزم من المصريين قبل فوات الوقت ، وإلى الله ترجع الأمور .

الدولة العثمانيـة

قالت جريدة (الميموريال ديبلوماتيك) أنه لم يؤخذ عن الباب العالى خبر إلى الآن عن المنشور الذى عزم على إرساله للمصريين ، إلا أنه محرر تام وفيه أن الدول ستدعى إلى المداولة التى قطعها إطلاق المدافع على اسكندرية « المؤتمر » ولن يعدل الباب العالى عن نشره إلا إذا قبلت انجلترا أن تكون مخابرتها معه فى تسوية المسائل السودانية المصرية بطريقة جدية « لا هزلية » ولم نزدد يقيناً بما ذكرته هذه الجريدة فى أن الدولة العثمانية لا تتساهل فى حقوقها على مصر وأنها تبذل ما فى وسعها للمدافعة عنها ، وكانت لنا ثقة تامة بعزائم العثمانيين وأنهم لا بد أن يقدموا لصون بلادهم المصرية من استبداد غيرهم فيها .(١)

ولهذا نجزم بأنه لا يروق للدولة العثمانية ما ذكرته جـريدة « الديلى تلغراف » من أن المستر جلادستون سيجهر عن قريب بحماية حكومته للأقطار المصرية ، وأنه سيخابر الدول فى تحديد أمد الحماية ولا يكون أقل من خمس سنوات ، وفى أمله أن الدول لا تمانعه فيما يريد الاتفاق معها عليه فى هذا الشأن بل تعتبره حقاً قانونياً أوجبه بذل الأموال الإنجليزية وإراقة الدماء البريطانية . وفصلت هـذا الخبر بعض الجرائد الفرنسية وبوبته وأشارت إلى ما أجابت به بعض الدول .

فليس مما يخطر ببالنا أن الدولة العثمانية توافق على ما تطلب انجلترا

---

(١) هكذا كانت الدول تلعب بمصر ...!!

لو فرضنا أن الدول سمحت للانجليز بحمايتهم لمصر مدة محـدودة أو غير محدودة ، فإن الحوادث لا تؤمن وتقلبـات الأيام لا ثقـــة بها ، فيمكن فى خمس سنوات بل فى أقل منها أن تتبدل القواعد السياسية ، بل ينقلب وجه السياســة انقلاباً لا يعرف ، والسياسيون لهم فى كل حادث علة لمحو المعاهدات وتأويل الوثاق .

———

انجلترا فى سواحل البحر الأحمر

وقع ما أنبأت به الجرائد الإنجليزية من بضعة أيام ، فإن الجيوش البريطانية زحفت لملاقاة عثمان دجنة بعد أن قاست أليم العذاب من وهج الحر ولهيب الشمس ، وأصيب منها عدد وافر بالوهن والضعف ، حتى عجزوا عن مداومة السير ، وسابر بقية العسكر فى زحفه وانتظموا على أشكال مربعات تشاكل ما انتظموا عليه فى الموقعة الماضية إلا أنهم لم يتلاقوا مع خصمهم ، وأفاد التقرير الإنجليزى أن السبب فى عدم الالتحام وصلت العساكر إلى قرية تمانية ولم تجد عنها مدافعاً فأحرقتها ، ورجعت إلى سواكن ولا يخفى أن جميع أخبارهم قبل هذا الزحف كانت متفقة على أن عثمان يبعد عن تمانية بتسعة أميال ، وأن مسيرهم هذا كان لملاقاته حيث يعتصم فلم يكن هناك داع لحرق قرية تمانية ولا الأخبار بأنه لم يوجد مدافع عنها إلا ما تعود عليه الإنجليز فى حروبهم إذا لم يصادفوا ظفراً يحرقون ويخربون وإن لم يكن من يصيبونه بأعمالهم محارباً لهم حتى يقولوا ظفرنا وأحرقنا وأتلفنا ، وورد إلى الجرائد الفرنسية أن تقهقر عثمان إنما كان ليحشرهم بين شعاب الجبال ثم يغير عليهم ويفتك بهم كما فعل رئيسه (محمد أحمد) بعساكر الجنرال هكس ويظهر أنهم لما أحسوا بهذه المكيدة ووجدوا من أنفسهم ضعفاً عن مقاومة العرب فى جبالهم كروا راجعين إلى سواكن ومحتجين بشدة الحر ستراً للعجز وتقديماً لبارد العذر ، والجرائد الإنجليزية فى قلق واضطراب شديد ولهج أغلبها يحث حكومتها على استدعاء العساكر من سواحل البحر الأحمر ، متعللة بأنها وإن كانت من حامية الهند ولها جلد على احتمال الحرارة ، إلا أن أثر الحر السودانى ظهر فيها بسرعة شديدة ويخشى عليها من التلف الكلى ،

وأحرى ان يخاف على سواها ممن لم يفارقوا انجلترا إلا لحرب السودان . ويغلب على الظن أنهم شعروا بقوة محمد أحمد وثبات عثمان والتهاب الحمية فى قلوب المسلمين بتلك الأطراف ، فاستفزهم ذلك إلى إخلاء وجوههم وخوفاً من أن يحل بجيوش السودان الشرقى ما حل بعساكر الجنرال هكس وتستروا بالشكوى من شدة الحر واحتدام نار القيظ ، مع أن وهج الحرارة فى جنوب الهند حيث كانت تحل هذه العساكر كما ذكرته جرائدهم أشد منه فى سواحل البحر الأحمر .

وما قاله الجنرال جراهام والأميرال هفيت أن الحركات العسكرية قد انتهت على شطوط البحر الأحمر ، يثبت اعتراف هذين القائدين بعجزهما عن فتح الطريق ما بين البحر الأحمر وبربر ، ومساعدة جوردون من هذا الطريق . وبناء على ما أبديناه من البأس صدرت الأوامر إلى الجنرال جراهام بإخلاء المواقع الحربية وإجلاء العساكر عنها والخروج من سواكن بما يمكنه من السرعة ، وأعقب الأمر اجتماع العساكر بأسرها فى تلك المدينة ويقال أن فرقة منها تسافر فى التاسع والعشرين من مارس إلى مصر وانجلترا . وهذا الأمر لا ريب يعده أشياع محمد أحمد والمذعنون لدعوته فتحاً إلهياً وتأييداً ربانياً ، فيقوى اعتقاد المخلصين له ويقطع شكوك المترددين فى قبول دعواه ولربما يذهب الوهم بالسذج منهم إلى أن الله أيدهم بالملائكة المسومين ، فكشفوا عنهم عدوهم وبعد هذا تجتمع كلمة القبائل وتثبت أقدامهم فى مواقف القتال ويزداد حرصهم على تعميم دعوى محمد أحمد ، ومغالبة من لم يذعن لها ويكون هذا الظفر الغريب أقوى برهان لهم على صدق دعواهم .

هذا ما أدت إليه سياسة الدولة الإنجليزية التى وطئت بأقدامها أرض مصر لإخماد الفتن لم تجلب مداخلها إلا تعالى اللهب وقوة الضرام ، وبعد ما سقط فى يديها وخابت فى سياستها تجافت عن تسليم الأمر لأربابه القادرين على تلافيه من المسلمين ، حتى يحصل الأمن للأجانب والوطنيين ، وتحقن الدماء وتحفظ الأموال ، وعمدت

إلى الاستنجاد بحكومة الحبش لحرب السودان ، ولم يأخذها خجل فى ذلك وهى تدعى أنها حاملة لواء التمدن والقائمة بنصرة الإنسانية وتتلو آيات الإنجيل أثناء الليل وأطراف النهار ، ثم تستدعى حكومة خشنة غير مهذبة كحكومة الحبش لمقاتلة قوم آخرين وإن كانوا ليسوا بأقل منهم خشونة لتشتبك حرب بربرية تحرق فيها المدن والقرى وتسفك الدماء الغزيرة ويفتك فيها بالأولاد والنساء والشيوخ ومن لا جريمة لهم حتى يفنى بعضهم بعضاً ، ولم تبال فى التماس هذه المساعدة أن تصرح للحكومة الحبشية أن الغرض منها كبح المسلمين فى السودان وأضاف قوتهم لتثير بذلك حرباً دينية تذكر العالم بالحروب الصليبية . فقد جاءت الأخبار إلى الجرائد الفرنسية : أن دولة انجلترا تلتمس من يوحنا ملك الحبشة أن يمدها بجيوش للدفاع عن سواحل البحر الأحمر لعجزها عن حمايتها بنفسها وإطفاء ثورة المسلمين وإخضاعهم وبعثت إليه قائد أسطولها ليتفق معه على شروط هذه المساعدة وما يغنمه بعد القيام بها ، وفى جريدة (الميموريال ديبلوماتيك) أن من جملة ما تطلبه انجلترا من الحبش فضلا عن الإنجاد الحربى أن يتخلى لها عن جزيرتين فى البحر الأحمر لتحل فيها بعضاً من عساكرها وله من العوض ما يكافى الأمرين جميعاً .

يريد محبنا الصادق أن يقدم للحبش جزءاً من أراضينا مكافأة له على ما يريد منه ولم يغفل عن مراعاة المرابحة التجارية حسب عادته ترغب إلى الحبش أن يتنازل له عن أملاك فى البحر الأحمر ، فليعتبر المعتبرون .

* * *

عودة إلى خرطوم

نوهنا مراراً للمسلمين عموماً ، والمصريين خصوصاً ، من الانقباض عن حرب إخوانهم وإراقة دماء أبناء ملتهم بمجرد أوامر تصدر إليهم من مخالفهم فى الجنس والاعتقاد لا يعلمون لها عاقبة ، ولا يدرون من يجتنى ثمرتها ، بل يوقنون أنهم إنما يقتلون إخوانهم ليورثوا أرضهم لقوم آخرين ، ربما كانوا أعداءهم أو يكونون أعداءهم ، ولهذا لم يأخذنا عجب من خذلانهم لهكس فى السودان الغربى ولا لبا كر فى السودان الشرق ولا مما بلغنا فى هذه الأيام من خذلان جوردون فى خرطوم ، ولم يختلج فى صدرنا ولا فى خطرات أنفسنا أن انهزامهم فى هذه المواقع منشؤه الجبن والخور أو الاختلال والنقص فى الآداب العسكرية ، ولكن نعلم أنهم يفضلون الموت بيد إخوانهم على الظفر بهم لتكون أموالهم وديارهم غنيمة لصاحب أمرهم من الأجانب . أما الجرائد الإنجليزية وقواد الإنجليز فهم يبالغون فى جبن العساكر المصرية وإختلالها ليتطرقوا بذلك إلى ما فى عزم حكومتهم من طرد الجيش المصرى الوطنى وإقامة جيش انجليزى مقامه ، حتى يتمكنوا بجيشهم أن ينالوا ما تطمح إليه أنظارهم فى المستقبل .

ومن هنا لايستغرب عارف بحقيقة الأمر ما ذكره مراسل التايمس فى خرطوم من أن جوردون باشا عندما اشتد عليه الحصر من أشياع محمد أحمد خرج بألفى جندى من الجنود المصرية وبعض العساكر غير المنظمة (الباشبوزق) ليفرق المحاصرين ويبعدهم عن أبواب المدينة فلم تثبت الجنود لأول الملاقاة وانحاز منهم خمسة ضباط إلى قبائل العرب وعمد أثنان من أمرائهم (بشاوات) إلى قتل من كان على المدافع منهم ليطلقها على إخوانهم التابعين لمحمد أحمد ، ويقال أن جوردون قبض على الأميرين ووضعهما تحت المحاكمة العسكرية وآخر الأمر اضطر جوردون إلى الدخول وراء

الحصون بعد أن تبدد جيشه وقتل منه مائتان على ما رووا ، ولم يقتل من الثائرين إلا أربعة وغنم العرب من ذخائر جيش جوردون مقداراً وافراً ، مع أن المهاجمين منهم كانوا فئة قليلة لا سلاح لهم إلا الرماح والحراب ، وجيش جوردون كان ألفى رجل شاكى السلاح من الطرز الأوروبى الجديد .

هذا يكون من المصريين لأنهم تحت قيادة أجنبى يأمرهم بأوامر دولة أجنبية ، ولو كانوا فى أمرة أمير مسلم مصرى ولهم ثقة بعاقبة ظفرهم أن تكون لبلادهم وملتهم ، لرأينا منهم ما رأى العالم وشهد به الكون لهم من الشجاعة والإقدام أيام محمد على وابراهيم باشا .

وبالجملة فقد أرجع جوردون بعد تغلب الثائرين حاميته إلى مأمنه فى خرطوم يوم السادس عشر من شهر مارس (الماضى) ويقول مراسل التايمس أنه يمكنه التمنع فى الحصون بعض أيام إلا أنه لم يجرأ على الخروج مرة ثانية .

* * *

الجرائد الإنجليزية تحكى ما هال أهل بريطانيا من مصيبة جوردون وتنذر بخطر عظيم يحل به وفى جريدة « الديلى تلغراف » أن هلاك جوردون أو وقوعه فى أسر محمد أحمد يذهب بالأعمال الحربية التى قامت بها تلك العساكر الإنجليزية فى السودان ، ويجعلها هباء كأن لم تكن ويزيل أثر تلك الوقائع الدموية فتكون نسياً منسياً ، وقالت جريدة « الستاندرد » ليس من الممكن لنا أن نتأخر دقيقة واحدة إلا إذا أردنا أن نلقى بجوردون إلى هاوية الهلاك ، وبالسودان إلى الفوضى (نعم لابد أن يخافوا على السودان من الفوضى كما خافوا على مصر منها) وفى التايمس لابد لانجلترا أن تظهر عزيمتها فى الأحوال الحاضرة وتأخذ فى عملها بالشدة حتى يعلم ذلك منها عند الكافة من الإنجليز ، ومن آمالها أن الأمة الإنجليزية تؤيد الحكومة فيما تعزم عليه وأنه لا سبيل لإنقاذ جوردون إلا تصميم الحكومة الإنجليزية على ماتريد (ولم تفصح التايمس عن تلك العزيمة ماهى ولاماتصمم عليه الحكومة ماهو لعل كل ذلك هو هذا : لابد أن نفعل ولابد أن نترك ولابد أن نكون ولابد أن لا نكون) .

قالت جريدة التان الفرنسية أن هـذا الخطب الجديد أحـدث من القلق فى انجلترا مالا مزيد عليه وعموم الناس فيها يعتقدون أنه إن لم ترسل الحـكومة جنوداً لإنجاد جوردون فهو هالك لا محالة وجميعهم يعلمون مقدار التبعة التى تحملها الوزارة (الإنجليزية) إذا مات أو أسر جوردون فإنهـا هى التى ألقت به فى هذه التهـلكة ، والجرائد عموماً على اختلاف مشاربها متفقة على القول بأن موت جوردون باشا يكون وصمة فى شرف انجلترا لا تمحوها الأيام .

إن وزير الحربية الإنجليزية يحاور سائليه من الحزب المضاد فى مجلس النواب ويراوغهم فى الجواب ويتملل بأن الحـكومة لم تعد المجلس وعداً صريحاً بأن تبين مقاصـدها فى السياسة المصرية ويزعم أنه لا يمـكن أن يفيده بتفاصيل عن أحوال خرطوم لإنقطاع الأخبار ، لـكنه يعترف بهزيمة الجنرال جوردون وبمـا هو فيه من الشدة والضيق ، إلا أن اللورد نور ثبورك لم يزل مصراً على طلبه من الحـكومة بيان سياستها فى المسائل المصرية والسودانية بالتفصيل ، وقال اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات إنه لا يرى من السهل فى هذه الأوقات أن تفتح الطريق بين سواكن وبربر وخطأ القائلين بسهولته وأفاد المجلس بالفشل الذى حل بالجنرال جوردون .

أماني انجلترا فى حركات محمد أحمد

صرح اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات بأن المقاومة الشديدة التى لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان فى سواحل البحر الأحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة فى تمكين سلطة محمد أحمد فى البلاد السودانية ، يريد من هذا أنه لم يحملهم على الثبات والترامى على الموت عدوانهم للانجليز ولا طمعهم فى توسيع الفتح وإنما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد أحمد فى السودان خاصة . وهذا من اللورد إما غفلة أو تغافل عن لواحق دعوى المهدوية بل لوازمها التى لاتنفك عنها فإن القائم بهذه الدعوى لايقف فى سيره عند غاية ، ولا يقنع بملك وإنما يريد بسط دعوته فى أقطار العالم وأحياء الأوامر الإلهية التى جاء بها صاحب شريعته الذى يدعى النيابة عنه فى تبليغها وصيانتها فى نفوس الناس كافة ، وسواء كان صادقاً فى دعواه أو كاذباً ، فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة فى بقعة من بقاع الأرض سودانا كان أو مصراً أو غيرها من البلدان إلا بتقدمه إلى ماورائها حتى يعلى كلمة دينه ، ويرد إلى الحق من انحرف عنه ، ويكون له التصرف التام فى قلوب لمسلمين ، ويأخذ منها مكاناً عليا يشرف منه على مطامح دعواه فى غيرهم من الأمم ، وسواء يسر الله له النجاح فى ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن ، ولكنا نتكلم فى الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة ، وبعد الوقوف على ما بينا يسقط من النظر قول اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات إن حكومته لم يرد لها خبر يحملها على الظن باستعداد محمد أحمد لقبول أمارة كوردفان والاكتفاء بها ، ولا يعلم هل قبول محمد أحمد لتلك الولاية يكون حجاباً بينه وبين التقدم إلى سواها ، فقد علمت أن محمد أحمد لم يقم بدعوى الملك ، ولا طلب حق له فى الأمارة كان يرثه عن آبائه ، وإنما قام بدعوى لا نهاية لأطرافها إلا عند حدود السطوة الإسلامية ، فليس يكافىء قوة دعوة إسلامية إلا عزم إسلامى ، ولن يكافح

هذا الدعى ويرده إلى قدره إلا رجال مسـلمون ، يدافعون عن الدعوى بما يقوى على إضعافها أو محوها ، فإن لم يرد لحكومة اللورد خبر إلى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده فى المستقبل ، ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيض ماتوهمه ، نسأل الله حسن العـاقبة .

بعد تحرير هذه الأحرف جاءت الأخبار مصدقة لـما قلنا فى برقية من مكاتب التايمس فى خرطوم أن ثلاثة دراويش جاءوا مرسلين من قبل محمد أحمد إلى الجنرال جوردون وأرجعوا إليه علامات الشرف التى كان بعث بهـا إلى مرسلهم ، وبلغوه أن محمد أحمد يرفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل فى دين الإسـلام فهو خير له .

الحــزم والعــزم

إن أبناء الأمم الغربية إذا عمدوا إلى قصد لا يفترون فى طلبه ، وعلو الهمم فيهم تجعل لديهم كل صعب سهلا ، وكل بعيد قريباً ، يقتحمون المخاطر لاكتساب الشرف ، ويتجشمون المصــاعب للوصول إليه وبلغوا من محبة المجد حداً لا يرونه غذاء لأرواحهم فقط بل عدوه من مادة النماء لأبدانهم فهم يفرقون خوفاً إذا عرض وهم لفواته ، خشية من هلاكهم وذهاب حياتهم ، لهذا ترى الرجل منهم يجوب فيافى أفريقيا ، ويتسنم جبال سيبريا ، ويخالط قبائل وشعوباً لا يعرف لهم لغة ، ولا يألف لهم عادة ولا أخلاقاً ، ويتكبد مشاق الحر والبرد والجوع والعطش ، وينازل الموت مع من يخالطه من تلك القبائل البعيدة عنه فى جميع أوصافهم ، وهو فى كل وقت يقع بين أنياب المنية منهم ، ثم يخلص بما يقتدر عليه من الوسائل . كل هذا ما يحتمله طلباً لشرف يكسبه لذاته ، أو ابتغاء مجد يحصله لأمته .

ومن هؤلاء الرجال بل من أحزمهم وأجلهم صــديقنا الهمام البطل الشهير المستر أوكلى أحد نواب البرلمــان الإيرلنديين ، جاء إلينا من أشهر على عزيمة السفر إلى عبيد وسألنا أن نقدم له ما يسهل له الوصول مع الأمن على حياته ، فأجبناه بتحرير رقائم إلى من لهم اليد الطولى فى مســاعدته ، ووردت منه المكاتيب تبشرنا بنوال مبتغاه ، وفى هذه الأيام جاءتنا برقيات بوصوله ومنهم رجال من عظماء الفرنسيين الأحرار ذهبوا إلى مثل مقصده وتوســلوا بمثل وسائله وهم اليوم يتوسطون الطريق . ونرجو لهم سلامة الوصول .

ورجاؤنا أن يكون فى هؤلاء أسوة للشرقيين ، لا تقعدهم الأوهام الباطلة ، ولا تنيمهم الأحلام الكاذبة ، ولقد كان لهم فى أسلافهم أسوة حسنة ، ولكن من الأسف نحتاج فى تذكيرهم بما لهم من سابق المجد إلى ذكر أحوال الحاضرين من غيرهم . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

أســـطورة

ذكروا فى أساطير الأولين أن هيكلا عظيماً كان خارج مدينة اصطخر وربما أوى إليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام وما أوى إليه أحد إلا غالته المنية فيأتى طلاب أثره لقص خبره فيدخلون الهيكل فى ضوء النهار فيجدوا به ميتاً ثم لا يهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعهد سبباً للموت ، واشتهر أمر الهيكل بين السابلة والقطان وأخذ كل قاصد حذره من المبيت به حتى ضاقت الدنيا برجل ، فاختار الموت على الحياة وصعب عليه انتحار نفسه بيده فذهب إلى الهيكل لعله يصادف منيته فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهلاك فلم يصغ إليهم وقال إنما أتيت لتلك العاقبة وانفلت من نصحائه إلى حيث يظن مهلكه ، فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة كأن جماً عظيماً يخاطبه : هانحن قد أتينا لإتلافك . ها نحن قد أتينا لإزهاق روحك ها نحن وصلنا لتمزيق بدنك وسحق عظامك . فصاح البائس ألا فأقدموا فقد سئمت الحياة ، ولم يتم كلامه إلا وقد حدثت فرقعة شديدة وانحل الطلسم وانشق الجدار وتناثرت منه الدراهم والدنانير وتفتحت أبواب الكنوز ، فاطمأن الخائف ونام حتى أصبح ولما أضحى النهار ، وجاء الواقفون على خبره ليحملوا جنازته وجدوه فرحاً مستبشراً يسألهم بعض الأوعية لحمل ما وجده من الذهب والفضة ، فاستخبروه قصته فبعد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفزع من تلك المزعجات التى لا حقيقة لها .

بريطانيا العظمى هيكل عظيم يأوى إليه المغرورون إذا أوحشت مظلمات السياسة فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام ، وكم هلك بين جدرانه من لا مريرة لهم ، ولا ثبات لجأشهم ، وأخشى أن يسوق اليأس إليه قوى المريرة ، ماقت الحياة ، فما يكون إلا هنيهة يصعد فيها صوت اليأس ، فينقض الجدار ، وينحل الطلسم الأعظم .



القــوة للحق

أخذت دولة بريطانيا فى معاملة الشرقيين لهذه الأيام طريقاً غير طريقها المعروف ، وهى تعلم أن نجاحها فى أعمالها لديهم ، وبسطة ملكها فيهم واقتطاف ثمرات جنائهم ، إنما كان بذاك الطريق المعهود ، كأنى أراها اليوم اكتنهت حقائقهم ، وسبرت خلائقهم ، ووصلت إلى مكنونات صـدورهم ، تجاوزت من ظواهـرهم إلى ضمائرهم ، وأدلت بخراطيمها إلى قلوبهم ، فأحست سكوناً ، فحسبته يبساً ، من شدة الجبن وسرت بدقتها فى أوعية دمائهم ، فشعرت منها بفتور ظنته وقوفاً من شدة الضعف فـكان من حسبانها أنهم فى نهاية العجز عن أعمالهم ، والقيام بشئونهم ؛ أو أنست منهم الركون إلى المراتب التى نقلت عن معانيها الأصلية ، وجردت عن مدلولاتها : كناظر . ووزير . ودال . وأمير . وهى أشبه بقباب عالية . إلا أنها خاوية خالية . فـكان من زعمها أن أمراء الشرق شغلتهم بهرجة هذه الصور الظاهرية . حتى أنستهم منافعهم الحقيقية . وضرورات حياتهم الجنسية أو الملية . وقنعوا بما يشيده الوهم . ويزينه الخيال . هكذا ظنت كما تدل عليه أعمالها . ولم يكن ذلك معهوداً منها .

دخلت دولة الإنجلـيز بلاد الهنديين ومدت عينها إلى ما متعهم الله به من أراضيهم . وطمحت إلى اختطافها من أيدى المسلمين . إلا أنها ذهبت مذهب اللين واللطف . وخفض جناح الذل . والظهور فى ألبسة الخضوع والخشية . وصابرت على هذا السير أزماناً تقطع مسافات كثيرة فى مدة طويلة .

نعم كانت تتدرج فى نقض أساس السلطنة التيمورية حجراً حجراً . وتتملك أراضيها قطعة بعد قطعة . لـكن بدون تعرض للسلطنة الظاهرية ولا مس لنفوذها . كانت تغرى الولاة من النوابين والرجوات . بالخروج على السلطان التيمورى . ثم

تنوب عنه بالعساكر الانجليزية والصينية للتغلب على الخارجين تحت اسم الملك . ولا تمس رسومه الملوكية بل تلقب نفسها خادمة مأمورة . هكذا كان سيرها . وهو المألوف من عوائدها .

أما فى مصر فقد أظهرت مقاصدها لأول خطوة ، بباكورة أعمالها بعد دخول تلك البلاد غل أيدى الحكومة ، ومعارضتها فى جميع أعمالها وصدها عن تعاطى شؤونها ، وربما كان يخيل للناظر فى حركات تلك الدولة أيام كانت تهيىء أسباب الفتنة السابقة ومساعيها لتقوية ثورة السودان . أنها تسلك سبيلها فى الهند ، ولكن يرى منعها السلطان العثمانى عن المداخلة فى إصلاح بلاده المصرية والسودانية . مع ما له فيها من الحقوق الشرعية والقانونية ، منعاً صريحاً وفى معارضة ولاة مصر وحكامها فى كليات الأمور وجزئياتها أنها انحرفت عن مشربها وأخذت مذهباً غير مذهبها .

كليفور لويد مستشار الداخلية فى مصر وهو بحكم وظيفتـه من الطبقة الوسطى فى مأمورى الحكومة يتحكم على جميـع الوزراء المصريين ، ويعارضهم فى تصرفهم ويضع للبلاد شرائع وقوانين من تلقاء نفسه ، ويخالف توفيق باشا فى أوامره (إلا أنه لا يحسب عاصيا حتى ألجأوا نوبار باشا رئيس النظار[1] إلى تقديم استعفائه بعد العجز عن مقاومته ، وضاق صدر توفيق باشا من صلابته فى آرائه ، ولم تر الحكومة الانجليزية عزله وإبداله بغيره ، وزعمت أنها لو عزلته لأهانت تاج بريطانيا العظمى ثم عالجت هذا الارتباك بتوجيه أوامرها إلى كليفور لويد بأن يقف عند حدود وظيفته ولا يتجاوز دائرة أعماله ، التى تسمح له بها طبيعة الوظيفة وخصائصها المحـدودة ، وكان للظنون مجال لحسن الظن بدولة بريطانيا ، غير أن جريدة التايمس كشفت القناع ، ولم تبال بمـا يخدش خواطر الأمراء الشرقيين ازدراء وامتهانا ، ومزقت الستار الذى أقامته حكومتها حجاباً لقصدها فى إلزام كليفور لويد بما ألزمته فقالت : إن وزارة نوبار باشا مؤلفة من دمى (صور وتماثيل) نظمت فى أسلاك أطرافها بيد

(١) رئيس الوزراء ...

الحكومة الإنجليزية تحركها كيفما شاءت . فعلى كليفور لويد أن يدير الشئون المصريه بواسطة هذه الألاعيب . تريد أن الحل والعقد فى جميع الأحوال إنما هو للوزارة الإنجليزية لكن من وراء الحجاب . ثم اعترضت هذه الجريدة على إقامة هذا الحجاب فقالت : إنه وإن كان مفيداً إلا أنه يضر بمصالح انجلترا ومصر معاً (وكان على الحكومة الإنجليزية أن تجهر بولاية الأحكام فى مصر كما صرحت بذلك مراراً) .

أسرعت دولة انجلترا فى سيرها إلى ما تروم فى الأقطار المصرية ، بل تهورت على خلاف عادتها وقد يكون مع المستعجل الزلل . لا نظن من الحكمة ما أتته من الأعمال فى مصر وربما وجب عليها تدارك ما فرط منها . إن محمد أحمد شمخ أمره وعظم خطره وهو من ورائها لا عائق له فى سيره . والقوى تجتمع إليه يوماً بعد يوم . وبعد ما تراه فى غير هذا المحل من أخباره جاءت أواخر الأخبار بأن المواصلات انقطعت بين القاهرة وبين بربر بالمرة . وأن جماهير الثائرين يزيد عددهم حول مدينة بربر وقتاً بعد وقت لقصد محاصرتها . ويغلب على ظن الكافة أنهم لابد أن يغيروا على المدينة بعد قليل ويلتحمون مع حاميتها بموقعة يكون فيها الفصل . وأن مدير بربر أعياه الالحاح على الحكومة لتنجده بعساكر إنجليزية ليفرجوا عن المدينة وينقذوا حاميتها وإلا هلكوا .

فما ركبته انجلترا من طريق التصرف فى الادارات المصرية يخلف ظن المصريين فيها . ويقطع أملهم من وفاء وعودها . ويوجد عليها نفوس الأمراء منهم . ويوغر صدورهم . ويحقق لدى العلماء أن من قصدها التصرف فى ولاية بلادهم كما يتصرف الملاك فيلتجئون بحكم الضرورة إلى تلبية محمد أحمد فى دعوته أو مساعدته على بعض أعماله . أو تخاذلهم بين يديه وفتح الأبواب له ولا نظن أن انجلترا تخفى عليها أن علماء مصر ، هم أساتذة لعلماء المسلمين شرقاً وغرباً، وأن الجامع الأزهر معهد العلوم الشرعية تسير إليه الركاب من جميع الأقطار . ويقصده المسلمون من كل ناحية

لدراسة الدين وروايته . فلو حزبهم الأمر وأعوزهم الصبر وراو ولاية الدين فى قبضة من ليس منهم فمجرد إشارة خفيفة وإيماء إلى موافقة محمد أحمد سراً كان أو جهراً كاف لإيقاد نار الفتنة فى جميع أرجاء البلاد الإسلامية ، وتسابق القلوب إلى الاعتقاد بالمدعى والتفانى تحت رايته . وليس فى استطاعة دولة انجلترا أن تتصرف فى أهواء القلوب ولا حركات الأفكار . وأن أسلحتها الجديدة لا تبدد حجافل الخواطر . وشتان بين هذه الفتنة وبين التى يسمونها فتنة عرابية . نسأل الله العافية وحسن العاقبة .

الجرائد الانجليزية والعروة الوثقى

لو نادينا الغافلين أن انتبهوا . والنائمين أن استيقظوا . واللاهين بحظوظهم أو أمانيهم أو أوهامهم . أن التفتوا . ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانجليز لو ثبتت أقدامهم فى ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم . وخطرات قلوبهم . بل على استعداد عقولهم . ولما عساه يخطر ببالهم . لقال الناس إننا نبالغ فى الإنذار . ونغرق فى التحذير . ولو بينا لهم أن الإنجليز يؤاخذون الأبنـاء بذنوب الآباء . والأحفاد بجرائم الأجداد ، ويطالبون الذرارى بدفائن أسلافهم . وإن لم يكن للخلف علـم بما ترك السلف . لعدوا هذا البيان منا شططاً فى المقال . وميلا عن الاعتدال . ولو روينا لهم أن فى قلوب الإنجليز حقداً وضغينة على كل إيرانى سواء كان من الأفراد أو الوجوه . ويسيئون معاملتهم حيثما وجدوا من بلاد الهند . ويمقتونهم مقتاً شديداً . لأن نادرشاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاتحاً على عهد السلطنة التيمورية . واستولى على خزائن الأموال فى دلهى . وأخذها إلى بلاده قبل استيلاء الانجليز على تلك المملكة . بما ينيف عن قرن . ويعضون الأنامل من الغيظ . ويحرقون الأرم من الأسف على ما أخذه نادر من أموال دلهى . وحرمانهم من تلك الأموال . ويحملوا هـذا الوزر على عاتق كل إيرانى . لحسبوا ذلك منا تعالياً ولو قصصنا عليهم ما يعامل به الانجليز رعاياهم فى الهند عموماً والمسلمين خصوصاً . وأنه يكفى لنفى عالم من علمـاء المسلمين إلى جزائر أندومان أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات من القرآن . لأنـكروا علينا ما نقول لبعدهم عن تلك الأقطار . وعدم وقوفهم على أحوالها . ولسنا الآن بصدد إقناع المصريين بما نعلم من أحوال الانجليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من أحكام سلطتهم . فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقص ، ولـكن نعرض عليهم

نموذجاً من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكى ما غيب عنهم من لوازم السلطة الإنجليزية .

عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محررى الجرائد الفرنسية ، فكتبوا عنها قبل صدورها غير مبينين لمشربها ، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها ، فلما وقف على الخبر محرروا الجرائد الإنجليزية المهمة أخذتهم الحدة ، واحتدمت فيهم نار الحمية ، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسة الإنجليز ، ونفوذها فى البلاد الشرقية ، ولجوا فى إغرائها بها ، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول فى البلاد الهندية والبلاد المصرية ، بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها ، كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسى ، مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لإثارة الخواطر ولا لإيقاد الفتن ، وإنما أنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً ، وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خير لهم . ولقد صدرت سالكة جادة الاعتدال ، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل . كما يظهر لكل من اطلع عليها ، فليعتبر المعتبرون بهذا الإجحاف . والاعتداء والقصاص ، قبل الجناية ومن كان سمندرى الطبع فليهنأ له العيش فى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية ، سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى ، إذا دعا الحال ، فإن أنصار الحق كثيرون .

عجز ومراوغة

طنطنت الجرائد الإنجليزية ورجال السياسة فى بريطانيا بنجاح الجنرال جوردون فى مأموريته بعدما وصل خرطوم بأيام ثم انعكس الأمر عليها وأظهرت الجزع مما حل به من الخيبة فى أعماله والإشفاق والارتجاف مما يتوقع نزوله من الخطر وأجمعت على أن ما يصيب جوردون من قتل أو أسر يكون وصمة فى شرف انجلترا إلى الأبد وعاراً عليها لا يمحى ولا مداركة لهذا الخطب العظيم إلا بإرسال العساكر الانجليزية إلى خرطوم ، إلا أنه فى هذه الأيام بعد العجز عن إرسال العساكر لم يعدم وزراء انجلترا أو رجال حكومتها عذراً للتملص من هذا العار الذى يلحق بهم فقال المسيو جلادستون وزير الحربية الانجليزية أن الجنرال جوردون لم يؤمر بالإقامة فى خرطوم إلى أجل غير محدود حتى يحتاج نجدة عسكرية تخلصه مما عساه يقع فيه ، بل كان فيما أمر به أن يخرج من المدينة عندما يرى لزوماً لذلك . على أن الجنرال لم يطلب إعانة عسكرية فالوزارة الإنجليزية لا تتحمل تبعة ما نزل بجوردون إلا بعد أن تقف على أفكاره ومطامح أنظاره . ولا وقوف لها إلى الآن على شىء منها . والأوامر التى أصدرتها إليه فى الأيام الأخيرة لم يرد لها خبر عن وصولها .

ومن كلام وزير الحربية أن الحكومة الانجليزية تدبرت من أيام فى إرسال فرقة عسكرية إلى بربر وبعد إمعان النظر فى لزوم ذلك رأت عدم الإرسال أولى . وأنهى كلامه بقوله أن حكومته لم تأخذ على نفسها إعادة السلطة المصرية فى السودان ، ولا تقرير أى حكومة فيها وإنها تلقى اليوم على نفسها كل تبعة توجه إليها فى شئون السودان ، وأما سواكن فسيقام فيها حامية قليلة العدد إلى أن يبرم اتفاق (بينهم وبين مصر) وكلام هؤلاء الوزراء قد لا يخلو من غرابة فإن منشورات جوردون التى نشرها بعد دخوله خرطوم على قبائل العربان ورسالته إلى المهدى لم تنكرها الحكومة

الإنجليزية بل دافعت عنها ودفعت الاعتراضات التى وجهت إليها، وكان فيها أنه وال على السودان (بل سلطان) من قبل دولته والحكومة المصرية وأنه بما له من حق الولاية يمنح محمد أحمد لقب أمير كوردفان ، ويبيح بيع الرقيق ، ويدعو العرب إلى الطاعة ، فتلك المنشورات صريحة فى أن بعثته كانت لإقرار حكومة فى السودان ، والمدافعة عن بعض الولايات فيه ، وأنه فيما يعمل مؤتمر لحكومته ، وإلا كان كاذباً والحكومة دافعت عن كذبه رجاء أن ينجح فيه ، فلما أخفق لم تجد بداً من البراءة منه .

وقالت جريدة التان الفرنسية أن وزير الحربية الإنجليزية يدعى فى مجلس العموم أن الجنرال جوردون لم يطلب نجدة عسكرية إلى خرطوم ، مع أن الأخبار التى وردت إلى جريدة التايمس من مصدر يكاد يكون رسمياً ونشرناها من قبل تكذب ما قاله الوزير . وتؤكد أن والى خرطوم (الجنرال) كان منتظراً ورود العساكر الإنجليزية إليه وقتاً بعد وقت وتحققت حاجته لذلك عند الكافة من أهالى لندن ، حتى كان تدبر الحكومة فى إرسال فرقة إلى بربر ، مبنياً على هذا لتفتح طريق مصر العليا ، لكن أقعدها تصور ما تكابده الجنود من المشاق والمتاعب ، بل مايحل بها من التلف ، وقد عرضت جريدة (البال مال جازيت) بالطعن على حكومة انجلترا ولوحت بلومها على ما أظهرته من العجز والمراوغة حيث قالت : فليعلم الجنرال جوردون أن الحكومة الإنجليزية بعد اضرابها عن إرسال العساكر إلى بربر يستحيل عليها أن ترسل عساكر إلى خرطوم وقالت أن المسيو بوير قنصل الإنجليز فى خرطوم كان ينتظر المدد العسكرى يوماً بعد يوم وفى ظنه أن حكومته تسعفه بذلك لكنه يجب عليه الآن أن يعلم أنها تركته وأصحابه ووكلتهم إلى أنفسهم فعليه أن يتدبر فى أمره بنفسه موقناً أن الحكومة الإنجليزية تفضل إخلاء السودان وتعريض حامية المدن ومن فيها من رجالها لدى أشياع محمد أحمد تفتك بهم على إعداد أى وسيلة لإنقاذهم ، واتبعت قولها هذا بتهكم على الوزارة فقالت : من زعم أن إرسال جوردون إلى السودان لم يأت بفائدة فقد أخطأ خطأ عظيما ، فإن أعظم فائدة ترتبت عليه بقاء الوزارة الإنجليزية وصيانتها من السقوط فإن حياتها كانت موقوفة على سفره من

لندن ولولاه ما خلصت من الخطر الذى كان محدقاً بها ولما بقيت فى قيد الحياة إلى الآن . وأنعم بها من فائدة جليلة لمصر وانجلترا فكفى الأمتين سعادة أن تهدر شقاشق الوزراء فوق المنابر .

هكذا تمتع المستر جلادستون وزملاؤه فى الكلام على المسألة السودانية وسلكوا طريق المواربة وتبرأوا من تبعتها بعدما ساقوا إليها الجيوش والقواد بقصد إخماد الثورة وتقرير الراحة وهو قرار سياسى تبع الانهزام العسكرى يكشف لنا عن قوة محمد أحمد ومنعته ويأس الدولة البريطانية عن ملافاة أمره وأن نيتها الاقتصار على التحصن فيما دون حدود مصر الطبيعية بل على الحلول فى مصر السفلى حتى تحفظ القنال ، وتتصرف فى أراضيها الخصبة ، وتقف على أبواب التجارة ، ترقب حركات المارة ، وتشيع الذاهبين والآيبين ما بين الشرق والغرب ، وتقنع بالتحكم فى بعض الضعفاء من المصريين ، وإنا لا نعلم ماذا تكون العاقبة إذا أصبح السودان بأسره فى حوزة محمد أحمد واعتصم فى قاعدة تلك الأقطار الشاسعة ، ولا عاصم له إلا بالإيغال فى سيره وبث دعوته بين جميع القبائل العربية ، بما يستطيع من الحيل أو القوة . أفلا ينتهى بعد هذا إلى سوق جيوشه الكثيفة إلى حدود مصر العليا ، ربما ، بل يغلب على الظن أنه يفعل ذلك ، فإن لم يفعل فهى شعلة الثورة تسرى بطبعها وتضطره إلى اقتفاء أثرها .

جاءت الأخبار من أيام أن الثائرين قطعوا خطوط التلغراف بين أسوان وكورسكو وأين كورسكو من أسوان . هى على مقربة منها والمسافة بينهما كما بين قنا وأسوان . وفى أخبار أخرى أن للهيجان والتحرش للخروج أثراً ظاهراً فى أطراف مصر العليا فإذا قدر الله وصارت حدود مصر العليا معاراً للحركات الحربية وهو مما لا تبعده الحوادث فهل يبقى المصريون وقبائل العربان فى الفيوم والبحيرة والشرقية وجميع أنحاء القطر المصرى على سكونهم بعدما رأوا من ضعف الإنجليز وعجزهم ما رأوا وبعد ما يشهدون سيلا قويا ماؤه من مائهم ينصب إليهم وبعد ما حرجت صدورهم وضاقوا ذرعا من تصرف الإنجليز فى حكومتهم ، يغلب على الظن

أن ما لهم من سرعة الاعتقاد بالظافر خصوصاً إن كان قائماً بدعوة دينية وما ضاقت به صدورهم من الاستبداد الإنجليزى وما ذاقوه من آلام الفقر والفاقة والذل والهوان من نحو سنتين وما يتوقعونه من رزايا دينهم ودنياهم فى المستقبل إذا رسخت قدم الإنجليز فى مصر كل هذا يبعثهم على تقبل دعوة الداعى بقبول حسن وانحيازهم إليه .

إذا جاء هذا الوقت وهو ليس ببعيد فربما نجد انجلترا فى مصر أفغاناً أخرى وتخشى من ظهور عجزها فتوارى خلف بعض من الحيل والتعللات وتستدعى من المسلمين من يكون قوى الشكيمة شديد البأس ، لتقرير السلم وتمكين الراحة ، وتعود إلى جزائرها راضية من السلامة بالإياب ، ولعل ذلك غير بعيد على العقل ، وإلى الله المآب .

انجلترا والحبش

وردت الأخبار أن الأميرال هفيت وصل إلى مصوع حاملا هدايا ثمينة إلى ملك الحبشة وكنا فى العدد السابق بينا ماذا يريد الأميرال من مواصلة الملك يوحنا ، وأن الدولة الانجليزية بعدما فشلت عساكرها فى سواحل البحر الأحمر وعجزت عن تجهيز جنود جديدة تسوقها إلى أواسط السودان التجأت للاستنجاد بملك الحبشة واستمداد مساعدته على مسلمى السودان ، وكان حسن ظننا بدولة متمدنة كدولة بريطانيا يمنعنا من التصديق بعزمها على إثارة حرب خشنة ، لكن من الأسف أن الإفادات التى وردت هذا الأسبوع تؤكد أن انجلترا عازمة على النكاية بالمسلمين فى السودان ، من حيث هم مسلمون لا لإطفاء ثورة ، ولا لترويج مدنية ، وفى الظن أن هذا هو الذى بسط يدها بالهدايا الثمينة تتحف بها ملك الحبش ، وإلا فخلائقها من حيث هى دولة تجارية لا تسمح لها بهذا السخاء ، وتنهاها عن البذل إلا أن ينقد لها الربح أضعافاً مضاعفة ، أى ربح لها أعظم من توددها إلى دولة خشنة ترمى بها طائفة من المسلمين بغية الفتك والنكاية حتى تخيف بذلك بعض من تخشى بأسهم من أبناء ملتهم ، على إنا لا نزال فى ريب من نجاح مسعاها ولو أنها نجحت فى إقناع ملك الحبشة بالتهور فى حرب مع السودانيين فما عساها تسمى هذه الحرب ، لا نرتاب فى أنها ليست لكسر شوكة التوحش ووضع قواعد المدنية ، فإن أحد المتحاربين لا يمتاز عن الآخر فى أخلاقه وعوائده وأفكاره ، بل ربما كان السودانيون بما استفادوه من الحكومة المصرية مدة سنين أقرب إلى المدنية من الحبشيين ، ولا يمكن أن تكون حرباً للفتح وتوسيع الملك فإن الحبشة لا مطمع لها فى توسيع ممالكها إلى الجهات الغربية من السودان ولم يعهد لها ذلك فى التاريخ ، وغاية ما كانت تبتغيه

أن تكون حدودها الطبيعية محفوظة من تعدى جيرانها عليها ، فلا اسم لهذه الحرب الدينية تذكر الملل بما كاد يمحى أثره من المحاربات الصليبية ، وتوقد فى الأفئدة نار التعصب الدينى ، فلو فتحت دولة انجلترا باب هذه الفتنة أفلا تحترق قلوب المصريين بهذه النار ، وهل ترجو هذه الدولة من بعد ذلك أن يستقر لها قدم بينهم ، وهل تأمن أن يثور سكان جزيرة العرب تحت هذا العلم الذى يظل ملايين كثيرة تعلم انجلترا عددها وتحس بحاجتها إلى مسالمتها ، نظن أن حكومة بريطانيا تسعى باختباطها هذا إلى ما لا محيد لها عنه ، وتجتهد فى تقريب البعيد وما كان أغناها عن هذا كله .

رأى المستر بلونت فى المسألة المصرية

(انجليزى عمر ينصف المصريين)

إن مستر بلونت الذى اشتهر بمحبة المسلمين والدافعة عن المصريين ، لما رأى ما وصلت إليه المسألة المصرية من الارتباك واشتداد الخطب فيها على حكومة انجلترا وصعوبة تدارك الخلل الذى عرض لها تدبر فى حل المسألة ونشره فى التايمس فأحببنا نشره فى جريدتنا مجملا وهو :

على الحكومة الإنجليزية أن تتفق مع سائر الدول على جعل البلاد المصرية مستقلة فى إدارتها (يريد بذلك أن يكون حكامها منها لا من دولة أجنبية) ويكون الكافل لهذا الاستقلال جميع الدول بدون امتياز قوانين التصفية ، واختصاصات الأجانب يجب تعديلها . كل مسألة يقع فيها اختلاف فلا يكون انهاؤها إلا باتفاق الدول الأوربية ، تحكم فيها بما تشاء لا ينبغى أن يكون فى الجندية ضباط من الأجانب وقنال السويس يلزم أن يعتبر طريقاً عاماً يشترك فيه جميع الأمم ويكون تحت رعاية الدول جميعاً . يجب أن تكون إدارة البلاد بيد حكومة يقيمها الأهالى بانتخابهم .

بريطانيا تمسح ظهر توفيق باشا ...

قالوا إن زنجياً أسود ، هائل المنظر ، غليظ الشفتين مقلوب المشفرين جاحظ العينين أحمر الحدقتين بشع الوجه ، أفطس الأنف ، منكر الصورة وكان يحمل ولداً فى ليلة مظلمة يسير به فى زقاق من أزقة بغداد ، والولد كلما نظر إليه يفزع ويبكى وينتحب ويصيح ويعول وكلما اشتد به الفزع مسح الزنجى ظهره وقال له : لا تخف ياولدى فإنى معك وأنيسك وحافظك من كل شر ، وبعد تكرير هذه الملاطفات من الزنجى للصبى قال الصبى : ياسيدى إنما خوفى وفزعى منك لا من وحشة الظلام !!!

هذا شأن حكومة انجلترا مع المصريين . كلما اشتدت الخطوب وعظمت المصائب وزاد الخلل فى البلاد المصرية ، مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا ووزرائه بيدها الناعمة (وإنما هى نعومة الثعبان) وأقبلت على الأهالى تمنيهم بوعودها المرونقة ، وتقول لهم : لا تحزنوا فإنى معكم وجميع المصريين من توفيق باشا إلى وزرائه إلى عامة الأهالى يجأرون وينادون إنما خوفنا وجزعنا منك ، وراحتنا واطمئناننا بتنحيك عنا وتركنا وشأننا .

أضحوكة

قال مستشار خارجية انجلترا لبعض سائليه فى مجلس البرلمان أن الجنرال جوردون عندما أجاب محمد أحمد على بلاغه الأخير لم يخاطبه بلقب سلطان كوردفان ، بل عنون الجواب بلفظ شيخ ، وبناء على هذا فقد صار لقب سلطان كوردفان الذى منحه له الجنرال جوردون لاغياً ، يعنى أن محمد أحمد خلع من سلطنة كوردفان عندما طمح نظره إلى خرطوم وطلب من الجنرال أن يدخـــل فى دين الإسلام ، لـكن محمد أحمد لم يتمتع بتلك السلطنة اللفظية لأنه لم يقبلها عند عرضها عليه فلا يحزن من هذا الخلع الجديد ، أليس بعجيب أن يسمع من أفواه رجال سياسة بريطانيا مثـل هذه المهملات ، بعد ما قيل فيهم أنهم من أدهى رجال العالم ، ولعل الأضاحيك من أساليب السياسة عندهم .

المسألة المصرية والانجليزية

إن للحكومة الإنجليزية شأناً فى المسألة المصرية يخال للناظر فيه أنها فى تردد بين إحجام وإقدام وأن مقارعة الآراء واختلاف الأهواء ، يزداد بين سكان بريطانيا ، كلما ازدادت الخطوب شدة فى مصر ، نعم إن أرباب الرأى فى الأمة الإنجليزية فريقان فريق منهم يدفع حكومته إلى الإعلان بسيادتها على الديار المصرية واستلام إدارتها ، وبعبارة أخرى إلى ضمها لأملاكها ويحملها بذلك على غمط حقوق الدولة العثمانية وأهالى القطر المصرى والاستهانة بحقوق الدول جميعاً ، وهذا فريق الجمعيات والشركات المالية ويذهب بعضهم بعض الوزراء وينصر آراءهم عدة من الجرائد أشهرها جريدة التايمس واشتدادهم فى صخبهم ونعيرهم نبه الأفكار وأقلق الخواطر فى الأمة الفرنسية فانطلق لسان جرائدها بالوعيد والتهديد وصرحت الجرائد الوزارية منها وجرائد الأحزاب الجمهورية وهى ذات السلطة فى البلاد الفرنسية بأن حكومة فرنسا وإن كانت غضت طرفها عن أعمال انجلترا فى القطر المصرى من يوم حملتها عليه إلى الآن ولكنها لا تهمل شيئاً من مصالحها وحقوقها وجميع الدول الأوروبية تعززها وليس لانجلترا فى مصر ما تمتاز به عن بقية الدول ، ومن الجهل أن يظن سياسى فى المسألة المصرية أنها مصرية أو إنجليزية أو فرنسية فإنما هى مسألة أوروبية وقد اقتربت الساعة التى تجهر فيها الدول بالمدافعة عن حقوقها فى الأقطار المصرية ، أن للدول حقاً فى التداخل لحل هذه المشاكل بعدما عجزت انجلترا عن القيام بما تعهدت به من اقرار الراحة فى مصر فإن الفوضى فى هذه الأيام أشد منها فى زمن الحركة المعروفة بالعسكرية وفتنة السودان تلاطمت أمواجها على

حدود مصر والهواء الأصفر (الكوليرا) أن تكون له رجعة إلى تلك البلاد السيئة الحظ وما هذا كله إلا من آثار الحلول الإنجليزى في وادى النيل . أما إن أرادت دولة انجلترا أن ترسم بسيادتها أو ترفع أعلام حمايتها على القطر المصرى فما للدول من حق التداخل يصير فرضاً لازماً وضربة لازب لامحيص عنها . إلا أن كل هذه التهويلات لم تعدل بذلك الفريق الإنجليزى عن مقصده ولم تتحول به عن مشربه فلا تزال جرائدهم تنعق بطلب الحماية على مصر وهم فى عمى عن العوائق والموانع التى تصد حكومتهم عن الانصياع إليهم .

أما الفريق الآخر من الأمة الإنجليزية ومنهم وزير داخلية انجلترا ومستر جلادستون فيما يقال فيظهرون التعفف والنزاهة بل يصرحون فى خطبهم بأن حكومة بريطانيا لا تستطيع احتمال إدارة البلاد المصرية وليس فى إمكانها ضمها إلى أملاكها ولو همت بذلك لرأت من الدول أشد الممانعة وربما رجعت بالخيبة : على أنها تكون قد سنت سنة سيئة فى نقض العهود ، وإخلاف الوعود ، وفتحت للدول هذا الباب ، باب الشر والعدوان . هذا ما ينطقون به على منابرهم ويزعمونه نبأ عما فى خواطرهم ، ولكن هؤلاء المتعففون لهم فى كل وقت عمل لتمكين أقدامهم فى مصر ، ولا يخالفون الفريق الأول إلا فى شقاشق الألسن ، هؤلاء هم الذين حولوا الإدارات المصرية ودوائر حكومتها العليا إلى السيرية ، واستلموا زمام العسكرية والمالية وإدارة الداخلية والمحاكم القضائية وتصرفوا فى أعمالهم تصرف الملاك ، فاستبدوا على المتوظفين من المصريين ، وغلوا أيديهم عن تعاطى أشغال وظائفهم ، حتى آل بهم الأمر إلى ماصرحت به الجرائد الإنجليزية من أنهم أشباح ورسوم تلوح بين جدران الدواوين غدوة وعشيا، هؤلاء هم الذين يحاول نوابهم ومأمورهم فى القطر المصرى أن يلزموا أهاليه بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية انجلترا وسيادتها عليهم وإن لم تنجح الحيلة ، هؤلاء هم الذين هموا الآن بتغيير نظام المالية المصرية ورغبوا إلى الدول فى عقد مؤتمر بلندن لتغيير

قانون التصفية ويريدون أن يجعلوا ذلك ذريعة للاتفاق مع الدول على أن تكون الديون المصرية بأسرها تحت ضمانهم لتقوم لهم الحجة فى الاستيلاء على مصر بعد زمن قصير أو طويل أو ليمهدوا به طريقاً لمن يخلفهم فى الوزارات الإنجليزية ينتهى بالسير فيه إلى تلك الغاية بعينها وما طلبوا الماجور بارين وكيلهم السياسى فى القطر المصرى إلا ليحضر هذا المؤتمر .

هذا ما يهيئه الإنجليز لأنفسهم ولكن ماذا تعده الحوادث لهم ، كتبوا على أنفسهم تخفيف مصائب الحكومة المصرية فى السودان ، وعقدوا لقوادهم الألوية ، وأعدوا لهم العدد ، وكتبوا الكتائب ، فسفكت دماؤهم : بعد ما ضل سعيهم ، ظنوا أن بعض رزاياهم فى سواحل البحر الأحمر فرصة للاستيلاء على السودان الشرقية ، فبعد الجهد ومعاناة الكفاح من عراة العرب تمكنوا من الرجوع بالخيبة . قنعوا بالاعتصام فى حصون القاهرة وما يليها فأزعجهم دوى السيل المندفع عليهم من الجهة الجنوبية ، وإغارة ثائرة السودان على شندى وافتتاحها ، واشتداد الحملة منهم على بربر وخرطوم ، وزادهم خوفاً ورهبة انتقاص كثير من القبائل على مقربة من وادى حلفا وأبى حمد وأوشكت طائشة الفتنة أن تأخذ بقلوب الأهالى فيما تحت أسوان ، وأفزعهم ما أحسوه من أهالى القاهرة ومصر السفلى من تحول القلوب وضيق الأنفس ، حتى اضطروا لزيادة الحرس فيها ، مع أن زيادة المعهود فى المصريين أنهم أهل السلم والراحة . قصدوا بكل هذا حماية طريق الهند خوفا على الهند فبعد ما ورد إلينا من أصدقائنا فى لاهور أن لدعوة محمد أحمد فى قلوب الهنديين منزلة وأنه لو لم يكن مهدياً فالضرورة قاضية عليهم باعتقاده كذلك عسى أن يكون فى هذا الاعتقاد جمع لكلمتهم على التخلص من رق الإنجليز ، جاءت البرقيات شاهدة على صدق ما كتب إلينا ، ففى الأخبار البرقية أن رجال الشرطة فى سملا وجدوا إعلانات ملصقة على جدران المدينة مما كتب فيها إغراء المسلمين بإجابة دعوة محمد أحمد والقيام بنصرته ، وسملا هى فى آخر الممالك الهندية الانجليزية من جهة الشمال الشرقى على القرب من لاهور . وهذا ما كنا نخشاه ونبهنا عنه مراراً . وربما تكون هذه الصدمات الشديدة التى صدعت انجلترا

بعد استفحال أمر محمد أحمد كافية فى أذعانها بأن عاقبة الثورة السودانية أشد خطراً عليها من عاقبة الحركة التى سموها عرابية .

رام الانجليز بكل هذه الاحتياطات المقيدة أن يقرروا الراحة فى مصر فإذا الأموال تنهب ، والحقوق تضيع ، والادارات فى فساد والتجارة فى كساد ، والزراعة فى بوار والظلم فى اشتداد والأمن مسلوب حتى الأرواح والأعراض كل هذا باعتراف جرائدهم ووزرائهم وشهادة الجرائد المصرية الوطنية وإجماع السياسيين فى أوروبا على أن الشقاء الذى ألم بأهل مصر بعد تداخل الانجليز ، ناشئاً عن هذا التداخل ، لم يرزأوا به فى زمن من الأزمان من عهد محمد على إلى الآن . فأنعم بهذه الوسائل التى أعدها الانجليز لتقرير الراحة فى مصر وأجمل بالوسائط التى استعملوها لحماية الهند !!!

هذه بدايات القلاقل وبوادر المخاطر التى نشأت من شدة احتراس الانجليز وحرصهم على وقاية أملاكهم أو توسيعها يظهر من جمجمتهم إذا صاح بهم داعى الحرب وحيرتهم من أين يجندون الجنود هل من الهند أو انجلترا ومن موازنهم العسكرية أن ليس لهم قوة برية لحفظ الممالك الواسعة فكيف يستطيعون التصرف فى مصر لو سادوا عليها وهى كما قال وزير داخليتهم تحسب مملكة أوروبية لا تسود فيها الأوهام ولا تدوم فيها سلطة الحيل إن لم يكن من المصريين فمن الأوروبيين وأى قوة تصون لهم الهند من فتنة إذا امتد زمن الاضطراب فى مصر وقد جاءنا من أخبار الهند أن عموم المسلمين فى هياج ويخشى أن تثور فيهم ثائرة عند ما يتقدم محمد أحمد خطوة أخرى .

هذه العواقب السيئة وما يتوقع من مثلها أو أسوأ منها لدولة انجلترا إنما هى حلقات فى سلسلة أغلاطها من استيلائها على قبرص فإنها اختلست تلك الجزيرة لمراقبة طريق الهند فنافستها فرنسا واستولت على تونس فتخوفت على قنال السويس أن يساق إليه جيش برى من أفريقيا الغربية فسعت فى الايقاع بين الجند والحاكم فى مصر وتذرعت بذلك للغارة عليها فنزل بها فى تلك ما نزل .

وبعث ذلك دولة فرنسا على ما بلغنا من مصدر يوثق به إلى السعى فى طريق يوصلها إلى مناكبة الانجليز فى مصر على الحدود الغربية وربما جرت هذه المنافسات إلى فتح المسألة الشرقية وليس بقليل ما يصيب انجلترا من مضار هذه المسألة فأى ثمرة جنتها انجلترا مما غرسته فى هذه السنين الأخيرة ، لا هى صانت باب الهند من الخطر كما تروم ولا هى سكنت قلوب الهنديين ، وإنما طرقت أبواباً كانت مغلقة ويوشك أن تفتح ، ولئن فتحت فإنها تحدث زلزالا فى أركان العالم بأسره هذا شأن الانجليز وما يفعلون .

ويوجد أناس لهم مداخل فى تقلب الأحوال المصرية ولهم مذاهب مختلفة فى ترويج مقاصدهم لدى المصريين يمنونهم بالخلاص من أيدى الانجليز إذا آل إليهم السلطان فى مصر ، بل يؤكدون لهم أنه لوثبتت أقدامهم فى الديار المصرية لأحبطوا مساعى انجلترا فى عموم البلاد الشرقية ، وسعوا فى تقليص ظلها من المشرق بأسره ، أخذاً بثأرهم منها فهؤلاء سنأتى على أحوالهم ، ونبين طرق سيرهم فى أعمالهم ، حتى يكون ذوو الآمال فيهم على بصيرة من أمرهم .

* * *

هول الأمر على جوردون

أخبر مراسل التايمس فى خرطوم أن تلك المدينة أصبحت معسكراً لأعوان الثورة ومضاربهم محيطة بها من جميع الجوانب والقذوفات من نيران أسلحتهم تنقض على دار الحكومة بلا انقطاع والمؤونة فى نقصان والخطر يشتد يوماً بعد يوم وبعد افراغ الوسع فى اختراق صفوف الثائرين بالمراكب تسير إلى بربر لفتح طريق المخابرة مع حاميتها حبط العمل وخاب السعى فإن قوة العربان على شواطىء النيل تصول على المراكب بأسلحتها القاتلة وتفتك بمن فيها ، واتبع هذا الكلام بقوله أن الجنرال جوردون عقد العزيمة على أن ينجو بنفسه من طريق أفريقيا الوسطى حيث تحقق أن حكومته غير مهتمة بإنقاذه ، ويرى أنه لا سبيل إلى الاتفاق مع القبائل التى أخذت عليه طريق بربر إلا بمساعدة زبير باشا (اليوم يضطر لمساعدة زبير باشا) وهو من أعدائه ولا نرى الزبير إلا مسلماً لو سمحت ذمته بإنقاذ حياة جوردون فلا تسمح أن يكون السودان ولاية انجليزية وفى جريدة (الأكسترابلات) أن الحكومة الإنجليزية ورد إليها كتاب من جوردون .

مفاده : ليس فى طاقة أحد من البشر أن ينجينا من الخطر لأننا محاطون من جميع الأطراف بالقبائل الثائرة فلم يبق لنا سوى التضرع إلى الله بتبديد شملهم فإن لم تسعفنا العناية الإلهية بإجابة دعوتنا فلا ريب أن تلك القبائل تنهب وتفتك بجميع سكان خرطوم قبل وصول نجدة انجليزية إلينا . (وليته سأل الله تعالى حل المسألة السودانية وفوض إليه الأمر فيها وأراح نفسه من السفر إلى خرطوم) وجاءت الأخبار الأخيرة بأن مدينة شندى وهى على النيل فى منتصف الطريق بين بربر وخرطوم وقعت فى أيدى رجال محمد أحمد ، هذا بعد أن طلب الجنرال جوردون من حكومته أن ترسل

فريقاً من الجيوش لتخليص حامية تلك المدينة وموظفى إدارتهـا ؟ ورأت الحكومة من الصواب أن لا ترسل فلما ضاق الأمر على الحامية ويئسوا من القدرة على الدفاع دكن فريق منهم يبلغ ثلاثمائة شخص إلى الفرار واندفعوا على صفوف محاصريهم لعلهم يجدون من بينها سبيلا فلم يستطيعوا ونزل بهم من أمر الله مالا محيد عنه . بعث الجنرال جوردون ببرقية إلى القاهرة يشكو فيها عدم وصول الأخبار إليه من السير بارين (وكيل انجلترا السياسى فى مصر) قالت التيمس ولعل البرقيات التى بعث بها بارين إليه تناولها الثائرون ومن كلام هذه الجريدة أن الحكومة الإنجليزية أرسلت الجنرال إلى السودان وفوضت إليه الأمر فيما يفعله ليصيب بتدبيره غاية حسنة ونرى أن هذه الحكومة غلت يديها بترك الجنرال وشأنه مما يلحق بها عاراً عظيماً .

اشتدت حملة القبائل على بربر وخارت عزائم حاميتها وسكانها وأخذ اليأس بقلوبهم . ووردت برقية من مدير بربر إلى الوزارة المصرية يشكو بها تلك الحالة ويقول أنه لا يمضى بضعة أيام حتى يفتحها الثائرون ويحل بها من أيديهم ما حل بمدينة شندى . وبعد هذا جاءت برقية من القاهرة مفادها أن نوبار باشا يخشى أن يمتد لسان الفتنة إلى أسوان فى وقت قريب وإنا نشاركه فى هذا الخوف ونزيد عليه الإشفاق من التهاب النيران فى القاهرة ، وأطراف القطر المصرى ولا حول ولا قوة إلا بالله .

محاولة في مصر

كل يوم يظهر من انجلترا شأن جديد فى معاملة الشرقيين والطرق التى تأخذهم بها لقضاء أوطارها من بلادهم ، وتلاعبهم وتداعبهم وتجاملهم وتلاطفهم ، وتعدهم وتمنيهم وتخيفهم وتؤمنهم ، حتى تشتبه عليهم مسالك الفكر . وتلتبس مسارح النظر ، ثم تحملهم بعد الدهشة على قبول سلطتها والرضا بولايتها ، بل على طلب ذلك منها ، والتماسه من كرمها ، وهى فى كل أعمالها تهزأ بهم وتحسبهم فى عداد الصبيان القاصرين ، أو من قبيل البهائم التى لا تعقل . سلكت مسلكها هذا على بعض من أوروبا وانفردت فى الأقطار الهندية النائية ، وليس لدولة من الدول إحاطة بما تجريه فى حكومتها لتلك البلاد ، ثم تطرفت فى هذا المشرب فعمدت إلى استعماله فى مصر تحت أنظار أوروبا وقصدت أن تدعو المصريين للاقرار بحمايتها ، ورفع التماسهم إليها لعل كرمها يسمح بمنحهم شرف سيادتها عليهم ، لكن الحيلة لم تذهب على المصريين ولم تختلس عقولهم تلك الشعوذات ، فقد جاء فى خبر مؤكد أن مأمورى الحكومة الإنجليزية فى مصر حاولوا تكليف الأهالى بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية دولة انجلترا ليكون التماس الأهالى حجة لديها عند الدول تقيم بها عذراً فى إخلاف وعودها ، حتى إذا حاسبوها على تصرفها فى أرض مصر وضمها إلى أملاكها تدعى أنها مضطرة فيما تصنع والأهالى هم الذين رغبوا إليها ذلك

وهى لا تأبى قبول رغبتهم رحمة بهم ورأفة ، هكذا تحاول أن تفعل فى مصر وهى متاخمة لأوروبا وفيها من الأوروبيين المختلفى الأجناس ما يزيد على مائة ألف ، ولا تخشى لائمة ولا تخاف عاقبة ، وإن ظننا بالمصريين على اختلاف طبقاتهم إنهم لن يفعلوا ذلك ما دامت أرواحهم فى أبدانهم .



رأى الجرائد الفرنسية فى الانجليز

ارتفع الستار وانهتك الحجـاب عن ضعف الحـكومة الإنجليزية ووهن عزيمتها فى المسألة المصرية ، ولم تبق فيه ريبة لمرتاب بين الدول الأوروبية وانطلقت عليها الألسن وسلت عليها سيوف الملام ، من ذلك ما هزأت به جريدة (الريبوبليك فرانسيز) وسخرت فيه بدولة انجلترا عند كلامها على فصل نشر فى جريدة (البال مال جازيت) ، قالت : إن ما تهددنا به الجرائد الإنجليزية لا تأخذنا منه رهبة ولا ترعدنا منه خيفة ، بعد أن رأى الفرنسـيون عجز حـكومة بريطانيا عن حماية جوردون وعلموا أن عدداً من عرب السودان اخترق صفوف الجيوش الإنجليزية المنظمة وما كان لهم سلاح إلا العصى والخناجر ، وأن فرنسا لا تزال تطلب من انجلترا أن تعيد إليهـا ما فقدته من حظ السلطة فى شواطىء النيل ، وماظهر من عجز انجلترا وضعفها القاضى بالحيرة والعجب لا يخفف سوء تأثيره إلا بمساعدة فرنسا . قعد كليفور لويد من المصريين مصاعد الأنفاس وخنقهم بخناق من الجور وصار فيهم خلفاً لعرابى (كذا) ونعم الخلف وإلى القوة الفرنسـية فك هذا الخناق الضيق الذى كاد يقطع أنفاس المصريين ، أما أوروبا فتستريح خواطرها ويسكن اضطرابها بعد ما أقلقها ضعف الإنجليز الذى لا دواء له ومطامعهم التى لا حـد لها ...ا هـ . فهل انكشف للشرقيين ما وضح لدى الأوروبيين أو لا يزالون عنه غافلين .

* * *

خديعة جديدة

أقبل الإنجليز أيام الحركة السابقة على بعض المصريين وزخرفوا لهم الأماني وزينوا لهم المواعيد ، حتى استعملوهم لتذليل المصاعب بين أيديهم ، لدخول مصر والاستقرار فيها بعساكرهم ، وتم لهم ما أرادوا ثم قلبوا لهم ظهر المجن تحت أستار الحجج والتعللات ، وقبضوا على زمام الحكومة المصرية يصرفونها كيف يشاءون : ولما أرادت الدولة العثمانية بما لها من الحق القانوني على تلك البلاد أن تتولى حل المسألة التي كان يعبر عنها بالعسكرية ، وأن ترسل بعض جيوشها لاقرار الراحة في بلادها طبقاً لرغبة رعاياها ، مانعها الانجليز وكفوا يدها عن العمل وسبقوها إليه بدون حق شرعي ولا أصل سياسي ولا رغبة عامة من أهالي القطر المصري ، واليوم عند اشتداد الخطب على الجنرال جوردون الانجليزي وعجز حكومته عن إنقاذه وتوقيف حركة محمد أحمد ألجأتهم الضرورة إلي الرجوع لما نبهنا عليه مراراً من أن هذه الفتن لا يطفىء شعلتها رذاذ السياسة الانجليزية ، وتمنوا لو تتداخل الدولة العثمانية ببعض عساكرها في السودان لتنقذ الجنرال جوردون وتأخذ بناصية محمد أحمد وتبدد شمل أحزابه ، هكذا رأى الجنرال في هذه الأيام أن أنجع الوسائل لحل المشكل تحسين جيش عثماني وسوقه إلى تلك الأقطار فكتب إلى صديقه صامويل بيكر يرغب إليه أن يتقدم لأرباب الثروة في انجلترا وأمريكا ويحملهم علي بذل مائتي ألف جنيه ليعرضوها على السلطان العثماني حتى ينفقها على ألفين أو ثلاثة آلاف من العساكر التركية ، ويسيرها إلى نواحي بربر وشندي ، ويكون بهذا إنهاء المسألة السودانية وهدم سلطة محمد أحمد ، وقال أنه مما يعود نفعه على السلطان أيضاً .

يريد الجنرال أن يخدع العثمانيين بتمثيل منافعهم ، كما خدع أمثاله بعض

المصريين وحاشاهم أن ينخـــدعوا لمثل هذه التخيلات الوهمية ، ومن العار عليهم أن يقبلوا ما يتكفله الجنرال جوردون من صـدقات أهل الثروة فى بلاده للنفقة على عساكرهم ، وأشد العار أن يذهبوا بجيوشهم لتدويخ بلادهم وإخضـاعها لسلطة الانجليز والعساكر الانجليزية حالة[1] بحصون مصر ، نعم لو أذعن الانجليز بما للدولة العثمانية من الحق وتركوا لها بلادها وفوضوا إليهـا إعادة الراحة فيها وإخماد فتنة السودان ، فلا نخال الدولة تتأخر عن القيام بما يفوض إليها بل هو ما تتمناه وتسعى إليه ، ولعل الحوادث تلجىء دولة بريطانيا إلى مثل ما لجأ إليه جوردون فتسلم الأمر لمالـكه[2] ، وما ذلك على الله بعزيز .

(١) مرابطة فى مراكز مصر الاستراتيجية .

(٢) يظهر الأفغانى نواياه هنا بجلاء ... فهو يطلب الخلاص من بريطانيا واحتلالها لمصر ... ويعوض مصر الدولة العثمانية لتحل محل بريطانيا !!... مرة أخرى هكذا كانت الدول تلعب بمصر...

دسيسة أخرى

هيأ الانجليز فتنة فكانت ، وأغاروا على مصر بحجة إخمادها وأوثقوا الدول على أن تكون إقامتهم فى الديار المصرية إلى أن تستقر الراحة فيها ثم يخرجون ، لكنهم بعد ما حلوها لا يزالون يسعون من يوم وطئوها إلى اليوم فى إيقاظ الفتن ويجهدون لإقلاق الخواطر ، ليقدموا ما يكون من هذا عذراً لدى الدول فى تطويل مدة إقامتهم بالقطر المصرى لعلهم يجدون من تقلبات السياسة الأوربية فرصة للحلول الأبدى . ومن ذلك ما سولوا للأروام أن يحتفلوا بعيد استقلالهم على نمط لم يسبق له نظير فى الأقطار المصرية من قبل ، وزينوا لهم ما فعلوا بما يقدرون عليه من طرق الخفية حتى انخدع الأروام لوساوسهم مع أنهم أحق الناس برعاية الأدب وما كان مثل ذلك من مأمورى الانجليز فى مصر إلا ليقلبوا أفكار المصريين ويحركوا الضغائن فى نفوسهم ويذكروهم بما كان بينهم وبين اليونانيين أيام إبراهيم باشا فيوقظوا بذلك الفتنة بين سكان القاهرة وبعض المدن المصرية وبين من يساكنهم من الملل الأجنبية ، ويعيدوا تاريخ بعض الحوادث المشؤومة التى كادت تمحى دواعيها بعد ما حدث من نحو سنتين ثم يجعلوا ما يحدث من اختلال علة لدوام الاحتلال أو التسويف فى الجلاء .

الورطة الجديدة

إلتوى سير السياسة الانجليزية فى المسألة المصرية ، وقزلت[١] الوزارة الجلادستونية فى المضى إلى نهايتها فسقطت مراراً ونهضت مراراً ، وآل بها الأمر بعد هذا إلى عجز عن أداء ما تعهدت به للدول وللدولة العثمانية من إصلاح الأحوال المصرية ، وفزع شديد من عقبى هذه الفتن التى تداعت لهـا أركان النظام المصرى . فلجأت إلى الدول الأوربية تستعين بها على تخفيف الوزر ، والتمست منها عقد مؤتمر فى لنـدن وتعللت فى دعوتها إلى الاشتراك معها فى الأمر بفـراغ الخزينة المصرية لـكثرة النفقات والنقص فى الإيراد فلا يمكن بقانون التصفية الذى وضع باتفاق من الدول العظام إلا أنها شرطت على الدول أن تـكون المداولة فى المؤتمر منحصرة فى المسائل المـالية ولا يجوز لهم أن يتعدوها إلى ذكر شىء آخر فى الأحوال المصرية الحاضرة أو المـاضية ، أما الدول فقد قبلت الدخول فى المؤتمر على شرط مبهم وهو أن نوابهم يبحثون فيما يبحث فيـه المؤتمر إلا دولة ألمـانيا فإنها لم تجب إلى الآن جواباً رسمياً ويغلب على الظن فى الدوائر السياسية إنها تتبع فى جوابها دولة فرنسا واتفقت على ذلك أغلب الجرائد الألمـانية وزادت دولة فرنسا فى جوابها إن طبيعة المسائل التى يجرى فيها البحث ربمـا لا تقف بالباحثين عند حد النظر فى المـالية ، بل تنجر بهم إلى ذكر كثير من المشاكل المصرية الحاضرة .

أما هذا فلم يكن خافياً على انجلترا فإن النظر فى المـالية مع الاضطراب الواقع فى الديار المصرية وتزعزع أركان السلم فيها لا تخلو نتيجته من أحد أمرين : إما تقدير الإيراد والمصرف بمبالغ محددة وتخصيص شىء معين من الإيراد لوفاء فائدة الدين مع تخفيض الفائدة مثلا ثم يوضع قانون تمضى عليه الدول كما فعل قانون التصفية

---

(١) قزلت بمعنى ساوت كما يمشى الأعرج ... أى تدهورت سياستها ...

وهذا ممـا لا يتصوره العقل فإن عساكر الحلول الانجليزية لم تزل فى أرض مصر ومصاريفها على الخزينة المصرية ولم يعلم أجل إقامتها ولا مبلغ عددها والفتن قائمة فى الجهات السودانية والحكومة المصرية مكلفة بتوقيفها عند حد لا يخل براحة البـلاد ولهـذا العمل مصاريف ونفقات لا يمكن تحديدها ولا تقديرها ، فـكيف يمـكن للوصول إلى تعيين النفقات وإحصائها على وجه منضبط والاضطراب الداخلى والاختلال المتفشى فى الإدارات ودوائر الحكومة العليا والدنيا الذى حدث بتخلل الانجليز فيها وقف حركة الأعمال النافعة من زراعة وتجارة وصناعة فـكيف يمكن ضبط الإيراد على نمط يعرف ويؤلف فلم يكن غرض انجلترا من الدعوة إلى المؤتمر أن يصل إلى مثل هذه الغاية التى لا أهمية لهـا مع بعدها .

* * *

الأمر الثانى أن ينساق البحث فى المسائل المالية والنظر فى الإيراد والمصرف إلى ما يلزم لاستقرار الراحة فى مصر من العساكر وتطلبه من النفقات وما يستدعيه إطفاء فتنة السودان وما تحتاج إليه المحاكم الجديدة وغير ذلك مما تعرضه انجلترا وتبين للدول أن مالية مصر ليس فى طاقتها أن تفى بجميع هذه النفقات الواسعة ولو كلفت بأداء بعضها فضلا عن كلها لحق الضرر بأرباب الديون فأحسن وسـيلة للتخفيف عن المالية المصرية مع حفظ الحقوق لأربابها أن تـكون الديون المصرية تحت ضمانة انجلترا وهى تؤدى فوائدها فى أزمانها . تطلب من الدول بعد هذا أن تفوض إليها التصرف فى الأقطار المصرية ، وتأخذ التبعة على نفسها فى بذل الأموال وقتل الأرواح وهذا الذى يمكن أن تفعله انجترا بعد عجزها وربما مست حقوق الدولة العثمانيـة فى مطالبها هذه إلا أن التلغرافات نقلت إلينا مايتحدث به فى الدوائر السياسية بالاستانة وهو أن الدولة العثمانية ستشترط لقبول انتظامها فى المؤتمر شروطاً صعبة يعز على انجلترا قبولها لينـكشف الستار عن مقاصدها فى مصر ، ومن جمـلة تلك الشروط أن تستبدل العساكر الانجليزية المحتلة فى مصر بعساكر عثمانية لأن نفقات الجيوش العثمانية أقل من نفقات الجيوش الإنجليزيه وهذا هو ما يؤمل فى الدولة العثمانية فى هذه الأوقات وأنها فرصة لو فاتت فقل أن يأتى مثلها وللدولة العثمانية بسلطتها على قلوب

المسلمين شرقاً وغرباً قوة ترتعد منها فرائص الانجليز فأمل أوليائها اليوم أن تستعمل تلك القوة الفائقة وتجعل لها أثراً فى استرداد حقوقها ، وعندنا أن رجال الدولة العثمانية لا يغفلون عن هذا . أما الحكومة الفرنسية فقد عقدت عزيمتها على مطالبة انجلترا بإعادة نفوذ الفرنسيين فى مصر كما كان قبل المراقبة والجرائد الفرنسية على اتفاق فى تبيين خلل السياسة الانجليزية وبيان سوء مقاصد الانجليز والالحاح على حكومتهم ألا تعترف بأدنى امتياز بسبب ما فعلته فى واقعة التل الكبير وهذا ما ترتجف منه الجرائد الانجليزية عموماً وتخشى عاقبته ونظنها أسوأ عاقبة عليهم .

هذا ما يتعلق بورطتهم الجديدة التى يظنون فيها خلاصهم وبقى عليهم مالا نظن ولا يظنون لهم منه نجاة . دخل الثائرون مدينة بربر كما أنبأت به أواخر الأخبار ولعبت عواصف الفتنة بأطراف مصر العليا وأكدت أخبار البرقيات أنها لم تقف عند حدها ، بل حركت السواكن فى مصر السفلى ووراء ذلك من الويل ما وراءه فأين الخلاص لدولة انجلترا . نعم لمعت بارقة حق فى عقول بعض ذوى الرأى من رجالها فطلبوا أن تكون العساكر التى تبعث إلى مصر مؤلفة من عثمانية وانجليزية وهو نوع تقرب لما قلناه مراراً من أن هذه الفتن لايدفع غائلتها إلا المسلمون ولكن عليهم أن يخلصوا آراءهم من الشائبة الانجليزية وإلا فلا نجاح ، والله يفعل مايشاء .

* * *

العروة الوثقى توزع مجانا !!!

تأتى فى فصولها على أهم ماله أثر فى أحوال الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً فلا تلام إذا أطنبت فى مسألة شرقية عامة ولا إذا أغفلت ذكر بعض أخبار من أمريكا وجابونيا .

نبهنا فى أول عدد صدر منها على أن القائم بها رجال من أهل الغيرة فى الشرق هموا بأعمال تفيد أوطانهم وملتهم مع رعاية جانب العدل والسير على وفق الحكمة ، ومن ظن أن توزيعها مجاناً يقتضى أن تكون منسوبة لدولة من الدول أو شخص من ذوى المطامع فى إمارة أو ملك فإنما نشأ ظنه هذا من اليأس المستحكم فى نفسه والقنوط من نهوض همم بعض المسلمين بعمل صغير كهذا ، ولا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون .

هذه جريدة لا سعة فيها للتنابذ والتقاذف ، ولا يذكر فيها اسم شخص أو لقبه إلا إذا كان له قول أو عمل يفيد البحث فيه فائدة عامة .

رياض باشا والسياسة الإنجليزية

نقل إلينا وذكرت الجرائد خبر مجلس انعقد فى سراى توفيق باشا بالقاهرة حضره وزراء الحكومة المصرية ودعى إليه شريف باشا ورياض وسلطان باشا وعمر باشا ولطفى باشا وخيرى باشا وثابت باشا . وأغلب الجرائد الفرنسية المهمة اتبعت رواية الخبر بالثناء على رياض باشا وأتت من وصفه على أفضل ما يوصف به رجل فى أمته . ومما ذكرت من صفاته أنه أقوم أمير فى الديار المصرية وأشدهم حرصاً على الاستقامة وأنه أبصر أهل بلاده بعواقب الحوادث التى ألمت بمصر وما تؤول إليه . وكان يرى من بداية تلك الحوادث أن سيكون مصيرها إلى ما لا خير فيه للبلاد وسكتت تلك الجرائد عما يتعلق ببقية أعضاء المجلس وأننا نذكر الخبر أولا ثم نعقبه بما تدعو خدمة الحق لذكره .

بعد انعقاد المجلس قام نوبار باشا وافتتح الكلام بخطاب وجهه إلى الحاضرين فقال : ماذا ترون من التدبير إذا فرضنا أن مدينة خرطوم وبربر ودنقلا دخلت فى حوزة محمد أحمد وأشياعه ، وأى طريقة يمكن الأخذ بها لحفظ الأمنية وتقرير الراحة فى مصر العليا (الصعيد) فأعجب الحاضرون بالسؤال وظهرت على وجوههم علائم الاستغراب لمفاجأته لهم بما لم يكونوا يتوقعونه ثم أجابوه بصوت واحد أن لاسبيل إلى تأمين البلاد من خطر الفتنة إلاباستعمال القوة ، فقال نوبار باشا إنا نروم منكم التصريح بنوع القوة التى يجب استخدامها (أى قوة انجليزية أو مصرية) فأجابه رياض باشا أن تعيين القوة من خصائصكم وليس من شأننا أن نتكلم فيه : فأبدع فى الجواب بعض الحاضرين (لا نعرفه وربما يكون من محبى أوطانهم) وأحسن فى التشبيه حيث قال الذى نعرفه أن العجة لا تكون بدون بيض (العجة طعام يصنع

من البيض مع بعض النبات يعرف إسمه عند المصريين وأغلب العرب ، فمادة هذا الطعام إنما هى البيض) فأراد العضو المحترم أنه لو أريد استخدام قوة فلا بد أن يكون جوهرها عساكر انجليزية ولا بأس بإضافة بعض من الجنود المصرية لتكون ترساً يدفع به فى وجوه المحاربين وتنصب إليه قوتهم فإن حصل العجز ودعت الضرورة للفرار أمكن للجيوش الإنجليزية أن تعود سالمة أو إذا أضيف مصريين فلا بد أن يكونوا حمالين وخدماً أو حرساً وحفظة لمن يكون معهم من ساداتهم (هذا ما أراد جناب العضو من تشبيهه البليغ) بعد هذا قال رياض باشا أنكم تسألوننا تعيين القوة ولكنى أسألكم ما هى القوة الموجودة عندكم وبأى حق يؤدى لكم ٤٨ ألف جنيه فى كل شهر ، أأنتم حكومة أم لا . أما شريف باشا فقال أنه بذل جهده مدة طويلة فى أرضاء الحكومة الانجليزية بأن ترسل جيشاً انجليزياً إلى السودان (وهذا مما يقضى بالعجب) ولكنه علم أن نوبار باشا أراد أن ينهى المسألة بإخلاء الأقطار السودانية فقال نوبار باشا أن المباحثة خرجت عن موضوعها وتحولت عن وجهها ولكنى أذكر الأعضاء المجتمعين بأنهم ماطلبوا إلا لإبداء آرائهم فيما يجب العمل به ، فأجابه رياض باشا أن لكم مجلس شورى فكان أحق أن تذاكروه وأنا للآن لا نعرف سبباً لاستدعائنا مع وجود ذلك المجلس ، فحاول نوبار باشا دفع ذلك بقوله أن مجلس الشورى ليس من خصائصه النظر فى مثل هذه المسائل . فقال رياض باشا أنه لا يرجى إصلاح ما دام العمل جارياً على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظاماً وأنه لا ثقة له بأصل من أصول ذلك النظام وليس فى الإمكان إجراء ولا واحد منها وأن الأغلاط التى كانت منشأ للضعف والاختلال لم يرتكبها إلا دولة الإنجليز وإن ما نراه من الفوضوية وارتكاب المنكرات وكثرة التعدى والسرقات لم تكن له علة إلا السياسة الإنجليزية ، فعلى انجلترا أن تعالج هذا الداء وليس ذلك علينا ولقد قلت هذا مراراً وبلغته للورد دوفرين وشريف باشا وكنت أود أن أرى اللورد دوفرين مرة أخرى لأذكره بما جرى من الحديث بيننا وأعرض عليه مصره المنتظمة ، إلا أن شريف باشا أتى بما لم يكن

يرجى منه حيث دافع عن نظام دوفرين بقوله أن الإصلاح يحصل تدريجياً ، كأنه يريد بما يقول أن ما حوته شريعة اللورد دوفرين يصلح أن يكون شريعة يعود من العمل بها على أهالى القطر المصرى شىء من الفائدة وما كنا نظن أن مثل شريف باشا يرى مثل هذا الرأى بعد وصول الأمر إلى ما وصل إليه . بعد هذا قال رياض باشا إنى لا أفهم لفظ بروتكتورا(١) (حماية) ولا أعلم ماذا يراد منه ولكنى لا أرى وسطاً بين أمرين أما ضم البلاد إلى الحكومة الإنجليزية فتستلم انجلترا إدارة أمورها وتتولى شئونها كلية كانت أو جزئية ، وهذا هو الذى أفهمه من تلك العبارات ، وأما ترك البلاد لأهلها فيأخذ بزمام السلطة فيها رجال من أهاليها وإليهم الحل والعقد فى إدارتها فانتحلوا مذهباً من المذهبين فإن القول بحل وسط بينهما ضرب من الجنون اهـ .

وليس بعجيب أن يصدر مثل هذا الكلام من رياض باشا فمهدنا به رجل ذو حياة وطنية وإحساس بما يلزم لحفظ حياته هذه ، وهى أشرف أنواع الحياة ، فإن تكلم فإنما ينثر الكلام منه إرادة ناشئة عن فكر تثيره قوة حيوية وكان أملنا أن يوجد من طرازه كثير فى الأقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خصوصاً بعد ما نزلتهم هذه الحوادث المريعة ومثلت لهم مستقبل بلادهم فى حاضرها ولقد أدى الرجل حقاً واجباً عليه والقائم باداء الفريضة قد يشكر إذا أهملها المكلفون بها حتى صارت عندهم من نوافل الأعمال أو فى منابذ المكاره ، ولكن يأخذنا العجب من بقية أعضاء هذا المجلس الموقر كيف مجمجوا أو تلكأوا أو سكنوا وكيف وسعتهم القدرة على إمساك ألسنتهم عن التعبير عما فى ضمائرهم . إنا لا نعلم أحداً منهم تجنس بالجنسية الإنجليزية وحاشا جميعهم من ذلك ، ولا يختلج فى صدورنا أن مصرياً أو تركياً أو شرقياً أياً كان يميل ميلا صادقاً إلى تسلط الأمم الأجنبية على بلاده أو يخلص فى خدمة الإنجليز ومجاراة رغائبهم إخلاصاً صحيحاً خصوصاً أولئك الأمراء المصرح بأسمائهم ، بل لو كشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذائباً من الأسف فى ماحل ببلاده

....

(١) PROTECTORAT

وفانياً من الحزن على ما نزل بوطنه من تردد جيوش الأجانب بين أطرافه ومضمحلا من الكدر على ما عقبه حلول القوة الأجنبيـة من انقباض الأنفس وانقطاع الآمال وعموم الاختلال وشمول الفقر والفاقة وبطلان حركة الأعمال ، بل لو شاء القلم أن يعبر عن حالة الأمير منهم عندما يطرق أذانه أخبار التصرف الإنجليزى في إدارات حكومته وكف أيدى الوظفين من أبناء ملته من أداء ما يجب عليهم لبلادهم وبسطة أيدى أولئك الأجانب فى الإنفاق من ماله ومال عياله وأقاربه وأحبائه وجميع مواطنيه بدون حق شرعى ولا مصلحة وطنية أو عندما يرى غنياً أعدم وعزيزاً ذل وكاسياً عرى وحباً أشرف على الهلاك من ضغط الظالم ، ولو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من ألوان الكمودة وفى أعضائه من أنواع الرعدة وما ينبض به قلبه وما يحدثه فكره من هواجس الهموم وخواطر الغموم لما استطاع القلم تعبيراً ولوقفت قوة البيان دون الإتيان على قليل من كثير . هذا هو الذى لا يبرأ منه أحد منهم ولو أقام على البراءة ألف برهان . كيف لا وهم يعلمون أن عزتهم وسيادتهم وما بلغوا من مراتب الشرف والرفعة إنما كان بوصف قيامهم على أعمال البلاد وأهليتهم لاستلام مهامها واستعدادهم لإدارة شؤون الرعية وهم على يقين بأنه لوساد فى ديارهم أجنبى فلا داعى يبعثه إلى حفظ ما لهم من الشرف والسيادة ، بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم وإهباطهم إلى أحط المنـازل ليخلفهم على مثل ما كانوا عليه . فما الذى أمسك بألسنتهم عن الكلام !! هل الخوف ، فمن أى شىء يخافون وما الذى يخشونه على أرواحهم أو على بلادهم إذا قالوا حقاً وثبتوا عليه ؟ ماذا يصنع بهم الإنجليز إذا علموا صدقهم فى محبة أوطانهم واتفاق كلمتهم على الرغبة فى إنقاذها ، هل علموا من عدل الإنجليز أنهم يؤاخذون الناس على إبداء آرائهم إذا دعوا إلى المشـورة . إن كان هذا فما يبتغون من الحياة . هل ظنوا أن الإنجليز إذا أحسوا باتفاق فى الآراء على مصلحة من مصالح البلاد وإن كانت فى خروجهم من مصر يستطيعون تحت أعين أوروبا أن يوصـلوا ضرراً إلى المتفقين وهم أمراء البلاد وأعيانها . إن رياض باشا وحده لم يخش من إظهار

فكره ، فماذا كان يضر الأمراء الوطنيين لو عززوه أو كاتفوه على مثل رأيه . قد علم العقلاء من كل أمة أن أشباه هذه الحوادث تكون سبباً فى اجتماع الكلمة واتحاد الرأى على مصادمتها وما نراه اليوم من سعادة الأمم العظيمة إنما كان منشؤه ملمات الشقاء التى أنستهم الضغائن والأحقاد وحملتهم على ترك المنافرات الخصوصية وأخذ كل بيد أخيه لدفع ما يخشى منه على بناء الأمة أن ينصدع وأساس الملة أن ينقلع وماسمعنا من أمة اتفقت فخابت ولا ملة افترقت فنجحت .

ألا يعلم أمراؤنا أن أوروبا واقفة بالمرصاد لإنجلترا تترقب لها الزلل وتتمنى لها الغلط وأن جميع الأسماع فى الممالك الأوروبية مصغية لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين وهى أنا قادرون على إصلاح شئوننا ولا نريد قوة أجنبية تحل فى ديارنا .

امتدت أعناق السياسيين فى أوروبا وانحنت إلى المصريين ليسمعوا منهم كلمة حتى كلت رقابهم والتوت أعصابهم والمصريون يشحون بها عليهم . ماذا ينتظر الأمراء المصريين فى قول الحق أن الأمم لا تطلب منهم إشهار السلاح ولا بذل الأرواح ولكن تطلب منهم قولا صريحاً لا يجلب إليهم ضرراً ولا يقرب منهم خطراً لا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

السودان

قدمنا فى العدد الماضى أن مدينة بربر فى حالة يخشى عليها من السقوط فى أيدى الثائرين وجاءت أخبار هذا الأسبوع أن حاكم المدينة ، بعد إلحاح طويل على الحكومة المصرية فى إرسال نجدة عسكرية إليه ، لم يحز طلبه قبولا فإن الوزارة الإنجليزية لم تر ذلك صواباً وبناء على ما رأته الحكومة الإنجليزية صدرت الأوامر إلى الحاكم (حسن باشا خليفة) أن يخلى المدينة بما يمكنه من السرعة ، فشرع فى إخلائها متقهقراً بالحامية جهة الشمال إلى كوروسكو وبعث بفرقة من عساكره عددها مائة وخمسون جندياً لتسبقه إلى حيث ينتهى فى رجعته وبعد أيام يرسل ما بقى منها طبق الأوامر التى وردت إليه وفى الظن أن إخلاء المدينة لا يتم بدون كفاح وقتال وسفك دماء ومع هذا كله فمن أمل الحاكم أن يتم له إنقاذ الحامية جميعها وإرسالها إلى كوروسكو قبل وصول رسل محمد أحمد تحقق أن أربع فرق من العساكر الإحتياطية (باشبزوق) مع خمسمائة عسكرى مصرى (كلهم من حامية بربر) إنحازوا إلى أشياع محمد أحمد ويخشى أن الثائرين بعد استيلائهم على بربر يحاصرون جملة مدن فى وقت قريب .

قالت جريدة التايمس الإنجليزية : ثارت جميع القبائل وأهالى البلاد فيما وراء بربر ولا يمكن أن يوجد رسل يجرأون على السير إلى خرطوم لتوصيل المراسلات وإن عرض عليهم من النقود أعلى ما يمكن من المبالغ ، وقالت تلك الجريدة أن الأخبار الأخيرة الواردة من مصر تؤكد لنا أن قلوب الأهالى (المصريين) طافحة من الغيظ

والحنق على الإنجليز وأنه لا يوجد فى مصر من يحب أن يرى إنجليزياً يخطر فى بلاده (هذا الذى قلنــاه مراراً فالحمد لله أقره الخصم وارتفع النزاع) ثم اتبعت كلامها هذا بأنه لا يوجد فى مصر الآن شيء يصح أن يخبر عنه سوى (اختلال واضطراب) فما عليه مصر اليوم يمكن أن يعبر عنه بهاتين اللفظتين وأن المخابرات مع خرطوم أصبحت من قبيل المستحيلات ، ثم قالت نعم إن الحكومة الانجليزية صرحت بأنه لا يمكنها إرسال عسا كر إلى الســـودان قبل مضى أربعة أشهر ، ولكن عليها أن تنظر فى واسطة أخرى لازالة ما جلبته على مصر من الفوضى .

أنجح الوسائط ترك البلاد لأهلها وتفويض الأمر فيها لصاحب الحق القانونى على تلك البلاد ومن له المنزلة العليا فى قلوب جميع الأهالى ، فتسكن له القلوب وتخمد نيران الفتن ، ولعل التايمس بعد أيام قلائل ترجع إلى موافقتنا على تأكيد بغض المصريين للانجليز وقد تنكره علينا من خمســة وعشرين يوماً وتبالغ في ميل الأهالي لسيادة انجلترا عليهم .

* ذكرت الجرائد أن جاسوساً وقف على عزيمة عثمان دجمة فى جهة ســوا كن فجاء وأخبر بأنه مستعد أن يزحف بألفى مقاتل إلى هندوب لقطع الطريق وأنه بعد ذلك لا يقف دون الهجوم على حدود سوا كن بشدة عنيفة .

* جاء فى جريدة التان أن دخول الثائرين فى مدينة بربر وإن لم يتحقق الآن بطريقة رسمية إلا أن ما أخبر به وكيل انجلترا السياسى فى تلك المدينة يقطع كل ريب ويزيل كل شك فى أن الخطر نازل بها لا محالة فإن قسماً من حاميتها فر لطلب النجــاة والباقى انضموا إلى صفوف الثائرين جهرة وأنا نرى حــلول أشياع محمد أحمد بمدينة بربر يهيىء لهم أن يطئوا قلب مصر العليا وليتهم يكتفون بهذا ولــكن ستطمح أنظارهم إلى مصر السفلى . وأن ضباط الحامية المصرية فى أسوان وردت إليهم مكاتيب من أحد زعماء الثورة بناء على أمر محمد أحمد ينذرهم فيها بسوء العاقبة ويتوعدهم بالقتل والذبح

إن لم يتركوا المدينة قبل عشرة أيام ، ثم قالت تلك الجريدة إذا اجتمعت قوة محمد أحمد عند الشلال الأول فلا بد حينئذ أن ينظر فى كيفية الدفاع عن القاهرة !!!

هذا الذى كنا نتوقعه ونخشاه من قبل وأشرنا إليه مراراً ، جلته الحوادث ونطقت به الجرائد الفرنسية والانجليزية ولم يبق إلا إلتفات تلك الجرائد إلى دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذى كاد يكون عضالا وتنبه حكوماتها للنظر فى ذلك بعين الدقة والتبصر وترشدها إلى أن العلاج الذى ليس وراءه علاج إنما هو تسليم الأمر لذوى الحق فيه والعارفين بطرق تصريفه من المسلمين ، وستراها بعد أيام تتبع هذا السبيل المستقيم .



فرصة سانحة

دخل الإنجليز مصر فزعموا أن ما كان موجوداً من الجند الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالى جنداً جديداً فى عدد قليل واستلم الرئاسة عليه ضباطهم البارعون وبعد أشهر أثنوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطنطنت بالإطراء عليه جرائدهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجند الجديد ، فهموا بذلك مراراً مع العزم على عدم استبداله بآخر من أبناء الوطن وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن هممهم ، كتموا أمرهم زمناً ثم عادوا للاشارة إليه تعللا بما ينسبونه إلى بعض العساكر وهو من دسائسهم وآخر الأمر خفتت أصواتهم وأحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لابد فيه من مشورة الدول .

فى هذه الأيام رغبوا إلى الدول فى عقد مؤتمر للنظر فى قانون التصفية وتحويره ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها فصرحوا فى لائحتهم المرسلة إلى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطنى رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية .

إن الإنجليز من ست سنوات جعلوا بعض الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذى حصل فى مصر وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذاك الانقلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا من المحال تنقيص شىء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق

الدائنين واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) وبسطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية . أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التى لا يأمن طروقها حكومة من الحكومات . إن فى تلك القسوة الأولى والمرحمة الثانية لسراً عظيما .

للانجليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم فى الهند وفى خلدهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يمانعونهم فيما يريدون ببلادهم ، فضيقوا على المالية فى تلك الأوقات وألجأوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف فى القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا إليه وكان هذا التدبير سبباً فى الإنقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جبلوا عليه من الهوينا فى المضى إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم ومأموريهم فى تلك البلاد زمناً طويلا ، ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصاً من الوعد الذى وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة فى أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية .

ولما كان من المحتوم فى آرائهم بقاء عساكرهم فى الديار المصرية فلا بد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة ، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوروبيين إلا أنها من الطرق المتعارفه عند الإنجليز وهى التى سلكوها فى البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة . دمر الإنجليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين فى أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا

من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطنة التيمورية فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة ثم أغروا كل أمير بآخـر يطلب قهره والتغلب على ملكه فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أوراجا إلى المال والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه ، فعند ذلك تقدم الإنجليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب . بدأوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا فى تعظيم شأن جيوشهم الإنجليزية وقوادها وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الانجليزية فأقبل الإنجليز على أولئك السذج يضمنون لكل ، صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانجليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين وماعلى الحاكم إلا أن يؤدى نفقتها ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض وصار الانجليز بذلك أولياء المتباغضين وسموا كل فرقة من تلك الجنود بإسم يلائم مشرب الحكومة التى أعدوها للحماية عنها ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) إرضاء لأهل السنة والشيعة والوثنيين .

ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانجليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام فى القرض وأظهروا غاية السماحة ، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء وبعد مضى زمان كانوا يومئون إلى طلب ديونهم

بغاية الرفق ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم ونحن ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل فى قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفى منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التى أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء وإنما نحن خادمون لكم . فيضعون أيديهم على غضروات(١) الأراضى وفيحائها وفى أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة وحصوناً منيعة كما يفعلون ذلك فى ثكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية ، وفى خلال هذا يفتحون للأمراء أبواباً من الإسراف والتبذير ويقرضونهم . ويقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتداخلون فى أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثانى عن قطعة من أراضيه وهم فى جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين .

وبعد هذا فلهم شئون لا يهملونها فى إيقاع الشقاق بين سائر الأهالى لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلبت الأيدى فلا يستطيع أحداً حراكاً . ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التى كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً فيحولون الملك من الأب للابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه وفى الكل هم الرابحون . هذا سيرهم فى الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا . ما فاجأوا أحداً بحرب وما اختطفوا ملكاً بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعدما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهلها ولا بما تطرف به أجفانهم .

(١) معناها أخصب الأراضى .

أولئك الإنجليز باقعة(١) العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة فى مصر أن يطلب منهم جنداً انجليزياً يكون خادماً له وحافظاً لملكه فإن لم يقبل داروا بحلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق فى الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولا عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكما خلفاً لمن لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوروبا . هذا سر انقلاب الإنجليز على الجند الوطنى وقدحهم فى سيرته بعد الثناء على حسن استعداده وسعيهم إلى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة

أما المؤتمر فالداعى إليه أن العدوان فى هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان فى الأحقاب الخالية مشوه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكى والغبى بل من أراد عدواناً فلابد أن يحفه بمواكب من الأدلة وحفال (جمع) من البراهين وهو مايعبرون عنه بالحقوق والمصالح وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو فى هذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة .

يريد الإنجليز عقد المؤتمر ويرغبون قصر المداولة فيه علي المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصرى ويكفلوا للدائنين أداء حقوقهم ويأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان لترخص لهم الدول الإقامة فى وادى النيل إلى أمد ، فيكون تفويض الدول حجة لهم فى التصرف وإدارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مظلا بلاد أوروبا فإذا حدث حادث حرب فى الدول الأوروبية وما هو ببعيد الوقوع تربعوا فى تلك البلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم . هذا سر شفقة الانجليز على المصريين وهو سر رغبتهم فى وقوف المؤتمر عند شئون المالية .

هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التى تتحفز لتنقض على المصريين ، هل تمس

(١) باقعة بمعنى داهية من الدواهى .

بخفيفها جانب ألمانيا ، كلا . فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهى فى الشغل بما هو أهم منها وليست دولة أستراليا بأقرب المصائب المصرية من ألمـانيـا على أن كلا من الدولتين ليس فى استطاعتها تأييد فكرها بالعمل ، لو مست الحوادث المصرية شيئاً من مصالحها فإن مواقع الدولتين لا تساعدهما على الأضرار بدولة الانجليز أما إيطاليا فهى ساكنة الجأش بما تؤمل نواله فى أفريقيا بمساعدة انجلترا ، نعم لهذا السيل الجارف تدفق على بيت محمد على باشـــا فيخشى على أركان ذلك البيت لو لم يتدارك أمره !!!

أما الدولة العثمانية فلو حولنا النظر عن حقوقها الثابتة فى الأراضى المصرية من وجوه كثيرة فليس يخفى علينا أن الولاية على تلك الأراضى هى الركن الأعظم للسلطة العثمانية فى سوريا وقسم عظيم مما يتصل بها من آسيا الصغرى وفى الحجاز واليمن. فمن الفروض على العثمانيين أن يبذلوا وسعهم لصيـانة مصر دفاعاً عن حقوقهم المقررة وحفظاً لشوكتهم فى معظم ممالكهم ولا يسوغ لهم شرائع الملك أن يفرطوا فى المسألة المصرية لا فى جزئى منها ولا كلى فإن مصر عقدة تتصل بها أطراف السلطنة العثمانية ، فإذا انحلت ، فقد انحلت « والعياذ بالله » سائر العقد .

ليس لعثمانى أن يتوسد وسـادة السيادة البسماركية الناعمة فإن الحاجات الطبيعية والدواعى الجوهرية هى الحاكمة على الأمم ولا اعتبار فى السياسة بالأطوار العارضة ربما يهم بسمارك أن يشترى بمصلحة العثمانيين وداد الانجليز لتأييد سياسته وترك فرنسا منفردة بلا حليف وله أن يلقى بمصـلحة العثمانيين فى أيدى الروس إذا مست الحاجة ليدفع عن نفسه شراً يتوقعه ، وليس لبسمارك أدنى غاية فى الاتصـال بالعثمانيين إلا بهذا المقدار يفـدى بهم منفعة من منافعه ومن نظر إلى أحوال الأمم بما تقتضيه طبائعها ، حكم بذلك حكماً قاطعاً .

نعم من الدول دولة فرنســا كانت لها مزايا فى أرض مصر أشرفت على

الزوال وليس بالسهل علينا ضياعها ولها أملاك واسعة فيما وراء البحر الأحمر ولاتصان سلطتها على تلك الأملاك إذا نشبت أظافر الإنجليز فى أحشاء مصر بأى اسم كان وتحت أى عنوان ، فأصول السياسة الفرنسية لا تسمح للفرنسيين بالتساهل فى المسائل المصرية . ودولة الروس تسابق دولة انجلترا فى النصر والغيب بشرق آسيا وتنافس الألمان فى القوة بأوروبا ولها مع ألمانيا مزاحمات خفية ثابتة فى عناصر الأمتين لا يزيلها هذا التآلف الظاهرى ، فقد يكون من أحكام سياستها الانضمام إلى دولة فرنسا لمضايقة انجلترا فى البـــلاد المصرية ، بل النظر فى طبيعة حال الأمتين يقضى بلزوم اتحادهما فى المشاكل الأوروبية أيضاً وربما تكون هذه المســألة بداية الإرتباط بين هاتين الدولتين .

ولعل هذه الفرصة لاتفوت العثمانيين ولا تحجبهم الحوادث الماضية عن إدراك هاته النكتة وهى أن الروسيين هم أشد الناس حاجة إلى الاتحاد مع الدولة العثمانية فى هذه الأوقات لما فتح لهم من أبواب للغنم فى آسيا ويرون الألفة مع العثمانيين أعظم عضـد لهم فى نيل مطامحهم بتلك الأقطار ، بما للسلطان من المنزلة العليا فى قلوب مسـلميها ولاتأخذ العثمانيين رجفـة من أرعاد الإنجليز وأبراقهم فليس لهم سلاح يشهرونه على الدولة العثمانية سوى الترهيب . ومن المحال أن يفاتحوها بحرب وإلا تقلصت سلطتهم عن البلاد الشرقية بأسرها فإذا ثبتت الدولة فى مطالبها واشتدت فى إرجاع حقوقها لجأ الإنجليز للخضوع والاستكانة إليها وهذا من البديهيات الجلية عند كل من وقف على أحوال الإنجليز فى الهند وعلى مكانة السلطان العثمانى فى قلوب الهندبين عموماً والحكم لله يفعل ما يشاء .

(العروة الوثقي)

لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى النافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والإفساد فى بلادهم وقد نخص المسلمين بالذات لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجانب وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها وسنكتب مقالة مفردة فى هذا الباب إن شاء الله .

اسماعيل باشا

لهج كثير من الجرائد الأوروبية فى هذه الأيام بذكر اسماعيل باشا خديوى مصر السابق ومنها جريدة (البال مال جازيت) قالت : إما أن تستولى انجلترا على مصر أو تسلم الإدارة فيها لاسماعيل باشا ، ونقل أحـــد محررى هذه الجريدة عن مدام توفيكوف وهى صديقة شهيرة لمستر جلادستون أنها قالت له أن أحسن وسيلة لتقرير الراحة فى مصر وجعل مصر للمصريين هو إعادة اسماعيل باشا إليها وذكرت إحدى جرائد ألمـانيا أن كلامها يكاد يكون رسمياً .

أما نحن فسنبين رأينا فى هذه المسألة ونبدى فكرنا فيما يتعلق منها بالسلطان العثمانى والطريقة التى ينبغى أن يسلك فيهـا وما يرتبط منها بمصـلحة المصريين وما يجب على انجلترا أن تأخذ به لو كانت كما تزعم تريد التخلص من ورطة المسألة المصرية ولا نظنها صادقة .

نجـــد

كتب إلينا أحد أهالى نجد رسالة طويلة يحكى بها ما فعله قنصل الانجليز مستر (كورنل بيلى) الذى كان قنصلا لدولته فى خليج فارس ومقره ببندرابو شهر وما توسل به للمداخلة فى بلاد نجد فى سنة ١٢٨٠ أيام كان أمير نجد الأمير فيصل ، وقصد برواية هذه الحادثة تنبيه إخوانه المصريين لشدة المشابهة بين تلك الوسائل التى تشبث بهـا القنصل للتداخل فى سواحل البلاد النجدية وبين ما اتخذه الانجليز وسيلة للهجوم على أرض مصر ، إلا أننا لا نذكرها الآن لقدم عهدها وسنفرد لهـا ولأمثالها كتاباً مخصوصاً نفصل فيه ما فعل الانجليز فى البلاد التى حاولوا الاستيلاء عليها ولم يستطيعوا مع استمرارهم فى طلب ما يمكنهم من مقاصدهم ونطبع هـذا الكتاب ونوزعه مجاناً !!

الصحف الهندية

جاءت إلينا الجرائد الهندية فسرنا اعتدال سيرها فى خدمة أوطانها وزادنا سروراً عنايتها بترجمة مقالاتنا المتعلقة بأحوال الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ونقلها من اللسان العربى إلى اللسان الهندى فلله شكرها على ما صنعت ونخص من بينها جريدة (أخبار دار السلطنة) التى تطبع فى كلكته وجريدة (مشير قيصر) التى تطبع فى لكهنو وهذا كان أملنا فى أرباب تلك الجرائد وليس بغريب على غيرتهم الدينية والوطنية .

هذا ما كان من مسلمى الهند وهم فى قبضة الانجليز من مدة تزيد على قرن وإننا نأسف غاية الأسف مما بلغنا عن بعض المصريين من أنهم يمتنعون عن استلام ما يرسل بأسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفاً ورهبة . مع أنهم أحق الناس بالأقدام على أمور عظام فى هذه الأوقات فإن الآمال فى خلاصهم قوية والوسائل إليه قريبة فكيف يصل ببعضهم الخوف إلى الامتناع عن استلام جريدة هم أولى بها من غيرهم إذ أهم ما فيها الدفاع عنهم .

صفقة خاسرة

كتب إلينا صديق فاضل من أخلص المؤمنين بالقطر المصرى قال :

إن مأمورى الانجليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون فى تغرير الأهالى والتحيل عليهم ودس الدسائس بينهم بطـــرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الانجليزية إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون فى سعيهم إلا خيبة لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغايات الانجليز ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر خصوصاً وأن روح الحمية والغيرة الدينية والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصرى فاشتدت أنفتهم من تسلط الانجليز فى ديارهم وقاوموا مطالبهم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة وهذا هو ظننا بل يقيننا فى أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الانجليز رغبتهم وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم، بل ببقاء شخص منهم فى بلاده وعلى مرمى نظره فإن وجد بينهم شخص يتخـذ إلهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته فى إفنـاء ليـــله وأطراف نهاره فلا يثقون به ، ومما أخبر به الصادق أن كليفورد لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة وسخافة الرأى ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده ، لـكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح فى تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقى ممن يسلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم ، فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبى ، فـكيف لو كان الأجنبى لا يقاس بظلمه

ظلم ، ثم قال صديقنا الفاضل زاد الويل أضعافاً على الأهالى بالمجالس المحلية فإن الانجليز لم يراعوا فى تشكيلها مصلحة الرعية وإنما وضعوا فى جوهرها ما يضيق عليها سبل المعاملة إخماداً لنفوسها لينالوا حظهم من الزيادة عليها ولم يعلموا أن بخس الحقوق من أشد موجبات العقوق وفى الأمثال العربية (زر كلبك للطاق يأكلك) أى ضيق عليه . أما الفلاحون فأحوالهم سيئة ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد ، الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم ، والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل فى المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلا عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس . ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدلالين فى فناء ديوان الحقانية على خراب بيوت الفلاحين ، هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها ، وهذا ينمق عليه بمبيع بعضها ، والآخر بالحجر على أملاكه والحكومة لا تنى فى طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات ، أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصا من تعديات الأجانب على سكانها ، فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى فيها على الوطنى بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبى فى شىء وإن كان هو المعتدى، وإن سأل الوطنى أين خصمى فيقال له أنه يحاكم فى محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأسا واكتفى فى فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد . هذا بعض آثار العدالة الانجليزية ، وجاء فى خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التى أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الانجليزى فى إدارات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولى الأمر من المصريين . أما الأمن فلم يبق له أثراً وأما النظام فقد انقض بناؤه واقتلع أساسه واختزن الانجليز انقاضه فى خزائن الآثار القديمة فقويت عصابات اللصوص وجاهروا

بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكده روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فإن جميعها يشتكى الملل والسآمة من رواية أخبار السوء كل يوم . إلا أن من غريب الوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية نشرت ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم واحداً وأربعين رجلا ، فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلا على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شيء قدير .

أخبار سياسية

* قبلت الحكومة الفرنسية أن تدخل فى المؤتمر لكن على شرط أن لا تذهب إليه مغلولة اليدين غضيضة الطرفين وأن لا بد قبل ذهابها إليه من مخابرة بينها وبين انجلترا فيما يلزم أن يكون موضوع البحث فى ذلك المؤتمر . وقد أجمع السياسيون فى فرنسا على ضرورة امتداد البحث إلى ما وراء المالية من إدارة البلاد المصرية وإقرار الراحة فيها .

* الجرائد الانجليزية تظهر خوفها من تشديد فرنسا وتستنجد أوربا وترى أن تدخل الدول جميعها فى مصر وإقامة مراقبة دولية لحكومتها لا تمتاز فيها دولة عن دولة خير من مداخلة فرنسا وحدها مع انجلترا وإن عارضت ذلك جريدة التايمس وحدها . وفى بعض الجرائد الروسية أن انجلترا لا يمكنها أن تضع حمايتها على مصر لظهور عجزها عن إدارة البلاد بعد احتلالها سنتين وهى مطلقة التصرف لا مزاحم لها ، وبعد العجز لجأت إلى دول أوربا . أما دولة فرنسا فلا يهمها إعادة المراقبة المشتركة بين الدولتين ولكن يهمها أن لا تختص انجلترا بالامتياز فى مصر .

* ذكرت كثير من الجرائد الألمانية نقلا عن مصدر يوثق به أن الباب العالى لم يقبل الاشتراك فى المؤتمر إلا على شرط أن تكون المداولة فيه غير واقفة عند حد المالية بل من اللازم أن يكون موضوع نظره لائحة جرانفيل المرسلة إلى الدول فى يناير سنة ١٨٨٣ (عندما كان دوفرين فى القاهرة) وعلى هذا فالدولة العثمانية تطلب النظر فى المسألة المصرية بجميع فروعها لاتصال بعض أجزائها ببعض ، وفى جريدة

التان أن الباب العـالى بعد مخابرة الدول والاتفاق معها خصوصاً دولة فرنسا أرسل تلغرافاً إلى موزوروس باشا السفير العثمانى فى لندن بأنه مستعد لقبول المؤتمر على شرط أن يكون بحثه فى الشئون المالية والسياسية والإدارية .

فى جريدة (جازيت ناسيونال) الألمـانية أن سير فرنسا فى المسألة المصرية موافق لسير جميع الدول لا سيما ألمـانيا وقالت أن انجلترا أصبحت منفردة وهـذا مما لا يسر ألمـانيا .

استفيد من خطاب المستر جلادستون فى مجلس البرلمـان أن لنواب الدول عند اجتماعهم أن يبحثوا فيما سوى المسألة الماليـة إن أرادت الدول ذلك وإن كان هذا يناقض ما صرح به جرانفيل فى جلسة أخرى ولمـا سئل جرانفيل عن هذا التناقض أعرض عن الجـواب وقال إن الحـكومة مسـتعدة لإنقاذ جوردون (هذا مما يضحك) .

أخبار السودان تشعر بالشدة فقد أخبر الحاكم فى دنقلا أن رسلا بعثوا إلى إلى الخرطوم فعادوا ولم يتمكنوا من الوصول وقالوا ن الثائرين محدقون بجوردون من جميع الجهات . فى برقية من القاهرة أن الثائرين مجتمعون فى عيون أبى سـعيد على القرب من أسوان وأن زعماء جيش محمد أحمد طلبوا من حامية دنقلا أن تسلم بعد ثلاثة أيام وإلا فتكوا بهم .

جرت مشاجرة بين بعض العساكر الانجليزية وبين العربان النازلين على شواطىء بحيرة مريوط وقتل فيها عدة أشخاص .

الأخبار متواترة بأن عثمان دجنة يحاول الهجوم على سواكن وينازل بعض

القبائل التى لم تذعن لدعوة محمد أحمد على القرب من طمانيب .

* المستر جلادستون وعد بأن يرسل جيشاً إلى السودان لكن لا بد من مراعاة الفصول والأهوية ثم أظهر تجافيه عن حرب السودانيين الذين يدافعون عن حريتهم وبلادهم .

المسألة المصرية دولية

إنا أنذرنا الإنجليز خطراً قريباً على الهند ونبهنا فى أول عدد صـــدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركمان فى مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم ربما يحمل تركمان سرخس على الإقتداء بهم وأشرنا إلى ما يتبع ذلك مما عاقبته نكال على الانجليز، واليوم وقع ما توقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخمت بحدودها حكومة الأفغان وارتعدت فرائص الانجليز وغشيهم الفزع والقلق واعولت جرائدهم نحيباً ورددت نشيجاً وأحست بقرب الأجل ولم يسكن روعهم ما ذكرته جريدة بترسبرج الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم يشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وإنما دخـل فى حوزة الروس أولاهما فإن الانجليز يعلمـــون أن المدينتين متصلتان لا يفصلهما إلا ترعة صغيرة (نهر تجند) عرضها عشرة أذرع بالتقريب، على أن سرخس التى حكم مهندسو حرب الانجليز أنها باب الهند من طرف الشمال وأنه ممر فاتحيه من زمان قديم ومن طريقها طرق الهند اسكندر الاكبر ونادر شاه الإيرانى وأن وصول الروس إليها مما يخرق سياج الهند إنما هى سرخس القديمة . ومما زاد الانجليز فزعاً واضطراباً أن التركمان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعاً واختياراً وبعثوا وفداً منهم لينوب عنهم فى عرض خضوعهم على البرنس دوندكوف حاكم ما وراء بحر الخزر من الولايات الروسية ووصل الوفد إلى عشقا باد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس إليها .

وقع الإنجليز الآن بين شرين عظيمين خطر عاجل وحتف آجل ، أما الثانى فهو أن الروسية إما أن تتحد مع الأفغانيين وتحالفهم علي مطاردة الانجلـــيز وهو الأقرب المتوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الانجليزية

وليس بخاف ما يضمره كل أفغانى لكل إنجليزى من الحقد والضغينة والأفغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيهم فكيف إن وجدوا مساعداً قوياً . وأما أن تميل حكومة الأفغان إلى الانجليز وهو من فرض المحال فما أسرع أن تنتشب مقاتلات بين القبائل المختلفة ممن تحت حكومة الأفغان مثل جمشيدى وفيروز كوهى وبين قبائل التركمان المتاخمين لهم ويعقبها حرب بين الروس والإنجليز لأن كلا من الدولتين مضطر للمدافعة عن حليفه بل للروس حق المناضلة عن رعاياها التركمان ، فإذا زحف الروس إلى الأراضى الأفغانية تقطعت حبال حيل الانجليز وامتنعت عليهم وسائل الدفاع وهذا آخر حياتهم فى الهند .

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروس على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة يلتمسون فى أضوائها طريقاً للخلاص من الضيق والضنك الذى شملهم ، وسبيلا للنجاة من الويل الذى جلبته عليهم مظالم الانجليز . هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عندما وصل إليه الهنديين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الإيرانى على هراة بل انتقاض الهند على الانجليز فى هذه الأيام أقرب فإن خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد أحمد السودانى بل بما يمكن فى أهوائهم من الميل إلي تصديقه وإن لهذه الدعوة حملة على الهند لا يقاومها تدابير دولة بريطانيا .

تريد دولة انجلترا أن تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام فى هذا العام وربما فيما بعده حتى لا تصل أخبار محمد أحمد وتورط الانجليز فى مقاومته إلى مسامع الهنديين ولكن سيحمل هذه الأخبار إلى تلك الأقطار حجاج الأفغانيين والبلوجيين الذين يسلكون إلى الحج طريق البصرة والكويت بل يبلغونها على وجه أبلغ مما لو سمعوها بآذانهم .

هذا تأييد إلهى للدولة العثمانية فعليها أن تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها فى القلوب وعلى السلطان العثمانى أن يتذكر أنه خلف لأولئك

الأسلاف العظام الذين ما أضاعوا حقاً ولا أهملوا فرضاً ويقتضى من الانجليز حقه ويسترد مصر من أيديهم ويطهرها من جراثيم الفساد ولا يقنع بما دون الحق ولا يدع لهم فيها شأناً إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول ولا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذى سقط فيه الانجليز كما فات الإيرانيين الانتفاع بثورة الهند فى الأيام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم وإلا لكانوا أوقعوا بالإنجليز ونالوا الغاية من ضرهم . على العثمانيين أن يتلافوا الأمر قبل أن يشب الانجليز حرباً صليبية بين الحبش والسلمين على نفقة الحكومة المصرية ، ليس للدولة العثمانية أن تتهاون فى مطالبها أو تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة ولا أن تخشى فى ذلك تهويل الانجلير وجلبتهم فإن كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالب الانجليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة . بل الذى يفهم من جملة مقالاتهم أنه لا توجد دولة من الدول ترضى بأن يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانجليز على مصر أو وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس . وإليك طرفاً من آراء الجرائد وما تنقله عن السياسيين . قال مراسل التايمس فى باريس أن فرنسا لم تقبل ولن تقبل أن يكون بحث المؤتمر منحصراً فى المسائل المالية ولقد أصابت فرنسا فى عدولها عن طلب المراقبة المشتركة بينها وبين انجلترا ورغبتها فى مراقبة يشترك فيها جميع الدول فإن فى ذلك فوائد عظيمة لها ولغيرها ولا أظن أن حكومة انجلترا وافقت على ما ترغب فرنسا كما لا أظن أن فرنسا تتساهل فيما تريد وعلى هذا فأما أن ينعقد المؤتمر ولا تكون مداولاته مقصورة على مشاكل المالية وأما لا يلتئم أصلا . ولا أمل لانجلترا إلا فى التستر تحت حيلتها وهى أن ترغب إلى الدول عقد مؤتمرين متعاقبين أولهما للمالية وبعده ينعقد الثانى للنظر فيما لم ينظر فيه الأول ، وقال مراسل الديلى تلغراف فى ويانا أن خطاب المستر جلادستون الذى ألقاه فى مجلس النواب حرك دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا للاتفاق فى المسألة المصرية ، فصرحت جميعها بأن مصالحها فى مصر تقضى

عليها بالعمل فى حل هذه المسألة وليس من سياسة واحدة منها أن تنتظر زمناً طويلا بعد ما مضى من الحوادث مع ما يتوقع نزوله بمصر من النكبات واستقر رأى الدول الثلاث على المداخلة فى وقتها المناسب وقد انحلت ثقتها فى مسلك الوزارة الإنجليزية .

وورد من فينا إلى جريدة التان الفرنسية الشبيهة بالرسمية من مكاتبها برقية قال فيها أنه اجتمع على رجال عظام فى تلك المدينة واستطلع أفكارهم فى المسألة المصرية فإذا هم متباينون فى الرأى فمن ظن بعضهم أن الواجب على دولة النمسا أن تأخذ جانباً عن هذه المسألة وتوسع المجال لدولة إيطاليا فإنها إن فعلت ذلك أرضت إيطاليا بدون أن يلحق ضرر بمصلحتها ووافقت رغائب المانيا ومن رأى بعضهم أن حكومتهم لا يسوغ لها التخلى عن رعاية مصالحها فى مصر مرضاة لإيطاليا ، بل لا يمكنها هذا وقد أخطأ من يظن أن ليس للنمسا منافع فى البلاد المصرية . ثم قال الكاتب تلاقيت مع رجل سياسى له شهرة بحرية الفكر وإصابة الرأى فمن كلامه أن دولة ألمانيا ربما تجعل المسألة المصرية وسيلة لمراضاة الإيطاليين بأن تعد لهم فيها مقاماً رفيعاً لأن ألمانيا ليس لها قوة بحرية ولا يهمها ما يجرى فى البحر الأبيض إلا بطريق العرض . أما النمسا فان لها فى ذلك البحر مركزاً مهماً فحالها من هذه الجهة يخالف حال ألمانيا ، على أن حركات السياسة البرية لابد أن تقذف بها إلى ذلك البحر وهو مما يزيدها حرصاً على تعزيز جانبها فيه وليست المسألة المصرية إلا مسألة البحر الأبيض فمن له فيه شأن براعيه فله الشأن فى المسألة المصرية وعلى حسب درجة الأول تكون درجة الثانى ثم أطال الكلام فى بيان المنافسة السياسية بين دولة النمسا وإيطاليا وما يطمح إليه نظر كل منهما ،غير أن هذا ليس مما يمنع الدولتين عن الاتفاق فى معارضة الإنجليز وخفض منزلتهم فى مصر والبحر الأبيض . أما جرائد فرنسا ورجال سياستها فعلى رأى واحد فى وجوب تحويل المسألة المصرية عن وجه كونها انجليزية إلى وجه كونها دولية أوروبية وارتاحت لهذا نفوس الدول ومالت إليه أفكارهم نسأل الله حسن العاقبة وإليه المصير .

(العروة الوثقي)

مصادرتها فى مصر والهند وفرض غرامة على قرائها ! !

انعقد مجلس الوزراء المصرى فى القاهرة واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى وزارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية وتراقب جولاتها فى تلك الديار . فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البريد يلزمها بالدقة فى ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر ، أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز فى مصر !!) أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم ولا يختلج فى صدورنا أن مصرياً من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقياً ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل .

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ولها سعى ، بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد . تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم . ومن رأيها أن الأشغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب . هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم

أن حركات الآمرين فى القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخالطها شىء من الاختيار ، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الإنجليز .

ولا نريد أن نقول للانجليز أنهم ظلموا فى الحكم ، فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساتيرهم وبيان الرزايا التى أصيبت بهـا الديار المصرية من حلولهم ، لأنهم ـ الإنجليز ـ الذين أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه ويسأله هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث ، فإذا قال نعم قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا فإذا أجابه : إننى درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهذا إلا لأنه كتاب دينى ضرب له الضـابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه فى الآية أو الحديث فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ولم يبدل عقيدته ولم يبادر بإرسـال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر ، بعثت به الحكومة إلى جزيرة أندومان نفيـاً مؤبداً ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين ، فدولة الإنجليز التى تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهجس فى حديث نفوسهم لاريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام فى جريدة كافياً لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيهـا قدم ثابت أو تسعى فى تثبيته بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصاً علق هذا الإسم من أى جنس كان . فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السـلطة الإنجليزية الظالمة ذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى .

بلغنا أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولى الحميم ويقابل ثناءه بالذم ومدحه بالقدح وإحسانه بالإساءة ويواجه نصيحته بالظنة ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدو ، وإنما هو لشبهة حجبت نظره عن درك الحقيقة ، فإذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه وكانت له مثابة إلى الحق وركون إلى الصواب .

لا يحزن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المصرى وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع . فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شىء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين وإنما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها .

تصرف الانجليز فى الهند

لا أريد بما أكتب فى هذا المقال القصير تنفير قلوب المصريين من سلطة الانجليز فإن لى يقيناً بأن المصريين الذين أنبتتهم أرض مصر لا يذعنون لولاية الانجليز عليهم بل يعارضونها بأرواحهم وأموالهم ولهم من الغيرة الدينية والوطنية ما يحملهم على ذلك وإن رأوا من عدلها مالا يصل اليه إنصـــاف أنوشروان ويفضلون ولاية مواطنيهم وإن مسهم منها أنكى ما يكون من الحيف اللهم إلا قليل ممن فسـدت أخلاقهم وانتكست طباعهم وقليل ما هم ، وإنما القصد كشف ما تدعيه هذه الدولة العظيمة من العدالة وما تختص به نفسها من الوصاية على نوع الانسان .

إذا أشرف السائر على أى بقعة من البقاع الهندية الواسعة شخص بصره ودهش لبه بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع وما منحتها من الخصب الطبيعى حتى أن الأحجار الصـلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة العالية الأغصان المورقة الأفنان ، تظل الواحدة منها امتداداً واسعاً من الأرض وكأن أديم الأرض بما استوى عليه من أنواع النباتات قد بسط عليه بسـاط من السندس الأخضر فيخيل للناظر أن سكنة هذه الأراضى فى خفض من العيش وسـعة من الرزق بل يظنهم أسعد من عمر الغبراء ، ولـكنه إذا تجاوز السهول والأودية إلى المدن والقرى ضاق صدره وتفطر قلبه من مناظر سـكانها . يرى آلافا مؤلفة يعبرون فى الشوارع والأزقة جيئة وذهاباً حفاة عراة باديه سوءآتهم ، كاسفة أحوالهم ، لايجدون رمقة من العيش . يلتمس الواحد منهم عملا من الأعمال الشاقة يقضى فيه نهاره وبعض ليله ليصيب من الأجر

عليه ثلاث فرنكات فى الشهر بل فرنكين ونصفاً ولا يتيسر له . ويرى هذه الحال عامة حتى فى المدن التى بسواحل البحر على كثرة الأشغال التجارية فيها . ويشتد به العجب عند المقابلة بين خصب التربة وجودة المنابت وسوء حالة القائمين عليها ، ويحكم حكما لا ريبة فيه بأن إدارة الحكومة الانجليزية (حامية النوع الإنسانى) هى التى حرمت أولئك المساكين من التمتع بما آتاهم الله من فضله . إذا سأل سائل عن حال كثير من أولئك المعدمين الذين لا يملكون نقيراً ولا قطميراً فربما يقف على أنهم كانوا من أرباب الثروة الواسعة والقدرة السامية وكانوا يسكنون القصور العالية ثم أصبحوا يأوون إلى خصاص بل أقفاص . إذا انتقل الفكر للبحث عن السبب أوصله النظر إلى أسباب كثيرة يرجع جميعها لتصرف الحكومة الإنجليزية وأشدها ظهوراً وفرة الأتاوات (خراج الأراضى) وثقل الضرائب على كواهل الأهالى فإن الحكومة قد فرضت على العاملين فى زراعاتهم ولم تجعل الأداء على حسب ما تجود به الأرض كل عام بقدره ولكنها خرصت (حزرت) ما تأتى به كل أرض على درجتها من الخصب وقدرت مبلغاً معيناً تجبيه من العامل فى الأرض سواء سلم زرعه من الآفات أو اجتاحته الجوائح وقد يستغرق مطلوب الحكومة جميع المحصول بل يزيد عنه وأداؤه حتم لا تردد فيه على أى حال ، هذا فضلا عن الرسوم المختلفة التى لا حد لها ولا نهاية وتعرف عندهم (بالتكس) أى الرسوم الغير الثابتة أو الغير المحدودة وربما أتينا على بيانها مع بيان سائر الأعمال بالتفصيل فيما بعد .

فى هذا المقام تذكرت شيئاً قد يخطر بالبال ، رب غنى فى مصر يملك مزارع واسعة وإقطاعات كثيرة (أبعاديات وجفالك) فيركن إلى ما تفيض عليه من الرزق ويطمئن قلبه من جهة معيشته ومعيشة أبنائه من بعده فيستوى عنده أجناس الحاكمين ولا يبالى بولاية الإنجليز على بلاده حيث سلم له قوته ، وهنا أشير إلى طرف مما يعامل به الانجليز أمثاله فى الهند لتكون له عبرة .

أراد الانجليز أن لا يكون لغيرهم يد على ملك واسع فيما تحت سلطتهم فضربوا على أرباب الافطاعات رسوماً زائدة يؤدونها عن أراضيهم فى أوقات محدودة ثم وضعوا فى قانون الزراعة أنه لا يجوز للمالك أن يقيم الدعوى على مزارعيه إذا تأخروا عن تأدية ما شرط عليهم إلا بعد مضى ثلاث سنوات من وقوع موضوع الدعوى وإذا خان المزارعون أو أهملوا فى أعمالهم أو استأثروا بمحصولات الزراعة فلا يمكن لصاحب الملك أن يخاصمهم فى مجالس القضاء إلا بعد مضى تلك المدة ، إلا أنه يؤدى ما عليه للحكومة فى أوقاته رغم أنفه وإن لم يؤد إليه العاملون له شيئاً . وفى قانون المرافعات عندهم أنه إذا مضى على موضوع الدعوى ثلاث سنوات لم تحصل فى أثنائها إقامة الدعوى فلا تسمع . فهذا يحمل العاملين فى الزراعة على الاضرار بأرباب الأملاك ولا سبيل لهؤلاء إلى استخلاص حقوقهم من أولئك والحكومة لاتترك من فريضتها شيئا ولا تتساهل في طلب أدائها بوجه فيضطر الملاك للتنازل عن أراضيهم للحكومة الانجليزية (العادلة) هذه أعمال من تأخذه ريبة فى خبرها فليسأل الهنديين عنها . وأن الجرائد الانجليزية فى الهند تنادى على حكومتها الهندية دائماً بوجوب التخفيف فى الوطأة والرفق فى السطوة وتنذرها بأن الأعمال الادارية والمالية لو دامت على نمطها هذا لا يمضى قليل من السنين حتى يشتد الضيق والضنك فى عموم الأقطار الهندية ويضطر الأهالى لاصلاء فتنة عمومية لا طاقة لدولة بريطانيا بإطفائها ولكن لا يسمع الصم الدعاء .

———o———

نصيحة فى الأدب

إذا صادفت ظالماً أو قابلت فاجراً فلا تقل له أنتَ ظالم أو فاجر ! !

وردت إلينا من حضرة الفاضل مولوى عبدالغفور شهباز بمدينة كلكتا وهذا نصها :

ليس الأدب كما يظن بعض الناس مجموع قصص تتلى للفكاهة أو أساطير تنقل فى المسامرات أو منظوم من القريض يمتاز بحسن الاستعارة ورقة التشبيه مع مراعاة المحسنات اللفظية والمعنوية من التورية والجناسات ونحوها من فنون البديع أو منشآت ورسائل تتضمن إطراء فى المدح أو مغالاة فى القدح فإن جميع هذا بمجرده لا يتصل بمعنى من معانى الأدب وإنما الأدب فى كل أمة هو الفن الذى يقصد به تهذيب عاداتها وتلطيف إحساسها وتنبهها إلى خيرها لتجتلبه وإلى ما يخشى من الشر فتجتنبه ، فالأدباء فى الحقيقة هم ساسة أخلاق الأمم بل هم أجنحتها نطير بهم إلى ذروة فلاحها فإنهم بما يعلمون من طرق التفهيم يمكنهم أن يقربوا إلى العقول ما يبعد عن أدراكها ويسهلوا على الأذهان ما يعسر عليها النظر فيه ويعبروا عن المعنى الواحد بالطرق المختلفة فتستفيد منه العامة ولا تنكره الخاصة . فيأخذون على الظالم ظلمه ويعظونه بسوء عواقب الظلم وينكرون على الفاجر فجوره ويحذرونه مغبة الفجور حتى يردوا كلا عن غيه بما يروضون من طبعه بدون أن يقولوا له أنك ظالم أو فاجر ! ! وإذا رأوا فى أمتهم عوائد يأباها سليم الذوق أو وجدوا منها أخلاقا وأعمالا لا تنطبق على شريعة الفضل وقوانين الشرع عمدوا إلى تغيير العوائد وتطهير الأعراق وأخذوا فى ذلك سبلا متنوعة فى إنشائهم تارة بالقصص والحكايات التى تمثل شناعة الرذيلة

وبهاء الفضيلة وما آل إليه أمر التدنسين بالأولى وما ارتقى إليه حال التحلين بالثانية ، وتارة بقريض الشعر يخيلون فيه ما يحرك الهمم ويبعث الأفكار وينبه خواطر الكمال وإحساسات الشرف الصحيح ، لا ما يوقظ الشهوة ويقوى الغرور ويخرج الأنفس عن أطوارها . والأخذ به من وجهه والدخول إليه من بابه هو الذى صعدت به الهند الأولى إلى أوج المجـــد وبلغ به العرب أقصى غايات الرفعة وهو الذى وصل بالأمم الأوروبية إلى ما وصلوا إليه مما لا يخفى على كل ذى بصيرة ، وإنا نتأسف على ما نراه من أدباء المسلمين وشعرائهم فإنهم يقصرون منشـآتهم وأشعارهم على ما يكون عد الصفات ، إما مذمومة أومحمودة ونسبتها إلى شخص يريد ذمه أو مدحه ، ويحصرون رواياتهم فى حكايات مضحكة وقصص هزلية وبعض تواريخ ماضية بدون أن يلاحظوا تأثير ما يكتبون وما ينقلون فى أفكار الأمة وأطوارها . ورجاؤنا فيهم أن يسلكوا مســالك أدباء الأمم المتقدمة أو المعاصرة لهم حتى يكون للأمة الاسلامية نصيب من فوائد ذكائهم وفطنتهم وسعة بيانهم وطلاقة ألسنتهم وأن يأخذوا فى منشآتهم وأشعارهم طريقاً ينهضون فيه الهمم الخامدة ويحركون القلوب الجامدة ويحيون مكارم الشيم ويوردون الأمة مورد ســابقيها من الأمم وإنا نرى بداية هذا المنهج الجديد فى بلادنا ونسأل الله حسن ختامه .



أخبار سياسية

صرح اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات بأنه ورد للحكومة الإنجليزية أخبار عن الجنرال جوردون ، إلا أنه كتمها عن المجلس ولم يطلعه عليها ومع هذا فإنها مهملة من التاريخ ، ولم يعهد أن مأموراً سياسياً لدولة عظيمة يخابر وزراء دولته بلا تاريخ ولعل ما ألفه الوزراء البريطانيون من التمويه على الشرقيين أصبح فيهم عادة تجرى بينهم حتى على أبناء جنسهم وفى مجالسهم العالية .

وردت أخبار إلى (الديلى نيوز) مفادها أن جميع القرى فى شمال بربر إلى مساوى جاهرت بالثورة وانقطع الطريق إلى بربر . وفى خبر آخر أن من الظنون ميل مدير دنقلا إلى منابذة الحكومة ، فقد كان يطلب من أيام مدداً يستعين به على إخلاء المدينة وإنقاذ حاميتها ، واليوم يأبى الخروج منها بل يطلب أن تبعث إليه نجدة يفتح بها البلاد السودانية فتحاً جديداً ، ثم استبد ، بما لم يكن من حدود وظيفته ، فأرسل بعض ضباط الباشبزوق(١) إلى وادى حلفا ليأتيه ببعض الذخائر والآلات الحربية ونال رسله ألف بندقية وأربعمائة ألف فشك ونهبوا مخازن الحكومة وأحضروا معهم عدداً من المدافع إلى دنقلا . وربما يعاب على المدير إتيان مثل هذا العمل ويعد من باب الخيانة لحكومته المصرية ولكن ماذا يصنع بعد ما علم أن الحكومة المصرية خرجت عن كونها حكومة وطنية بتصرف الإنجليز فيها وإن حكامها أصبحوا لا يملكون من الأمر شيئاً فإن صدق هذا المأمور فى خدمته فلا تكون فائدة الصدق إلا تثبيت قدم

---

(١) الباشبزوق ، بمعنى الاحتياطى .

الإنجليز فى بلاده وتأييد ملكتهم عليها فيكون فى الحقيقة خيانة لوطنه وبخساً لحقوقه ، فله العذر إذا انحاز إلى الفئة الثائرة ما دام الإنجليز حكاماً فى مصر .

* يقال أن محمد أحمد سار من الأبيض لفتح دكاشيا أو خرطوم ويغلب على الظن أن مسيره لفتح خرطوم فإن حل بها ما حل ببربر وشندى مع هيجان القبائل فى الجهات الشمالية ترقبنا عاقبة هائلة أنذرنا بها وحذرنا منها مراراً عديدة .

* من رأى أحد المراسلين لجريدة (الديلى تلغراف) أن الجنرال جوردون سيقيم فى خرطوم إلى فيضان النيل ، فإن لم تأته نجدة يقوى بها على الفوز بنجاح مأموريته ، لزمه أن يصعد على النيل الأبيض إلى خط الاستواء وأنه يمكنه بعد ذلك أن يعمل أعمالا عظيمة فى الأمم الأفريقية القاطنة فيا وراء خط الاستواء . ثم عقب كلامه بأمانى وأوهام لا تنقص عن أمانى جوردون عند ما سار من القاهرة إلى خرطوم .

* فى برقية من أسوان إلى (الديلى نيوز) أن ابن أخى حسن باشا خليفة ومعه شخص آخر فرا من بربر وكانا منطلقين إلى جهة الشمال فاعتقلهما عرب روباتاب بالقرب من أبى حمد .

* يقال أن الحكومة المصرية (أو الإنجليزية) تجتهد بوسعها للمحالفة مع قبائل العرب فى جنوب مصر ليكونوا لها عوناً على مدافعة سيل الفتنة إذا ارتفعت غواربها على حدود مصر الطبيعية . ولا نظن أن سعيها ينجح لدى العرب فإن ذمتهم ودينهم لا تسمح لهم بمساعدة الإنجليز فى تملك بلاد المسلمين .

* أبى اللورد جرانفيل أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوروبا مدة غيبة السير بارين فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد جرانفيل سيطلب من الخديوى أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا .

هذا كله والإنجليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم وليس يدرى ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف فى الإدارت والتحكم فى أولياء الأمور . هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر إلا بإذن من جرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمراً على الخديوى باستيزار فلان ، فإن لم تكن هذه سيادة فما هى السيادة .

* فى خبر أن الأميرال هفيت وصل إلى أدوفا (من البلاد الحبشية) وأسلفنا أنه كان فى نيته إغراء ملك الحبشة بإيقاد حرب صليبية يهلك بها أمم العالم فداء لشهوات الإنجليز إلا أنه جاءت الأخبار بعد هذا أن الأميرال لم يصادف سعة من صدور الحبشيين وأن الملك يوحنا وقف على خديعة دولة انجلترا ولم يظهر عناية بما أتى إليه الأميرال ولم يبعث لملاقاته أحداً بل أظهر الحبشيون غاية الخشونة فى معاملة الوفد الإنجليزى حتى أنهم امتنعوا عن بيع المأكولات لهم وقد ذكرت بعض الجرائد صورة المعاهدة التى يراد عقدها مع ملك الحبشة ولا يهمنا الآن ذكرها .

* هجم جماعة من الثائرين على سواكن فى التاسع عشر من هذا الشهر وزحفوا إلى المدينة حتى صاروا على خمسين متراً من أسوارها ثم أطلقوا عليها النيران مدة ساعتين حتى أثر الرصاص فى كثير من البيوت ولم يتحرك جيش الحامية أدنى حركة لمدافعة هذا الهجوم العنيف . ويظهر من هذا أن انتصار الجنرال جراهام فى سواحل البحر الأحمر لم يكن له أثر وإنما هو قول يذكر ورواية تؤثر وأن غزواته لم تزد الثائرين إلا إقداماً .

* * *

* كتب مراسل التان فى القاهرة أن لا صحة لما أشاعته الجرائد من القبض على مسيو أوكلى النائب الإيرلندى الذى حملته همته على السفر إلى الأبيض .

فى الثوانى المهلكة !

هذا ما ساقت إليه الحوادث المصرية وهى مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقها . العظام من الدول فى يقظة لا سنة معها ، وحركة لا فتور فيها ، مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر ، ومجادلات متلاحقة يدأب فيها السياسيون من كل أمة ، بعضها بالمراسلة ، وشىء منها بالمشافهة ، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع وزراء الخارجية من سواها ، يتهامسون ويتغامزون ، ويسرون خلاف ما يعلنون ، ويذهبون إلى مالا يقصدون ، وقد حملق كل بصره للآخر لعله يلمح من كان وجهه ما ينبىء عن مضمرات سره ، ويصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله ، عسى أن لا يفوته شىء ربما يعتل به ، وجل ما انصرفت إليه قواهم تمثيل الرغائب ، وتخييل المطامع ، فى صور أبعدها عن الحقيقة ، أقربها إلى الخيال . يعظمون الحقير ، ويحقرون العظيم ، ويجسمون الموهوم ، ويضلون عن المعلوم ، ويقربون البعيد ، ويبعدون القريب ، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الأمانى باهرة الأنوار بزهور الآمال ، وما نبت بهارها إلا على حبائل من المكر ، وفخاخ من الخديعة ، حتى إذا راقه المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لا يشعر . هذا يسهل صعباً . والآخر يوعر سهلا ، وكل يتبع لحاظ رصيفه إذا أحس منه لحا لمقصده أبرز له ألواناً من الفوائد الموهومة ليستلفته عن مرامه ، وإذا شعر منه بفكر يوصله إلى ما يمسه ، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه عما يطلبه ، ويشوش عليه سيره ويقطع سبيل فكره . منهم من يكسب الأصدقاء بمال غيره ، ومنهم من يستفيد الرفقاء بكف شره ، ومن الناس أقوام آخرون على غوارب أمواج الحوادث نائمون ، تقذفهم كريبة وتتلقفهم أخرى ، وهم عنها غافلون . زلزلت بهم الأرض زلزالها ، ودهمتهم الخطوب بأرزائها ، وتوالت

عليهم المزعجات ، وتناولتهم عواصف المفزعات ، وهم فى سكنة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون ، والمقبل على الفوز من هؤلاء وأولئك إنما هو أحزمهم رأيا وأثبتهم عزيمة وأشدهم بشئونه بصيرة .

يقول الإنجليز إنا عدونا على الهند من زمان طويل فاغتصبناه وحقت لنا الملكية عليه بما هو مقرر فى شرائع القوة وقوانين التغلب . وأين ديارنا من هذا الملك العظيم فى شرق آسيا . المسافات طويلة والشقة بعيدة فلا بد أن يكون لنا فى كل مكان موطئ لأقدامنا لنحتفظ بأملاكنا فلنا حق فى اغتصاب جل العالم لأجل الهند ، خصوصاً القطر المصرى ، فإن به السبيل التى لا يماثلها سبيل ، وليس لنا عنها غنى وكنا فى تطلع إليها من زمن قديم وكثيراً ما تمسكنا بحبال من الوسائل إليها فرثت فى أيادينا بقوة حكام تلك البلاد حتى هيأت لنا حوادث السنين الأخيرة ما أحلنا دارهم وأقرنا فى قرارهم . إنا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيته على كرسى الخديوية المصرية ، إلا أنه بقتال ونزال فلا تختلف صورته عن صورة الفتح ، فلنا حق التملك فى تلك الأقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة وإزالة الاختلال وكأننا صرحنا بذلك عند عزمنا عليه ، لكن الغرض الحقيقي إنما هو تأمين طريق الهند فتسنى لنا ما قصدنا بحلول عساكرنا فى وادى النيل . فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا أن نتركه بعد الوصول . وحيث أننا عقدنا العزم على البقاء فى مصر وأضربنا عن إخلائها لزمنا ضمانة الديون المصرية وحملها ثقيل على كواهلنا فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة وتكون لنا عوناً على تنقيص الفوائد ولا نحب أن تكون مذاكراتها معنا إلا فى المالية خاصة فانا لا نرجو من مفاوضاتها فائدة . أما سائر الشئون فعلينا تدبيرها وإلينا مصيرها . هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون أسبابها إلى برلين ويرجون أن تكون مواصلها ومعاقدها فى تلك المدينة عاصمة الألمان .

أماالبرنس بسمارك وهو مدير السياسة فى أوروبا وبيده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً وينكى عدواً وليست له علائق سياسية تحمله على المدافعة عن مصر ولا منافسةٌ له مع الإنجليز تبعثه على معاكستهم ، بل له إليهم حاجة فى ضمهم

إليه وإبعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لا حليف لها وقد تكون له من صلة الإنجليز مآرب أخرى سوى قطع فرنسا من الحلفاء ينالها يوم الحاجة إليها وما هو عنه ببعيد فماذا يضره إذا أدخر عوناً وأساء عدواً والنفقة على خزينة غيره . نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وإيطاليا لما لهم من المصالح فى البحر الأبيض ويصعب عليه أن يصيب بسياسته الجمع بين مراضاة انجلترا لنيل مصافاتها وبين التمسك بعهوده مع ذوى حلفه ، إلا أنه قد يسهل عليه التخلص من هذا المضيق بالإشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الأرنؤوط والإيماء إلى الأراضى البلقانية وسالونيك ويجلوها لأنظار معاهديه فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاة الدولتين ، ويقلم أظفار الروسيا من أوروبا الشرقية ويضيع مصالح فرنسا فى بلاد المشرق عموماً ومصر خصوصاً وفى كل ذلك الربح له ، والخسارة على غيره ، وليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها فهى شرعته التى يرد إليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت .

وفرنسا واقعة بين مراوغات الإنجليز ومكائد بسمارك . لها حقوق سابقة فى البلاد المصرية كاد يمحى أثرها بمداخلة الإنجليز وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة فى طريق منشآتها ببلاد الصين والبحر الهندى ومدغشقر . لهذا تبذل الجهد لإجلاء العساكر الإنجليزية عن مصر وتخفيض سلطة الإنجليز فيها ويوجد لها عون من دولة الروسيا ولها من المنعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوى العزيمة من رجالهم وميل أفئدتهم لمكنها من تخليص مصر وانتزاعها من أيدى الإنجليز سعياً فى حفظ مصالحها ووقاية حقوقها وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها فى مدافعة الإنجليز ومطاردتهم من بلادها فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها فى هذه الأوقات لتستنقذ ممالكها من طمع الطامعين وتعيد ولايتها على الأقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين ، وأن جميع المسلمين ينتظرون منها الحذق فى هذه المسألة ولهم فيها الأمل القوى والثقة الكاملة ، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون أن ينالوا بها حظهم من الغنيمة ، وليس على الدولة من بأس إذا طالبت الإنجليز برد حقوقها كافة ، فإنهم

بالنسبة إليها أضعف من أن يجاهروها بالعدوان ، وإنا نكرر ما قلناه سابقا من أن الإنجليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حرباً خصوصاً فى هذه الأوقات التى أصبحت فيها دولة الروسيا متاخمة لمملكة الأفغان فإن أول أشاعة لهذه الحرب توقد لهيب الثورة فى عموم الممالك الهندية وهذا جلى عند كل انجليزى أن التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسألة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب وليس للمصريين فى طورهم هذا أن يركنوا إلى من ليس من أبناء جلدتهم فإن الثغرة التى تحمل على الحمية تكاد أن تكون منحصرة بحكم الطبيعة فى أبناء الوطن فلا ترجى من غيرهم . فعلى العقلاء من أهالى مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعينين بأفكار الدول التى تقضى عليها مصالحها بالسعى فى إنقاذها وإعادة شأنها الأول وتحقيق مايقال من أن مصر للمصرين .

وبالجملة فالأطماع فغرت أفواهها ، والأفكار فى اضطراب شديد ، وظنون الناس شتى ، فمن قائل أن المؤتمر لا ينعقد لتعسر الإتفاق بين فرنسا وانجلترا على القواعد الأساسية للمداولة فيه ، ومن قائل أنه ينعقد على أن يضع مصر تحت حماية عموم الدول ويقرر إنشاء مراقبة دولية مع بقاء العساكر الإنجليزية مدة سنتين ، وعلى أى حال فالرزية إنما تصيب الغافل ، والسوء إنما يحيق بالمتساهل ، والجبان محروم من حقوقه والعامل بيد غيره خاسر ، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهروا الشهامة والإقدام ، ويرفعوا علم الهمة أبقاء لحياتهم ، وصوناً لشرفهم ، والأمر له يفعل ما يشاء .

منشور انجليزى قديم

نشرت حكومة انجلترا فى الهند منشوراً منذ مائة وثمانين سنة وهذا ترجمته :

إذا وجدت فى دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها انجليزى (أى لا تليق أن تكون بيد أحد من الجنس الشريف) وجب أن يعين فيها أحد الفارسيين الباقين على دين زرادشت (المجوس) ، فإن لم يكن منهم مقتدر على القيام بها ، أقيم فيها وثنى (عابد صنم) فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدى عملها كلف بها مسلم ، فليس للمسلمين فى الهند حظ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسى والوثنى وهذا هو عنوان محبة الانجليز وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين وأنصارهم ، لا أكثر الله من أمثال هؤلاء الأولياء والأنصار !!



ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصـــول على أمة من الأمم أن تسود عليها وتستعبدها وتذللهـا للعمل فى منافعها مع التخالف فى الطباع والعوائد والأفـكار ، ووجود المقاومة الطبيعية ، فضـلا عن الإرادية . إن الوحشة المتمكنة فى نفس كل واحـد من الأمة ، وظن كل فرد أنه فى خطر على روحه وماله إذا غلبه الغالبون ، تحمله على المدافعة كما يدافع عن بيته وحريمه ، فلا يتسـنى للقوة المغيرة أن تذل الأمة إلا بافنائها عن آخرها ، أو إفناء الأغلب حتى لا يبقى إلا العجزة والزمنى(١) . هذا أمر طبيعى وحكم بديهى متى كانت الغارة على الأمة : نعم يسهل للقوة الأجنبية أن تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحى تجتمع عليـه قلوبها ، وتدين له رقابهـا ، لمنزلة له فى أفئدة أبنائها ، ولمـكان آبائه من الـكرامة فى نفوسهم ، فلا تحتاج القوة الغـالبة إلا لإيقاع الرعب فى قلبه ، فيجبن ويقبل ما تحكم به ، أو نصب حبالة الحيل له فتخدعه بالأمانى والآمال ، فيذعن لمـا تقضى به فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له . ولهذا ترى طلاب الفتح وبغـاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقواد الجنود على قلوب الأمراء وأرباب السـيادة فى الأمة التى يريدون التغلب عليها فيخلعونها بالتهديد والتخويف ، أو يملـكونهـا بالخدعة وتزيين الأمانى ، فينالون بغيتهم ويأخذون أراضى الأمم ، وهذا الطريق هو الذى سلـكه الإنجليز مع السلطان التيمورى فى الهند ، ولولا ما كان للهنديين من عقدة الإرتباط بسلطانهم التيمورى ، وقبض الإنجليز أول الأمر على تلك العقدة ، لما تيسر للبريطانيين أن يخضعوا الأمم الهندية فى أحقاب طويلة .

(١) شخص أزمن أى أتى عليه الزمان .

هذه قبائل الأفغان عند ما انحلت ثقتها بأميرها ، وصار الأمر إلى الأمة قامت كل عشيرة ، بل كل فرد للدفاع عن نفسه ، بعد ماتمكنت عساكر الإنجليز فى قلاعهم وحصونهم ، واستولت على قاعدة ملكهم ، وفتكوا بالعساكر الإنجليزية وهزموا قواتها وأجلوها عن بلادهم ، وهى ستون ألفاً من الجيوش المنتظمة ، المسلحة بأحدث الأسلحة ، واضطر الانجليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها .

لا ريب أنه يسهل على الانسان أن يأخذ شخصاً واحداً وأشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد ، ويتيسر له أن يقف على طباعهم ، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم ، ويأتيهم من أبواب رغائبهم ، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها ، وعقولها مختلفة عليه نفوسها فى وحشة منهم إلا بالابادة والتدمير . من هذا تجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك فى حرب مع اقتالهم بل ومن هو أشد منهم قوة ولكنهم يفرقون بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم ، وما هذا إلا لأن قوة الغالبين داخلة تحت الضبط ، وأما آحاد الأمم وقواها فلا تنضبط ولا يمكن مقاومتها إذا تغاضت وشحت بنفسها عن الذل لسواها .

إن الأمراء كما يكونون فى دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها ، كذلك يكونون فى بعض أطوارها علة فاعلة فى سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنا نخاف ولاحول ولاقوة إلا بالله أن يكون أمراؤنا والأعلون منا آلة لاضمحلالنا وفنائنا ، لما غلب عليهم من الترف والانهماك فى اللذائذ ، والانكباب على الشهوات ، مع سقوط الهمة ، وتغلب الجبن ، والحرص والطمع على طباعهم إنا لله وإنا إليه راجعون .

هجوم على السودان عبر النيل ! !

جاء من لندن لإحدى وكالات الأنباء ما ملخصه : لا يظن أحد من الناس هنا (فى لندن) أن الجيوش التى عزمت حكومة انجلترا على سوقها إلى السودان يقصد منها إنقاذ جوردون . فإن جوردون معزز برجال من الوطنيين (المصريين أو السودانيين) أولى عزم وقوة ، ولهم سطوة تدفع بأس الذين يبغون به البشر . وإذا مست الحاجة إلى تخليه عن عمله وتركه لمركزه فلا يعدمون وسيلة لخلاصه ، أما القصد الحقيقى من بعث الجنود إلى السودان فإنما هو افتتاحه تحت العلم الانجليزى وهو وإن كان يحتاج إلى زمن طويل إلا أنه قليل الخطر ولا توجد فى سبيله عقبات سياسية حيث تنازلت الحكومة المصرية عن سياستها فى تلك الأقطار .

يسهل على العساكر الانجليزية أن تسير إلى خرطوم على طريق النيل وأن سلكت سبيلا من الأرض اليابسة فلاتبعد عن شواطىء النهر (لتكون تحت حماية المراكب وترافقها فى السير مراكب تعد لقطع النيل والصعود إلي الشلالات فإذا وصلت العساكر والأساطيل النيلية إلى خرطوم واستولت عليها اعتصمت فيها حكومة عسكرية تمد نفوذها إلى قلب السودان ويكون فى هذا عوض للانجليز عما يخسرونه فى مصر لو ألزمهم المؤتمر بالتنازل عن شىء مما يطمحون إليه فيها .

وقالت جريدة (الريبوبليك فرانسيز) إنا نذكر هذه الرسالة على أنها شبه حجة على مقاصد الانجليز وإلا فإنا نعد ما تحتويه من قبيل الأوهام والخيالات اه .

أما نحن فنقول من أمعن النظر فى أعمال الانجليز وتتبع سيرهم فى افتتاح

الممالك الشرقية ، علم صحة ما روته وكالة الأنباء . فإنه منطبق على قواعد السياسة الانجليزية وآت على أساسها الذى بنوا عليه فتوحهم من أزمان طويلة وهو أصل تعارفه الانجليز حتى صار كخصية لازمة لطباعهم ، ترد إليه جميع أعمالهم من حيث يشعرون ولا يشعرون ، وعليه كان بناء ملكهم فى الهند .

إن الإنجليز أول ما خطوا خطوة فى الهند وجدوا مملكة (أود) من الممالك الواسعة وأغلب أهاليها على مذهب الشيعة ولها نواب (حاكم) عظيم من أهل ذلك المذهب ، فرأوا أن يحملوه على الاستقلال وزينوا له الطمع فى لقب شاه لينفصل عن الملك التيمورى . وفى التنازع لنيل هذا المطمع يصيب كلا من الطامع وصاحب الملك سهم من الضعف والوهن فيتهيأ كل منهما للوقوع فى مخالب الانجليز وقد حصل .

وأول ما حلوا مصر ولمحوا شرارة فى السودان أدنوا منها وقودها لتكون ناراً مهلكة فبعد ما طردوا الجيوش المصرية إيذاناً بالغضب عليهم جمعوهم ليسوقوهم إلى السودان تحت قيادة أعداء لهم من الانجليز فذهبوا وهم موقنون أنهم يساقون إلى الموت ليذوقوا وبال الانتقام فقلوبهم منكسرة وعزائمهم واهنة وعقائدهم لا تسمح لهم بالانقياد لرؤسائهم الأجانب ، وأحس السودانيون وهم مسلمون أن قواد الغارة عليهم ليسوا على شاكلتهم ، فزادهم حمية وإقداماً ، فكان هذا وذاك سبباً فى استفحال أمر السودان بعدما هلكت رجال وأنفقت أموال وساءت أحوال من السودانيين والمصريين ، كل هذا ليتوسل به الإنجليز لفصل السودان عن مصر بعد خراب الدارين وكأنهم عندما أرسلوا جوردون باشا وأذنوه أن يمنح محمد أحمد لقب أمير كوردفان قصدوا أن يتمموا عملهم ولكن لم ينجحوا .

وعندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد خان أمير أفغانســتان وبين (رانجيب سنك) البنجابى تخوف الإنجليز من تسلط الأفغانيين على بنجاب فتداخلوا فى الصلح وســحروا قلوب الأفغانيين بلين القول ولطف الوعد حتى أرضوهم بترك مدينة بيشاور وما يليها لرانجيب سنك وانعقد الصلح على هذا وأجلى الأفغانيون عن مملــكة بنجاب ورجعوا إلى بلادهم . وبعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الإنجليز إلى بنجاب وافتتحوها لأنفسهم واستولوا على مدينة بيشاور فقال بعض أمراء الأفغان إن ذاك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح وأن الإنجليز فى تعيينهم للحدود إنما كانوا يحددون بلادهم ولــكن كنا عنه غافلين .

ومن نحو سنة ونصف أومأ اللورد دوفرين فى تقرير كتبه بالقــاهرة ، إلى أنه لا حاجة بالحــكومة المصرّية إلى السودان بل لا فائدة لها فيه ، وفهم الغرض فى ذلك الوقت من أصابه ، وغفل عنه قوم آخرون اغتراراً بظواهر العبارات ثم لم يلبث الإيماء أن صار تصريحاً رسمياً وإلزاماً للحــكومة المصرية أن تتخلى عن السودان . فلم يكن التلميح والتصريح ثم الإلحاح والإلزام إلا ليهيئوا البلاد السودانية للدخول تحت سلطتهم فى وقت من الأوقات لسبب من الأسباب التى لا يعجزون فى اختراعها متى شاءوا !! هذا سير يعرفه من قرأ صفحة من تاريخ الإنجليز فى الممالك الشرقية .

تريد حكومة انجلترا إذا عارضتها الدول فى السيادة على مصر أن تنشىء لها سلطة فى خرطوم يمتد حكمها إلى جميع أراضى السودان وعساكرها الآن حالة فى ســواكن وما أسرع أن تصل بين المدينتين بالسكة الحديد فتكون القوة الإنجليزية بعد هذا محيطة بمصر من جميع الجوانب . وقفت على بابهـــا من طرف الشمال فى قبرص وطوقت حدودها من الغرب إلى الشرق فى السودان وتحــكمت فى منابع النيل وتصرفت فى أعلاه وأخذت كل طريق يمــكن منه الاستيلاء على الديار المصرية ، وهنالك يرصد الانجليز حركات الدول فى أوروبا . فــكلما أضاءت لهم بارقة فرصة مشوا فيها ، وإذا

أظلت عليهم قاموا فيتقدمون إلى مصر خطوة بعد خطوة ولا يبالون ، طال الزمان أو قصر ، فإنهم يعرفونها لهم على أى حال ، ولكنهم يتقون معارضة الدول فى هذه الأوقات . هذه غايات سير الإنجليز فى الحوادث المصرية وهى كما قالت (الريبوبليك فرانسيز) خيالات وأوهام إذا اشتدت الدولة العثمانية ورجال مصر فى المطالبة بحقوقهم الشرعية والمحافظة على شئونهم وأخذوا بالحزم وعقدوا العزم على مقاومة سعى الانجليز فى أوطانهم وديارهم بعد ما ظهر لهم ماذا يقصدون بهم ، فإن تهاونت الدولة العثمانية أو تغافل المصريون حسبها الانجليز طريقاً مطروقة وسبيلا مسلوكة وعدوا مطامعهم حقائق ثابتة ومطالب مقررة لا نجح سعيهم ، ولا صدق ظنهم .

السودان ومصر

نشرت جريدة البوسفور أجيبسيان ، التى تطبع فى القاهرة ، خبراً ـ مصدره توفيق باشا نفسه ـ وهو أن الجنرال جوردون أنذر حكومته الانجليزية بأنها إن لم تمده بجيش ينقذه من الضيق الملم به فإنه يرفض الدين المسيحى ويدخل فى دين الاسلام!! وضمنت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجب) وغرابة الخبر إن كانت من جهة أنه تهديد بما لايهم الحكومة فنحن نعلم أن الانجليز يفزعهم خروج أحد منهم عن دينهم وإن كانوا يرشدون الناس إلى ترك الدين ويعيبون على المستمسكين به ، لكنهم أشد الناس تعصباً فيه فلا محل للغرابة ، وإن كانت من جهة أن جوردون ، وهو من أشد قومه تمسكا بدينه ، كيف يجنح للاسلام فهو إنجليزى الطبيعة كما هو انجليزى الجنس يتلون ظاهره بأى لون ويبرز فى أى ثوب لإصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه فلا عجب إن قال وفعل !!

فى خبر أن محمد أحمد طلب إلى أعوانه المحاصرين لخرطوم أن يأتوا إليه بجوردون حياً ولا يمسوه بسوء إذا وقع في أيديهم .

وفى برقية من أسيوط إلى جريدة التايمس أن مركباً من مراكب البريد وصلت إليها تحمل ثلاثة أشخاص مرسلين من طرف زبير باشا لاستكشاف حالة جوردون وتوجهت فى الحال بمن فيها إلى أسوان . هكذا الدهر أبوالعجب ، من سنين

قليلة فتك جوردون بأولاد الزبير وذوى قرابته وأفسد عليه شئونه وأخرجه عن جميع أمواله واليوم رأينا كدر الضغينة فى صفاء المحبة يبعث الزبير على الرأفة بجوردون وتوجيه الرسل للسؤال عن صحته والاستخبار عن سلامة حاله .

جاء الخبر أن أهالى جرجا (مدينة من مدن الصعيد مركز مديرية فى جنوب أسيوط) فى هياج شديد يشبه أن يكون ثورة ، وورد إلى تلك المدينة رجل من أشياع محمد أحمد قادما من القاهرة ودعا الأهالى للأخذ بطريقته فإذا بيتهم جم غفير يجيب داعيه ويذهب مذهبه وهو مما يدل على أن القائم السودانى مهتم بنشر دعوته محتاط لنفسه حاذق فى عمله وله دعاة فى أرجاء الديار المصرية حتى فى عاصمتها (القاهرة) فإن ثبت فى هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشتد الخطب ولربما صار له نفوذ ميل الأهالى إليه منعة يصعب على حكومة غير إسلامية أن تقارعها . أما ما ذيل به خبر الهياج فى جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها والمسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع لأن الأيام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين زمام الآخر فى جميع الأحوال التى عرضت على بلاد مصر . المسلمون والمسيحيون فيها على وفاق تام فى جميع نواحيها والمقاتل التى وقعت أيام الحرب الماضية إنما كان منشؤها إفساد المفسدين على أنه لم يمس فيها قبطى بسوء ، والأخبار الصحيحة تؤيد ما نقول .(١)

وأرسلت الحكومة المصرية الآلاى السابع من المشاه إلى أسوان مع جملة من المدافع الجبلية وعدد وافر من الجمال .

(١) شكراً لله فما من زعيم أو مصلح شهدته أرض الكنانة إلا وقد كانت رابطة محبة الأديان رائده ... فالتعصب سرطان يفتك بأبناء الوطن الواحد ويشل نشاط أبنائه ... فتنفتح ثغور .. تتسلل منها نفوس عفنة تهدم فى الظلام ما تبنيه الأمة فى أجيال . وقد حذر الأفغانى مسلمى مصر ومسيحييها من شر هذه الفتنة وهو فى باريس ، فنعم الرجال ونعم الأخلاق .

وفى برقية من سواكن إلى جريدة الديلى تلغراف أن مناوشات وقعت من أتباع محمد أحمد بالقرب من سواكن ، وفى جريدة التايمس أن الثائرين أطلقوا مدافعهم على تلك المدينة فى الساعة الثانية صباحاً من الثامن والعشرين من شهر مايو ، إلا أنه لم يصب أحد من الحرس وتقهقر الهاجمون بسرعة .

عثمان دجمة — مع ألف من رجاله — نازلون على القرب من طهانيب ومعظم قوته حالة بتلك البلدة ويقال أن بنفوس عساكره كدراً من قلة الازواد[1] وهو من أخبار العدو يسمع وقد لا يصدق .

وإن الأميرال هفيت المبعوث من طرف انجلترا لخديعة الملك يوحنا ملك الحبشة لم يحظ عند الملك بقبول .

أراد رجال الانجليز أن يخففوا على القلوب المنخلعة من أبناء أمتهم أهوال السودان وما يتوقعونه من مصائبه فأشاعوا ظهور شخص يدعى المهدوية فى دارفور ويقول أن محمد أحمد ليس إلا تلميذاً له من قدماء تلامذته ، وكان الانجليز يستبشرون بتفريق كلمة السودانيين كما يسرهم تخالف المسلمين أجمعين .

---

(١) يقصد عدم زيادة المرتبات .

فرية دنيئة على الاسلام !

فى برقية وردت لجريدة الديلى تلغراف من القاهرة فى ٢٧ مايو ١٨٨٤

أن زبير باشا طلب إلى سراى توفيق باشـــا ، بناء على إشارة الحكومة الانجليزية ، والتمس منه المستر أجرتون أن يجد وسيلة لإرسال مندوب إلى جوردون باشا يأمره بالعودة حالا . واتباعاً لأمر توفيق باشا بعث الزبير بأحد خـدمه لأداء هذا العمل وكانت فرصة انتهزتها حكومة فرنسا لاستدعاء قنصلها فى خرطوم . وقد ضمن الزبير وصـول المندوب وعودته بالجواب فى خمسين يوماً اهـ . إن صح هـذا دلنا على أن جوردون ليس معززاً برجال أولى بأس وشدة كما جاء فى البرقيـــات وأن الانجليز عجزوا عن إنقـاذه بقوة حربية وإن كانوا ربما يقصـدون الحرب لغاية أخرى .

ونقلت الجرائد الأوروبية ما يعجب من نسبته لزبير باشا . ذلك أنه أشخص ثلاثة من أولاده إلى رؤساء الثائرين ومع كل واحد منهم كتاب إليهم وهذا مفـاده نذكره ترجمة من تلك الجرائد بلا تصرف فى عباراته :

شـكراً للخديوى ولدولة بريطانيا العظمى وللجنرال جوردون . كل أملاكى التى انتزعت منا سترد إلينا . يا أحبابى ويا أهل وطنى إنى أبعث إليـكم أولادى الثلاثة مصحوبين برقيم إلى الجنرال جوردون فدعوهم يصـلوا إليه وسهلوا سبلهم وأقسم عليـكم باسم النبى وأسماء أجدادى الذين أكرموا الأسراء أن ترافقوا

جوردون إلى كورسكو وأن تعاونوه حتى يعلو متن النيل . كل معاملة تسىء الجنرال فهى تكسر خاطرى إلى الأبد . وأنا وعيالى هنا رهن الى أن يعود الجنرال جوردون فإن عاد صحيحاً سالماً فمحمد يحفظكم أبد الآبدين اه !!

وأنا أتبرأ ما فى هذا الرقيم(١) ونسبته لزبير باشا فإنا نعرف الرجل مسلماً فقيهاً فى دينه عالماً بفروضه وهو من سلالة العباس عم النبى ﷺ وفى نفسه حزازات مما نكاه به الجنرال جوردون عندما كان حكمدار السودان ، وليس من أحد يحفظ تاريخ جوردون ويحصى سيئاته كزبير باشا ، علمنا ذلك منه وهو يتنفس الصعداء من ذكرى مصائبه أيام كنا فى مصر ، فكيف يمتدح الانجليز ويشكرهم وكيف يقوم بعمل يعود بالنفعة عليهم اغتراراً بما وعدوه من رد أملاكه إليه وهو يعلم أن كل مايفيدهم لايزيد قدمهم إلا رسوخاً فى أوطانه ومن لاحظ أسلوب الرقيم تبين له أنه ليس بأسلوب عربى خصوصاً ما جاء فى خاتمته من الدعاء فإنه لم يعرف فى عبارات المسلمين ما يشابهه. فمحمد لا يحفظ أحداً بل الله على كل شىء حفيظ . فلا يبعد أن عدو الزبير أراد أن يشوه سيرته فرماه بهذه النسبة أو أن يكون الرقيم من مخترعات بعض الجرائد الأوروبية للتلميح !!

(١) الرقيم : الخطاب .

صراع بشأن تثبيت الاحتلال ! !

وجاء فى برقية من برلين إلى جريدة (جازيت دو كولونى) ثبت أن من عزم دولتى فرنسا وانجلترا أن تتفقا قبل انعقاد المؤتمر على موضوع البحث فيه كما اتفقت دولتا الروسيا وانجلترا على مدار النظر فى مؤتمر برلين قبل انعقاده بواسطة اللورد سالسبورى والكونت شوفالوف . كل من الدولتين المتفاوضتين تمد نظرها إلى ماعسى أن تؤول إليه مداولات المؤتمر وتحدده وتقدره (ثم تدخل فيه على أن تكون الغاية ما قدرت) .

ربما حلت الدعوة إلى المؤتمر محل القبول عند بعض الدول إلا أن رضاء الباب العالى شرط فى قبول حكمه والتسليم لقضائه ولو أن دولتى النمسا وألمانيا أوالدول جميعها قضت بأن يكون من قواعده الأساسية إجابة جميع الدول التى دعيت إليه مؤقتاً لم يكن قاضياً بوجوب الإذعان لما يبرمه وهذا هو شأن المؤتمر بالنسبة إلى الباب العالى على أى حال .

وقالت جريدة التايمس ، تيسر لوزارة انجلترا أن تتغلب على مجلس النواب لكن ليس لها أن تعتمد على هذا الظفر المهين وعليها أن تستفيد فى مدة البطالة لعيد العنصرة فتنجو بما تستفيده من الخطر العظيم الذى ربما يحيق بها من المفاوضات الجارية بينها وبين وزارة فرنسا ، وتساهلت الوزارة فى عقد عهدة تخالف مصالحنا مع شركة قناة السويس ثم نجحت فى التملص من قيودها ومزقت المعاهدة وتركت مسيو ديلسبس على

أرض قفراء وليس بالسهل عليها أن تسلك اليوم ما سلكت فى تلك الأوقات . فلو رفض البرلمان ما انتهت إليه المفاوضات فى المسألة المصرية لما أمكن للوزارة أن تبقى فى مساندها . وإذا تعذر الوصول من هذه المفاوضات إلى غاية صالحة أمكن الوزارة أن تتنحى عن العمل ، أما فرنسا وسائر الدول فليس لها أن تطالب مجلس العموم فى انجلترا بمنحة شحت بها نفوس أهالى بريطانيا كافة ورفض السماح بها عموم الآراء فى بلاد الإنجليز (يريد بالمنحة ما تفضل به وزراء انجلترا على الدول من دعوتها للمباحثات فى أحوال مصر) .

الشبات الشبات

حملت قوة الثائرين على مدينة بربر فافتتحتها بعد ما فتكت بجميع حاميتهـا ولم يبق موضع للريب فى استيلاء أعوان محمد أحمد على تلك المدينة وبعد تمكنهم فيها . زحف منهم ثلاثون ألفاً لمهاجمة دنقلا ، وفى برقية من كورسكو إلى التايمس بتاريخ ١٣ يونيو أن محمد أحمد زحف بنفسه مع خمسة وثلاثين ألفـاً لفتح دنقلا وله أمل فى الفوز قبل أن يهل رمضان ، وقد بعث برقيم إلى مديرها وسماه أميراً عليها ومد سنة السلطنة فيها مع ما يليها .

وانقطع الطريق بين دنقلا ووادى حلفا وامتنع سلوكها وأيست الحكومة المصرية من صيانة تلك المدينة فأصـدرت أوامرها بتمهيد سبيل لرجوع حاميتها إلى مصر وشعرت حكومة انجلترا بتعاصى الفتنة فعملت على إرسال نجدة لإمداد حامية خرطوم كما أكدته جريدة (المورننج بوست) الإنجليزية قنوطاً من نجاحها ، وعثمان دجمة يشتد عضده يوماً بعد يوم وله فى كل ليلة هجمات على مدينة سواكن بل وعلى بعض المراكب فى البحر .

أخبار ما نزل ببربر وما يتوقع نزوله بدنقلا وغارة الثائرين على معسكرات الحكومة فى وادى حلفـا كل ذلك أحدث اضطراباً شديداً فى أسوان وهيجاناً فى خواطر الكافة من أهل الصـــعيد وربما يخشى من وقوع مالا تحمد عاقبته على الناكثين .

هذه مرابك الإنجليز فى مصر وهم فى أوحالها لا يفترون عن السـعى

إلى ما يثبت قدمهم فيها . وجاء فى برقية إلى وكالة هافاس أن الجند المصرى دخل بأسره تحت إمرة الجنرال استفانوس (قائد جيش الإحتلال الإنجليزى) فصار الجنرال كأنه وزير الحربية وتحول الجند الوطنى إلى انجليزى وجيش الاحتلال إلى حامية مصرية ثم هم يسعون لالزام توفيق باشا بنصب ثلاثة مفتشين من الانجليز أحدهم فى القاهرة والثانى فى مصر السفلى (مفتش وجه بحرى) والثالث فى مصر العليا (مفتش وجه قبلى) على أنهم لا يعزلون إلا بأمر من انجلترا فتنقلب الادارة انجليزية محضة لا يبقى فيها لحكام مصر إلا نهاية حال الذليل . الامتثال والطاعة : تصرفوا فى الأراضى المصرية العثمانية تصرف المالك فمنحوا منها بقاعاً وفرضا على البحر لملك الحبشة ، وحالفوه على أن يسوق جيشاً ينازل المسلمين فى أراضيهم ، رجاء تذليلهم وإخماد أنفسهم وفى أثناء هرولتهم إلى مطامعهم يثيرون فى أعين الدول غباراً ، ويرفعون جلبة ، ويصيحون بأن لا غرض لنا إلا إقرار الراحة وإعادة النظام ، ويقيمون الحجة على إخلاصهم برغبتهم إلى الدول فى مساعدتهم على حل بعض المشاكل المالية ، مع أنهم لا يرغبون عقد المؤتمر إلا لينالوا منه ما يزيد قدمهم رسوخاً فى مصر . وعلموا أن لفرنسا مصلحة فى مناوأتهم فطفقوا يهددونها بالتحالف مع ألمانيا أو التقرب إليها إن لم تتساهل معهم ليحملوها بالتهديد على الرضاء بإبقاء عساكرهم فى مصر إلى سنة ١٨٨٨ تحت اسم إقرار الراحة ،على شرط أن لا يكون بعد مدة إلا بإجماع جميع الدول التى يكون لها نواب فى المؤتمر ، بحيث لو وافقهم إحداهن على إطالة المدة فيما بعد ، لكفى فى تمديد الأجل أو إطلاقه وليس بخاف ما يقصدون من هذا الشرط . فإنهم يعلمون فى اختلاف مصالح الدول وتضارب السياسات مالايعدمون معه وسيلة لارضاء دولة واحدة فى زمن من الأزمان بالموافقة على مد الأمد ، ولا نخال دولة فرنسا يقف نظرها دون هذا الحجاب الرقيق وهو يشف عن ملم عظيم لا تسلم منه مملكة من ممالكها فى الشرق ، ولا نظنها تذعن لقبول هذا الشرط ، وان قبلته دولة لا مصلحة لها فى مصر ولا يهمها لا معاكسة فرنسا .

فكأنما سلك تصرف الإنجليز من خمس سنوات فى سلسلة من الألاعيب نهايتها للتسلط على مصر فى هذا المؤتمر بدعوى ، ثروة المالية المصرية ، وأن عجزها من الخيانة فيها وتوسلوا بذلك لانقلاب فى هيئة الحكومة ثم الجاءوا عرابى للدخول فى العصيان ليعتلوا به فى الزحف لتأييد الحاكم ثم وسعوا دائرة الخلل ليكون وسيلة إلى سلطة لا تحد يؤملون نيلها فى هذا المؤتمر . زينوا للدولة العثمانية أن تصول على السودان مع وجود عساكرهم فى مصر ، ثم تخرج وقد مهدت لهم مصر والسودان معاً . فلما لم تنخدع لهم وحق لها أن لا ترضى شدوا عليها بالتهديد قائلين أنهم لا يسمحون لعسكرى نركى أن يذهب إلى السودان من بعد ولو لم تقبل الدولة العثمانية حضور نائب لها فى المؤتمر على أنه منحصر فى المالية فإنه سينعقد بدون رضاها . ولئن كان الإنجليز صادقين فى طلبهم ، إقرار الراحة فى مصر ، لوكلوه إلى عساكر العثمانيين وفوضوا الأمر لحازم حاذق من أمراء المصريين فإن فى ذلك إطفاء للفتن وتثبيتاً للسلم ولاخوف من الدولة على الإستقلال المصرى فليس من شأنها أن تنقض عهد دولة واحدة فى هذا الوقت فضلا عن عهود الدول ولكن لا يهولن الدولة هذا التهديد فدعوة محمد أحمد بلغت فى الهنديين وتغلغلت ، وخبر قرب الروس منهم ملأ آذانهم ، والإنجليز يتوقعون الفتنة فيهم ساعة بعد ساعة ، والقوة الإنجليزية قاصرة عن مدافعة محمد أحمد ، فلو ثبتت الدولة العثمانية لخضع الإنجليز لقوة الحوادث رغماً عنهم ، فإنهم يفرقون من أن يشاع عنهم أنهم مضادون للدولة العثمانية فالثبات الثبات والله المستعان .

برهمن لاهـــور

قد انكشفت (لفندت اللاهورى صاحب جريدة أخبار عام) أن ما أنذرنا به عند دخول الروسية فى مرو من وشك دخولها فى سرخس ليس من قبيل كان ويكون وسيكون ، فقد دخلت الروسيا مدينـــة سرخس برضاء من التركمان كما قدمنا في العدد الماضى فليس له أن يستبطىء سير الهول الشمالى ليدكدك أسوار الحكومة التى يظهر المدافعة عنها (وهى الحكومة الإنجليزية) فعما قريب تظله هبوة الزحف فى أرض بنجاب تحت جدران داره وله بعد أن رأى ما رأى من صدق مانقول أن يطمئن إلى ما ننبىء به فيما بعد فإننا نحكى عن طبائع الأمم وحقائق السياسة ومقتضياتها وليس يغنى ظنه من الحق شيئاً .

هـــذا

سررنا بملاقاة أفاضل من أرباب الجرائد فى مصر أتوا إلى أوروبا ليحضروا مؤتمر فى لندن ويقفوا على دقائق المفاوضات التى تجرى فيه متعلقة بالمسألة المصرية وينشروها مع ما تجود به قرائحهم من الرأى الصحيح فى جرائدهم تنويراً للأفهام ، وتنبيهاً للأفكار ، فحمدنا سعيهم ، وشكرنا صنيعهم ، وأعظمنا همتهم ، فى خدمة البلاد المصرية ، قياماً بما فرضته عليهم الجامعة المشرقية ، وما أوجبته ذمة الجوار ، وإن لم يكونوا ممن نبت فى تراب مصر ، ولا جبل من طينتها ، ولكننا أسفنا غاية الأسف على احتمالهم لهذا العمل العظيم أفذاذاً بلا معززين لهم من أبناء الديار المصرية لا من المسلمين ، ولا من المسيحيين ، أولئك الذين حفت بهم المكاره ، وداهمتهم مغيرات الرزايا من كل جانب ، ولهم فى البلاد نسب صريح ، وورثوا ما أقاموا فيه عن آبائهم وأجدادهم ، من أجيال طويلة ، وفيهم عارفون باللغات الأجنبية على اختلافها ، ومنهم من نال شرف المعرفة على نفقة بلاده ، وإنما كانت تعده البلاد لمثل هذه المهمات . ألا يوجد بينهم شاب يغلى دمه وتجيش أحشاؤه لما نزل بدياره ، وبنى وطنه ، مما يتألم له العالم أجمع ، أو إن لم يكن هذا ففتى يعظم همه ، ويسمو عزمه ، فيطلب ذكراً رفيعاً ، وثناء باقياً ، فتنهض همته للشكاية من مصابه ومصاب إخوانه ، أو لارشادهم إلى ما به النجاة ، وما يتوسلون به إلى الخلاص ، ألايوجد شيخ قضى وطره من الدنيا وفاضت عليه البلاد بخيرها يتذكر نعم الأوطان عليه ، فينبعث لأداء شكرها بما يستطيع من خدمتها ، ألايوجد من هؤلاء وهؤلاء أغنياء لايخافون إعداماً فيتسامحون فى بذل شىء من فضل ما لهم ينفقونه على أنفسهم فى طلب

الانصاف لدى الدول التى يهمها النظر فى شئونهم ، ألا يوجد فيهم من ورث عن آبائه ثروة واسعة وهو يبددها فيما لا يعود عليه بمجد ثابت ولا شرف دائم ، فيجعل الانفاق على نفسه فى السفر لهذه الغاية المحمودة داخلا فى دائرة إسرافه .

يا عجباً ما هذا الخمول ، ولم هذا الانزواء للذهول ، عما رزئت به أوطانهم ، كيف وأسنة الحوادث مصوبة إلى أفئدتهم ، وألسنتها تلغ فى دماء قلوبهم ، العوز والحاجة ، كيف وإنا نعرف فيهم الأغنياء والموسرين ، ومن لا تنفد ثروتهم إلا بأيدى أعدائهم المتغلبين ، إذا استمروا فى تماديهم هذا ، الشح والحرص ؟ كيف وفيهم الأسخياء ومن أشرفوا فى البذل على الاسراف والتبذير ، فيما لا ينالون منه إلا مدحه فى الوجه ، ورفعة لا وجود لها إلا فى الوهم ، الخوف والجبن ؟ كيف وقد بدا لهم أن الخطر فى سكوتهم أشد من الخطر فى عويلهم وصياحهم ، الراحة مفقودة ، والنظام مختل ، والحقوق ضائعة ، والفتن محدقة بهم . والأجانب ضربوا خناجرهم على حناجرهم ، فلو لم يتداركوا أنفسهم بالسعى فى كشف هذه البلايا لأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم بل الخطر كل الخطر إنما هو فى إهمال مصلحة الوطن ، وليس على ساع فى خير وطنه وملته فى خطر . إذا أتى البيوب من أبوابها ، وطلب الغاية بأسبابها ، فمن أى شىء يخافون ، وأى سلطة يرهبون ، إن لم يكن لجراح الوطن أثر فى أفئدتهم ، فأين الاحساس الطبيعى المودع فى نفوس البشر ، الباعث على المباراة والمنافسة إنا لله وإنا إليه راجعون .



العدالة الانجليزية !

الركون إلى العدالة والسكون إلى الأمن والراحة من الأمور الطبيعية فى الإنسان وهذه حقيقة أدركها الجنس الإنجليزى الشريف لهذا تراه يجوب الأقطار ويتقلب فى الأمصار حاملا على أحد عاتقيه علم العدالة وعلى العاتق الآخر لواء الأمن والراحة رجاء أن يملك أهواء العالم أجمعين وينال الكرامة فى جميع أنحاء المسكونة .

إلا أنا نعجب غاية العجب لجفلة الناس من ألوان هذه الأعلام وفزعهم من الاستظلال بظلها ومن تفيأه يوماً فزع للانتباذ عنه فى آخر ولو لفحه لهيب جهنم ، هؤلاء الإيرلنديون من جنس الإنجليز وعلى دينهم وينطقون بلغتهم ولا يوجد بينهم وبين سكان بريطانيا العظمى فرق إلا فيما لا يعد الاختلاف فيه خلافاً حقيقياً من عقائد المذهب الكاثوليكي والبروتستنتى ويصح أن يقال أنه خلاف فى فروع الدين لا فى أصوله . وجزيرة إيرلندا تعد جزءاً أصلياً من مملكة بريطانيا وسكانها يعدون عنصراً داخلا فى قوام الأمة وعليهم بسط جناح المرحمة الإنجليزية من أجيال طويلة حتى حسب الجميع أمة واحدة ، ومع ذلك ترى آلافاً مؤلفة من الإيرلنديين يهجرون أوطانهم ويهاجرون إلى أمريكا ويتخذونها سكناً لهم فراراً من عدالة الإنجليز ، وكل يوم ترى المحترقين بنيران الحمية منهم يخاطرون بأنفسهم فى أعمال يقصدون بها هدم السلطة الإنجليزية وإهلاك القائمين بها ، وفى كل يوم يخدون الأخاديد ويدفنون المواد الملتهبة (الديناميت) فى أماكن مختلفة من مراكز الحكومة وطرق مسير الكافة من الإنجليز تارة تحت قصر الملكة وأخرى فى مقاعد الوزراء وطوراً تحت دار الندوة وآخر فى جسور السكة الحديدية ليدمروا كل مكان بمن يقله ، وزاد ذلك حتى أفزع

الحكومة فى هذه الأيام وما من مدة تمضى إلا ونسمع بمواقع بين عساكر المحافظة الإنجليزية فى إيرلندا وبين الأهالى ، ومنها ما حدث فى ثامن هذا الشهر (يونيو) من معركة بين العساكر والعامة جرح فيها كثير .

هل جلاء الإيرلنديين وتهافتهم على الموت وسآمتهم من الحياة فى معاندة السلطة الإنجليزية ناشىء عن نفرتهم من العدل وكراهتهم للراحة والميل إليهما طبيعى فى فطرة البشر ، أظن لو كان عدلا حقيقياً يعرفه بنو الإنسان لما نبت عنه الطباع ، ولا آثرت الأنفس الموت على التمتع به ، ولا طلب الخلاص منه أقوام يتحدون مع أرباب السلطة فى الجنس واللغة والدين ، ولا فضلوا على مهاجرة الأوطان واحتمال آلام الغربة ، ومشاق التطوح فى أراضى لا يجدون فيها من العيش إلا لماجا (أدنى ما يؤكل) ولكنه عدل تفرد به الإنجليز من بين الحيوانات الناطقة من أحكامه أن توضع الجزية على كنائس الكاثوليك تؤديها إلى كنائس البروتستانت عن يد وهى صاغرة ، واستمر ذلك إلى عهد قريب ، ومن مقتضياته أن يكون الإيرلندى خادماً بل عبداً رقاً لأمراء البريطانيين لا يتركون له من لوازم الحياة إلا ما يشتغل به لتنمية ثروتهم وتوفير لذتهم — إن كان هذا العدل لا يوافق أذواق المتفقين معهم فى الصفات السابق ذكرها فكيف ترجى ملاءمته لأذواق الذين لا نسبة بينهم وبينهم ولا صلة تجمعهم معهم لا فى لغة ولا جنس ولا دين — هذا النوع البهيج من العدل ظهرت له آثار فى البلاد الهندية — دخلها الانجليز وهى أغنى أرض فى العالم ، وأخصب تربة فى المسكونة ، ، وسكانها أنعم الناس عيشاً ، وأوسعهم ثروة ، فإذا هى اليوم بسر العدالة كأنها صفاصف وأمرات (أراضى لا نبات بها) أهاليها حفاة عراة أذلاء ، رضوا من المعيشة بالشظف ، ومن القوت بالعلف ، وما يجدون ما به يقنعون ، تراهم بعد ما سلبوا أملاكهم ، وابتزوا ثروتهم ، واستأثر الانجليز بجميع ما كان لهم يطلبون التعيش فى المهن الدنيئة ولا يصلون إلى ما يطلبون ، يكون منهم الكاتب المنشىء

البليغ الحاسب يقطع الأرض سعياً من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية ليحصل خدمة ينال من أجرها ثلاثين فرنكا فى الشهر ولا يسعده الحظ بنوالها — ومن سنتين دخلوا مصر وهى أرض الراحة والسلام وأهلوها فى رغد من العيش ، وآمن من النوائل ، فإذا هى اليوم ببركة العدل الانجليزى ، وحسن الادارة البريطانية ، أرض الفتن ، ومجالات الحروب ، ومضارب الخلل والفساد ، قضت العدالة بحرمان آلاف من الوطنيين وطردهم من وظائفهم فى الحكومة ، وهم ذوو أهل وعيال لاعيش لهم إلا من رواتب الخدم الوطنية ، وحل محلهم فى الوظائف أخلاط من الانجليز وكسدت أسواق التجارة وغلت أيدى الزارعين عن العمل فى الفلاحة بفقد الأمن وعموم الاضطراب وامتنعت الأرض عن الانبات بإهمال الأعمال العامة واستولى الفقر على الفلاحين حتى عجزوا عن وفاء ديونهم وقصرت أيديهم عن أداء ما عليهم من الضرائب لحكومتهم .

ومع كل هذا ترى الانجليز لا تأخذهم ريبة فى أنهم عادلون قوامون بالقسط ، وإن حلولهم فى أى قطر وسلطتهم على أى شعب مقرونة بالسعادة والرفاهة والأمن والراحة ويعجبون كل العجب من انحراف المصريين عنهم ونفرة قلوبهم منهم ويقولون يا سبحان الله كيف يوجد بين جمعيات سرية أو جهرية تتخالف على بعضهم وتجتمع الألفة من العبودية لهم وكيف يختلج فى خاطر مصرى أن ينقم على الانجليز .

ولما أحسوا بحركة الخواطر واشتعال الحمية فى نفوس بعض المصريين وتوجسوا الخيفة من إقدامهم على كلمة الحق وهى بلادنا لنا ، ونحن أعلم بمصلحتنا من غيرنا ، ولا نريد أن نكون طعمة للانجليز ، أرادوا أن يقيموا برهاناً على عدلهم ويوطنوا النفوس على الرضا بحكمهم ويمحوا كل ضغينة من قلوب المصريين بالقوة العسكرية ، كأنهم بإطلاق النيران وسل السيوف يودعون فى القلوب محبة ، وفى النفوس رضاية ، وهى طريقة جديدة فى إزالة التنافر وإيجاد التآلف وربما كانت سنة قديمة عند الانجليز .

وجاء فى برقية من مراسل التايمس فى القاهرة أن العساكر الانجليزية انتشرت فى شوارع القاهرة شاكية السـلاح لتعزيز قوة حفظ الأمن ، والحامل على ذلك ما تأكد عند حفاظ الأمن من الانجليز أن فى تلك المدينة جمعيات جهرية أو سرية أو أن فيها أشخاصاً مصريين يحبون بلادهم ولا يودون أن يكون السلطان فى حكومتها لأجنبى عنهم خصوصاً إن كان ظالماً فيهم ، أو أن فى تلك المدينة من يخطر بباله أن يقول كما يقول أدنى رجـل من الانجليز أن مصلحة وطننا مقدمة على كل مصلحة ، أو أن فيها من يحدث نفسه بأن الانجليز لا خير فى ولايتهم ، ويرى شقاء بلاده فى سوء إدارتهم ، فهاج غيظ مأمورى الانجليز وبعثهم على الشدة فى طلب الوقوف على مكامن أولئك الذين لا يميلون إليهم ليؤاخذوا كل ذى سريرة بما اختلج فى صدره من الانتقاد على أعمالهم ، ومن عزمهم أن يستعملوا من أجهزة الإضاءة ما يشرق به النور ليلا فى كل شوارع المدينة وأزقتها من القلعة إلى أضيق حارة فيها ليحققوا ما ظنوه ويكشفوا ما توقعوه (وهم فى عملهم هذا يراعون مصلحة المصريين ويأسفون على حالهم حيث كفروا نعمة النظام ولم يعترفوا للانجليز بهذا الاحسان الذى تفضلوا به عليهم من مدة سنين ويأسفون) ويرون من العدل أن تشرب قلوب المصريين مودتهم بقوة السلاح حتى تكون سيئاتهم حسنات ، وربما لا يتم لهم من ذلك ما يقصدون .

انجلترا وفرنسا

أصغت آذان الراغبين فى الوقوف على نهاية الحـوادث المصرية لاستماع ما يتحـدث به بين الحكومات الأوروبية من يوم دعت انجلترا جميع الدول العظام للاجتماع فى مؤتمر ينظر فى بعض المسائل المصرية . إلا أنها منعت دون حجاب الكتمان وإنما كانت تصل إليهـا دندنة أو جلبة أو غمغمة أو جمجمة وكل حس يصلها يثير رواكد الأوهام فتهيج فيها غرائب الصور والأشكال والمداعون من أرباب الجرائد فى أوروبا وهم أشبه بالداعين إلى الألاعيب والكموديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة ويتنافسون فى التمثيل والتصوير للتغرير والتهويل حتى أبرزوا الأرض فى صورة السماء والسماء فى صورة الأرض خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضـات التى كانت جارية بين وزارتى فرنسا وانجلترا ، فكان يخيل لمتصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمراكب والمدرعات يصادم بعضها بعضاً وأن فضاء البر أعضل بالجيوش المتلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلا وتجسم الخيال لأرباب الأذهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع العساكر وطرق المصاولة وجموع المتلاحمين تجول فى أذهانهم يميناً وشمالا ويموج بعضها فى بعض وكأنما كانت تخيلاتهم معرضاً لجيوش العـالمين وكان فى كل فوج داعياً وفى كل قبيل منادياً يقول حى هذا ، فهيعات تتعـالى وزفرات تتصاعد وأرغاء وأزباد وتقطب فى الوجوه وشزر فى المنـاظر وفى كل ذلك هول يأخذ بالألباب .

والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حق قدرهـا

كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحنى الظهر قدهوى بهامته إلى ركبته يتوارى من الناس خجلا بما ظهر من ضعفه وعجزه وأن حكومة انجلترا ستعود بالخيبة (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الأوغاد) وتقوت هذه الأوهام بما يطنطن أرباب الجرائد وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة وانبعثت رسل الأفكار تجوس خلال الشئون والأطوار ، لتصل إلى شيء من هذه الأسرار ، واجتمعت الأرواح فى الآذان لعلها تسترق سمعاً عن تلك المداونات ، وكمنت كل نفس فى مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبيء عن الحقيقة أو يقربها من الفهم ، والجميع واقفون وراء حجاب هذا اللعب الشائق وبعد طول الانتظار كشف الستار .

فإذا عائدة الانجليز جالسة فى هيكل آمون وبيدها تاج يحكى رأس الثور (تاج الفراعة) متهيئة أن تضعه على رأسها والملوك العظام وقوف بين يديها مستعدون لتهنئتها كأنما كانت هذه المفاوضات والمخابرات إعداداً وتجهيزاً لإجلاسها على كرسى ميناس الأول ورمسيس الأول لا حول ولا قوة إلا بالله .

قام رئيس الوزراء الفرنسى فى مجلس النواب خطيباً لبيان الإتفاق الذى عقده مع حكومة انجلترا ليرى النواب رأيهم وقبل ذكره أنفق ما لديه من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لإقناعهم بقبول ما أجراه تلطف فى الكلام وأبدع وصوب وصعد وأتى على ترغيب يشوبه ترهيب ويأس يحوطه أمل وأدرج فى طى خطابه أن فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء ، وبه نالت أشياء وأومأ إلى أن وزارته لو طلبت أزيد مما حصلت لأدى الأمر إلى ممانعة الحكومة الإنجليزية وأفضى الخلاف إلى انقلابها وربما يخلفها وزارة تطمح إلى الإستيلاء على مصر . وجاء فى نطقه بما حرك الطباع ومال بالأسماع حيث قال يلزم للسياسى قبل إبرام حكم أن يلاحظ جميع أطرافه

ولواحقه فهذه الكلمة الرفيعة جددت فى السامعين آمالا وظنوا أن المراقبة الثنائية قد أعيدت أو تقرر اشتراك فرنسا مع انجلترا فى الاحتلال العسكرى أو إبرام الحكم بخروج الإنجليز من مصر وبالجملة أنهم فازوا فوزاً عظيما وبعد مقدمات طويلات(١) بين الاتفاق فاذا هو بعد إمعان النظر على هذا النحو ، أن الإنجليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون وليس لنا أن نعارضهم فلا المراقبـــة الثنائية عادت ولا الإشتراك فى التداخل العسكرى أو النظر الإدارى حصل ولا قررت حرية القتال على أصل ثابت ولا تحقق جلاء الإنجليز على صورة قطعية ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين بل كما كان يلجأ إليه الإنجليز عند نهاية العجز على ما أشار إليه كثير من سياسييهم . فانقبضت صدور النواب فلما رأى(٢) شدة تأثرهم دفعة واحدة وأحس منهم القنوط حاول إحياء آمالهم بقبوله إنا سلكنا فى إتفاقنا هذا مسلك سائر الدول ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الإتفاق عن شىء مما عليه الاختلاف حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم — يوهم بهذا أنه وأن ترك كل حق لفرنسا فى مصر إلا أن الإنجليز أيضاً تساهلوا معه فى أمور . . . هذه المسامحة التى لم تكن منتظرة من حكومة فرنسا ذهبت بالظنون إلى ماوراء الظاهر المعروف ومنه ما بعث مراسل جريدة (التاج بلات الألمانية) فى فينا على قوله يظن ههنا (فى فينا) أن الدول ستعارض هذا الإتفاق رغماً عن كل وهم ا ﻫ . وليس ببعيد أن يكون نعير الإنجليز وهديدهم وإرهابهم للوزارة الفرنسية بالميل للألمان هوالذى دعاها لهذا التساهل الغريب ، بل حملها على ترك الحق بالكلية أو ربما ظن رئيس الوزراء أن إشتداده فى اقتضاء حقه أو حق من له بهم علاقة صحيحة يوجب تغييراً فى وزارة جلادستون فيقوم خلفها على الاغتصاب بالقوة وانتهاك كل حق فتضيع الحقوق الفرنسية بلا منة من فرنسا فى ضياعها . فسارع إلى موافقتها على ما تشاء وطرح مصلحة فرنسا فى مصر بين يديها لتكون المنة فى استيلاء الإنجليز على مصر للفرنسيين . ولكنا نظن أن هذا

(١) هكذا ذكرها الأفغانى وقد راعينا بقدر الإمكان الإبقاء على روح الأفغانى فى كتاباته !!
(٢) يقصد رئيس الوزراء الفرنسى .

النوع من المعاملة لا يفيد فرنسا أكبر مما يجلب عليها من الضرر فان التساهل وسوء السياسة الذى كان من الحكومة الفرنسية مع بريطانيا فى الهند عندما كان للأمتين منافسة فيه آلت إلى تغلب الإنجليز على جميع الممالك الهندية ورجع الفرنسيون بخفى حنين ولم يمح أثر ذلك الخسران من خواطر الأمة الفرنسية إلى الآن والمستقبل أشبه بالماضى من الماء بالماء . وقد يقال أن الحكومة الفرنسـية حولت نظرها عن مصر إلى جهة أخرى . وبقى رجاؤنا فى نواب الأمة الفرنسية فانهم وإن أظهروا ثقتهم بالوزارة بعدمجادلات طويلة إلا أنهم شرطوا عليها أن لا تبرم حكماً فى المؤتمر إلا بمشورتهم «اللهم حقق الرجاء» وإنا فى عجب من حرص مجلس البرلمان الإنجليزى حيث يعارض جلادستون فى هذا الإتفاق مع أن أقرب نتائجه الاستيلاء وقد طلب البرلمان من جلادستون مثل ما طلب نواب فرنسا من وزيرها . أما حقوق العثمانيين والمصريين فلم نر لها بين المتفقين ذكراً اللهم إلا أن يقوم أربابها على المطالبة بها . عند ذلك نرى لها فصلا بين هذه الأبواب .

الاتفاق

عهد بين وزارتى فرنسا وانجلترا تواطأنا عليه ليكون موضوع البحث فى المؤتمر ، وأشرنا إلى أن غايته تنازل فرنسا عن جميع حقوقها فى مصر ونفض يديها من كل مصلحة لها فيها والاعتراف لإنجلترا بالسيادة عليها وإن لم تذكر حروف السيادة وهذا ما يحتوى عليه من المواد .

الأولى : أن يستمر حلول الجيش الإنجليزى فى الأراضى المصرية إلى أول يناير سنة ١٨٨٨ (ثلاث سنوات ونصف) ثم لا يخليها إلا بعد انعقاد مؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الإخلاء لا يضر بالنظام الداخلى لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول ، فإن حصل اختلاف ولو من دولة واحدة ترى ضرورة إطالة المدة كان الخيار لدولة انجلترا فى الجلاء أو البقاء .

دولة انجلترا هى الدولة التى أطلقت مدافعها على مدينة الأسكندرية والمؤتمر منعقد[١] فى الاستانة من رجال الممالك العظيمة وفيهم نائب لفرنسا ولم توقر المؤتمر ولم تراع حرمة الدول ولم تتفق مع واحدة منها على العمل الذى باشرته ، فهل يعجزها فى خلال هذه المدة الطويلة أن تستميل دولة من الدول إليها حتى إذا انعقد المؤتمر بعد ثلاث سنوات ونصف ذهبت إلى أن إخلاء القطر المصرى من العساكر الإنجليزية يخشى منه على نظام البلاد ، أو سلم أوروبا فيكون حجة لانجلترا فى إطالة المدة وإن خالفها بقية الدول ومنطوق الشرط يؤيد حجتها ـ وكيف يمكن لبقية الدول إذا خالفت إحداها

(١) أعاد التاريخ نفسه بعد ٧٤ عاماً وأطلقت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل جحيم قنابلهم على مصر لينالوا مآربهم ويحققوا غايتهم وقد نجحوا فى قتل أبرياء وتحطيم مبان ولكنهم فشلوا فى القضاء على معنويات الشعب وروحه فى حياة حرة كريمة .

ان تلزم دولة بريطانيا بالخروج من ديار مصر بعد ما غلت أياديها بتقرير هذا الشرط وكتبت على نفسها أن الجلاء لا يكون حتما إلا إذا اتفقت عليه جميع الدول !! السياسات فى أوروبا سريعة الانقلاب والمنافسات لا تقف عند حد يحيط به النظر ومطامع كل من الدول لا تنتهى عند غاية فليس ببعيد بل هو أقرب من كل قريب أن توجد دولة فى دول أوروبا تشد عضد انجلترا على دعوى أن إخلاءها لمصر يحدث هزة فى سلام أوروبا وربما تكون تلك الدولة هى الدولة القوية التى يصعب على سائر الدول مخالفتها ولا تجد فرنسا عند ذلك موئلا تلجأ إليه سوى الرضاء والتسليم . إذا فرضنا عجز انجلترا عن استهواء دولة أوروبية توافقها على المكارة فى أحوال مصر وأن سياسة أوروبا وقفت على حالتها فى وقتنا الحاضر وأن جميع الدول تحالفت على قول الحق فهل تعجز دولة بريطانيا وهى هى عن أن تثير شغبا فى بعض الأرجاء المصرية بأن تغرى مالطيا بقبطى أو روميا بفلاح أو حمار فتسيل قطرات من الدماء تخيل كل قطرة منها بحراً وتنادى أن للفتن مثارات وللعصيان أمارات والنظام فى خطر ولها حق المحافظة عليه إلى أن تنقلب أرض مصر جنة يكون فيها أمم العالم إخواناً على سرر متقابلين . ولو اعتبر المسيو جول فرى بالمعاهدات التى عقدتها انجلترا مع السلطنة التيمورية وغيرها من ممالك الهند وكيف أقدمت تلك الدولة على نقضها ولم تبال فيه بعهد ولا ذمة لظهر له أن نقض روسيا لعهدها مع بولونيا ليس شيئاً يذكر بالنسبة إلى حفظ انجلترا لذممها مع تلك الممالك العظيمة . لو تأمل هذا الوزير فى الأعمال الإنجليزية للام نفسه فى الاحتجاج بشرف انجلترا على خلو غرضها واخلاصها فيما واثقته عليه . إن لم يكن فى خاتمة الشرط سر فلم اهتمت بها الوزارة الإنجليزية وألحت على تثبيتها . إن لم يكن لها غرض فى استمالها وقتها ، فلم أصدرت أوامرها بمد سكة الحديد من سواكن إلى بربر على نفقة الحكومة البريطانية . إن كان لمسيو جول فرى ثقة بمسيو جلادستون واعتماد على عفته وطهارة ذيله ، فمن يضمن له بقاءه فى رئاسة الوزارة إلى نهاية المدة حتى يوفى بعهده . فإذا استعفت وزارة جلادستون لعلة داخلية أو أزمة خارجية وخلفتها

وزارة تحت رئاسة اللورد تشرشل أو اللورد سالسبورى وهما من الطالبين الاستيلاء على مصر أو إعلان السيادة الإنجليزية عليها فأى مانع يمنعهما من الاستفادة من هذه الخاتمة السيئة فى مقصدهما المعروف .

المادة الثانية ألغيت المراقبة الثنائية وسيعوض عنها بتوسيع السلطة لقوسيون الدين العمومى فيمنح حق الاطلاع على مصاريف الحكومة والاعتراض على ما يزيد منها عن المقرر فى الميزانية ويكون له ذلك ابتداء من سنة ١٨٨٥ وميزانية تلك السنة تحصرها حكومة انجلترا وتعرضها على المؤتمر الدولى ليقرر ما تحويه على أن يكون قانوناً للنفقات لا يخالف إلا لضرورة تخرق النظام وفيما بعد سنة ١٨٨٥ يخول لصندوق الدين حق مساعدة الحكومة المصرية على تحضير ميزانيتها السنوية بمعنى أنه تعرض عليه قبل تقريرها ليبدى فيها رأيه . إلا أن ما يكون له من الرأى فى جميع الأحوال ليس إلا استشارياً محضاً لا ينقض ولا يبرم فاذا انجلت العساكر عن مصر يكون له حق المراقبة على تحصيل الايرادات جميعاً وضبطه على قواعد صحيحة وطرق منتظمة وبهذا يحور حقوق المراقبة الثنائية ما عدا الحضور فى مجلس الوزراء ورئيس القومسيون فى جميع الأحوال يكون انجليزياً — إن كانت مراقبة قومسيون الدين على تحصيل الايرادات لا تكون إلا بعد انجلاء الجيش الانجليزى . أفلا يكون هذا أملا من الآمال ربما لا ينال وهو يكون فيه عرض حقيق عن المراقبة وهو من رسوم الخيال وبينه وبين الثبوت أمد غير قصير . إن رضيت الأمة الفرنسية بتنقيص فائدة الدين لهذا الأمل الموهوم فقد خسرت كما قالت جريدة (لاجوستيس) خسارة محققة لوعد لا كافل لها بوفائه .

المادة الثالثة إحماء مصر والمكافلة لها « ما يعبر عنه بالحياد » بأن تجعل حكمه فى أفريقيا على أصول حكومة بلجيكا فى أوروبا وتحرير القناة أى إباحته ممراً لجميع مراكب الدول من أى نوع كانت فإن كانت الدولتين متحاربتين ضرب لبقائها

فيه مدة لا يسوغ فيها إنزال عساكر أو ذخائر على حافتيه ولا تباح المناوشة فيه ولاعلى القرب منه ولافوق شيء من المياه المصرية وإن كانت الدولة العثمانية إحدى المتحاربتين إلا أن شيئاً من هذه القيود لا يحذر أخذ الاحتياط للدفاع عن مصر نفسها إذا دعت إليه أحوال وإذا ألحقت مراكب دولة من الدول ضرراً بالقناة ألزمت بتعويضه وعلى حكومة مصر أن تهيء مايمكنها من تنفيذ الشروط على المراكب الحربية مدة الحرب ولا يجوز أن يبنى على حافات القناة ولا على مقربة منه معاقل وحصون وهذه الشروط جميعها تقرر ويجرى حكمها بعد جلاء العساكر الانجليزية عن وادى النيل ـ وفاتحة هذا الفصل تنطق بأن الانجليز إن قصر بهم السعى عن التملك فى الأراضى المصرية فقد هيأوا كلاليب لاختطافها من أيدى المسلمين والانقلاب بها إلى قوم آخرين كما أشرنا إليه فى موضع آخر . هذا الذى صرح به من تشكيل الحكومة فى مصر على مثال حكومة بلجيكا هو الأمر العظيم الذى نوهه مسيو جول فرى وقال أنه من أجل أحكام السياسة وأسماها . وصحيح العقل يرتاب فى كونه حكما سياسياً فضلا عن كونه ساميا لما يلاحظ فيه من عواقب المكالبة والشحناء بين الأمم الأوروبية إلى أجيال بعد ما تقرر لديهم أن الشرقى لا يليق به أن يستقل بحكم نفسه !! فان خدعه الظاهر فربما يرى فيه خيراً لفرنسا أو لأوروبا بمعنى أنه أفضل لها من التملك الانجليزى . أما المسلم فيراه نكاية لملته والشرقى يجده خراباً لبلاده هذا الأود الذى ظهر فى سياسة مسيو جول فرى لايقومه إلا حمية الدولة العثمانية واشتدادها فى حفظ مكانتها السياسية وحرص مجلس النواب الفرنسى على حماية المصالح الفرنسية التى يسهل صونها بشيء من العزيمة وبصيص من البصيرة ولله الأمر يفعل ما يشاء . (١)

(١) تأميم قنال السويس ، وسده بقنابل الأعداء ، واستئناف الملاحة فيه بادارة مصرية ، خير ما يمكن أن يعتزا به الأفغانى ومحمد عبده ، لو بعثا من عليائهما .

الباب العالى

روت جريدة الديلى نيوز خبراً يسر كل مسلم يهمه نجاح الدولة العثمانية ويرى عزته فى عزتها وذلك أن الباب العالى يأبى أن يرى جيشاً انجليزياً يحتل مصر . ويرغب إذا اشتد العصيان أن يفوض الأمر إلى الخديوى الذى يتبع نصائح الدولة العلية صاحبة السلطة الشرعية عليه ، وكل شرط يرمى إلى جعل مصر تحت حماية أجنبية فليس عند الباب العالى فى موضع القبول لأنه يكون تمهيداً لاضعاف سلطة السلطان على تلك البلاد ويمكن أن يقبل الاتفاق الفرنسى الانجليزى فى غير هذين الأمرين (الاحتلال الانجليزى والحماية الأجنبية) .

وورد فى رسالة من مراسل جريدة نوفل بريس ليبر الفرنسية مناقشة جرت بينه وبين أحد السياسيين الروس نقلتها جريدة التان جاء فيها أن دولة الروس ستقاوم دولة بريطانيا فى مطامعها وتؤيد الدولة العثمانية فى مطالبها رعاية لمصالحها المرتبطة بمصالح العثمانيين فى المسألة المصرية وفى الاتفاق المنعقد بين دولتى فرنسا وانجلترا .

الانجليز والاسلام

الحكومة الانجليزية عدوة المسلمين عداء شديدا لالتهامها الممالك الاسلامية ، تغذ السير إلى آرابها منها سالكة جادتها المعهودة من اللين والمواربة والخديعة والمخاتلة ، فان بلغ بها السعى حداً من الغرض فذلك ، وإن عجزت أخذت طريقاً آخر لانتزاع قطعة من أيدى المسلمين بأية وسيلة وتسليمها لقوم من سواهم أياً كانوا كأن لها لذة فى نكاية أهل الدين وكأنها تبتغى السعادة فى تذليلهم ومحو ما يكون من ملكهم . وكمال بهجتها فى أن تراهم أذلاء عبيدا لا يملكون من أمرهم شيئا وفى تصانيف جلادستون وخطبه الضافية أيام الحرب العثمانية مع الروس ومقالات أشباهه نبأ بل أصدق الأنباء عما تكنه صدور الإنجليز من العداوة للمسلمين .

لهذه الحكومة طمع التمكن فى أرض مصر ولها من كل حبل قبضة وفى كل سبيل خطوة لتنال مطمعها . وهمتها اليوم فى إرضاء بعض الدول على استبدادها بالأمر فى مصر بما تسول لسياسيها من أوهام المنافع وخيالات الفوائد وفى تثبيط بعضها بالمراوغات والتهديدات . فان بلغت همتها مبلغ القصد فهو خير ما تطلب وإلا عقدت عزمها على نقل الولاية فى مصر من أيدى المصريين والعثمانيين إلى أيدى أقوام آخرين . هذا ما تشير إليه جريدة الديلى نيوز الوزارية « الانجليزية » عند كلامها عن قناة السويس حيث تقول : يمكن القطع بحياد القناة على الأساس الموضوع فى برقية اللورد جرانفيل المرسلة إلى الدول فى ٣ يناير سنة ١٨٨٣ وليست تلك الحيدة إلا حكما من أحكام النظام الذى وضعته الوزارة الإنجليزية ليكون قاعدة تقوم عليها هيئة الحكومة المصرية بعد جلاء العساكر عنها . ولكن لا يرى الإنجليز

فى حيدة القناة وحـــدها ضمانا صحيحا لوقاية مصر من غارة دولة أجنبية عليها ، ولا كفالة كافية لاستقلالها بل يمكن أن يذهب الرأى إلى ضرورة حيدة مصر نفسها بأن تحول حكومتها إلى حكومة سويسرية أو بلجيكية فى أفريقيا وتوضع تحت حماية الدول عموماً فتؤمن الإغارة عليها من إحـداها إذا آل الأمر إلى هذه الحالة « والعياذ بالله » فهل يسمح أرباب الحماية أو السيادة بتفويض أعمال الإدارة والقضاء والمالية للمصريين العارفين بشئون بلادهم : كيف نظن هذا وقد سجل عليهم الإنجليز أنهم أضعف من أن يقوموا بعمل جزئى أو كلى فى خدمة أوطانهم وأن من الضرورى لحياتهم أن يكونوا آلة صماء فى أيدى غيرهم من الأوروبيين . قد يعقب ذلك لو حصل تشكيل مئات من المجالس فى القطر المصرى كلها تشبه المحاكم المختلطة أما مجالس الفصل والقضاء ابتدائية واستئنافية ، فالأمر فيها بين ، وأما إدارة الداخلية والمالية وفروعها فلا تستقل بها دولة من الدول فان طبيعة الأمر تأباه فلا يتولى أعمالها إلا مجالس مؤلفة من أقوام مختلفة الأشكال واللغات متباينى الحكومات . ولوتفضل السائدون على المصريين عند بداية العمل لسمحوا بأن يكون فى كل مجلس واحد منهم إلى زمان محدود .

أولئك الأعضاء الأجانب وهم نواب دولهم لا يكون سيرهم إلا كما سار إخوانهم من قبل . كل منهم يستدعى من أبناء جلدته من يستخدمه فى وجه من وجوه الأعمال التى يولى النظر فيها وتقع بينهم المنافسات ثم تكون المحاباة كل يتغاضى عما يأتيه الآخر ليتغاضى الآخر عنه فلا تكون مدة حتى تضيق أرض مصر بالأجانب ولا يعود فيها مقر لوطنى ، هذا إلى ما يتبعه من إقامة عسكر مختلط للمحافظة فى المدن والأقاليم ، فلا يبقى للمصريين إلا خسائس الأعمال يفلحون الأرض ويعانون الأعمال الشاقة ولكنهم أجراء عسفاء لغيرهم يؤدون ثمرات ما يكسبون إلى من لا يعرفون ويخرجون عن جميع ما كانوا نالوه فى الأزمان الأخيرة من عهد محمد على

إلى الآن . ولا يمر زمن طويل إلا يصبحون كسكان الأمريكتين ينحسرون إلى بعض الأطراف القاصية عن العمران أو يندمجون مع الأجانب فلا يوقف لهم على أثر صحيح وتصير الأراضى المصرية مأهولة بأخلاط مختلفة كما فى أراضى أمريكا الجنوبية والشمالية ويقوم لفيف أولئك الأغراب مقام أبناء الأرض الصادقين وهذا مما لا يسر عاقلا « وأن راق فى نظر بعض المباركين » وأملنا فى الدولة العثمانية أن تقوم على قدم ، ثبت عليها الأسلاف الأولون وتقدم بعزيمة ثابتة على المطالبة بحقوقها فى مصر وإعادتها إلى حالتها الأولى قبل التدخل الانجليزى ثم تلقى بزمام الحكومة فيها إلى ذوى عزم من المصريين صيانة لحوزة الاسلام . وفى الظن أن دولة الروسيا لا تفوتها هذه الفرصة لمساعدة العثمانيين لتستميل إليها قلوبهم ولا تختلف عنها دولة فرنسا فان مصالح الدولتين فى فتوحاتهما بالبلاد الشرقية تقضى على السياسيين فيهما « إن كانوا كما يقال سياسيين » بالاتحاد مع العثمانيين .(١)

---

(١) مرة أخرى هذا هو المأخذ الوحيد على الأفغانى فهو لا يزال يصر فى صراعه الصحفى على طرد الإنجليز والأجانب واستبدالهما برمز الدولة العثمانيــة لأنها على حد قوله صاحبــة الحق الشرعى مع المصريين فى إدارة البلاد !!

الباب العالى والانجليز

يهتم المسلمون فى كل أرض بأمر ما يجرى فى مصر ، بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يجول فى نواحيها مقاتلا أو حامياً وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فإنها بهرة الإسلام وباب الحرمين الشريفين فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه والمسلمون فى قلقهم هذا ينظرون إلى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم فى سماء سلطتها الحسية والمعنوية يرجون منها عزمة ثابتة تنقذ بها الأراضى المصرية من تبوئ الأعداء ويحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الأمم ، وتصان بها ولاية الإسلام من السقوط فى حبائل هذه الدولة الداهية «دولة الإنجليز» التى أخذت على نفسها أن تبيد ولاية هذا الدين وتحول حابله على نابله ، هذا فضلا عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ملكتها على مصر فإن قضى فيها الأمر لغيرها « والعياذ بالله » أصبحت حقوق العثمانيين فى جميع ممالكهم معرضة للخطر ، فهذه دولة الإنجليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفاً لا يحس به عند بدئه ثم يذهب فى البدن فيفسده ويبليه بدون أن يشعر المصاب بالألم هكذا شأن الانجليز فى لينهم وتلطفهم وحلاوة وعودهم وتملقهم وخضوعهم يسلبون المالك ملكه بل الحى حياته وهو مأخوذ بما يشعذون له ولا ريب فى أن الإهانة التى تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين فى الشرق والغرب فإن كل مسلم وله الحق بعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الأقطار . إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون

بها ويحسبون أنفسهم فى عداد الأمم التى لم تذهب سلطتها ويعتقدون أن لهم سلطاناً قوياً فى الدولة العثمانية بل يرون أن خلاصهم من قيد الرق الانجليزى لا بد أن يكون يوماً ما بسعيها وقد أظهرت أيام الحرب الأخيرة آثار لحمتهم معها باللحمة الملية بما لم يبق ريبة لمرتاب فى شدة صلتهم بها .

لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية فى هذه الأزمان الأخيرة عنـدما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة وتصارعوا فى الفاوضات والمجادلات محاماة عمالهم من المصالح فى مصر مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة إرضاء لخواطر المسلمين عموماً واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها وحماية عن ممالكها وأهم مملكة منها إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالى إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المنعقد بين فرنسا وانجلترا فى المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب السيئة التى تنشأ من طول مدة الاحتلال الانجليزى فى مصر وأظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكف الانجليز عن حرصهم وغاية ما فيه أنه يستتبع مداعاة الدول والدولة العثمانية مع الانجليز وبرهن على أن بقـاء العساكر الانجليزية فى مصر ليس بضروى فى حل المسألة . فإن كانت الدول لا ترى فى العساكر الأهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل ، فالباب العالى مستعد لإرسال العساكر إليها على ما تقتضيه حقوقه فيها كما عرضه على الدولة البريطانيـة وجرى البحث فيه ولـكن حال دون الاجراء موانع سياسية . فإن لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثمانى بحل هذا الشكل فإنه يعرض عليها أن يحتل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين وفرنسيين وانجليز وإيطاليين وأسبانيين وإلى الدول تعيين الأجل فى الوجهين وزاد الباب العالى فى إعلانه هذا خدشاً لخواطر الانجليز حيث قال إن الانجليز قد أنهوا أعـمالهم فى محو العصيان وتثبيت سـلطة الخديو إلا أنهم لم

يأتوا فى تحسين حال مصر وتقويم نظامها إلا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة .

وإنا نقول كما يهتف به كل مسلم أن من فروض الدوله العثمانية أن لا تدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانجليز عنها وأن تكون همتها فى ذلك كهمتها فى الذود عن نفس الاستانة وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التى لا تعقب مطراً ، ومن الحق أن نقول أن فى مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا البيت البلورى « بيت العظمة الانجليزية » بحجر واحد فإذا اشتدت الأزمة تيسر لهم السعى فى الوئام بين الايرانيين والأفغانيين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا إلا كلمتين يستندان إلى أصل دينى قويم ، وعندها يعرف الانجليز مقام أنفسهم فى الأقطار الهندية والممالك الشرقية . هل تسلط الانجليز فى الأراضى الهندية الواسعة إلا بسبب المخاصمات المذهبية التى كانت بين الأفغانيين والايرانيين ، ولو نظرنا إليها نظر التحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ولا ريبة عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الأمم أيسر شىء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا فى نفوس المسلمين قاطبة . ولا يظن أن اعتصام الانجليز فى جزائر بريطانيا والهند يقصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لانقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك ، وانسداد المسالك بين الممالك العثمانية والانجليزية . فإن الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الأفغان والايرانيين واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين ، هذه طريق محمرة وبندر عباس إلى بلوجستان مفتوحة للسالك مطروقة للسابل وهى الطريق التى سلكها أول جيش إسلامى بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند . إن هذه لجولة لو كانت لأثارت فى وجوه الانجليز غبرة يضلون فيها عن رشادهم .

ومعلوم أن الحى لا يسلم نفسه للموت بلا مدافعة مادام قادراً عليها . يكفى لقيام مليون من المقاتلين الأفغانيين والبلوجيين ، تحرك خمسة آلاف عثمانى

إلى أحيائهم . لست أبالى أن أقول الحق إذا حصل التساهل فى أمر مصر وانفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة وعزت بعد هذا وسائل التلاقي فلتأت الدولة العثمانية على ما فى الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

أسف

غالت نائبة الدهر طراز العرب ، وزهرة الأدب ، صفينا أديب أفندى اسحق . فضى نحبه فى شرخ الشبوبية ، وعنفوان الفتوة ، وترك لنا قلوباً آسفة ، وشؤوناً فائضة ، إنا لله وإنا لله إليه راجعون .

حرية الصحافة والاستعمار !

أسف يصهر الجسم ويذيب الفؤاد وحسرة تفلذ الأكباد على قبيل من أمة أو شخص منها ذى همة يستعين الله فى عمل ينقذ أمته من ضعة أو يرجع إليها بمنفعة ثم يوجد له فى وجهة عمله من تلك الأمة من ينجم كقرن المعز ليفقأ عين العامل الفاضله فيقطع عليه أسباب العمل ويعرقله عن القصد ليكسب مدحة باطلة أو منفعة عاجلة وإنما مثل من يكون على هذه الصفة فى الأمة كمرض السكتة فى البدن أو الصدع فى الرأس أو الخبل فى العقل أو الشجى فى الحلق أو القذى فى العين . هؤلاء هم الذين يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله والحق ويبغونها عوجا .

لو كان فى هؤلاء العصال الطباع « الأعصل المعوج فى صلابة » بقية من الانسانية أو أثر من العقل يدركون به ما ينشأ من أعمالهم الجزئية من المضار الكلية ويشعرون بهذا الجرم العظيم الذى يدك الرواسى ويهد الشامخات ، لذابوا خجلا واستتروا عن الناس بحجاب العدم وتمنوا لو محيت أسماؤهم من لوح الوجود . ولكن يظهر من جرأتهم على خطيئتهم أنهم ذهلوا عن أنفسهم فلا يعلمون ماذا يعملون ، هذا العمل الصغير الذى يجلب على الأمة شراً كبيراً أو يحرمها من خير عام ليس فى وسع حكيم من البشر أن يحدد درجته من الخسة والسفالة ولا فى طوعه أن يحيط بكنه الفساد الذى ضرب فى طمع شخص يقدم على مثله ولا توجد كلمة ولا جملة ولا كتاب يفى ببيان حاله سوى أن يقال خائن ملته ووطنه .

أولئك أشخاص كثيراً ما يوجدون فى الأمم المعتلة يشبه أن يكون منهم صاحب جريدة « أوده أخبار » التى تطبع فى « لكنهو » من بلاد الهند انغض رأسه ورفع عقيرته على جريدة « أميرتا بازار برتركا » التى تنشر فى بلاد ـ بنجاله ـ كتبت هذه الجريدة « البنجالية » فصلا بينت فيه سوء معاملة الحكومة الانجليزية الهندية وخشونتها على الهنديين وإهانتها لهم واجحافها بحقوقهم وحرمانها لهم من خدمة أوطانهم وأثقالها عليهم بالضرائب الباهظة واستئثارها بجميع ما يكسبون من كدهم وتعبهم مع احتكارها جميع ينابيع الثرورة مما أوجب شدة الضيق والضنك فى عامة الأقطار الهندية وكان سبباً فى انحراف قلوب الهنديين عن الحكومة ونفرتهم منها . ثم انبعث هذا بقولها فليس لحكومة الهند بعد ذلك كله أن ترجو مساعدة رعاياها لها عند وقوع حرب بينها وبين الروس ولا أن تؤمل فى العساكر الهندية بذل أرواحهم فى الدفاع عنها فإن الجند يشركون الأهالى فيما ألم بهم ويألمون كما يألمون ، وليس من الحق لحكومة بريطانيا مع سلوكها هذا أن تلوم الهنديين إذا آثروا عليها دولة الروس واختاروها حاكمة لهم ، هذا مجمل ما قالت وأقل ما كان يترتب على هذا الكلام وأمثاله من الفوائد هو تنبه الحكومة الانجليزية لما خرجت به قلوب الأهالى وأحرجت صدورهم فتعدل مشربها وتقوم منهجها مع الهنديين وترفع عن كواهلهم بعض الضرائب الثقيلة وتمنح الوطنين بعض الوظائف فى الدوائر الملكية أو العسكرية وتكف عن إهانتهم وتذليلهم ليكون لها عدة إذا دهمتها أم صبور « الداهية أو الحرب الشديدة » من جهة الشمال .

وكان على الهنديين خصوصاً أرباب المعارف منهم أن يؤيدوا القائل فى قوله أو يحمدوا له سعيه أو يتركونه وشأنه لعل يستتبع ذلك خيراً كثيراً أو قليلا لأوطانهم وأبناء أمتهم ، ولكن وآسفاً بدل هذا يلتوى صاحب جريدة (أوده أخبار) ويجور عن جادة الصواب فى تقريع الجريدة البنجالية وتعنيفها ثم يطلب من الحكومة الانجليزية أن تمحو حرية الجرائد من بلاد بنجالة ، وهذه الجريدة وأن وصفها مقوم

الجرائد فى الهند (مدير المطبوعات) بأنها متملقة معممة للحكومة ، إلا أنه ما كان يخطر ببالنا أن تنحط وتسفل إلا هذا الدرك ولا أن ترتكب فى تملقها هذه الجريمة العظمى وهى طلب محو الحرية فى البنجالة وصد أبناء وطنها عن التنبيه على بعض حقوقهم وشكاية شىء من أرزائهم لا حول ولا قوة إلا بالله .

تركيا

ليس فى التعلات أعجب مما يتعلل به الإنجليز ولا فى المحاورات أغرب مما يستدلون به . لا مقدمات بينة ولا حجج قيمة وأقوى ما يكون من أدلتهم أولى به أن يكون فى معرض الهزل من أن يكون فى جانب الجد . ولكن أغرب من جرأتهم على الجهر بمداعبة الأمم بما هو أشبه بالترهات أصغاء الآذان لما يقولون وانصراف الأذهان عن بيان الهجو فيما يوردون وإظهار الوهن فيما به يتعللون ليتهتك الستار عن أغراضهم وتظهر خفيات مقاصدهم وترتفع الريبة عمن يخدعون بملاعباتهم .

إن الإنجليز ساقوا جيشاً إلى مصر وبوأوه أرضها مدة لا تزيد على سنتين فكان حلول جيشهم سبباً فى انحلال النظام واختلال الأحكام وعموم الفساد فى أرجاء البلاد حتى صار الناهبون وقطاع الطرق على نحو الجيوش المنظمة سرايا وكتائب تزحف للغارة على القرى والبلدان ضاحية بلا استتار وسرى الاختلال فى عموم الأعمال الإدارية والقضائية ففقدت الأمنية على الحقوق كافة وسقطت البلاد بسبب ذلك إلي درك من الضيق والعسر لم يكن يخطر على بال — وما كان شىء من تلك الفظائع ولا واحد من هذه المفاسد ولا قليل من هاته الشدائد موجوداً أيام الحركة التى سموها فتنة عسكرية واخترعوا منها دليلا على الفوضى وزعموا فيها وسيلة للتداخل بعساكرهم .

حالة مصر شاهدة على أنه لم يكن للاختلال فيها اسم ولا للفوضوية أثر إلا بعد ما وطىء الإنجليز أرضها ومع ذلك يزعمون أنهم ما أتوها إلا لتقرير الراحة وإصلاح النظام وإزالة الفوضى ويريدون أن تمتد إقامتهم فيها إلى أجل بعيد ليتمموا القصد

الذى أتوا إليه وشرطوا جلاءهم عنها برسوخ الأمن وانقطاع شأفة الاعتداء واجتماع خواطر الأهالى على الرضى بما يرسم عليهم من السائدين فى ديارهم والتسليم لما يقضى به فيهم — ألا يعجب من هذه التعلة — هل يوجد أبله فى أى أمة يظن فى المصريين الركون إلى السكينة ما دام الجيش الأجنبى متبوئاً ديارهم ، أليس وجود عسكر أجنبى تحت أنظارهم كافياً فى نفرة قلوبهم وازدياد شنفهم — الطبيعة تحكم باستحالة مايطلب الإنجليز منهم ، والتجربة من مدة سنين طبقت بين الحكم العقلى وبين الواقع الحقيق — هل يمكن سلامة خواطر المصريين من القلق بعد ما علموا أن الإنجليز لم يفتتحوا بلداً من بلاد الشرق إلا تحت راية هذه الحجج وعلى هذه الطريقة التى يسلكونها فى مصر وهل كان لهم سلطان فى جهة من جهات الشرق إلا بدعوى أنهم يريدون فيها الإصلاح ثم ينجلون عنها أتقياء الرحات أعفاء الذيول .

ماذا يريد الانجليز من تقرير الراحة بعساكرهم فى مصر ؟ هل يريدون مكافحة اللصوص حتى يقهروهم على طرح السلاح ويقوا الأهالى شرهم ، إن كان هذا قصدهم فياخيبة الأمل فان شيئاً من هذه الفظائع لم يكن إلا وجيوشهم نازلة بالبلاد ، فكأنما كانت تلك الجيوش مثاراً لهذا الفساد مضى عليها سنتان وهى فى معاقل مصر وهبت أعصار السوء بقدومها وكلما طال الزمن زاد الخطر وقويت عصابات الشر فماذا قيل يكون منها فى ثلاث سنين ونصف إلا مثل ما كان من أثرها فى سنتين أو أشد فتنة . فكيف يعقل أن يكون بقاؤها فى مصر مفيداً لرد الأمن إليها ، وهل تكون علل المفاسد مجلبة للمصالح . نعم يكون هذا إذا قيل أن حضو الرمضاء يطفئها أو أن وقود النار يخمدها ، هل يقصدون من تقرير الراحة إخماد فتنة السودان . إن صح هذا القصد منهم فمتى سعوا إليه وأى جيش ساقوه وأى قوة وجهوا بها لتكسر سورة الثورة وتمحو أثرها . تهافتوا بجيش عظيم على منازلة رجل من رجال محمد أحمد (عثمان دجنة) فى سواحل البحر الأحمر فما كانت إلا مهارشة هرت فيها العساكر وبلغ صوت

وقوف القواد إلى أقاصى المسكونة وارتد بهم الذعر إلى البحر وقفلوا إلى ديارهم يتلفتون إلى ما وراءهم خوفاً ورهبة . كان الواجب أن يتبعوا عثمان دجمة إلى بربر والخرطوم حتى يبددوا جنده ويلحقوا به صاحب الدعوة . فان عجزوا عن الكل فلا أقل أن يأتوا على البعض فما الذى صدهم عن سبيل القصد ، لو كانوا فيه من الصادقين رجعوا وتركوا جوردون باشا فى فم التنين ثم التجأوا إلى ملك الحبشة ليثيروا به حرباً صليبية تسود بها وجوه الكاذبين الذين يزعمون أنهم دعاة الإنسانية ورعاة التمدن . فماذا يكون من عساكرهم لو أقامت فى مصر أضعاف ما أقامت ، أظن لا يختلف المستقبل عن الماضى إلا بعظم خطوبه واشتداد نوبه .

هل يبتغون المحافظة على حدود مصر الأولى وحمايتها من هجمات السودانيين ويقفون عند حد المدافعة ولا يذهبون إلى ما وراء ذلك ، إن كانت بغيتهم ، فهى بغية البقاء فى مصر ما دامت مصر أو السودان سودانا ، لأن صيال الثائرين يتوقع فى جميع الأطراف من حدود مصر ماداموا قائمين بنشر هذه الدعوة بل كلما طال الزمن اشتد خطرهم وقويت أعضادهم وكل كرة لهم أو فرة تقوم بها للانجليز حجة فى ملازمة الحدود المصرية للدفاع عنها فلا يكون لحلول الجيش الانجليزى بأرض مصر أمد ينتهى ولا أجل ينقضى . فما لهم ينبسون على الدول والدولة العثمانية والمصريين بتحديد مدة الحلول إلى ثلاث سنوات ونصف مع سرد الألفاظ المبهمة كتقرير الراحة وحفظ النظام وإعادة الطمأنينة ألخ مما يسمع ولا يفهم .

وليس من المبالغة أن نقول أن حـــلول الجيش الانجليزى كان وسيكون من أعظم الأسباب لقوة محمد أحمد ولولا وجود العساكر الإنجليزية فى مصر ماتمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة العظيمة ولقد كان يتبرأ من نسبتها إليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين بل ما كان يجد أحداً يلبى دعوته أو يدخل تحت

رايته . هذه تواريخ الأمم وهذا سير طبيعة الكائنات ترشد المستبصرين إلى أن مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها فى أمة الا عند اشتداد الخطوب عليها وزحف الأغراب إليها . أى حجة لمحمد أحمد فى دعوة الناس إليه وأى نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول أن الانجليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر وهى فى عداد الأراضى المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ودعامة القوة الإسلامية فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعى الله فى مدافعتهم وانقاذ البلاد من رجسهم . وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء . هل يتوهم بعد سقوط خرطوم وجيش الإنجليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد أحمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم أنه منقذ المسلمين . هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق شعلته إلى أقطار إسلامية يخشى الإنجليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها فى الهند . قد نرى الحالة أقرب إلى المخافة منها إلى الأمن وسيعلم الانجليز أنهم كانوا أحوج الناس إلى السلم وأفقرهم إلى القناعة .

أى قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار بل تردها على قائلها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان أو يذعن لها جنان . ليس لقوة أن تأتى بهذا الأثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين وأولى العزم من المصريين — هل تظن دولة بريطانيا أن عقد مؤتمر لتصفية الدين المصرى يبطىء سير محمد أحمد أو يخفف من وطأته أو يرده على عقبه فتنال مقصودها وتصبح آمنة مطمئنة فى ديار مصر . إنها إلى الآن فى عجز عن إرضاء الدول بقبول الأصول الابتدائية التى تحب أن تكون موضوعاً لبحث المؤتمر ـ إن تصفية الدين المصرى يهم انجلترا وحدها ولا نظنه يهم الدول ولا يهم محمد أحمد ، وإنا نرى الدول خصوصاً دولة الروسيا والنمسا والأمة الفرنسية مهتمة كل الاهتمام بكشف مقاصد الانجليز والنبش عن غاياتهم فيما كانوا شرطوه من تخصيص البحث بالمسائل الملية حتى أن شدة المعارضات وكثرة المفاوضات والاشتداد

من الدول في طلب تعميم البحث فى المؤتمر ليحيط بجميع فروع المسألة المصرية أحدث شكا عند صاحب جريدة التايمس فى انعقاد المؤتمر ودفع بالمسيو جلادستون إلى ربكة شديدة فهو من أمره فى حيرة لا يهتدى إلى ما يسكن به خواطر الدول بل ولا ما يقنع به أودآءه المخلصين بل ولا ما يوفق به بين زملائه فى الوزارة لتفرق كلمتهم وتباين آرائهم . أما قائم السودان فهو فى اعراض عن كل هذه المجادلات واغضاء عما يكون فى عرضها من المحاولات . سواء عنده انعقد المؤتمر على رغبة الانجليز أوعلى وفق الآراء العمومية . وهو منذ فى سيره ذاهب وراء فكره ولا يمر يوم من أيامه إلا ونسمع فيه بخبر فتح أو حديث زحف حتى جاءت الأخبار الأخيره بدخوله عاصمة السودان (الخرطوم) .

* وورد فى برقية من القاهرة إلى (الديلى تلغراف) بتاريخ ٣ يوليه أنه وصلت رسائل من بعض عساكر السودانيين وهم فى مدينة خرطوم إلى أناس يوثق بهم فى القاهرة ذكر فيها أن حامية المدينه ضعفت عن دوام المدافعة وأعلن محمد أحمد بتأمين جميع السكان على أرواحهم وأموالهم وأخذ على نفسه وقايتهم من كل ضرر يتوقعونه فبضعف الحامية وثقة الأهالى بوعد الفاتح فتحت المدينة بغاية السهولة فى نهاية شهر مايو بدون سفك دم وأن كثيراً من الأفرنج أسلموا وأن جوردون مع كونه مستمسكا بدينه ولم يبدل دخل فى أمان الفاتحين وسيق إلى محمد أحمد محفوظاً لم يمسه سوء .

* وفى خبر آخر بالتاريخ عينه أن القسيس (سوقارو) وكهنة الرسالة الكاثوليكية فى السودان وردت منهم أخبار من أهالى خرطوم تفيد أن المدينة فتحت ووقع جوردون أسيراً ولم يزل إلى الآن على قيد الحياة . ونقلت جريدة (الديلى تلغراف) أن تاجراً فى القاهرة أتاه كتاب من جنوب بربر يخبره أن الخرطوم مفتوحة الأبواب لمن يقصدها بالتجارة وإن كانت فى قبضة جيوش السودان ، وفى رسالة من مكاتب التان بسواكن أن جماعة من الوجهاء فى مدينة خرطوم دفعتهم الحمية

للانتقام من جوردون أخذاً بثأر الضابطين الذين قتلهما بتهمة الخيانة (حسين باشا وسعيد باشا) فهجموا عليه وقتلوه ثم اتفقوا مع المحاصرين على تسليم المدينة فدخلوها آمنين ، ويزعم المراسل أن للحكومة البريطانية علماً بهذه الحادثة من زمان طويل إلا أنها كتمته خفية هيجان الأفكار عليها ونحن لا يهمنا موت جوردون ولا حياته ولا راحته ولا عناؤه وإنما يظهر من كل هذه الأخبار أن خرطوم أصبحت سودانية لا انجليزية ولا مصرية فإن تمكنت وزارة مسيو جلادستون من تفنيد المستفيض من هذه الروايات فربما يصعب عليها المكابرة فيما يعقبها ، إن شوكة الداعي تقوى بعد فتح خرطوم وتمهد له سبل عديدة للوصول إلى مصر العليا أو السفلى وإن تأثير دعاته يقطع مسافات بعيدة فى هنيهات قصيرة .

* * *

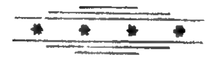
ماجت خواطر المصريين واهتزت قلوبهم لسماع هذه الأخبار وربما نسمع بعد اليوم أن ريح الجنوب حملت قسطلا تثيره سنابك خيل الفتنة وجاوزت به حدود مصر فإن كان هذا شأن الحركات فى بلاد السودان فتعليق الانجليز جلاءهم على انقطاعها يشهد برغبتهم فى الاحتلال الدائم ما بقي محمد أحمد وما بقيت له خلفاء ، على أننا نرتاب فى قدرة عساكرهم على صيانة التخوم المصرية فقد ظهرت نهاية قوتها على سواحل البحر الأحمر . نعم ربما يختلج بخواطر الوزراء البريطانيين أن يخدعوا الدولة العثمانية ويحملوها على الحكم بعصيان محمد أحمد وتضليله ليحولوا القلوب عنه ثم يجنوا الثمرة كما جنوها من الحكم بعصيان أحمد عرابى ولكن قد تبين الرشد من الغى وظهر للدولة العثمانية سوء طوية الانجليز وعدوانهم على حقوقها فليس من المحتمل أن تنخدع لهم مرة ثانية ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، كما أنه يشبه المحال أن عثمانياً يجوز سوق الجيوش العثمانية إلى السودان لتذليله وعساكر الانجليز فى القاهرة ثم ينتظر العثمانيون بعد انقضاء الفتنة نهاية المراوغات الانجليزية حتى تؤول مسألة مصر إلى مثل ما آلت إليه مسألة بوسنة وهرسك مع دولة النمسا ، فعلى العثمانيين وأصحاب العزيمة من المصريين أن يجمعوا أمرهم على كشف هذه النازلة صوناً لأوطانهم ولاتقاء شر ربما يحدث فى جهات أخرى ، فإن قضى حرص دولة الانجليز بصد أرباب

الحقوق الشرعية عن أداء الفروض عليهم جهلا منها بمصلحة نفسها وبمصالح تلك البلاد فعلى العثمانيين أن يقيموا الحجة بسيوفهم وجيوشهم لا بالرقائم والأوراق فإن هذا فساد لو أهمل لعم وعمت زواياه ولا نظن أن دولة بريطانيا تثبت على نفختها هذه فإنها ستشتغل بداخل البيت عن خارجه بعد قليل .

لسنا نقول ، ما نقول جزافاً ، ولكن دعوة القائم السودانى أشربت قلوب الأكثرين فى الهند وبلوجستان وأفغانستان وقد علق شرر الثورة بأهداب الخواطر فلا تلبث أن تلتهب فللدولة العثمانيـــة أن تمد نظرها إلى أعماق المسألة وتقدر قوة الانجليز وأهبتهم العسكرية مع ملاحظة ارتباكاتهم فى ممالكهم وظهور عجزهم وضعفهم فى الحوادث الأخيرة ومراعاة آراء الغالب من الدول العظيمة وبعد الإحاطة بهذا كله وهى أسهل من كل سهل تظهر عزماً ثابتاً وبأساً قوياً يليق بدولة عظيمة كدولة آل عثمان طالما ظهرت على يديها خوارق العادات ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الباب العالى

ذكرت جريدة استندار أن معارضة الباب العـــالى لمطامع انجلترا ليست قاصرة على الممانعة فى جعل مصر حكومة بلجيكية فى أفريقيا تحت حماية الدول كما فى عزم جلادستون أن يعرضه على المؤتمر . بل صرحت الدولة العثمانية لسفيرها فى لندن مرزروس باشا بأنه متى وضعت لائحة جلادستون موضع البحث فى المؤتمر بعثت إليه بتعليمات للمعارضة الشديدة فى هذه المادة وكل ما يكون من قبيلها (ما يمس حقوق الدولة والمصريين) ولا نرتاب فى أن الدولة العثمانية بعزمها هـذا قد قامت بفريضة شرعية ومثلها من يقوم بها فى مصر وفى سائر الممالك العثمانية فإن كل ذى بصـيرة يدرك أن صيانة جزء من ممالـكها موقوف على صيانة الآخر والتفريط فى شىء منها يحدث الخلل فى الباقى . وكفانا عبرة أن مجرد طلب جلادستون لحرية قناة السويس حمل دولة الروس على طلب بوغاز البوسفور كما ذكرته الجرائد الروسية ودعا بعض سياسى الروس أن يقول أن المسألة المصرية قد صارت الآن مسعراً للمسألة الشرقية . ولا نظن شيئاً من هذا يخفى على عقلاء العثمانيين .



يقظة من سنة

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ﴾ ربنا اشرح صدورنا لما فيه خيرنا وخير أهل ملتنا أجمعين . اللهم إنك تعلم خيرنا وفلاحنا فى اجتماعنا وائتلافنا ، وارتباطنا بعلائق ديننا ، واعتصامنا بحبلك المتين ، اللهم كفر عنا سيئآت التفريط فيما أوجبت علينا من ذلك بالهداية إلى الإنابة والإعانة على تلافى ما فرط والقيام بالمستطاع مما فرضت .

مضى زمان فرط فيه الهنديون عند تداخل الإنجليز فى شئونهم فتدابروا ، وحول كل وجهه عن الآخر ، ولم يصغوا لدعوة الله فى طلب الاعتصام بحبله ، فذاقوا وبال أمرهم ، وسقطوا جميعاً تحت سلطة الدولة الانجليزية ، وسادت عليهم واتخذت السادات منهم خدما لرجالها وخولا بعد أن كانت تدعى أنها خادمة لهم أمينة فى الخدمة ، ولم يهن لها أن تكون سيدة عادلة ، بل تجاوزت فيهم حد العدل ، واستبدت عليهم ظالمة جائرة ، فلما لفحتهم نيران القسوة ، أقبل بعضهم على بعض ونهضوا جميعاً للتملص من أغلال ظالميهم ، من نحو أربع وعشرين سنة إلا أن إخوانهم الأفغانيين والبلوجيين والإيرانيين كانوا فى غفوة عما نهضوا إليه ولم يمدوا لهم يد المساعدة ، بل كان الإيرانيون فى حرب مع الإنجليز ولكن لم يواصلهم الهنديون ولم يرتبطوا بهم فى التعاون على شأنهم كما أنهم لم يرتبطوا فى ذلك مع العثمانيين ، فاهمال جيرانهم ، ورسوخ أقدام العدو بينهم ، كان سبباً فى تغلب الظلمة الأغراب عليهم ، ولو عقل المهملون لعلموا أن العدو إذا تمكن فى الهند قويت شوكته ثم كر عليهم ، وأوقع بهم ما أوقع بأخوانهم .

بعد هذا زحف العدو الغريب على بلوجستان واشتغل معها بالمنازلة ، وفرط الأفغانيون والإيرانيون فى تعضيدهم ، فتم له بذلك أن يسود فى جزء عظيم من أراضيهم ثم انقلب على الأفغانيين وكانت بينه وبينهم حرب هائلة ، امتد زمنها نحو سنتين وما نبض فى الهنديين عرق ، ولا امتد من الإيرانيين ساعد ، ولا كانت بينهم وبين العثمانيين وصلة ، ولو كان لجميعهم بصر بالعاقبة لأدركوا أن حياة كل منهم معقودة بحياة الآخرين ، وبالغ الخصم فى تطاوله حتى اعتدى على الممالك العثمانية بسوق جيوشه إلى الأقطار المصرية التى هى أعظم إيالة من إيالات العثمانيين ، بل أهم أقطار المسلمين ، وهو الآن فى محاولة الاستيلاء على تلك البلاد ، والاستبداد بالحكم فيها ، غير مبال بحقوق الدولة العثمانية ، ولا محترم ولايتها الشرعية ، وكان المسلمون لبداية الأمر على مثل تفريطهم السابق غير ملتفتين إلى ما حل بهذا القطر الإسلامى العثمانى ، ظناً منهم أن العدو يصدق مرة فى وعده أو يخشى عاقبة السوء من طمعه ، فلما رأوه غريقاً فى غيه ، متغلغلا فى سيره ، مغروراً بقوته ، ناصباً لحبالته ، اهتزت رواسيهم ، وتحركت ثوابتهم ، وتنبهوا من سباتهم ، وندموا على ما سلف من سابق التفريط ، وأحسوا أن ما أصاب اليوم بعضهم فلا بد أن يمس يوماً جميعهم ، فصارت المسألة المصرية سبباً فى إحياء الأخوة الدينية ، كما بشرتنا به الرسائل الواردة إلينا من فارس والهند وأفغانستان ، فلو تمادى الإنجليز فى حرصهم ، وحملهم الشره على غمط حقوق العثمانيين ، وثبتت الدولة العثمانية فى المدافعة والمطالبة ، لوجد لها من المسلمين القادرين على نكاية الإنجليز من يقوم بنصرها أداء لما أوجب الله عليه .

وإنا بعد أداء الشكر لأولئك المؤمنين الصادقين ، على ما أظهروا من حميتهم الدينية ، التى أشارت إليها رسائلهم ، نرغب إليهم أن يحافظوا على وحدة العقيدة العامة ، وجامعة الشريعة الحقة ، وأن يصغوا إلى أصوات الغيلان التى تناديهم فى الليالى المظلمة ، بما يحاكى أصوات الإنس وإنما هى أصوات مردة الشياطين ، يبتغون تفريق الكلمة ، وتشتيت الشمل وإخماد الغيرة ، ونسأل الله تعالى ثباتاً للمسلمين على

أصول الاتحاد ، وقواعد الألفة ، وأن لايميل بهم الهـــوى إلى جعل الاختلاف فى المسائل الثانوية ، سبباً فى حل الجامعة الإسلامية ، التى قوامها الإيمان بالله وملائـكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن لا يجعلوا هذا الخلاف ذريعة العدو إلى محقق ملتهم وإفساد ولايتهم ، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل .



(حيلة انجليزية)

ذكر كثير من الجرائد الهندية ، وفيها جريدة (أخبار عام) أن عدداً وافراً من الإنجليز يدخلون فى دين الاسلام ، لهذه الأيام ، وكثرت الظنون فى هذا العارض الجديد ، الإجماع على أن ليس الباعث عليه حسن العقيدة فى هذا الدين ، والإذعان لأحكامه القدسية ، وإنما القصد منه أن يخدعوا المسلمين بمشاكلتهم ، ليركنوا إليهم ، ويحسنوا الظن بهم ، فيبيحوا لهم بما تكنه صدورهم ، من خواطر الميل إلى دعوة محمد أحمد السودانى ، وهذا يدل على أن هذه الدعوة أخذت من قلوب الهنديين ، وعظمت منزلتها فيهم ، وتوقع الانجليز شراً من فشوها ، وامتداد شهرتها، بين مسلمى الهند ، وطلبوا للاحتياط هذه الوسائل ، وقالت بعض الجرائد : أن الخشية من الإذعان لدعوة السودانى قد انضم إليها الرهبة من قرب الروس لتخوم الهند ، فكان من مجموعهما فزع شديد حمل الانجليز علي التودد للمسلمين ، والظهور فى مظاهر العدول المنصفين ، بل الأصفياء المخلصين ، حتى أن الإخلاص والعدالة تحمل الكثير منهم على التدين بالدين الإسلامى ليملكوا بذلك قلوب السذج ، ويمحصوا بعض الصدور من الحقد عليهم ، ويثقوا به شراً عاجلا أو آجلا ، ولكن الصيف ضيعت اللبن .

كان يمكن لهم ذلك بالاعتدال فى السلطة ، والأخذ بشىء من النصفة ، قبل اقتراب النكبة ، أما الآن وقد أوغرت الصدور غلا ، ووقرت القلوب أحقاداً ، وتحقق عند الكافة من المسلمين ، بل وغيرهم من الهنديين ، أن الانجليز لهم فى كل مصلحة مفسدة ، وفى كل حسنة سيئات ، وفى كل صفاء دخل ، فهم الخادعون الخائنون ، بل هم الكاذبون المنافقون ، هذه صفاتهم لم يبق فيها ريبة عند مسلم

فلا تفيدهم الحيلة أدنى فائدة ، ولا تعود عليهم إلا بأسوأ عائدة ، ولا ينالون منها إلا وقوف المسلمين على غاية سيرهم عند عجزهم ، وازديادهم بصيرة فى أمرهم ، ويقينا بضعفهم ، حيث لم يبق لديهم من الوسائل إلا خلع دينهم ، والدخول فى دين المسلمين إرضاء لخواطرهم ، ولسنا فى حاجة لتحذير المسلمين منهم ، فإن لنا يقيناً بأنه لا يوجد مسلم فى أقطار الهند جميعاً إلا وهو على علم تام بما يريد به حاكموه من الانجليز ، فما هو بمؤمن لهم حتى ولو كانوا صادقين .

وداد الإنجليز للمسلمين

يظهر من الرسائل والبرقيات الواردة من القاهرة أن الإنجليز وفقوا لإلهاب حرب صليبية بين الحبشة ومسلمي السودان ، والله يعلم ماذا تكون العاقبة إذا طار شررها . ربما لا يوجد مسلم يعتقد بدين محمد إلا ويسعى يبذل روحه وماله لإحباط أعمال الإنجليز ورد كيدهم خصوصاً مسلمي الهند المغرورين بخديعة حكامهم ، ودعواهم أن دولتهم نصيرة الإسلام ، وحليفة الدولة العثمانية ، فمما نقلته الأخبار بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ ، أن من أحكام الاتفاق الذى عقده الأميرال هفيت مع ملك الحبشة أن تكون مصوع مباحة لإرساء المراكب الحبشية ابتداء من شهر سبتمبر . فإما أن يكون هذا بنزعها من أيدى المصريين ، بل العثمانيين ، بل المسلمين وجعلها بلداً انجليزية يبيحها الإنجليز لمن شاءوا ويمنعونها من أرادوا ، وإما أن يكون بتقديمها أقطاعاً لملك الحبشة ، ومن أحكامه أن يأذن الملك للحامية المصرية أن تقيم حصوناً على حدود مملكته حتى إذا هجم السودانيون عليها باعتبار أنها حصون مصرية تذرع الملك لمواثبتهم بدعوى أنها فى حدود بلاده ، فتنشب الحرب ويحمى وطيسها بين مسيحيى الحبش ومسلمي السودان ، ولما كان غرض الحكومة البريطانية أن تضم مصر وملحقاتها إليها كما يدل عليه اهتمامها بمد سكة الحديد بين سواكن وبربر ، أخذت على الملك عهداً بقبول ما تحكم به ملكة انجلترا عند عروض مشاكل بينه وبين الحكومة المصرية وإن جرى الحكم على العرف ولم تلاحظ فيه الأصول السياسية ، هذه هى الدولة التى بلغ الخافقين صوت دعواها أنها حامية الإسلام والمسلمين ، وظهيرة للعثمانيين ، فليعلم كل مسلم أن من نيتها انقراض هذا الدين وأهله من وجه الأرض وإن لم يكن ذلك عليها بيسير .

التهتك فى الحيلة

اشتهرت دولة الإنجليز بخلابة الشرقيين ، وأخذهم بالرويغة حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت ، وانقلب وجه الحيلة فظهر مستورها ، وعادت تشبه ألهيات الصبيان ، وألاعيب الأطفال ، يدرك سرها الذكى والغبى ، من يوم كان اللورد دوفرين فى القاهرة لكشف حالة مصر وتقرير نظام لحكومتها (كما يزعمون) لوح للحكومة بترك السودان ثم جاء بعده الماجور بارنج وألزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه ، لأنه يكلفها نفقات وافرة ليس لها عوض من الفائدة ، فامتثلت الحكومة أمر غالبيها وهمت بإخلائه ولم تلابس عملها حتى صدرت أوامر الدولة البريطانية بتعيين الجنرال جوردون للقيام بتخلية السودان ، فتكون المنة على السودانيين فى استقلالهم (الموهوم) لدولة بريطانيا ، وتكون الصلة بينهم وبينها خاصة ، وما وصل خرطوم إلا وأقام محمد أحمد أميراً على كوردفان ، وأخذ فى إرجاع الولايات السودانية لملوكها الأقدمين أو أبنائهم ، ولم يكن القصد من هذه الزغزغة إلا أن يكون السودان بعد تنازل المصريين فراطة لا حق لأحد فيه فيأخذه السابق إليه بدون أن تعترض فيه المشاكل السياسية ليتيسر للانجليز عاجلا أو آجلا أن يستولوا عليه وينزعوه من أيدى أمرائه الصغار ، ويكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدتهم مقاومات الدول عنها كما أشرنا إلى ذلك فى أحد الأعداد . وفى هذه الأزمان الأخيرة أخرجت حكومة انجلترا من جرابها ألعوبة أخرى ، ومثلت من ضيق جوردون فى خرطوم سبباً عظيماً لتمهيد طريق يوصل الجيوش لتخليصه ، فأصدرت أوامرها إلى أحد المصانع الكبيرة بإعداد

الآلات ، وتعيين المهندسين والصناع ، ليسيروا إلى سواحل البحر الأحمر ويباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربر كما ذكرت ذلك جريدة (البال مال جازيت) ؛ وتزعم أن لا باعث لها على ذلك إلا الرغبة فى تخليص جوردون . إن كان جوردون فى خطر ويحتاج فى إنقاذه إلى إرسال الجيوش ، فهل يبقى حياً إلى أن تمد سكة الحديد وتخرق الجبال والأودية وتسير عليها العربات حاملة للجيوش ، مع أن الأخبار قد أشارت إلى وقوعه أسيراً أو هلاكه قتيلا ـ إذا فرضنا هلاك جوردون (كما هو الغالب) أو خلاصه فهل تهدم دولة انجلترا طريق الحديد ، وتنقض بناءها بعد إنفاق النفقات الواسعة عليها ، أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاء وجوداً ، كلا والله لا هذا ولا ذاك ولكن أخذت أقرب الطريقين للاستيلاء على السودان ، فإن مد الطريق الحديدية فى تلك الجهة يسهل لها الولاية على السودان الشرقى ، فإذا استقر لها الأمر فيه وصلته بالغربى ولم تلاق فى ذلك صعوبة ، على أنها فى خلال المدة بعد مد السكك الحديدية تستفيد أعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية ، فإنها تفتح للتجارة الإنجليزية باباً وتغلق بصفته باب المنفعة عن مصر فتأتى بضائع البز ونحوها مما يحتاج إليه السودانيين من انجلترا إلى سواكن ، ومن سواكن تذهب إلى السودان ، بدون أن تصل إلى أيدى المصريين ، وتنقل الأصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى بربر ثم تحمل إلى سواكن وتصدر إلى أوروبا ولا يراها مصرى . فإذا تولى الإنجليز مصر (لاقدر الله) حرموا الوطنيين من الاشتراك معهم فى تجارة السودان « وهى من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية » وإذا ألجأتهم الحوادث للجلاء عنها فقد اختصوا بمادة المنفعة التى يمكن أن تأتى من أقطار السودان وبذلك يتقوض كثير من بيوت التجارة فى الأقطار المصرية ، ويعدم بخرابها آلاف مؤلفة من النفوس فليس حقيقة الغرض من مد سكة الحديد من سواكن إلى بربر إلا التوصل إلى ينبوع متدفق من ينابيع الثروة المصرية ، وتحويل

مجراه عن مصر إلى جزائر بريطانيا . وسنأتى على تفاصيل الخسائر التى تلم بأهالى مصر من مد هذه السكة فى عدد آخر .

هذه إحدى خطيئات الإنجليز الذين بعد استيلائهم على الهند حظروا على الأهالى فى جميع ممالكهم أن يعالجوا زراعة الأصناف التجارية كالنيلة ونحوها واختصت الحكومة الإنجليزية بزراعتها وزادوا فى المظلمة فحكموا على جميع الحكومات المستقلة التى يتولاها النوابون والرجوات أن لا تزرع الأفيون بحجة أن الحكومة الهندية الإنجليزية تزرعه فلا يجوز لغيرها العمل فى زراعته كيلا تقل الفائدة أو لئلا يستفيد شيئاً مما تستفيد . هذه آثار جورها يثبتها خراب البيوت القديمة . وفاقة العائلات الشريفة . فى كل بلد لها فيه أمر ونهى . ولا تزال ترد شرعتها هذه فى كل قطر تطأه أرجل رجالها قريباً كان أو بعيداً . فعلى البصير أن ينظر وعلى اللبيب أن يحذر .

فرصة يجب أن لا تضيع

نشرت الدعوات وطلبت الدول العظام لعقد مؤتمر فى لندن بعد مفاوضات طويلة بين حكومتى فرنسا وانجلترا . ماذا كان المؤتمر وماذا نوت الحكومة الإنجليزية بالدعوة إليه . وماذا كانت تقصد الدول من وجود نوابها فيه . وأية غاية كان يطلبها خريت السياسة البرنس بسمارك . انعقد المؤتمر ثم صار عقيما . وبقيت تلك المقاصد مكونة فى صدور أربابها كانت حكومة انجلترا تطمح للاستيلاء على مصر باسم أمير مصرى . وحالت دون مطمحها المصاعب أزماناً حتى سنحت لها الفرصة المشئومة بتشويه وجه الحركة العرابية فتيسر لها بتلك الحركة إرضاء الدول . واستئذان الدولة العثمانية بالتداخل فى توقيفها . فسهل لها دخول مصر على نية أن لا تخرج . وهل يمج الظمآن بارد الزلال من فيه !! ظنت أنها ملكت أرض مصر ووجدت عليها ديناً ثقيلا فرغبت تخفيفه لأنها ترى ما ينفق من خزانة مصر إنما ينقص من خزائن انجلترا . ولم تقصد بتخفيفه رحمة الفلاحين . ولم يبعثها عليه الشفقة على المصريين . وعميت بصيرة من ظن بحكومة انجلترا قصد الرحمة فى هذا أو فى غيره من الأعمال .

قصدت تعمية الأمر على الدول لتنال منهم تصديقاً على أعمالها فيتسع لها المجال فيما بعد ، وبدأت باستمالة فرنسا وعقدت معها اتفاقاً يوطن نفوس السياسيين على الرضاء بما تريد ثم أنشأ السير بارنج لائحة للمالية أثبت فيها عجز مصر عن أداء ديونها . إلا أن رجال الدول كانوا أحذق من أن ينخدعوا لعلمهم أن وادى النيل أحوج إلى العدالة وحسن الإدارة من تخفيف الدين . لم يخف على السياسيين أن مصر

لو سلمت إدارتها لحاكم نافذ الكلمة قوى العزيمة واسع الخبرة بأحوال البلاد ، لو سعت قدرتها أداء ما عليها بل وما يزيد عليه . وإن كان يثقل على دولة تجارية . قررت فى الاتفاق الفرنسى إطالة مدة حلولها العسكرى إلى ثلاث سنوات ونصف ثم تخرج على شرط اتفاق جميع الدول على خروجها فعلقته بما يشبه المحال لتسهل عليها المراوبة ولكن لم يذهب على رجال السياسة فى سائر الدول أن بقاء انجلترا فى مصر لا يزيدها إلا خراباً .

ولما انعقد المؤتمر كشف مسيو دبلنيير الفرنسى ما فى لائحة بارنج من الأغلاط فشرعت انجلترا فى تهديد فرنسا بالميل إلى ألمانيا . إلا أن السفير الألمانى وهو تلميذ البرنس بسمارك ولا يعمل إلا بإشارته كان أميل إلى فرنسا فإن سياسة البرنس مبنية على التفريق بين فرنسا وانجلترا (وقد حصل) فحصل اليأس لحكومة انجلترا من تخفيف النفقة على الملك التى زعمت أنها ملكته ، فحلت المؤتمر أو انحل بطبعه . وصارت الدول الأوروبية فى جهة ، وانجلترا وحدها فى جهة أخرى .(١) ولم يكن من رأى الدول أن يقعوا آلة بيد انجلترا تستعملهم فى قضاء أوطارها فطاشت جرائد الانجليز غضباً على ألمانيا وأخذت تذكرها بأن استيلائها على الألزاس واللورين انما كان بمساعدة انجلترا المعنوية ، وهاجت الجرائد النمساوية والألمانية ، وصالت بالطعن والتجريح فى السياسة الانجليزية ، واتفقت حكومة ألمانيا والنمسا على إلزام انجلترا بتحديد أجل لدفع الخسائر التى نشأت عن ضرب الأسكندرية .

الحكومة الانجليزية فى رجفة شديدة ، وخيفة من سوء العاقبة ، إلا أنها على عادتها تظهر الاقدام وتنطق بالحماس وتوهم أنها غنية عن العالمين . عمدت

(١) ما أقسى التاريخ وما أعظم دروسه . فيوم أممت مصر قناتها وثارت ثائرة فرنسا وانجلترا وغيرهما انعقد مؤتمر لندن عام ١٩٥٦ ليسترد القناة من أبنائها ... وكتب لهذا المؤتمر الفشل ، ولأصحاب القناة الشرعيين النصر المبين .

إلى الاستقلال بتدويخ مصر ، وتقرير سلطتها فيها ، وإخماد فتنة السودان ، وظنت أنها قادرة على كل ذلك ، فجهزت القواد وعينت اللورد نورثبروك أعدى أعداء المسلمين ، ومخرب بيوت الشرقيين ليتولى العمل لدولته فى القطر المصرى . ولكن هيهات وهيهات ، نترك الآن بيان ما يترتب على انفراد الانجليز عن سائر الدول فى أمر مصر إلى عدد آخر ونقدم كشفاً لجوهر حالهم العامة .

أولا : إن الانجليز على عادتهم المألوفة إذا قصدوا الاستيلاء على قطر لا يصرحون بقصدهم حتى يتمكنوا فيه ، ولا يبقى لهم منازع لا فى الداخل ولا فى الخارج ، فلو فرضنا أن المصريين والدول أجمعين اتفقوا الآن وطلبوا من انجلترا أن تعلن بتملكها لمصر لامتنعت الحكومة الانجليزية وأظهرت العفة والقناعة ، ولظهر المستر جلادستون فى دلوق الزهاد ولصالح جميع الانجليز من جميع الأحزاب أستغفر الله لا نريد سوى إصلاح البلاد وتوفير خيراتها !! وتحت هذا الحجاب يتصرفون تصرف الملاك ، يختصون بالوظائف العالية ، ويديرون حكومة البلاد على رغبتهم ، وينقلون ثروتها إلى جزيرتهم ، ويمزقونها قطعاً يهبون منها مالا يهمهم لأعداء البلاد ، ليعينوهم على تذليلها واستعبادها .

وثانياً : إن حكومة الانجليز من أضعف الحكومات فى القوة العسكرية البرية ، وأحد سلاحها التهديد ، وأكبر قوتها التهويل ، ووضع الأمور الصغيرة ، تحت النظارات المعظمة ، لترهب بذلك كل جاهل ، وتخيف كل غبى ، لهذا لا تتمكن بدسائسها فى قطر إلا عند سكون أهاليه ، فاذا نبذ الأهالى طاعتها ، وعارضوها فى أعمالها ، سترت ضعفها بترك البلاد لأهلها ، فان مقاومة الأهالى أشد بأضعاف مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين ، تنهزم بانهزامهم ، وما جرى لحكومة انجلترا مع الأفغانيين أعظم شاهد على ما نقول

دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكرى واستولت على المدن وكاد قدمها يرسخ فى البلاد ، فلما قام الأهالى من كل صقع . والتحمت المقاتل فى جميع أنحاء أفغانستان ، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع ، واضطرت حكومة انجلترا بعد تسلطها سنتين ، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه استرلينى أن تطلب الأمير عبد الرحمن خان من روسيا بعد ما أقام عند الروسيين أثنتى عشرة سنة معززاً مكرماً وأن تقدم له أربعة ملايين من الجنيهات لينفقها فى إدارة بلاده وتركت له البلاد وولت .

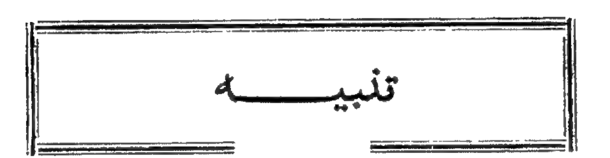
حكومة الإنجليز إنما تخضع للضرورة وللضرورة أحكام — فعلى قبائل العرب فى مصر ومشائخها أن يتذكروا شهامتهم العربية ، وحميتهم الدينية ويقتدوا بالأفغانيين ، لينقذوا بلادهم من أيدى أعدائهم الأجانب الذين لو تمكنوا فى البلاد لمحقوهم وأذلوهم ، وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن . كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة ، فانما ننادى على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه ، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه ، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق ، فى كل أمة ، وتاريخ أوروبا القديم والحديث ، وتواريخ الأمم الشرقية أولها وآخرها ، تنطق بصدق ما نقول ، وعلى المصريين عموما والفلاحين خصوصاً أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة كل ما تطلب منهم وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين لا نطيع إلا حاكما وطنياً مسلماً نافذ الكلمة حازم الرأى قادراً على إدارة البلاد بقوة وطنية ، وليستصرخوا فى ذلك جميع الدول ويبرهنوا على قدرتهم ، ويقيموا الأدلة على أن مصلحة الدائنين ، لا يمكن حفظها إلا بإجابة طلبهم فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً ، بل ومن الجنس الإنجليزى نفسه !!

على الدولة العثمانية أن تتذكر أنه لولا فرمانها بعصيان عرابى لما سهل

للانجليز أن يدخلوا أرض مصر [1]. ولا أصابوا هذه الغنيمة باردة فلتنظر إلى قوتها ونفوذها . وتلاحظ أن الحل على من عقد . والعقد على من حل . ولا تنس أن مصر حبكة الممالك العثمانية كما بيناه مراراً . ولاتغفل من النمسا وشرهها . والروسيا وطمعها . وفرنسا وآمالها . فمن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة تدعو الأقران إلى التسابق فى الأطماع . وإذا فرط متساهل فى أهل ملته فلن يجد منهم فيما بعد عوناً . لو تحرك العثمانيين لرأوا عوناً من جميع المسلمين خصوصاً وقد حصلت كدورة بين أمارة الأفغان وحكومة الإنجليز . بل نكرر ما قلناه مراراً من أن نفوذ العثمانيين فى الهند يمنع الإنجليز من الجهر بعداوتهم البتة . فهذه فرصة الإقدام فإن ولت الفرصة فربما يصعب التلافي ، ولا يبقى إلا الندم ، حيث لاينفع الندم ، وفق الله الدولة العثمانية إلى مافيه خيرها وخير المسلمين . وبصرها بالرشد وكفاها شرور المفسدين .

---

(١) هذا هو أول هجوم يشنه الأفغانى على الدولة العثمانية لأنها أصدرت فرمانها الخاص باتهام عرابى بالعصيان ونكسة حركته مما أدى إلى تسلل الانجليز واستعمارنا ٧٤ عاماً !!



تنبيه

طلب إلينا أحد الأعاظم من ذوى الحل والعقد فى المسلمين أن ننشر الجملة الآتية بنصها فها هى :

(وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله)

(وبشر الذين كفروا بعذاب أليم)

ملعون من يخون بلاده لمرض فى قلبه ، ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به . ملعون من يمكن الأجانب من دياره . محروم من شرف الملة الحنيفية من يعظم الصغير . ويصغر العظيم . ويمهد الطرق لخفض كلمته . وإعلاء كلمة الأغراب . ملعون من يختلج فى صدره أن يلحق عاراً بأمته . ليتمم ناقصاً من لذته . عجباً عجباً . لا حول ولا قوة إلا بالله . هل صحيح أن خمسة ملايين سابقة وخمسة ملايين لاحقة تمكن الأجانب من مصر . وهى مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية . هيهات هيهات . أيظن مريض القلب أن يترك حتى يأتى هذا المنكر ، أيظن أنه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه ، أيتوهم أنه يبقى حياً على وجه الأرض وفيها مسلم ، لا أظن أن يكون له حظ من البقاء ، ولو كان فى أبراج من الفولاذ اهـ .

مطلوب من توفيق باشا أن يموت شهيدا !!

يتوكأ الإنجليز عن توفيق باشا فى حركتهم بمصر . ويتخذونه آلة لتخريب بلاده . وهدم ملكه . وما يكون من شر ينسبونه إليه . وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم . ويردونه إلى أنفسهم ، وفيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية : ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية . وهو يميل معهم . ويمدهم فى مقاصدهم ويطوع البلاد لهم . بما بقى له من السلطة الصورية كما يتظاهر بالتدين والمحافظة على الصلوات . فإن كان باطنه يطابق ظاهره ، وكان معتقداً بدين الإسلام ، فعليه أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه ، فإن لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته ، ويقاوم الإنجليز بما فى جهده ، ويموت شهيداً فى سبيل دينه ووطنه ، وإلا فليس يغنى عنه من الله شيئاً أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناقم على الإنجليز كاره لوجودهم فى بلاد مصر ويود لو يخرجون كما أنبأتنا به الأخبار الخصوصية من القطر المصرى .

إذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتوى فعلى المصريين أن لا يقعوا صيداً فى يد الإنجليز بهذه الحبالة البالية وهذا الفخ الواهن ، وليظروا فى شئونهم وما توجه عليهم فروض دينهم وإلا فما الله بغافل عنهم .

———o———

هؤلاء رجال الانجليز وهذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أياماً لضرورة ما مسنا من ضعف فى المزاج مع مصادفة رداءة الهواء فى البلاد الفرنسية هذه الأيام . والحمد لله على زوال المانع . إلا أننا مع ذلك لم نقصر فى أداء الواجب من العمل الذى قمنا به فى المدافعة عن حقوق المسلمين . فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ونرجو ديان السموات والأرض أن نموت فى هذه السبيل وأن نبعث فى زمرة السالكين فيها .

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ، ومن يؤمل فيهم صدق النية ، فى رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية . وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التى ما مرت قدم شرقى إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه ، وليسبر أغوار المطامع الإنجليزية التى لا يدرك منتهاها . تلك المطامع التى بعد ما التهمت ثلث المسكونة وطوقت كرة الأرض بالفتح والاستملاك لم تزل فى مد لا جزر معه . ولا يزال رجال حكومة بريطانيا فى نهم شديد لابتلاع ممالك العالم وكلما أساغوا قطراً طلبوا إليه آخر . وليستطلع خفايا المقاصد من أثناء الأفكار وغضون الأقوال . وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين فى التلوين . ويتبين كيف يتمكنون من إبراز محاسن الأعمال فى صفات رديئة يستنكرها كل ناظر إليها وإظهار السيئات فى ألوان بهجة تسر الناظرين حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كيلا يغتر الجاهل ، ولا يزل العالم .

لاقى (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وأنفذ الناس رأيا فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة فى الأحوال المصرية ، ومن محادثاته التمهيدية ما نشر فى بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة (البال مال جازيت) و جريدة (التروت) ، التى يحررها النائب الشهير مستر لابوشير وجريدة (التايمس) وسيذكر شىء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموماً ، والمصريون خصوصاً ، وستأتى جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامى أفكارهم . أما الآن فنأتى على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحربية الإنجليزية . ليأخذ كل مصرى منها حظه . ويصيب كل شرقى سهمه . ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار الحكومة الإنجليزية .

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحربية الإنجليزية ، ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الإنجليزية وألا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك ، وفلان باشا وفلان باشا ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) كلا إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا ، وفيهم من محبى أوطانهم مثل ما فى الشعب الإنجليزى ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم أن يتصور هذا الميل فى المصريين ، فقال الوزير هل تنكر أن الجهالة عامة فى أقطار مصر ، وأن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبى والحاكم الوطنى ، وأن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون فى الأمم المهذبة ، فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون فى أداء ما فرضه الدين ، وأوجبته حقوق الشريعة ، وقال : أولا إن النفرة من ولاية الأجنبى ، ونبذ الطبع لسلطته ، مما أودع فى فطرة البشر وليس يحتاج للدرس والمطالعة ، وهو شعور إنسانى ظهرت قوته فى أشد الأمم

توحشاً كقبائل الزولو الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم فى الدفاع عن أوطانهم — وثانياً أن المسلمين مهما كانوا وعلى أى درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير ، فان الأميين منهم ، ومن يقرأون ولا يكتبون ، لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها ومن أظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفيهم فيه وأن لهم فى الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الإبتدائية وأن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ويحدث فيهم من الإحساسات الشريفة الإنسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربى ويفهمون دقائق ما أودع فى ذلك اللسان وهو لسان دينهم ، وثالثاً أن أرض مصر من زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود فى بلاد أوروبا ، وأخذ كل مصرى نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون كاتبون ، والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبىء الأخبار من القارئين ، فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعى والتقليد الدينى محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومى توى بها الميلان الأولان ، ولا أظنهم يخالفون فى ذلك سائر الأمم اهـ .

أين العلماء الأذكياء أين الجهلة الأغبياء ، أين الأباة الأعلياء ، أين السفلة الأدنياء ، ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الإنجليزية ، كل ذى شكل إنسانى ، وصورة بشرية ، يدرك ما وراء هذه الأسئلة ، وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة . هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الإنجليزية يظن أن الجهل بلغ من المسلمين عموماً ، والمصريين خصوصاً ، إلى حد سلب عنهم كل إحساس إنسانى ، وأنهم فى حضيض من الجهل ، لا يميزون فيه بين الغريب والقريب ، ولا بين العدو والحبيب ، هذا دليل على أن الإنجليز (إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون أن الأمم الشرقية ، والأمة المصرية ، فى درجة الحيوانات السائمة ، والدواب

الراعية ، لا تتألم إلا من الجوع ، وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الإحساس إلا نوع من الإنفعالات البدنية ، ولا تعرف من شئونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها ، والعامل عليها ومستخدمها ، فى أى عمل من الأعمال الشاقة ، ما دام يقدم لها طعاماً وشراباً ، وأنها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غذاءها وعشاءها ، وإن كان من أشد البلاء عليها ، بما يسومها من مشاق الأعمال ، فإذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها ، ألا فأعجبوا . إن كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الإنجليزية فى الأمم التى يتسلطون عليها ، فأى معاملة تكون منهم لها ، ألا يعاملونهم معاملة العجموات والحيوانات الرتع ، بلى ، وهكذا يعاملون ، وهذا تصرفهم فى البلاد الهندية ، يسهد بأفصح لسان على ما يعملون .

فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرها ، إما أن يتنا كفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم فى حفظ شرفهم الإنسانى ، ومكانتهم العربية ، وأداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون إليهم إلا كما ينظرون إلى البغال والحمير ، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من إخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الأمرين وما هو عليهم بعسير ، وإما أن ينسلخوا عن جميع الخصائص الإنسانية ، ويخلعوا حلية الإيمان ، ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليحملوا ناف العبودية على أعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات فى حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر الأمرين وأدناهما وما أظن مصرياً يختاره لنفسه ولئن اختاره « معاذ الله » فسيذهب الله بهم ويورث الأرض قوماً آخرين ، فإن الله غيور على دينه ، غيور على العدل ، منتقم من الضالين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

اللورد نورث بروك حاكم مصر الجديد

كثيراً ما أتينا فى جريدتنا على بيان مسالك الإنجليز فى تملك الهند وتذليلهم لأهاليه ، وذكرنا أن سيرة الحكومة الإنجليزية فى افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار ، فيقتلون ويقتلون ، حتى يتغلبوا على من يريدون . وقلنا أن الإنجليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة ، ولا صرف أموال وافرة ، وإنما ملكوا ماملكوا بسلاح الحيلة ، يدخلون فى كل بلد أسوداً ضارية ، فى جلود ضأن ثاغية !! يعرضون أنفسهم فى صورة خدمة صادقين ، وأمنة ناصحين ، طالبين للراحة ، مقومين للنظام . نادينا مراراً بأن الإنجليز إذا أرادوا التدخل فى ملك الشرقيين ، ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير ، وأن وجوده فى الملك يبطىء سيرهم إلى ما يقصدون . بادروا إلى التشويش عليه ، فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته . ويثيروا عليه أحقادها ، أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر ، أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة . ثم ينصبون بدله إما ضعيفاً أحمق ، وإما صبياً لم يبلغ الرشد ، إما من أبناء المالك أو أقاربه ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه ، ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة فى مدة قصيرة ، بلا ممانع ولا عائق ، مع إصابتهم جزيل الأجر ، على ما عملوا فى بداية العمل .

هذا كما فعلوا من مدة غير بعيدة مع « راجا برودا » خلعوه بدعوى باطلة ، لما أحسوا فيه البصيرة والحزم ، وأقاموا بدله ولداً صغيراً من عائلته ، ثم انتصبوا

له أوصياء ، فوضعوا أيديهم على جميع خزانته ، وتولوا إدارة ممالكه ، واستلموا قيادة عساكره ، ولم يبق له إلا الإسم ، يذكر ولا يشكر ، كل هذا تحت راية العدالة والإصلاح ، وحفظ الراحة وتقرير النظام ، ولم يساقوا إليه إلا بباعث المحبة والإخلاص « ولا يذكر هناك اسم التملك والاستيلاء » . نعم ولهم الحق فى استبقاء اسم ، والسكوت عن آخر ، فإن أمراء الشرقيين لايبالون بما دلت عليه الأسماء ، وإنما يهمهم طنطنة الألفاظ وضخامة الألقاب !!

إذا سلب الأمير الشرقى ملكه وماله ، وجرد من جميع حقوقه ، وبقى له لقبه ولواحق لقبه ، فهو فى سكرة من لذة مابقى له ، وفى ذهول عما سلب منه ، هذه خلة عرفها الإنجليز فى كل أمير شرقى ، فلم لا يقرون أعينهم بحفظ هذه الأسماء ، بعد ما جردت عن معانيها ، وأى داع يدعو رجال الإنجليز لإزعاج قلوب الأمراء ، بنزع هذه الألقاب ، إن اللقب الضخم حصن حصين ، يسجن فيه الأمير الشرقى ، أو جب عميق يلقى فيه ، وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض ، فليعش أمراء المشرق متمتعين بنعيم ألقابهم ، وسعادة أسمائهم ، ويكفيهم من المجد أن يقال لهم بين خدمهم وخاصتهم ، فى داخل دوائرهم « نواب صاحب » « راجا صاحب » « خديوى صاحب » « سلطان صاحب » . « واخجلتاه » هذه الألقاب كانت تشير إلى ملك فسيح ، ومجد شامخ ، وشوكة قوية ، وسطوة تخضع لها الشم العوالى ، فكيف طابت نفوس أمراء المشرق بقبولها عارية من كل شرف ، لم يبق من معناها إلا سلطة على الخدم والحشم ، وما هم فيها بأحرار ، بل لا بد أن يوافقوا فيها رضاء الأجانب .

من أدق رجال الحكومة الإنجليزية فى فن الحيلة ، وأمهرهم فى صناعة الخدعة وأطولهم باعا فى النفاق ، وأحذقهم فى اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها ، وأشهرهم فى عداوة المسلمين ، ذلك اللورد المحتوم (نورث بروك) . كان هذا الرجل البارع حاكما فى الهند فأذاق أهاليه مر العذاب ، فى كؤوس المحبة

والوداد . كم خرب بيوتاً ، وقلب عروشاً ، وكم خفض رفيعاً ، وأذل عزيزاً ، وهو فى جميع سيئاته يبكى بكاء الشفقة ، ويسكب دموع الرحمة على الهنديين ، ويقول إننى أول إنجليزى تهمه رفاهة أهل الهند ، وأننى وحيد بين الإنجليز بمحبة الهنود ، والسعى فيما يعود عليهم بالصلاح والنجاح ، وأننى أستغفر الله إن كنت قصرت فى عمل يؤمل بهم إلى الفلاح ، وينادى فى الهنديين بقوله واأسفاه إنكم إلى اليوم ما عرفتمونى ، ولا احطتم بما حواه ضميرى ، من إرادة الخير لكم ، هذا هو الكاهن الحاذق فى وعظه « ودونه فى النفاق عبدالله بن أبى سلول رأس المنافقين فى الإسلام » .

إن الحكومة الإنجليزية عرفت قدره فى براعته ، ومعرفته بوجوه المكر ، وخبرته بأحوال الشرقيين ، وسعة علمه بكيفيات التصرف فى عقولهم وأهوائهم ، وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون ، واعترفت له حكومته بصدق الطوية فى معاداة المسلمين ، لأجل هذا قررت أن تبعثه إلى مصر ، وعزمت على إرساله إليها مفوضاً من قبلها يفعل ما يشاء ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم ، فان تسنى له النجاح ، ورضى المصريون على أنفسهم عار الذل ، ووصمة الضيم ، فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آلة فى جميع أعماله ، يستخدمه لإدخال مصر فى ملك الحكومة الإنجليزية ، يلقنه الأوامر السامية ، ويلهمه الإرادات السنية ، لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل إخوانهم وفتح البلاد الثائرة وإقرار السلطة فيها للحكومة الإنجليزية ، فان تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية إبنه عباس لكونه ولداً صغيراً لم يبلغ الرشد واستند فى ذلك إلى الفرمانات السلطانية « يحترمونها إذا وافقت أغراضهم » وجعل نوبار باشا ديواناً له « الديوان وزير يعينه الإنجليز من طرفهم فى الممالك التى تبقى فى الهند تحت أسماء الأمراء الذين لا يعرف فيهم الرشد ولا يجوز عزله إلا بأمر من الحكومة الإنجليزية » نوبار باشا لا يقصر فى هذا العمل

ولا يألوا جهداً فى إبلاغه إلى نهايته ، نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ، ولا هو مصرى فيحتمى على وطنه ، ولا هو عربى فتأخذه النفرة على جلسه ، وبهذا الطريق ينال سلطة فى القطر المصرى مدة لا تنقص عن الباقى من عمره ، ويكون فى أمان من العزل ، تحت ظل الحكومة الإنجليزية .

هذه مقاصده التى بلغتنا من مصدر يوثق به ولا نظنه ينجح فيها فإن صلاح الأمر فى مصر لا يقوم به إلا من هو أعرف بحال المصريين وأقرب إليهم من « نورث بروك » هذا اللورد يسلك فى سيره على ما جرى عليه فى الهند ، إنا نذكر طرفاً من أعماله عبرة للمعتبرين ، إن (جيرت ستك) كان راجا على ممالك (جنبه) الواقعة فى جنب (عنبر سر) من طرف (هملايا) فلما مات هذا الملك تولى إبنه (سرسينك) وهو ولده من الملكة ثم مات وتولى شقيقه (سوجت سنك) على طبق قانون الوثنيين فلما ذهب (نورث برك) حاكما فى الهند قصد إلى تنفيذ حكمه فى تلك المملكة واستملاك أراضيها حسب المألوف بين أمثاله من رجال حكومته ، فطلب من (سوجت سنك) أن يتنازل عن الملك لأخيه (قوبال سنك) وكان وليداً من جارية ولا يجوز فى قوانين الوثنيين أن يتولى الملك أبناء الأماء ما دام من أبناء الأحرار حى ، فلما تمنع (سوجت سنك) من التنازل اعتماداً على قانون بلاده ، أنزل بحكم اللورد جبراً بعد ما ضربت زوجته التى كانت ملكة تلك البلاد (لكونها زوجة الملك) ونهب جميع ما كان فى بيت الملك من الخزائن والتحف والجواهر الثمينة والمخلفات القديمة (أنتيكات) التى كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة (فان عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملكية) ثم نصب بدله (كوبال سنك) وبعد مدة قصيرة عزل (كوبال سنك) ونصب ولده الصغير (سيام سنك) ليكون الأمر والنهى حساً ومعنى بيد أمراء الإنجليز ، وتحت تصرف الديوان الذى أقاموه من طرفهم . هذا مثال لما يطول عده من أعمال اللورد نورث بروك فى الهند .

ثم أن (سوجت سنك) المخلوع ظن أن نورث بروك وحده هو الظالم ، وأنه لو رفع أمره للحكومة العليا فى لندن يجد لديها عدلا ويصادف منها إنصافاً فجاء من مدة ست سنوات وعرض حاله على الحكومة فاذا القلوب متشابهة ، والنفوس متوافقة ، والآراء متألبة على سلب الحقوق ، والغلو فى العدوان ، وفى خلال هذه المدة أنفق كل ما كان عنده فى المطالبة بحقه ، والمرافعة مع ظالمه . حتى أصبح صفر اليدين ، لا يملك قوت يومه ، ولا يجد له منصفاً ، هذا الملك السيء الحظ مع ما كان له من رفعة الشأن ، وارتفاع نسبه فى الملك إلى أجداده الأقدمين ، من نحو ألف سنة نراه الآن يتضور من الجوع فى بلاد أوروبا رث الثياب حقيراً ذليلا ، هذا الذى احترمه اللورد نورث بروك الذى تريد حكومة انجلترا أن ترمى به مصر وهذا هو الإصلاح الذى يقصد إجراءه فيها ، لكن رجاؤنا فى المسلمين وأملنا فى المصريين ، وقوة إيماننا بوعود الله ، وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية ، وتألب الدول على معاكسة الحكومة الإنجليزية ، واضطرار الدولة العثمانية للدفاع عن مصر ، كل هذا يبشرنا بخيبة هذا الغادر فى قصده ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

نكتـــــه !!

عند ما كان الشيخ محمد عبده يحادث أرباب السياسة فى لندن كان أغلبهم يقول له كثيراً ما سمعنا من الأجانب الذين ينتمون إلى البلاد المصرية أخباراً متعلقة بها ، لـكنا لا نحلها محل الاعتبار ، لمـا نعلم عن بعدهم عن الشعب المصرى الحقيقى ، أما أنت فلـكونك عريقاً فى المصرية ، وعالماً من علماء المسـلمين ، فنحب أن تبين أفكارك ، وما تعلمه من أحوال الأهالى المصريين ، وشئون أمرائهم واستعداداتهم ، وما يليقون له ، وما يليق بهم ، فإنا نرى ذلك منك حاكياً عن حقيقة الأمر فيهم ، وكاشفاً عن أفـكار أهالى مصر عموماً ، وقد أشارت إلى هذا المعنى جريدة (البال مال جازيت) .

معارضة الانجليز

تنبهت أفكار الدول الأوروبية فى هذه الأيام ، إلى ما يمسها من إيغال الإنجليز فى طمعهم ، وأن ظفرهم فى أعمالهم الشرقية لما يخمد أنفاس أوروبا ، ويسد عليها أبواب التجارة ، ولو نجح الإنجليز فى سيرهم إلى ما يطمحون إليه ، لم يبق موضع قدم للتجارة الأوروبية ، فيضرب الفقر فى غالب أقطار أوروبا التى قوام معيشتها التجارة ، وأن الدول لتعجز بعد هذا عن حاجاتها . هذا فزع ألمت بدايته بنفوس الدول من صيحة الطبيعة ، وزاد عليه ما خدش خواطرها من الإهانات المتتابعة اللاحقة بها من غرور الإنجليز ، دولة انجلترا هى التى تركت الدول تأتمر فى الأستانة ، واستبدت بإطلاق النيران على مدينة الإسكندرية ، هذه الدولة هى التى دعت الدول العظام إلى مؤتمر للمداولة فى مسألة مصر ، معترفة بحقوقها فيها ، فلما لم تجبها الدول إلى مطلبها الباطل ، صرفت نوابهم ، وانطلقت فى أعمالها غير مبالية بهم ، وعزمت على إرسال (اللورد نورث بروك) ، (والجنرال ولسلى) ، فى آن واحد إلى مصر .

هذا كله حرك خواطر الدول ، وصار من أعظم البواعث على اجتماع الأباطرة الثلاث فى شهر سبتمبر كما أنبأت الجرائد ، وأكدت أن موضوع المداولة بينهم ، هذه المسألة المهمة : لهذه المسألة كانت مدينة وارزين دار ندوة سياسية ، وبها وجد البرنس بسمارك مجالا واسعاً للسياسة ، تلاقى الكونت كالنوكى مع البرنس بسمارك ، وطالت مدة الاجتماع ولحق بهما مسيو دى جيرس وزير دولة روسيا ، وكان البحث فيما ألم بالدول بعد مؤتمر لندن ، ثم عقب ذلك سفر مسيو كورسيل سفير فرنسا فى برلين

إلى وارزين لملاقاة بسمارك (وإن أولت بعض الجرائد الإنجليزية حركة هذا السفير بمقصد آخر) . فهذه الزيارات المتتالية بين هؤلاء الوزراء العظام ، بعد خيبة المؤتمر تفتح للمتأمل باباً واسعاً من الفكر ، وتشف عن أمور عظيمة سيكشفها الزمان عن قريب . هذا إلى الأمر الجديد الذى صدر من دولة ألمانيا وهو تعيين وزير فى سفارة مبجلة لدى شاه إيران ، وفى أعضاء سفارته ، بروكش باشا المشهور بعلم الخط المصرى القديم، وهى أول مرة كان لهذه الدولة سفير عند الشاه ، ثم ذهاب ميرزا خان سفيراً خصوصياً من الدولة الفارسية إلى الدولة الروسية ، ونيله غاية التبجيل والتكريم .

كل هذا ينبئنا أن فى كمين الغيب مصيبة كبرى ستنقض على دولة الإنجليز . إن الأحقاد قد أخذت بقلوب الأمم الأوروبية وامتلأت الأفئدة غيظاً حتى طفحت ، ولهذا لا ترى جريدة ألمانية أونمساوية أوفرنسية أو روسية إلا وهى مشحونة بالطعن والتنديد ، والوعيد والتهديد ، والإنذار بسوء عاقبة حكومة الإنجليز ، ليس ببعيد على عدل الله أن ينكس أعلام العاتين . الذين يعبثون فى الأرض مفسدين . ويسلبون ممالك العالم غيلة ، ويهضمون حقوق الأمم بغياً وعدواناً ، ويسيمونها عذاب الرق والعبودية عتواً واستكباراً ، أظلم جو السياسة على سابلة الانجليز ، وزأرت عليهم ضارية الويل من كل جانب ، ولهم فى هذه الأهوال حركة الخابط ، إما ستراً لضعفهم ، أو غروراً ببأسهم ، ويتعلقون بحبال الوسائل لامتلاك مصر والسودان ، اللورد نورث بروك وسميع الله خان ، الدهرى يذهبان إلى مصر لتأليف القلوب ، وجميع الخواطر على ولاء الحكومة الانجليزية ، وأن ولسلى بعد ما نال من حسن الصيت بصرف الدنانير فى التل الكبير ، عزم على أن يفتح فتحاً آخر بمثل تلك الوسيلة ، ولكنا لا نظن فى السودان مثل شهيد الخيانة وأبى سلطان باشا اضرابه ، وهذا من جهة أخرى يسعون لإجبار الحكومة المصرية على إعلان الإفلاس وإشهار العجز عن القيام بنفقات الحكومة . ليجدوا فى ذلك وسيلة لتقرير حمايتهم على القطر المصرى ،

وتخفيض فائدة الدين والاستبداد بشئون المملكة . أنهم نالوا فى الحرب المصرية من الدولة العثمانية فرمانا سلطانياً بعصيان عرابى ، فحقنوا به دماء رجالهم ، وصانوا كثيراً من أموالهم ، واليوم يسعى اللورد دوفرين بمواعيده العرقوبية ، وإيماناته الكاذبة عند الباب العالى ليحمله على إرسال عشر مدرعات إلى الإسكندرية ، وسوق جيش إلى سواحل البحر الأحمر ليكون هذا بدل الفرمان بعصيان محمد أحمد ، ويفوز الإنجليز بالتسلط على مصر والسودان ، ويحلفون وهم الكاذبون ، إنهم لا يمسون حقوق السلطان (هل أبقوا حقوقا تمس) حتى إذا ثبتت أقدامهم تحت ظل العلم العثمانى ، قلبوا للعثمانيين ظهر المجن وأجابوهم بهز الرؤوس وكشرة الأنياب ، ولا نظن أن الدولة العثمانية تغتر بوعود الإنجليز مرة ثانية ، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وقد جربت منهم حلاوة الوعد ، وذاقت فى أخلافه مضاضات الإهانة ، ومرارات التحقير .

نعم هذا وقت يتسنى للدولة العثمانية أن تتفق مع سائر الدول لصون مصالحها، ولا يخطر ببال عثمانى أن ينال خيراً بالاتفاق مع الإنجليز ، إن حكومة بريطانيا ما عاهدت عهداً إلا ونقضته ، بعد ماجنت ثمرته ، فربحها فى العهود خاص بها ، لا يشركها فيه غيرها ، لم يخف على الدولة العثمانية أن الانجليز تصرفوا فى الأراضى المصرية تصرف المالكين بلا مشورتها ، وهبوا قسما عظيما من السودان الشرقى للحبشة وأثاروا حرباً صليبية بين الحبشيين ومسلمى السودان ، نزعوا إلى الاستيلاء على زيلع وهرر وبربر ، هل كان شىء من هذا بإذن الباب العالى ، فعلى أى وجه تثق الدولة بانجلترا ، بعد ما جربت من غدرها ما جربت ورأت من عدوانها ما رأت ، لو تساهلت الدولة مع الانجليز فى مسألة مصر فسنسمع عن قريب بأمور فى الحجاز وسوريا واليمن وبغداد وكلها من دسائس الانجليز ، أما لو أقدم العثمانيون بعزيمة ثابتة وأقبلوا على شأنهم فى مصر ، مع هيجان الأفغانيين وانفراد انجلترا عن سائر الدول ،

لوجدوا لهم أنصاراً من جميع المسلمين فى الشرق ، ومن المصريين والسودانيين ، ولأرغموا الانجليز ، واسترجعوا ما فقدوه من المكانة أيام حرب الروسيا ، ولأعادوا عزتهم الأولى . هكذا ينبغى أن يساق الجيش العثمانى لصدمة الانجليز لا لخدمتهم فان لم تفعل الدولة العثمانية ، فعلى الدنيا العفا وعلى الاسلام السلام !!

وليعلم المصريون من الفلاحين والعرب أن الانجليز لا يقصدون إلا استعبادهم واستخدامهم كما يستخدم الأرقاء وأول نير للذل يوضع على أعناق أمرائهم ، فعليهم ألا يكونوا آلة فى تمكين العدو من رقابهم ، وأن لا يكون بعضهم فخا لصيد باقيهم ، لعمر الله إنا لفى عجب من الذين يحفظون القلاع فى السودان ، ومن المصريين الذين يزحفون لمقاتلة السودانيين ، هل يعلمون أى أمة يخدمون ، بلى إن حامية كسلا حافظت عليها حتى تسلمها للحبشة ، وأن حماة القلاع فى السودان يحفظونها حتى يسلموها لقواد الانجليز إن استطاعوا ، نعم كنا نحب أن نرى هذه الشهامة من العساكر المصريه ، لكن إذا لم يكونوا فى تصرف دولة أجنبية أما اليوم فثباتهم هو العار بعينه ، والله لا أظن شخصاً فى قلبه ذرة من الايمان تسمح له نفسه بهذا العمل ، فان لم يسعوا فى إخراج عدوهم من ديارهم ، والظن بهم أن يسعوا . فلا أقل أن يكفوا عن مساعدته فى تملكها . ألا يعلم المصريون أن حركة خفيفة منهم فى معارضة الانجليز فى هذا الوقت تجلب تدخل الدول وتكون سبباً لانقاذهم من هذا العدو الذى لا يكتفى بأكل لحومهم حتى يهشم من عظامهم فليعلموا ذلك وليعملوا ، والله لا يضيع أجر العاملين .

الدهريون فى الهند

دخل الانجليز بلاد الهند ولعبوا بعقول أمرائها وملوكها على نحو يضحك العقلاء ويبكيهم ، وكانوا يوغلون فى أحشاء الهند ويتخطفون أراضيه قطعة بعد قطعة ، وكلما سادوا فى أرض أدلوا على سكانها وأظهروا الضجر والسآمة من الإقامة بينهم قائلين أن الانجليز لا يشتغلون إلا بالأعمال التجارية ، أما مقارفة الادارة والسياسة فليست من شئونهم وإنما يدعوهم إلى احتمال أثقالهـا الشفقة على الملوك والأمـــراء العـاجزين عن سياسة ممالـكهم ، ومتى قدر الأمير أو الملك على ضبط بلاده فلا يبقى انجليزى فيها لأن لهم أشغالا مهمة أخرى تركوها لمحض الرحمة . وبهذا سلب الإنجليز كل مالك ملـكه بحجة أن العمل فى الملك ثقيل على النفس متعب للفكر والبدن فالأولى لصاحب الملك أن يستريح وأن يموت فقيراً ذليلا تخلصاً من عناء التدبير وينادون بأنه متى سنحت الفرصة وجاء الوقت الذى لا يكون للأعمال المعاشية ولا العـادية تأثير على الأبدان ولا على الأفـكار فانهم مستعدون لترك البلاد (يوم الحشر) ، واليوم يقولون نفس هذا الـكلام بعينه فى مصر !!

* * *

ولـما استقرت أقدامهم فى الهند وألقوا به عصاهم ومحيت آثار السـلطنة التيمورية نظروا إلى البلاد نظرة ثانية فوجدوا فيها خمسين مليوناً من المسلمين ، كل واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملـكهم العظـيم وهم يتصـلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقاً وغرباً وشمالا وجنوبا ، وأحسوا أن المسلمين ما داموا على دينهم ، وما دام القرآن يتلى بينهم . فمحال أن يخلصوا فى الخضـوع لسلطة أجنبى عنهم ،

خصوصاً إن كان ذلك الأجنبى خطف الملك منهم بالخديعة والمكر تحت ستار المحبة والصداقة . فطفقوا يتشبثون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامى ، وحملوا القسس والرؤساء الروحانيين على كتب الكتب ونشر الرسائل محشوة بالطعن فى الديانة الإسلامية ، مفعمة بالشتم والسباب لصاحب الشريعة (برأه الله مما قالوا) فأتوا من هذا العمل الشنيع ، ما تنفر منه الطباع ، ولا يمكن معه لذى غيرة أن يقيم على أرض تنشر فيها تلك الكتب ، وأن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبى ذلك الأفك العظيم ، وما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين ، وحملهم على التدين بمذهب الإنجليز ، هذا من جهة ، ومن جهة أخذوا فى تضييق سبل المعيشة على المسلمين ، وتشديد الوطأة عليهم ، والإضرار بهم ، من كل وجه ، فضربوا على أيديهم فى الأعمال العامة ، وسلبوا أوقاف المساجد والمدارس ، ونفوا علماءهم وعظماءهم إلى جزائر (أندومان) و (فلفلان) رجاء أن تفيدهم هذه الوسيلة إن لم تفدهم الأولى فى رد المسلمين عن دينهم ، باسقاطهم فى أغوار الجهل بعقائدهم ، حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم ، فلما خاب أمل أولئك الحكام الجائرين فى الوسيلة الأولى ، وطال عليهم الأمد فى الاستفادة من الثانية ، نزعوا إلى تدبير آخر فى إزالة الدين الإسلامى من أرض الهند أو إضعافه ، لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المنهوب : والحق المسلوب ، فاتفق أن رجلا اسمه أحمد خان بهادور (لقب تعظيم فى الهند) كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة منهم ، فعرض نفسه عليهم وخطا بعض خطوات لخلع دينه والتدين بالمذهب الإنجليزى ، وبدأ سيره بكتابة كتاب يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم ، ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول إنى نصرانى وأن هذا العمل الحقير لايؤتى عليه أجراً جزيلا ، خصوصاً وقد أتى بمثل كتابه ألوف من القسس والبطارقة وما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين أشخاصاً معدودة فأخذ طريقاً آخر فى خدمة حكامه الإنجليز بتفريق كلمة المسلمين وتبديد شملهم .

فظهر بمظهر الطبيعيين (الدهريين) ونادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء وليس لهذا الكون إله حكيم (إن هذا إلا الضلال المبين) وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالاله الذى جاءت به الشرائع (نعوذ بالله) ولقب نفسه بالنيجرى (الطبيعى) وأخذ يغرى أبناء الأغنياء من الشبان الطائشين فمال إليه أشخاص منهم ، تملصاً من قيود الشرع الشريف ، وسعياً وراء الشهوات البهيمية ، فراق لحكام الانجليز مشربه ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين ، فأخذوا فى تعزيزه وتكريمه وساعدوه على بناء مدرسة فى (على كده) وسموها مدرسة المحمديين ؛ لتكون فخاً يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل (أحمد خان بهادور) . وكتب أحمد خان تفسيراً على القرآن فحرف الكلم عن مواضعه ، وبدل ما أنزل الله ، وأنشأ جريدة باسم تهذيب الأخلاق لا ينشر فيها إلا ما يضلل عقول المسلمين ، ويوقع الشقاق بينهم ، ويلقى العداوة بين مسلمى الهند وغيرهم ، خصوصاً بينهم وبين العثمانيين ، وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة (لكن لا يدعو إلا المسلمين) ونادى الطبيعة !! الطبيعة !! ليوسوس للناس بأن أوروبا ما تقدمت فى المدنية ، وما ارتقت فى العلم والصنعة ، وما فاقت فى القوة والاقتدار إلا برفض الأديان ، والرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين (على زعمه) وهو بيان مسالك الطبيعة (قد افترى على الله كذباً) . ولما كنا فى الهند آحسسنا من بعض ضعفاء العقول اغتراراً بترهات هذا الرجل وتلامذته فكتبنا رسالة فى بيان مذهبهم الفاسد وما ينشأ عنه من المفاسد وأثبتنا أن الدين أساس المدنية وقوام العمران وطبعت رسالتنا فى اللغتين الهندية والفارسية . إن أحمد خان ومن تبعه خلعوا لباس الدين وجهروا بالدعوة إلى خلعه ابتغاء الفتنة بالمسلمين وطلبا لتفريق كلتهم وزادوا على زيغهم أنهم يزرعون الشقاق بين أهل الهند وسائر المسلمين ، وكتبوا عدة كتب فى معارضة الخلافة الإسلامية ، هؤلاء الدهريون ليسوا كالدهريين فى أوروبا ، فان من ترك الدين فى البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه ولا تنقص حميته لحفظ بلاده من عاديات الأجانب ، ويبذل فى ترقيتها

والمدافعة عنها نفائس أمواله ، ويفدى مصلحتها بروحه ، أما أحمد خان وأصحابه فإنهم كما يدعون الناس لنبذ الدين يهونون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون على النفوس تحكم الأجنبى فيها ويجهدون فى محو آثار الغيرة الدينية والجنسية وينقبون على المصالح الوطنية التى ربما غفل الانجليز عن سلبها لينبهوا الحكومة عليها فلا تدعها . يفعلون هذا ، لا لأجر جزيل ، ولا شرف رفيع ، ولكن لعيش دنىء ونفع زهيد . (هكذا يمتاز دهرى الشرق عن دهرى الغرب بالخسة والدناءة بعد الكفر والزندقة) .

أحسن الانجليز إلى أحمد خان بتوظيف ولده مولوى محمود عضواً فى مجلس قرية من قرى الهند لا تزيد عن (شبراخيت) فى مديرية البحيرة ، ومن حبائله لصيد الضعفاء من المسلمين ، أنه يعدهم ويمنيهم بأنهم لو تبعوه لأدخلهم فى وظائف الحكومة بما له من الجاه عند جابرة الانجليز . وحكومة الانجليز لم توظف من أصحابه إلا أربعة أعضاء فى مجالس القرى ولا يوجد وطنى هندى فى مثل هذه الوظائف سواهم . هذا هو المجد الذى ناله أحمد خان ثمناً لدينه ووطنه ، فهو كما قال صديق نواب حسن خان ملك بهوبال صاحب التصانيف المشهورة أن (أحمد خان) دجال آخر الزمان ، نعم ساعده حكام الانجليز على استخدام بعض من يقدمهم ، لكن لا فى الحكومة الانجليزية الهندية ولا على الخزينة الانجليزية وإنما يلزم الحاكم أحد النواب الباقين على صورة استقلالهم أن يوظفوهم فى بعض الوظائف الدانية .

راق هذا المشرب فى أعين الحكام الانجليز وابتهجوا به وظنوه موصلا إلى غايتهم من محو الدين الاسلامى من البلاد الهندية ، هؤلاء الدهريين صاروا جيشاً للحكومة الانجليزية فى الهند يسلون سيوفهم لقطع رقاب المسلمين ، لكن مع

مع البكاء عليهم والصياح بهم ، إنا لا نقتلكم إلا شفقة عليكم ورحمة بكم وطلباً لإصلاحكم ورفاهة عيشتكم ورأى الإنجليز أن هذه أقرب الوسائل لنيل المقصود من ضعف الإسلام والمسلمين .

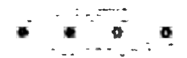
كان التلميذ الأرشد لأحمد خان والوزير الأول والمدير له فى جميع شؤونه وجلا إسمه سميع الله خان .

سميع الله خان هو أعظم الدهريين دهاء ، وأشدهم اجتهاداً فى تضليل المسلمين ، وأدقهم حيلة وأقوامهم مكراً فى إيجاد الوسائل لتفريق شمل المؤمنين ، وتمكين الحكومة الإنجليزية فى أرض الهند ، يقوم هذا الخادع خطيباً فى محافل المسلمين فتسبق دموعه كلامه ، ويأتى بغاية ما عنده من الفصاحة لهدم أركان الديانة الإسلامية ، وإبطال عقائدها الأصلية ، ويتجرأ على حضرة الالوهية ، ويطعن فى الرسالة وصاحبها ، كل ذلك وهو ينتحب كأنما يرثى الدين وأهله .

إذا دخل فى بلد من بلدان لأداء هذه الخدمة واظب أياماً على دخول المساجد ، وحضور المحافل الدينية ، واستدرج الناس بعذب الكلام ، ولطف الوعد ، وجذبهم إليه من حيث لا يشعرون ، فاذا اجتمع عليه بعض من الناس اغتراراً بطلاوة ظاهره بدأ فى دعوتهم إلى مشربه الكدر (خلع الدين) .

هـذا العدو البين للاسلام والمسلمين قد نال بمساعيه هذه ، وظيفة قاض (فى الشريعة الإنجليزية) فى بلدة (أكره) وهى بلدة لا تزيد عن دسوق فى مديرية الغربية ، قالت جريدة التايمس بعد ما مدحت سميع الله خان بكل ما يمدح به أن هذه الوظيفة (قاض فى بلد صغير) هى أعلى وظيفة ينالها هندى وطنى (أيحتاج لاثبات العدالة الإنجليزية إلى شاهد أكبر من هذا) .

نورث بروك اللورد الإنجليزى الذى أشرنا إلى طرف من تاريخه فى الهند فى العدد الماضى ، عرف سميع الله خان حق المعرفة عند ما كان حكمداراً فى الهند، ووقف على أنه أصدق الناس فى خدمة الإنجليز وأقدرهم على أدائها . ولهذا طلبه ذلك اللورد ليكون كاتم سره فى مصر ليستعملة فى تنفير المصريين من الدولة العثمانية ، وفى إقناع المصريين بأن حكومة انجلترا تريد بهم خيراً ، ويستخدمه فى استمالة قلوب العلماء لأنه واحد منهم (على دعواه) وقد يكون من نيته أن يدخل الجوامع ويعظ ويخطب ويروى عن عدل الإنجليز ما لا صحة له وما تكذبه المشاهدة ، ولكن رجاؤنا فى نباهة المصريين وصدق عقائدهم الدينية وشـــدة ارتباطهم بالدولة العثمانيـة أن لاينخدعوا لهذا الراكس الهندى (الراكس بلسان السنسكريت الشيطان المريد) لا نجح الله له مقصداً ولا أناله مبتغى .



جريدة الأهرام

اشتد غضب نوبار باشا على جريدة الأهرام فأصدر أمره بتعطيلها شهراً وقفل مطبعتها . وقيل فى السبب أنها نشرت رسائل مدير الجريدة وهو فى لندن على ما فيها من بيان بعض مساوىء السياسة الانجليزية على خلاف رغبة سعادة الباشا !! وقيل إن السبب نشر الشكر الذى قدم إلى المدير والمحرر من أعيان البلاد دلالة على استحسان مشرب الصحيفة «استقباح سياسة الانجليز» ولكن كتب إلينا من مصدر خاص أن هذه المسائل العمومية لا تهم نوبار باشا إلا إذا مست مصلحته الخاصة ، فالسبب الحقيقى هو أن النهج المستقيم الذى سلكته «الأهرام» دعا إلى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض باشا وشريف باشا مع وصفهما بالوطنية وعلو الهمة وكمال الغيرة . نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ما ذكرناه فى العدد السابق ونشرته بعدنا جريدة (الديبا) وسائر الجرائد الإنجليزية وهو أن يكون ولى القاصر « عباس » بعد خلع أبيه فينال بسطة فى السلطة وإطلاقاً فى الأمر والنهى . وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الانجليزية على تملك مصر وهى محتاجة فى ذلك إلى كل من ليس له وطن ولا دين ولا جنس فى مصر ، فهى فى شدة الاحتياج لنوبار باشا ، وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات ، إن قلت لا فلا ، أو قلت نعم فنعم فهو فى غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه . فعلم نوبار باشا أن خديوياً مثل هذا يمكن أن يكون واسطة فى تمكين الانجليز من مصر من حيث لا يشعر وبتقديم هذه الخدمة لهم يبنى لنفسه من العزة قصراً شاهقاً .

فكيف يطيب لنوبار باشا مع هذا السعى أن يسمع ذكر رياض باشا وشريف باشا مع وسنى الوطنية وعلو الهمة . ربما الإكثار من ذكر هؤلاء الرجال يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيل يهدم كل مايبنيه . إن صاحب الأهرام أكثر من ذكر الوطن والوطنيين ، ونوبار باشا أبعد الناس عنهما لهذا أغضبه ذكرها . كلما ذكر لفظ الوطن أو الملة أو الجنس أو الأمة سواء كان فى مقال عام أو فى جانب شخص خاص ، حسب نوبار باشا أن فى الكلام تهكما عليه واستهزاء به .ولا عجب من نوبار باشا إن ظن ماظن أو فعل مافعل ، فالرجل ليس بمصرى ولا عربى ولا مسلم فاذا باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح لاخسر ملة ولا وطنا ولا جنسا .

وقيل أن نوبار باشا يطلب إبعاد الزبير باشا من مصر فإن نال مطلبه لم يبعد أن يطلب لشريف باشا ورياض باشا وكل ذى شهامة أو فكر فى مصر مثل ما طلب للزبير وتكون الحكومة النوبرية حكومة هندية وهل يبعد مثل هذا على من يسعى لخلع الخديوى !! إن الذى يؤيد ما روى لنا فى سبب تعطيل الأهرام هو أن نوبار باشا ماتحرك لحجز العروة الوثقى عن دخول مصر إلاعندما ذكر فيها رياض باشا مع ذكر بعض أوصافه ، وإلا فان كان السبب ذكر الإسلام والمسلمين فيها فذلك ينذرنا بقفل الأزهر بأمر نوبار باشا !

إنى أتعجب وكل ذى إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمنيين . ألايوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده ويتقدم بصدره ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمنى فيبطل هذه الصفقة وينقض هذه البيعة ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ويرفع الحجاب عن واجبات الملية لا حول ولاقوة إلا بالله .

إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل فى الذل ، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية ، ويتجرعون مرارات سكرات الموت ، فى كل لحظة خوفاً من الموت . لا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ، ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخار بنى الإنسان !!

لاهـــور

جاءتنا رسالة من لاهور باللغـة الهنـدية (ورجاؤنا أن تكون المكاتبة فيما بعد باللغة الفارسية) فرأينا أن ننشر ملخصها . قال الـكاتب :

إنا نسمع صاحب جريدة (أخبار عام) اللاهورية ينادى من صميم قلبه بأن الانجليز سلاطيننا ، خصوصاً عند كلامه فى الانتقاد على العـروة الوثقى ، ومن غريب كلامه قوله أن غرض العروة أن تفصم رابطة الاتحاد بين الرعايا الهنديين وسلاطينهم الانجليز . ولا يخجل من قوله أن سلاطيننا الانجليز هم الذين زينوا الهند بإصلاح طرقه ومد السكك الحديديه فى أنحائه ووصل أرجائه بأسلاك التلغراف . كأنما الانجليز من سـلالة بكر (ماجيت) أو من جنس (الجهترى) أو من أحفاد (أكبر شاه الهندى) وإذا سمع سامع صوت هذه الجريدة على بعد يظن أن هذه الأعمال التى زينوا بها الهنـد (على رأى الجريدة) ما قام بها الانجليز إلا لمنفعة الهنديين ويتوهم أن الهنديين جنوا من ثمرتها شيئاً وأن ضجرهم من سلطة الانجليز ونزوعهم إلى التملص منها إنما هو من كفران النعمة ، يا عجبا من هذا البانديت اللاهورى أنه يرى فقر أبناء وطنه ومسكنتهم ويشهد بعينه أنهم لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، وأن أسعد الناس منهم من يحصل عشر روبيات فى الشهر بعد أن يبلغ درجة عالية من الـكمال ومن جملتهم نفس صاحب الجريدة . فـكيف يطيل لسانه بشكر هذه الحـكومة ويضع على ظهور الهنديين حملا ثقيلا من المنة لمد سكك الحديد وخطوط التلغراف . إن كانت حكومة الانجليز تسوس الهند بالعدل فأين ذهبت ثروة أهاليـــه مع خصب الأرض ووفرة الثمرات ولأى سبب ابتلى الناس بالفقر حتى لا يجدوا قوتاً .

إن الجرائد الانجليزية فى الهنـــد تنذر حكومتها بأنه لو استمرت

الإدارة الهندية على حالها هذا فلا يمضى عشر سنوات إلا وتكون فتنة عمومية تأخذ بجميع أطراف الهند ويكون منشؤها الجوع . فإذا أنشأت الحكومة الانجليزية سكك الحديد لنقل بضائعها وترويج تجارتها وحمل العساكر لقتل أبناء البلاد وليس عند الهنود الآن ما يباع ويشترى حتى يستفيدوا من سهولة نقله ، فلأى شىء تكون المنة على الهنود !!! وإذا مدت خطوط التلغراف لاستطلاع ما يجرى فى ممالكها وتسهيل المخابرة بين رجالها ، فأى منفعة فى هذا توجب مسرة الهنود .

* * *

إن رجال الانجليز بعد ما دخلوا البلاد على هيئة تجار وكانوا يخضعون للصغير والكبير أزيد من قرن ، بلغ من أمرهم الآن أن لا يعدوا الهنود من فصيلة البشر . إذا أراد حكام الإنجليز أن يجمعوا أعيان البلاد لإلزامهم بأداء ضريبة جديدة هيئوا مكاناً علياً يرتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع لتوضع عليه كراسى سادة الانجليز ويجلس الهنود فى منخفض من الأرض إظهاراً للامتياز مع أنهم ما جمعوهم إلا لسلخ ما بقى من جلودهم وامتصاص ثملة دمائهم . أى أمة متوحشة أو متمدنة تعامل أمة أخرى بهذه المعامله ، احلف بالله أن جنس الهندو (قوم برهما) حين ما قدموا من إيران وفتحوا الهند ما عاملوا السكنة القدماء بهذه المعاملة مع أنهم كانوا يعتقدون أنفسهم سماويين وما أذلوا جنس (الباريا) بهذه الدرجة مع أنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الآلهة . قبلوا جنس (التلنكان) فى مصافهم وأشركوه فى حقوقهم مع كونه مغلوباً لهم ، فتح المسلمون أرض الهند فعاملوا الوثنيين كمعاملتهم لبنى ملتهم وما حرموهم من الوظائف السامية ، وما من سلطان مسلم تسلط فى الهند إلا كان له من الوثنيين عمال ووزراء ، كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الأخوة حتى أوقع الانجليز بينهم الشقاق فى بنجاب وأطراف مدراس . يزعم الانجليز أن المسلمين أولوا تعصب دينى يجور بهم عن العدل مع إنا نرى إلى الآن فى الهند حكومات صغيرة يحكمهم راجوات ونوابون من أهل السنة والشيعة ونرى للراجا الوثنى وزيراً مسلماً وعمالا مسلمين وللنواب المسلم وزيراً وثنياً وعمالا وثنيين وهكذا السنيون مع الشيعة والشيعيون مع أهل السنة ولا نرى فى الملايين الكثيرة المحكومة بالانجليز رجلا هندياً فى

وظيفة شريفة . إن هذا البانديت (صاحب أخبار عام) لا يخجل من قوله أن الإنجليز سلاطيننا ، أى سلطان يستكشف من شرف رعيته ويعدهم فى عداد البهائم !!

إن اللورد ريبون لما صار حاكما على الهند ورأى أن الروسية وصلت إلى مرو وأحس بنفرة الهنود من الحكومة الانجليزية واستعدادهم للثورة أراد أن يطيب قلوبهم بأمر حقير يسخر منه الأبله فضلا عن الحكيم وهو توظيف (رام جندر متر) ومولوى محمود بن أحمد خان فى وظيفة القضاء ببلدة صغيرة وهما ممن تعلم الشريعة الانجليزية فى بلاد الانجليز (انظر كيف يطيب قلب أمة عظيمة مجروحة الأفئدة ساقطة فى جحيم الشقاء بمثل هذه المنحة المضحكة) وهذا الالتفات من اللورد لكمال سياسته وحذقه ، فماذا يكون موقع الهنود من نظره إذا كان يظن أن الأمم العظيمة المحترقة بنيران الظلم من أزمان تعترف بعدالة الانجليز لمجرد توظيف شخصين فى وظيفة صغيرة .

إن هذا مما عده اللورد الانجليزى أمراً لازماً لصون سياسته مما عساه يطرأ عليها ومع ذلك قام الانجليز فى الهند ورفعوا شكواهم إلى لندن من تصرف اللورد ولا يزالون يرفعون ويقولون كيف يجلس(كالا) أى الهندى الأسود على منصة القضاء وربما يأتى وقت تقام فيه الدعوى بين يديه على انجليزى فيصدر الحكم منه عليه (كيف يصدر الحكم من هندى على انجليزى) ، فليعتبر من يعتبر ، إن الانجليز لا تسمح نفوسهم أن يعترفوا بانسانية الهندى ولو للضرورة ، أيحب البانديت اللاهورى أن يلقى غشاوة الغش على عينيه وأعين إخوانه ويفترى الكذب بقوله أن بين الهنديين وحكومتهم نوعا من الالتئام ، وهل مثل هذه الحكومة يلتئم معها ذو إحساس ، إن البندت يقول فى جريدته وفى أثناء انتقاده على العروة أن سلالة الأمراء وأبناء العائلة التيمورية (ملوك الهند) عراة فى الأسواق يتضورون جوعا ولا يجدون خصا يأوون إليه ، فإن كان هذا حال الأمراء باعترافه فكيف يكون حال سواهم وكيف طوعت له نفسه أن ينطق بكلمة تشعر بالرضاء عن حكومة الانجليز . إنه يتملق للحكام ولكن لا أظنه ينال على التملق أكثر من عشر روبيات فى الشهر

فليس له أن يتعب لسانه ويجهد نفسه مجانا . لا ينكر البانديت أن الانجليز إذا خاطبوا هنديا لا يكلمونه إلا بالعصا وإذا اعتدى انجليزى على هندى فقتله حكم أطباء الانجليز بأن القتيل مات بالسل المزمن أو داء الكبد أو بمرض عياء ورثه عن آبائه كيلا يقاص انجليزى بدم هندى ، فيذهب دم الهندى هدراً . إن ظلم الانجليز وجورهم يظهر لكل قارىء من تلك الورقة الصغيرة (أخبار عام) . وإنى أقول بلسان كل هندى وثنيا أو مسلما سنيا أو شيعيا أن البانديت لا يمكنه بورقته هذه أن يقطب جروح الهنديين ولا أن يطفىء لهيب أحشائهم مما يرونه كل يوم من سلب الأملاك وإهانة الأديان وتضييع الحقوق وحرمان الأهالى من خدمة أوطانهم وليس فى طاقة قلمه أن يرفع شيئا من الواقع ولا أن يحدث خاطر محبة الإنجليز فى قلب هندى إلا من خربت ذمته ومرق من عهود دينه ووطنه ، وإن البانديت يعرف هذا ولكنه يسعى لعله يحصل شيئا زهيداً ويقنع به بعضا منا وكثيرا من الشرقيين صارت حوصلتهم كحوصلة العصفور يملؤها حبتان من الحنطة !! وسنكتب إليكم عن تفصيل الأعمال الانجليزية عندنا إن شاء الله . اه

الانجليز والدول

ما للحكومة المصرية لاهية عن شأنها ، ماذا تبتغى من سكونها وميلها مع ريح الحكومة الإنجليزية ، ماذا تنتظر الدولة العثمانية بعد انحلال المؤتمر على غير طائل . أتظن الحكومة المصرية أن خضوعها لأوامر بريطانيا ، واهتمامها بخدمة عساكرها الزاحفة إلى السودان ، مما يوجب الخجل لحكومة الإنجليز ، فتستحى بعد ذلك أن تكفر نعمة الصداقة وترعى سابقة الخدمة ، فتترك مصر نقية الراحة ، بريئة الذمة ، وتمكن الأمر للحكومة المصرية ، وتشيد الخديوية لتوفيق باشا . إن خطر هذا الوهم ببال الحكام فى مصر فقد خرفوا فليس يحوم مثل هذا الهاجس فى فكر إلا وقد مسه الخبل ، ولا يختلج فى صدر حتى يختم عليه بطابع العمى .

حكومة بريطانيا انتحلت لنفسها أسباباً للدخول فى وادى النيل ، وأنشأت له عللا فغايتها من كل أعمالها أن تكون لها سلطة ممتازة فيه سواء تأيد توفيق باشا أو تأود ، ولما أحس رجالها أن بحث المؤتمر ربما ينجر إلى ما يمس غايتهم هذه تملصوا منه واستبدوا بأعمالهم وأخذوا على أنفسهم تسكين عاصفة الثورة السودانية . فان تم لهم ما أرادوا واستقلوا بالعمل فى السودان فهل يرجى منهم أن يخلوا مصر بعدما فتحوا من ورائها ما فتحوا . إن هذا إلا خيال باطل . هل تهورت انجلترا وأغاظت جميع الدول العظام وهيأت نفسها خطر تألبهم عليها حباً فى توفيق باشا ورغبة فى حفظ مسنده . هذا مما لا يعقل . ربما تكون الدول العثمانية والحكومة المصرية فى رجاء

أن الدول الأوروبية يستفزها الغضب فتندفع بقواها على دولة الإنجليز فتكبلها فى سياستها وتلجئها للجلاء عن مصر فتتركها لأهلها وكفى الله المؤمنين القتال ، إن كان ذلك سبب الفتور فهو ثقة فى غير محلها ونوع من الطمع غريب . قد يكون اتفاق الدول على معاكسة الإنجليز متعلقاً بجهات أخرى ولا يكون إخلاء مصر من مواضيع الاتفاق كما أشار إليه كثير من الجرائد حيث ذكرت أن من المقاصد التى يجتمع لها القياصرة الثلاث كف روسيا عن مطامعها فى أوروبا وإطلاق العنان لها فى آسيا والأقطار الهندية . أليس من الممكن أن مناوأة الدول للانجليز تنتهى بسلب جزء أو أجزاء من أراضى المسلمين فى مقابلة تمكن الإنجليز فى أرض مصر .

نبهت بعض الجرائد المهمة على شىء من هذا وصرحت بما لا ينطلق اللسان بذكره . أن للدول اهتماماً بنكاية الإنجليز ومن أعظم البواعث على اجتماع القياصرة خروج انجلترا عن حدها فى الاستئثار بالمنفعة على غيرها لكن أليس من الواجب على صاحب البيت أن يبدأ بعمل فى الذود عن بيته قبل أن يساعده الجيران خصوصاً إن كان للجيران أطماع متنوعة بعضها يمنع عن المساعدة وبعضها يحمل على التوانى وتأجيل العمل لأوقات أخرى وما يدرينا لو حولنا الأمر إلى الجار لينقذ المغصوب من يد الغاصب لعله بعد استخلاصه يختص به نفسه فما الذى جنيناه من ثمار مساعيه وأية فائدة حصلناها . لو شحت الحكومة المصرية بحياتها ، وأبصرت أن بقاءها فى إبائها ، وترفعت عن هذا الخضوع البارد ، وتجافت عن تسهيل الطرق ، وتمهيد السبل ، لمسير العساكر الإنجليزية ، ثم قامت الدولة العثمانية على المطالبة بحقوقها ، وذهبت فى الطلب مذهب العمل ، ولم تكتف بلوائح تسطر ، وحجج تنشر ، ولم تستند على سفرائها الذين ليس لهم خوض حقيقى إلا فى ملاذهم وشهواتهم ، لو كان كل هذا

لشاركت الدولة العثمانية ومعها حكومة مصر سائر الدول فى معاكسة انجلترا ، وحيث أن للدولة العثمانية والحكومة المصرية الحق الأول والملكية الشرعية فى تلك الأقطار فما يكون منهما من الأعمال يكسبهما تخليص البلاد ، فإن الدول تكون فى عونهما ولا حق لواحدة منها فيما بعد أن تستأثر عليهما .

إن إقدام الدولة على العمل وعدول الحكومة المصرية عن مسلكها المضر بها مما يقرب المسافة ويقصر المدة ويقوى حجة الدول فى مطاردة انجلترا — لو تساهلت الدولة العثمانية واطمأنت الحكومة المصرية لحالتها الحاضرة فبأى وجه تؤمل الحكومتان نفعاً من معارضة الدول ، على فرض لو استخلصت مصر من أيدى الإنجليز ، ماذا يبعث الدول على مقارعة دولة عظيمة كدولة بريطانيا لتسلبها ملكا عظيما ثم تسلمه للدولة العثمانية أو الحكومة المصرية . لا نتحاشى أن نقول أن الدولة العثمانية والحكومة المصرية واقعتان بين خطرين عظيمين . إن فاز الإنجليز فى السودان فقد ضاع القطر المصرى ، واستقرت فيه السلطة لحكومة انجلترا سواء عارضت الدول أم لم تعارض ، وضياع القطر المصرى هو ضياع الكل كما أشرنا إليه مراراً وكما يشهد به موقع البلاد المصرية من سائر بلاد المسلمين ، وإن خاب الإنجليز فى منازلة الثائرين فليس يخفى على عقل عاقل ما يترتب على هذه الخيبة وما ينشأ عن غلبة محمد أحمد وأتباعه وانهزام العساكر الإنجليزية . وربما كان هذا الأمر الثانى سبباً لمداخلات أجنبية فى جميع أقطارنا .

ليس من الصعب على الدولة العثمانية ولا على الحكومة المصرية أن تظهرا شيئاً من الشدة ، وتأخذا بجانب من القوة ، وتقفا على قدم الثبات ودولة انجلترا فى تخبط مع الدول وارتباط بالسودان ، والمسلمون من جميع الأقطار فى هياج شديد ، لوقامتا بما يسهل عليهما لحفظ لهما الموجود ورد المفقود ، وسدت أبواب المطامع ، وأخذت الدولة العثمانية مكاناً من القوة تخشع له قلوب الجبارين ، ولازدادت بذلك

ثقة المسلمين وانبعثت آمالهم . سلكت جريدتنا مذهب الصدق فى بيان حال الإنجليز مع الدولة العثمانية ، وأثبتت عن بصيرة وكمال خبرة أن الإنجليز يهابون منافرة الدولة ويخشون سوء مغبتها . جريدتنا تنادى بذلك من يوم صدورها بينا أن للدولة سلطة معنوية فى الهند لم تبلغها حكومة الإنجليز بعد إفراغ جهدها . هذه حقيقة الأمر ومع ذلك لا ندرى سر هذه السياسة اللينة التى لا نرى لها أثراً إلا فى الأوراق وتحت أسنة الأقلام والإنجليز يقاتلون ويتملكون وتزداد أقدامهم رسوخا يوماً بعد يوم وانطلق بهم البغى إلى أن أطالوا أيديهم إلى الأوقاف المصرية يطلبون التصرف فى خزينتها والقيام على إدارتها ، نعيد الكلام مرة أخرى ونقول أن جميع المسلمين فى الأقطار الهندية وما يتاخمها قائمون على قدم وساق متهيئون لمواثبة أعدائهم وسالبى حقوقهم فبثبات ما من الدولة العثمانية يظهر له أثر عظيم يضطر الحكومة الإنجليزية إلى ترك مصر ، ليس للدولة أن تضيع هذه الفرصة فقلما يأتى الزمان بمثلها ، الدول متألبة على الإنجليز وروسيا مشرفة على الهند ، والهنديون فى هياج ، وخطب السودان غير يسير ، فإن لم تأخذ الدولة حقها من الإنجليز فى هذا الوقت ، فمتى ؟ !

تعظيم توفيق باشا لنورث بروك!

ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نورث بروك إليها وتمت المقابلة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم إليه رسالة من اللورد جرانفيل يخوله فيها (نورث بروك) وكيلا للحكومة الإنجليزية فى القطر المصرى ويطلب من الحكومة المصرية أن تساعده فى حل المشاكل الحالية خصوصاً المالية . فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكمال الرضى بجميع مطالبه ا ﻫ .

ويظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد نورث بروك ، وإن لم يكن بينه وبينه معرفة شخصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمله فى بلاده ، هذا يمكن ، وليت شعرى ماذا يجنى هذا الخديوى الشاب من مرضاة هذا الخادع ، وماذا يصيبه من سهام حيله . ولقد بينا فى بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفاً من أعماله فى الهند ونذكر الآن عملا آخر منها — طلب وهو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنجليزية فى مملكة (كابورتال) وهى مملكة واسعة تتاخم (لاهور) و (بتيالة) فادعى على مهراجها (ملكها) أنه مجنون وهو فى رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وسجنه فى (بكسو) حتى مات حتف أنفه وقيل بالسم وكان هذا الملك المخلوع ابن (راندهير سنك) ونصب بدله ولداً صغيراً من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول فى حوزة الحكومة الإنجليزية .

وكانت الحكومة الإنجليزية قد تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد فكان أولئك المساكين يسلون أنفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها ، فلما جاء اللورد نورث بروك حاكما فى الهند رآها كثيرة عليهم فنزعها من أيديهم وحرمهم من هذه المنفعة الزهيدة . هذا هو اللورد الذى طلب سميع الله خان الدهرى ليكون معيناً له فى مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنجليز وهو الذى أعطى المبالغ الوافرة للمعلم (بالمر) لينثرها بين العرب حتى يثوروا فى أراضى الدولة العثمانية أيام الحرب المصرية كما أخبرنا الثقة الصادق من لندن ولكن العرب قتلوا رسوله هذا وشنق به أشخاص فى مصر بلا جرم . هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدومه !! صان الله الأراضى المصرية المقدسة من شر هذا المحتال ومن شر صاحبه سميع الله خان الدهرى .

فرنسا وألمانيا

جزمت جريدة (نوفيل بريس ليبر) أن الباعث على سفر البارون كورسل (سفير فرنسا فى برلين) إلى وارزين هو أهم حدث سياسى ، وفى ظنها أن الحديث بينه وبين البرنس بسمارك انتقل إلى موضوع الحرب الصينية ومسألة الكونجو . قالت الجريدة : أن بسمارك قد غير منهجه السياسى الذى سلكه من سنة ١٨٧٠ . كان مضطراً لإبعاد فرنسا عن سائر الدول واليوم وجه عزيمته لإبعاد انجلترا . ولما اجتمع الأباطرة الثلاث فى سنة ١٨٧٢ اضطربت خواطر الفرنسيين وكان كل منهم يحدث نفسه هل ينتظر اتفاق بين الأباطرة على مناوأة الجمهورية . أما إذا اجتمعوا فى هذا العام فلا يخالط الريب قلب فرنساوى بل تكون النفوس ساكنة مطمئنة . ولا يوجد فى دولة أوربية ما يوجب حدوث قلق فى باريس بأى وجه كان ، بل يوجد ما يثبت الطمأنينة فإن من نية البرنس (بسمارك) فى وارزين أن يقرب فرنسا إلى سائر الدول البرية ، وأن زيارة البارون كورسل للبرنس تعد أكبر شاهد على ما نقول اهـ .

كيد الانجليز فى مصر

أرسل الإنجليز مراكبهم إلى ثغر الأسكندرية سنة ١٨٨٢ بلا سبب أو لقصد تهييج الخواطر الساكنة ، ثم أطلقوا نيران مدافعهم على ذلك الثغر فكان عملهم الأول والثانى سبباً فى خسارات جسيمة نكب بها سكان البلاد ثم كان الضمان عليهم . هذا ، إما من سوء حظ المصريين أو لضعف الحكومة أو خرقها . لا ريب أن خزانة الحكومة المصرية فى عجز عن أداء هذه الغرامة الثقيلة التى هى فى الحقيقة قصاص بلا جناية . ولكن مع ذلك للمصابين حق فى المطالبة بخسائرهم وليس لهم صبر على الإمهال فيها ، فحدثت ربكة وحكومة الإنجليز كالصياد الماهر لا يطلب السمك إلا عند تعكير الماء !! رأت أن تصيد صيداً أو تخطو خطوة أخرى إلى مقصدها فى مصر بعد خطواتها السابقة أو تمكن مخالبها فى أحشاء مصر بل يصح أن نقول أن الحكومة الإنجليزية بحيلتها التى أشرفت على تتميمها تريد أن تقبض على زمام البلاد المصرية فتكون بأسرها فى تصرفها .

من المعلوم أن عمار المساجد والمدارس الدينية إنما هو بالأوقاف التى أنشأها صلحاء الملة من أزمان مديدة ولا يزال ينشئها المقتفون لآثارهم ، وقيام الدين الإسلامى إنما هو بعمار المساجد والمدارس الدينية . فالأوقاف عماد عظيم يقوم عليه عرش الديانة الإسلامية . فقصد رجال الحكومة الإنجليزية بكيدهم أن يجعلوا العلماء الذين يعمرون مساجد الله ومعاهد العلوم الشرعية خاضعين لأحكامهم ، مرتبطين بعمالهم حتى يستعملوهم ، (وإن طلبوا محالا) فى جلب قلوب الأهالى إليهم وتأليفها على ولائهم وربما

نالوا بهم حجة عند دول أوروبا ، يثبتون بها رغبة المصريين فى بقائهم تحت سلطة الحكومة الإنجليزية واطمئنانهم إلى ما تقتضى به فيهم .

هكذا رأى اللورد نورث بروك أن يحل مسألة التعويضات بأن تدفع الحكومة الإنجليزية قرضاً للخزينة المصرية تؤدى به تعويضات الخسائر التى حدثت من ضرب الاسكندرية على شرط أن تكون الأوقاف العمومية كافلة للقرض وفوائده وتكون إدارة الأوقاف فى تصرف رجال من الإنجليز .

ألا أيها النائمون تيقظوا ، ألا أيها الغافلون تنبهوا ، يا أهل الشرف والناموس ، ويا أرباب المروءة والنخوة ، ويا أولى الغيرة الدينية ، والحمية الإسلامية ، ارفعوا رءوسكم ، تروا بلاء منصباً على أوطانكم ، وما أنتم ببعيد منه ، ولا معزل عنه ، إن لم يكن أصابكم اليوم ، فسيصيبكم غداً ، تساهلتم فى الذود عن حقوقكم المقدسة ، ولهوتم عن ما أضمرت لكم هذه الحكومة من الإهانة والتذليل ، وسوم الخسف وتعللتم بالأوهام . فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . أصبحتم على شفا جرف المذلة ، ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل فى جحيم العبودية .

إلا أن وقت التدارك ما فات ، فالأرواح فى الأجساد ، والعقول فى الرؤوس ، والهمم فى النفوس ، وإقدام العدو فى زلل ، وشئونه فى خلل ، فاثبتوا ولا تهنوا ، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ، إن كنتم مؤمنين ، لا ترضوا بالدنية ، خوفاً من المنية ، واعلموا أن ثباتاً قليلا وإقداماً خفيفاً ، فى هذا الوقت يفعل مالا يفعله الجيش العرمرم . نعم فإن الدول متفقة على معاكسة الإنجليز ، والإنجليز فى شغل شاغل بالمسألة السودانية ، وقلوب رعاياهم فى الشرق خصوصاً المسلمين ، منحرفة عنهم ،

وكوامن الأحقاد متهيئة للوثبة عليهم ، فعمل صغير فى مناوأتهم من أهل مصر يوجب بعون الله سقوطهم ، وتنكيس أعلامهم ، ورجوعهم بالخيبة خاسرين ، فالثبات الثبات وحذار حذار من التوانى والتقاعد ، هذا وقت يتقرب فيه المؤمنون إلى ربهم بأفضل عمل شرعى ، هذا وقت تنال فيه سعادة الدارين ، للعامل فيه خير الدنيا وله فى الآخرة الحسنى وزيادة ، هذا وقت تظهر فيه ثقة المؤمن بوعد ربه ، هذا وقت يشكر فيه العامل على بسيط الأرض ، ويحمد له عمله فوق سبع سموات ، إلا أن الشيطان يخوف أولياءه . فلا تخافوا أعداءكم ولا تكونوا كالذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، إن الله تعالى قد جعل من علامات الإيمان حب الموت اختياراً لرضاه وإعلاء لكلمته ، كونوا مع الله فى نصره ينصركم ويثبت أقدامكم ، ثقوا بوعد الله فلن يخلف الله وعده ، إن أخلصتم له فى العمل سلوا قلوبكم ، وامتحنوا أيمانكم ، ولا ترتابوا فى وعود ربكم ، فلن يرتاب فيها إلا القوم الكافرون .

الصراع بين :

انجلـــترا وفرنســا

أظهرت جريدة استندارد عند كلامها على السياسة الفرنسـية حدة زائدة وقالت إنا وإن كنا لا ننصح حكومتنا (الإنجليزية) بمعاداة دولة فرنسا ولـكن علينا أن نهج الطريق الذى يوافقنا بدون أن ننتظر فضلا من الأمة الفرنسية ولا أن نخشى غائلتها فإن كل عمل لا يبنى على هذا الأساس لا تكون غايته إلا الخيبـة ولا عاقبة له إلا الخسارة وأن تباين المصالح بين فرنسا وانجلترا فى درجة لا يمكن معها وفاق بين الدولتين اهـ .

ولم تنفرد جريدة استندارد بهذا القول ولـكن على شاكلتها جميع الجرائد الإنجليزية المهمة وليست جرائد فرنسا بأقل حدة من جرائد انجلترا فى تسوئة السياسة الإنجليزية وهذا مما يرشد إلى تمـكن النفرة بين الدولتين ، وربما ذهب بهما التباغض الذى يزداد يومابعد يوم إلى مقارعة أشد من مقارعة الـكلام ، والسياسيون فى انجلترا يرون أنهم يخسرون فى ذلك اليوم أكثر مما تخسر حكومة فرنسا ، فان انفرادهم عن الدول وضعفهم فى القوى العسكرية ، وجفول أمتهم من الحرب خارج بلادهم ، إذا امتد زمنها أو كان المنازل فيها أمة قوية حربية ، كل هذا سيوقعهم فى فشل لايسهل عليهم النجاة من عواقبه ، نسأل الله تحقيق ما يخافون .

نكاية الانجليز

حركات العقلاء على حسب المقاصد ، ومقدرة تقدرها وأولاها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شئون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر . وعلى رعاة الأمم فى كل دولة أن يكونوا بمرصد لكل حركة سياسية وبمرقب للنظر فى غاياتها والبحث عما بعث عليها . رب نهضة من سياسى عظيم تميد لها الراسيات فى كل دولة وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة . فليس لمحنك فى السياسة أن يقصر نظره على ما عنده ويرد كل حادث سياسى إلى ما رسم فى مخيلته واعتقده موافقاً لمصلحته فيضل عن الرشد بالقصور ويغيب عنه الصواب بالغرور ، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين فى لوح الإمكان ويتلوها فى صفحات المنافع والمضار التى يحمل على جلبها أو يدعو إلى دفعها طبائع الأمم ولوازم مليتهم ومواقع بلدانهم وعلائقهم مع من سواهم حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب والدوافع حافظاً لمداره ، واقياً لنظام سيره . يكون على غوارب أمواج الحوادث كالملاح الماهر ، يضرب بسفينته عروض البحار ، فى أمن من الأخطار ، يستفيد حتى من العواصف ، وينجو حتى من القواصف .

كانت حكومة فرنسا أشد الدول فى دفع انجلترا عن مطالبها المالية وبهذه الشدة سقط المؤتمر ، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده فى اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا فى (اسكيارنيافيس) ، ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول المخابرة ومعهم وزراؤهم ، رجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأى وبعد الغاية . هل كان هذا التلاق

لإطفاء لوعة الشوق وإجابة داعى المحبة الشخصية ؟ ! هل كان كما ذكرته الصحف للتداول فى الوسائل التى يجب استكمالها لقهر الفوضويين . كيف يكون هذا وليس أعوان الفوضى إلا كلصوص تقممهم السطوة الداخلية ويكفى لسد أبواب الفرار فى وجوههم مخابرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن فى أمثالها من المسائل الجزئية . إن ما تقوله الجرائد من هذا القبيل إنما يقصد به التعمية وصرف الأذهان عن النظر فى الحقيقة — أى غرض عظيم دعاهم للاجتماع — لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فان حكم المنافسة محى فضيلة الإيثار . قد انضم لهذا الإجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك بهذا الإتفاق الأمبراطورى أن يجعل لفرنسا ركناً شديداً فى معارضة انجلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضى إلى حرب توهى القوة الفرنسية ويصيب منها ما يحب ، هذه فائدة خاصة بدولة الألمان لو قدرت على نيلها فماذا ينال الدولتين المنافستين لها من الإتفاق معها . أو يريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقطيب جراحها بتأييدها فى رغباتها فتكون المصافاة بينها وبين ألمانيا وتنسى الأحقاد بينهما . غاية لا تطلب والشأن فيها كسابقتها ، يقصد البرنس مجرد الإنتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الإهانة التى لحقته فى المؤتمر . إن كان هذا ، فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصى لا يمس المصلحة المشتركة . هل هذة الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك والفتوح فى الشرق وإلى هذا القصد تنتهى ؟ ! ايصح أن يكون ذلك الأمر الكبير وسيلة لهذا الغرض الحقير . على أن انجلترا كانت أقرب إلى ألمانيا فى هذه الوجهة وأجدر بأن يميل اليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية .

هل أراد البرنس أن يحتل الروسيا ويلهى فرنسا بالمسألة المصرية لتنام الأعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك وبوسنه إلى ما شاء الله ووسعت القوة ، شفقة فى غير موضع وصنيعة فى محل القطيعة . هل أحب البرنس أن يمتع نظره بشهود الفتوحات ، فبعد مافتح للنمسا بابا فى الشرق من جهة هرسك رسم للروسيا طريق هراة

وقندهار ، ومد لفرنسا خطاً فى حـــدود تونس وهو قرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول فى فتوحاتها وإن لم تعد من ذلك فائدة على الأمة الألمانية . شيء لا يأتى عليه الفكر ولا يصيبه النظر . هذا ولايصح لنا أن نقول أن الحلف العظيم بين القياصرة واهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم لمجرد كف يد الإنجليز عن مصر وإبقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك على ما كانا عليه ، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مراسل (التان البرلينى) قال أن فى عزم البرنس بسمارك تأييد الحجة الفرنسية بثبات شديد وإرادة صحيحة ، وسيكون مع فرنسا يداً واحدة فى إبقاء الحالة المالية فى مصر على ما كانت عليه ، وفى زعم المراسل أن هذا كان باعثاً لسياسيى انجلترا على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين ألمانيا والنمسا و فرنسا . فإن المسألة المصرية بمجردها ليست مما يدعو إلى حملة عمومية .

إنى أرى تحت هذا النفع جحافل أهوال ، ووراء هذا الغيم وابلات أرزاء ، أرى تنقلا قريباً فى حـدود الجغرافيا السياسية ، وتغييراً عظيما فى الخطط الدولية ، وانقلابا فى هيئة الروابط العمومية ، نعم قد يكون من المبادىء الأولية لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرنسا فانه لم يجد خيراً فى مناوأتها زمناً طويلا . وكلما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعا فيريد أن يجرب صداقتها ، كما جرب عداوتها ، وأن يدفع البرنس دولة الروسيا إلى آسيا فهو أسلم للدولتين الألمانيتين ، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولى وجهها وفيما تخلفه ورائها فائدة البرنس التالية .
— أرسل البرنس ولده الكونت هيربرت بسمارك سفيراً فى لندن ليكون حفيظاً لسره أمينا على عمله ، حتى إذا فاته مايرجو من العزيمة الأولى ، لم يخجل من الإنقلاب عنها إلى الأخرى ، وربما يرى الارتباك الذى يؤدى به إلى ما يريد إنما يكون بعقد مؤتمر جديد باسم المسألة المصرية ، ويقال أنه سيثبت على شدته فى هذه المسألة إلى حد كما روته الجرائد المهمة ـ وقضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التى هى جزء من أجزاء الدولة فى مهب رياح مختلفة فعليها التيقظ التام ، والاحتراس

الشديد كى لا تكون خسارتهما فى استفادة غيرهما . إذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت حقوقها وصانت بقية ممالكها ، الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة وإلا خرق الغافل عرضة لكل خطر . الدول تطلب نكاية الإنجليز من كل وجه فما الذى يمنع الدولة العثمانية من مجاراة الدول العظام وهى أقدرهن على الإضرار بهم فإنهم فى بلادها ، يعيثون فيها مفسدين وسكان البلاد لا ينتظرون إلا خطوة من دولتهم إليهم فيقيمون القيامة عليهم .

أسف . .

أنبأت الأخبار الأخيرة بحدوث ثورة فى دارسين من بلاد أرمنستان قصد الإخلال بالسلطة العثمانية فى تلك الأقطار ومهب ريح هذه الثورة من جمعية الأرامنة فى تفليس ، والأسلحة والذخائر تنهال على الثائرين من تلك الجمعية . هذه هى الأمم الخاملة التى لم يكن لها فى الكون مكان ، ولا على صفحة الوجود أثر ، ولا فى صفوف الأمم العظام قدم ، أصبحت تطلب اسماً رسمياً وشأناً علياً ، تنفق أموالا ، وتبذل أرواحاً ، ولاتبالى بأغوال المنايا ، فما بال المسلمين فى بعض الأقطار وقد كانوا هامة العالم ، نراهم اليوم فى قنوط ويأس ، تتخطف الدول الأجنبية ممالكهم ، وهم فى سكون يكتفون بأسف العجائز ، وتحسر الزمنى ، مع أن لهم دولا عظاما ، وعددهم يتجاوز مائتى مليون من النفوس ، إن هذا لشىء عجيب حقاً ! ! .

اسماعيل باشا يحن إلى مصر !

عظم على الخديوى السابق أمر ما نزل بمصر ، وعز عليه اشتداد الأزمة فى داخليتها ، وعسر ماليتها ، واكتنافها بالفتن الخارجية ، وارتباكها فى المشاكل السياسية ، فحن اليها (وله أن يحن) . وأراد أن لا يدع للانجليز موضعاً للتعلل (فى تأمين الدين وإطفاء الثورة) فأظهر من سريرته ماذكرته جريدة الروبيليك فرانسز وهو أنه يتبرع بالتزام أداء ما يطلبه حاملوا الأوراق المصرية مع استعداده لأن يقود جيشاً لمغالبة محمد أحمد !!

* * *

ورأينا فى جريدة الماتان أن مسيو كورسيل سفير فرنسا فى برلين أخبر حكومته بوجه رسمى أن القياصرة الثلاثة استقر عزمهم أن يبعثوا إلى الخديوى (توفيق باشا) بلائحة مقتضاها أن منصبه سيكون فى خطر إذا استمر زمنا طويلا على الركون لانجلترا فى الدسائس المالية بالقطر المصرى . وأن السعى فى عودة اسماعيل باشا إلى مصر سيكون مؤيداً من وزارات برلين وستراسبورج وفينا وباريس وأن مسيو هربرت بسمارك يأخذ على نفسه أن يشهر الدوائر السياسية بلندن مايترتب على عودة الخديوى السابق من الفوائد حيث يعلن رسمياً أن عودة اسماعيل باشا هى أفضل فى نظر الدول من الأعمال التى تصدر من انجلترا متعلقة بمصالح أوروبا ومنافعها فى البلاد المصرية اهـ .

إنا نعلم أن اسماعيل باشا لو رجع إلى مصر لا يكتفى بتخفيض سلطة الإنجليز فى وادى النيل ، بل يبذل جهده فى محو النفوذ الإنجليزى بالمرة ، وربما مد بحباله

إلى سائر البلاد المشرقية الداخلة فى سلطة الانجليز ليحبط أعمالهم فيها ، ويهدم أركان سلطتهم عليها ، لأنه يعلم أن الدولة الإنجليزية هى السبب فى كل مصاب نزل به وكان الإنجليز أحسوا بذلك منه على ما روته بعض الجرائد فدفعوه عن نيل مقصده ولا يزالون يدفعونه — لكن لو اتفقت بقية الدول مع الدولة العثمانية على إرجاعه لم يبعد وقوعه غير أن إحدى الجرائد ذكرت مانعاً قوياً وعائقاً شديداً يحول دون نجاح هذا القصد وهو امتناع الذات الشاهانية عن إصدار الفرمان لاسماعيل باشا بخديوية مصر أيا كانت الحالة ، واستعظام هذا المانع مبنى على ما تراءى للسلطان من أن اسماعيل باشا وهو فى اوروبا أعزل فاقد السطوة لاحول له ولا قوة ، كان مهتما للتشويش على الخلافة العثمانية ومعارضة الذات الشاهانية وأن الرسائل الكثيرة والمقالات المتعددة المطبوعة بالألسن المختلفة المشحونة بما يمس الخلافة وقد وصل إلى علم السلطان أن الحامل على تحريرها هو اسماعيل باشا ، فهذا الظن هو الذى يمنع السلطان من تسهيل الطريق لعودته لحسبانه أنه لو صار له نفوذ وسلطة فى مصر فربما صدرت عنه أعمال لا توافق مصلحة الدولة .
فعلى رأى صاحب الجريدة أن عود اسماعيل باشا إلى مصر بعد اليأس من انجلترا لا يكون إلا بإصلاح الصلة مع السلطان واستمالة سائر الدول — هل يمكن هذا — ربما يمكن إذا وثق السلطان بما يطمئن به ووضح للدول ما يصح الركون إليه . هذا إذ لم تراع الدول ولا الدولة العثمانية حركة الأفكار العمومية فى مصر فان جعلت هذا أساس العمل زادت المسألة صعوبة فان الرأى فى هذه الأيام مختلف بالديار المصرية . فمن الناس من سبقه ميله لتوفيق باشا ومنهم من قام يدعو إلى حليم باشا ويطلب من الناس أن يوقعوا على محضر بطلبه كما جاءنا به خبر الثقة ، ومنهم من هو ممسك عن الرأى صامت عن القول ، وسنأتى على بيان هذه المسألة فيما بعد إذا دعت الحوادث حقيقة للكلام فيها .

الفــــــرصة!

إذا تليت سـطور الحوادث الأخيرة وأعطيت حقها من الاعتبار ولوحظ ما وصلت إليه هيئة السياسة فى أوروبا لهذا العهد القريب وما يشــف عنه اجتماع القياصرة الثلاثة وما يرشد إليه تداول الزيارات بين البارون دى كورسيل سفير فرنسا فى برلين ، وبين البرنس بسمارك . ولو تبصر متأمل فيما يتبع ذلك لصح له الحكم بخطر الحالة فى مصر على انجلترا وأنه لم يبق لتخليصها من يديها إلا شىء واحد وهو قيام العثمانيين على حقوقهم واشتدادهم فى طلبها وعـدم اطمئنانهم لأعمال وكلاء الإنجليز فى الاستانة ، خصوصاً فى هذا الوقت الذى همت فيه الدول بتخفيض السلطة الإنجليزية ونزع مصر من يد انجلـــترا ويرى السياسيون أنه لا شىء أشد تأثيراً وأجمل عائدة فى تلطيف المسألة المصرية من مداخلة الدولة العثمانية .

وأخبر مراسل صحيفة التان فى فينا بناء على ما وصل إليه من مصدر موثوق به أن دولة ألمانيا والنمسا والروسيا من رأيهم أن تداخل الدولة العثمانية وتجديد سـلطة السلطان فى وادى النيل يوجب تعديل الحالة السياسـية وليس الغرض من هذا إلا كف أيدى الإنجليز عن تلك الأقطار . فليس من الرأى أن تصغى الدولة العثمانية لنصائح انجلترا ووكلائها وهى ترى أن جرائد الإنجليز تنادى بلسان الأمة الإنجليزية على حكومة بريطانيا طالبة منها إعلان الحماية على مصر بل والتمـكين فى خرطوم بعد رفع الحصار عنها وتنصحها بمد ســـكة الحديد من سواكن إلا مدينة خرطوم .

فلو تساهت الدولة فى هذا ، فقد فرطت فى جزء عظيم من ممالكها ، وأضاعت حقاً ثابتاً وأى دولة سواها تهتم بإخراج الإنجليز من مصر ، فهى صاحبة الحق فيها فلا يكون للدولة نصيب من ملكها إذا أضاعته بالتفريط ·

اللورد نورث بروك وزبانيته يسعون لجلب قلوب الأهالى بتزيين الأمانى وتخييل الآمال « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » ليتخذوا من ميل المصريين حجة يجادلون بها الدول ويثبتون لأنفسهم حقاً قانونياً فى الإقامة بمصر ، ثم من جهة أخرى يحشدون قوة عظيمة إلى مصر استعداداً لتلقى الحوادث المنتظرة لكن تحت إسم إنقاذ جوردون ، فلو وجد الإنجليز برهانا من الحيلة ومنعة بالقوة وحملهم الغرور والكبرياء على مشاورة الدول اعتماداً على عدم الاتصال فى البر وتمكنهم من المراكز الحربية فى البحر كمالطة وقبرص ، وأن تحارب الدولة العثمانية ، فهم أقدر الناس على محاربتها من جهة العريش وفى عموم السواحل ، فماذا تكون العاقبة ؟ هل تكظم الدول غيظها وتترك الإنجليز وشأنهم . لا نظن ذلك ولكن إذا حالت الموانع دون نكاية الإنجليز فى مصر عمدت الدول إلى نكايتهم بالحصول على غنيمة تعادل مصر ولا تكون إلا من بلاد المسلمين ، فتساهل أصحاب الحق الشرعى فى وادى النيل يضيع لهم حقوقاً أخرى فى غيره .

إن الدولة العثمانية أولى من سائر الدول بالعمل فى المسألة المصرية وأجدرهم بالاهتمام بها ، ومن الواجب أن تكون أشد حرصاً على الظفر بالإنجليز فيها . إن الدولة فى مقام المدافع عن حياته وهو بحكم الطبع أقوى باعثا وأدنى للعمل من طالب الفائدة ، إن شر يقع أولى بالتلافى من شر يتوقع وأن خطراً عاجلا أحرى بالإلتفات من وهم باطل — نفوس المصريين فى هياج فان ما أفسد قلوبهم على الإنجليز من سوء التصرف فى الحكومة وإستلام إدارتها وإبطال الحقوق الوطنية

وحشد الجيوش إلى البلاد لقصد التمكن فيها ، كل هذه سهام خرقت شغاف القلوب وزاد الجراح نغراً ما اعترفت به جريدة التايمس من اشتداد الارتباك وتعطل أسباب المعيشة ووقوف دولاب التجارة وإشراف العائلات الكثيرة على الافتضاح خصوصاً الذين كانوا فى خدمة أوطانهم وحرموا منها . فلو أحس المصريون وهم فى هذه الحالة بحركة خفيفة من دولتهم (العثمانية) لكفوها شر الإنجليز وقليل من العمل فيه الكفاية . واليوم يتوجه الإنجليز إلى السودان ، فلو لمحوا ثباتاً من العثمانيين لوقفوا وقفة الحائر بل سقطوا فيما لا منجى لهم منه . إن الخطر كل الخطر فى سكوت العثمانيين عن طلب حقوقهم ، وليس من الرأى أن يخاطروا بأنفسهم ثقة بمواعيد الإنجليز وفى علمهم أن لا وفاء لها . فهذا هو الوقت الذى يتمكنون فيه من إعادة سلطتهم فى القطر المصرى إلى أعالى السودان . وفى ذلك صيانة ممالكهم من العدوان ولا يرضى بفوات هذه الفرصة إلا من أسلم نفسه للموت وألقى بها إلى التهلكة . هذا مايثبته العيان ولا يختلف فيه أثنان ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل .

جلادستون

قامت الدول الأوروبية كافة على المطالبة بحقوقها وإعنات الإنجليز فى مصر خصوصاً دولتى فرنسا وألمانيا وجميعهم يطالبون انجلترا بانجاز وعودها ويقيمون الحجة عليها فى أعمالها بمصر على كيفيات مختلفة ومن وجوه متعددة .

ومحمد أحمد وأتباعه قد فرغوا من أعمالهم الزراعية وأحرزوا غلتهم وهيئوا مؤنهم وجندوا الجنود الكثيفة وقصدوا أطراف دوصد وبربر وفى الأخبار الأخيرة أنهم سيروا جيشين على طريقين أحدهما يزحف من الصحراء والآخر على خط النيل . والقلق والاضطراب وضيق الحال واختلال الأمن يزداد فى مصر كل يوم حتى صار يخشى من فتنة عامة ، خصوصاً بعد ما أحس الناس بسوء نية الإنجليز ، ويمد هذه الأفكار ما فشى بين العساكر والعامة من أن السلطان غير راض عن أعمال الإنجليز فى مصر ولا هو مرتاح لزحفهم على السودان ، وبوده لو يصادفون مقاومة لا يخطون بها خطوة ، ونزول ماء النيل وفقدان وسائل النقل ووعر الطريق وبعد المسافة ، كل هذا أطفأ تلك الحرارة ، التى كانت تطير بالعساكر الإنجليزية إلى خرطوم بأسرع من حركة البخار لإنقاذ جوردون كما يزعمون أو تملك خرطوم كما هو حقيقة القصد . وانقلاب قلوب الهنديين على حكامهم الإنجليز وظهور تلك الضغائن مع العجز عن سترها خصوصاً من النوابين والرجوات الذين يتوجسون الشر من وثبات الحكومة الإنجليزية عليهم وهم الآن فى ضجر شديد من تضييقها وتشديدها فى مراقبة أعمالهم وهم على صورة الاستقلال ، حتى أن بعضاً منهم ومن أعيان الأهالى الهنديين

بعثوا بأناس إلى سرخس ومرو وأشقا باد على مابلغنا ليعرضوا إخلاصهم ويتبينوا يوم خلاصهم ، ذلك كله أحدث قلقاً واضطراباً فى أفكار سياسيى الإنجليز وتخبطاً فى سيرهم . فمن جهة يريدون ستر خجلهم من الأعمال المصرية مع قضاء بعض أوطارهم فيطلبون إلى الدول تشكيل مراقبة عمومية وترك مصر وشأنها مع بقاء شرذمة من عساكرهم فى وادى حلفا لصيانة الحدود المصرية بعد طرد الجند الوطنى (كما صانوا سائر الممالك الهندية بأمثال هذه الشرذمات !) ويتوهمون أنهم يلهون الدول بهذه الأضحوكة ، ومن جهة أخرى يبتغون إقناع أنفسهم وإقناع الأمة الإنجليزية بأوهام خيالية وترهات صبيانية يجعلونها أساساً لسياستهم فى الممالك الهندية . من ذلك ما اعتمده اللورد دوفرين (ذلك السياسى المشهور الذى أفسد شئون مصر) قاعدة متينة لصون الممالك الهندية . بعد أن عين حكمداراً عليها ، قال فى مقال ألقاه فى (بال فاست) أنه يعد نفسه سعيداً بمعرفته الخصوصية لمسيو جيرس وزير خارجية الروسيا ثم أثنى عليه بجدة تنبىء عن الإخلاص وقال إنى أرى لمسيو جيرس رغبة صادقة فى حصول المصافات بين الروسيا والإنجليز ورفع الشقاق بينهما وبالغ فى القول حتى قالت جريدة (الميموريال دبلوماتيك) بعد ذكر تهنئة الروسيا للورد دوفرين على الوظيفة الجديدة ، أن اللورد مكلف بعقد وفاق تعين به مهلة لتلاطم الدولتين المتنازعتين فى آسيا الوسطى بعد تحديد تخوم أفغانستان من طرف الشمال . هذا ما اندفع إليه جناب اللورد بقوة الاضطراب وشدة الشغف بتسكين خواطر الشعب الإنجليزى وتغرير العقول فى الهند وإرضاء القلوب عن سياسة الحكومة وربما إرضاء نفسه أيضاً ، والقارىء يعلم من هذه الحالة مقدار العجز الملم بسياسيى بريطانيا حيث طفقوا يجعلون من مبانى سياستهم فى الشرق معرفة شخصية بين حاكمهم فى الهند وبين وزير الروسيا الذى لم يخط خطوة فى الشرق إلا وغايتها الهند ولم تتقدم قدماً إليه إلا بعد عهد ينكث وميثاق ينقض . فإن حلف وزير الروسيا للورد هذه المرة لا يختلف هذا اليمين عن اليمين السابقة ، على أن المحبة

الشخصية لا قيمة لها فى السياسات الكلية وما سرور الإنجليز بها إلا من آثار الذهول وسرسام العقول .

وأعجب من هذا أن جلادستون يرفع صوته بين شعبه بقوله أن من ضعف العقل أن يظن الوهن فى أمبراطورية الإنجليز أو يترقب بها الضعف فى المستقبل وأن بسطة الدول مما يوجب بسطة انجلترا . عجبا !! فإذا انبسطت الروسيا إلى الهند فالى أين تنبسط انجلترا ، أظنها تنقبض ، لا تنبسط ، ويقول أن يوما تشعرون فيه بالخوف لبعيد وليس بقريب سبحان الله . الروسيا وضعت يدها على باب الهند (سرخس) وشهرتها عمت أنحاؤه وقلوب أهاليه ميالة إليها وهى لا تهاب الإنجليز ولا تتوانى فى سيرها فأى يوم يشعر فيه بالخوف بعد يومه هذا ، كأن الوزير لا يحس بالخطر حتى تحل الروسيا فى بنجاب أو تصل إلى نهر السند .

لا جرم أن الارتباك يضل بالإنسان عن رشده ، ومن المضحكات ما ذهبت اليه جريدة البال مال جازيت من أن هذا الكلام من جلادستون يدل على ثقة جديدة منه بالدول بعد مفاوضات حل بها المشكلات ، وأن من له أدنى إلمام بحال الإنجليز فى ممالك الهند وضعف عسكريتهم وتوزع أساطيلهم لحفظ سائر أملاكهم ونفرة الرعايا الشرقيين منهم مع تألب الدول عليهم وتقدم الروسيا إلى الهند يوما بعد يوم يحكم بأن قد حل أجلهم وقرب يوم يهدم فيه سلطانهم ويتقلص ظل سلطتهم فى المشرق ويهزأ بما يقول جلادستون (أن أمبراطورية انجلترا تزداد قدرتها بتجدد الأيام) ومن رأى العقلاء أنه لو تقدم محمد أحمد وساعده أهل الشهامة من الصعيد والشرقية والبحيرة فى مصر وخاب أمل الإنجليز فى حملتهم وقامت الفتنة فى الهند وتقدمت الروسيا وخلصت النفوس من رق العبودية وقضى الأمر وقيل بعداً للقوم الظالمين .

عماء بعض الناس فى مصر
أو تعاميهم عن مقاصد الانجليز فيها

تسعى حكومة بريطانيا بكل ما فى وسعها لوقف دفع الاستهلاك وتنقيص فائدة الدين المصرى ويعترضها فى ذلك سائر الدول الأوروبية العظيمة . هل الدولة الانجليزية أشد الدول رحمة على العالمين عموماً وعلى المصريين خصــــوصاً فدعتها الرحمة للقيام على هذا العمل قصداً لراحة المصريين وتخفيفاً لثقل الدين على الخزينة المصرية وتوصلا لرفاهة الأهالى وتوسيع دائرة ثروتهم . أو أن هــذه الدولة لم تبالغ فى الشفقة وهى على حد الاعتدال فى الحكم ولكن الدول تجاوزوا القســط فى القسوة خشونة وغشمرة أو لعداوة خصوصية بينهم وبين المصريين ، لهذا لا يريدون تخفيف شىء من أثقالهم . أو أنها اطلعت على أحوال المصريين وكشف حقيقة ما هم عليه وعلمت بعجزهم عن الوفاء مما عليهم وخفيت هذه الحقيقة على سائر الدول فرأت حكومة بريطانيا أن تخبر الدول بما وقفت عليه قياماً بخدمة الصدق وإنما يعارضها من ســواها جهلا بواقع الأمر . لا . لا ...

ليس شىء من ذلك . من ساح فى المستعمرات الانجليزية كالبلاد الهندية ونحوها تبين له أن الأهالى فى تلك الممالك حملوا من أثقال الضرائب وأوقار الرســوم الدائمة والمؤقتة ما لا يعرف له غاية ولا يؤخذ فيه بقياس حتى سقطوا فى مهواة من الفقر لا يجدون منها خلاصاً . ويوجد ملايين من أهل الهند يقتاتون بالأعشاب البرية لفقدان أقوات البشر مع خصوبة أراضيهم وجودة منابتهم ، فهل يصح لعاقل أن يظن بعد هذا أن الانجليز ضنوا برحمتهم على رعاياهم الهنديين وأفاضوا فيضها على

المصريين . أى رابطة بين المصريين والجنس البريطانى تدعو إلى هـذا الاختصاص ، هل يصح أن يقال أن الأمة الفرنسية مع مالها من سابق الآثار فى مصر تعادى المصريين وتقسوا عليهم وتطلب تنكيلهم حقداً وانتقاماً وهذا هو ما يحملها على المعارضة فى تخفيف الفوائد وتوقيف الاستهلاك قصد الإضرار بالمصريين ووافقتها على ذلك الدول الباقية . هذا مما لا يعقل فإن فى مصر ما يستميل الدول إليها لا ما يمثها على الانتقام منها كما لا يعقل أن وكلاء السياسة فى مصر ومديرى خزينة الدين من رجال الدول العظام قد خفى عليهم حال المصريين وشئون ماليتهم وتفرد الانجليز بعلمها من بين سائر الأمم على أن من يزعم أن أرض مصر فقيرة فى ثروتها قاصرة عن أداء ما أوجبه عليها عهد الدول ، فقد افترى كذباً ، فإن مصر قد قامت بوفاء ما طلب منها أيام وزارة رياض باشا أحسن قيام مع غاية السـعة وارتياح الأهالى إلى تأدية الضرائب بأنواعها ومسرتهم التامة من تقسيم المطلوبات على حسب المواسم الزراعية وهكذا استمر الحال بعد رياض باشا على الأساس الذى وضع فى عهده إلى أن زحفت انجلترا بجيش من دسائسها على تلك النفوس المطمئنة فأقلقتها ، وتلك الأرواح الساكنة فأثارتها ، فما تبتغى انجلترا الآن من الإلحاح على تنقيح قانون التصفية وتنقيص الفوائد وماذا بعث الدول على معارضتها ؟!

تريد حكومة بريطانيا أن تسود على مصر وتستعبد أهلها وترى أن بقاء الحالة المالية على أصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأمم المختلفة فلا يكون حظ الخزينة الانجليزية الخاصة من ثورة مصر وافر ، ولهذا بادرت قبل إعلان الحماية أو السيادة أو الاستملاك بالسعى فى تخفيض فائدة الدين لتستأثر فيما بعد بما تزعم التفضل به الآن على المصريين ، فهى تسعى لفائدتها الخاصة ليس إلا ، هذا قصدها لم يخف على الدول فقامت بمعارضتها وأصرت حرصاً على مصالحها لا تهدر فداء لحظوظ

الانجليز وقضاء لشهواتهم . يهم الدول جلاء الانجليز عن مصر عاجلا أو آجلا لهذا تهتم بسد أبواب الحيـــل عليهم وإقامة العقبات الصعبة فى كل خطوة يخطونها إلى مآربهم .

وظهرت مقاصد الانجليز وانكشفت مضمراتهم لعموم أوروبا ولم يبق فيها ريبة عند دولة من الدول الأوروبية وإن كان بعض الغفل فى تلك البلاد المنكودة الحظ (لانريد نوبار باشا فإنه ضارب فى طريقه ذاهب إلى مقصده يتزلف للانجليز بكل ما يمكنه لينال بوساطتهم ما أشرنا إليه مراراً) ، تسول لهم أنفسهم ، إما جهلا وإما طمعاً أن يميلوا مع ريح الحكومة الانجليزية ويظنوا أنها لاتقصد بالبلاد المصرية إلا خيراً فإذا فاض الخير فى البلاد وشملت الراحة جميع أنحائها انجلت العساكر الانجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعوا إلى بلادهم فرحـــين بأنهم أدوا فرائض الذمة وحقوق الإنسانية !!

والعجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك ، يتجول فى البلاد المصرية ويستدعى إليه العمد والمشائخ ويذاكرهم فيما يريد ، طوراً سراً وطوراً آخر علانية ، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد ، أما كان يكفى هـذا السير لإدراك الحقيقة ، فبم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيل لهم ما يظنون ، ألم يكشف الغطاء عن نيـة السوء بسؤال اللورد نورث بروك للشيخ العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله : (ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا نحن الإنجليز أن نديم الإقامة فى البلاد) ، فلو لم يكن لدولة الانجليز عزم على تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياسى الداهية ينتدر شيخاً من أجل المشائخ وأعلاهم مقاما فى القطر المصرى بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إثارة الظنون وإحداث الريب إجابة حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الانجليز فى احتلال مصر ، فاستدرك

اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء ولكن كان استدراكه مناقضا لما دل عليه أول سؤاله وما الإنكار إلا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلا عن الراشدين ، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكن مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى إذا سد فى وجهه باب حاول قرع باب آخر .

أما آن لهؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد ، أى إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل ما يسمى جنداً مصرياً ومحو هذا الإسم من دفاتر الحكومة المصرية . إن اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضابطة ، ما هذا الاهتمام ؟ إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصر . هذا سبيل سلكه الانجليزى فى جميع فتوحاته كما نبهنا مراراً وأن هذا الداهية الانجليزى لا يحيد عنه بعدما سلكه أسلافه من قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره . يجتهد بما فى وسعه لطرد العساكر المصرية وإبدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الانجليزية أو الهندية تعللا بفساد أخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدم النظامية وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الانجليزية سائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية كل هذا يجريه قبل إعلان السيادة والاستملاك كما فعل سابقوه فى الهند مع كل نواب وراجا ولا يزال يفعل خلفهم من بعدهم .

يزعم الانجليز أن تدخلهم فى مصر إنما كان لتسكين الاضطراب وإزالة العصيان وتقرير الراحة . ارتفع العصيان وسجن عرابى ورؤساء حزبه وتبددت جموعهم ولم يبق أثر لما سمود عصياناً وألزمت دولة بريطانيا حكومة مصر بالتنازل عن

السودان من مدة طويلة . فماذا تريد من إرسال الجيوش إلى مصر الآن ، ألمجرد إرسال جوردون كما يدعى رجال الانجليز ؟ إنهم يقولون أن جوردون يسوق مراكبه فى كل وقت لمحاربة الثائرين وتشهد الجرائد الانجليزية نفسها بأنه يستطيع الخلاص بأى وجه متى شاء فليس هنالك حاجة إلى تجريد الجيوش وسوقها إلى الأراضى المصرية تحت هذه التعلة . هل تريد حكومة بريطانيا بتوقية(١) جيوشها أن ترفع الخلل الداخلى وتكف أيدى الناهبين وقطاع الطريق . هذا خلل ما حدث إلا بوجود الجيوش لأجنبية والنفرة من السلطة الغريبة فكيف يمكن محو الشىء بتقوية علل وجوده ، هذا الخلل يرتفع ويمحى أثره إذا انجلى جيش العدو عن الديار ولم يبق له فيها رؤوس ولا أذناب ، نعم هذه كلها تعلات يزعمها الانجليز حجابا لما يسعون إليـــه من الاستعلاء على عرش السيادة فى مصر وحط الرجال فى سهولها وحزونها . (٢)

فلم يبق بعد هذا سوى أن ينتبه الغافل ، ويلتفت صاحب الأمر إلى ما يحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم ، ولا يعين الانجليز على مقاصدهم جهلا منه أو اغتراراً بما يخيلون له من نفع يعود على شخصه أو بلاده ، سبحان الله هل كان مثل هذا الأمر يحتاج إلى تنبيه . هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق ، لا تفيدهم التجارب ، ولا تريهم المحن ولا تعلمهم الحوادث ، ولا تدربهم النوازل ، وتناوب الرزايا والمصائب . من له أدنى خبرة بسير الانجليز فى ما ضيهم أو حاضرهم يعلم أنهم يملكون البلاد بأيدى سكانها ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم . يرى هذا الأمير الشرقى فى أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره فيقع فى نفس الشرك الذى صيد به جاره . مثلهم مثل الأغنام يسوق القصاب منها واحداً بعد واحد إلى المذبحة وسائر القطيع فى غفلة عما يجرى على أحاده يرعى ويرتع آمنا مطمئنا حتى يفنى . لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة إذا تغلبت

(١) يقصد الأفغانى بكلمة توقية : وقاية أو حراسة ..
(٢) حزونها : المناطق الوعرة ...

عليها أمة أشد منها قوة وأكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح . وإنما العار الذى لا يمحوه كر الدهور ولا ينسيه تطاول الأزمان ، هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منهم لتمكين أيدى العدو من نواصيهم ، إما غفلة عن شئونهم ، أو رغبة فى نفع وقتى وجزاء نقدى على خيانتهم ، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم .

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية ، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية ونوقد نيران الغيرة الوطنية ، لتخيب آمال الانجليز ونرد كيدهم فى نحورهم ونقذف بأولئك المغفلين الذين يميلون إليهم خارج تخوم هـذه الديار ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويذوقوا عذاب الهوان بما كانوا يكسبون . هذا إذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق فى محبة الأوطان ورعاية مصالحها . فإن تابوا وأصلحوا وأنابوا كان الحق ظهيرهم ، وكان الله وليهم ونصيرهم ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

اخفاق سعى الانجليز

بينا العلة فى اهتمام الانجليز بتحوير قانون المالية المصرية ومعارضة الدول لهم فيما يرغبون . ولما لم يجدهم إلحاحهم نفعاً وثبتت الدول فى امتناعها نكبوا عن طريقهم واستكانوا لرأى الدول وأعلن ترجمان سرهم ولسان حالهم (نوبار باشا) لجميع قناصل الدول فى مصر أن الحكومة المصرية (الانجليزية) رجعت عما عزمت عليه وكانت نفذته من توقيف الاستهلاك . كان قصد الانجليز بهذا التصرف إثبات سلطة وتقوية شوكتهم على المصالح العامة فى مصر وهو نفوذ عاجل وكانوا يؤملون فيه فائدة آجلة كما أشرنا إليه . ولما رأوا أن طول الزمن على معارضة الدول لهم ربما يحول بينهم وبين غايات أخر يبتغون الوصول إليها انقلبوا عن وجهتهم ونقضوا عزيمتهم بلا خجل ولا نظن أن يخفى على المصريين سر العزيمة الأولى وسر النقض الثانى وأن هذا التنازل إنما دعت إليه الضرورة الحاضرة ووجود العقبة السياسية أما سائر مطامعهم وبقية مقاصدهم فإنهم يغذون إليها السير ولا يدعون منها نقيراً إلا أن تصادمهم جيوش الهمم وتقوم فى وجوههم عقبات العزائم . هنالك يرجعون بالخيبة ويخسرون خسراناً مبيناً .

الحق

اعتدى على الحق جاهل فنال نكاله .

ينتصر الحق ويخذل الباطل وإن طاوله

الكرم وأمهله العفو ومده الغرور .

جمال الدين الأفغانى ﴿*﴾ محمد عبده

تمت كلمات « **العروة الوثقى** » بفضل الله .

فهرست العروة الوثقى

تم بحمد الله

العروة الوثقى

السيد جمال الدين الافغاني و الشيخ محمد عبده

ثبت تحليلي

بالآيات القرآنية والأماكن والرجال

ثبت بالآيات القرآنية

ثبت بالأماكن

(ا)

---

(١) الحرف (م) يدل على الصفحة فى المقدمة .

(ب)

(ت)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ه)

(و)

(ى)

ثبت الأعلام

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

ايداع رقم ٩٣/٣٠١٦ دولى رقم ١ ـ ٢ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧/٥٣٨٣

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة ـ الفجالة
جمهورية مصر العربية ـ تليفون ٩٠٤٣٤٣

الناشر:
دار العرب
تأسست ١٩٠٠
للبستاني
٢٨ شارع الفجالة - القاهرة
ت ٩٠٨٠٢٥